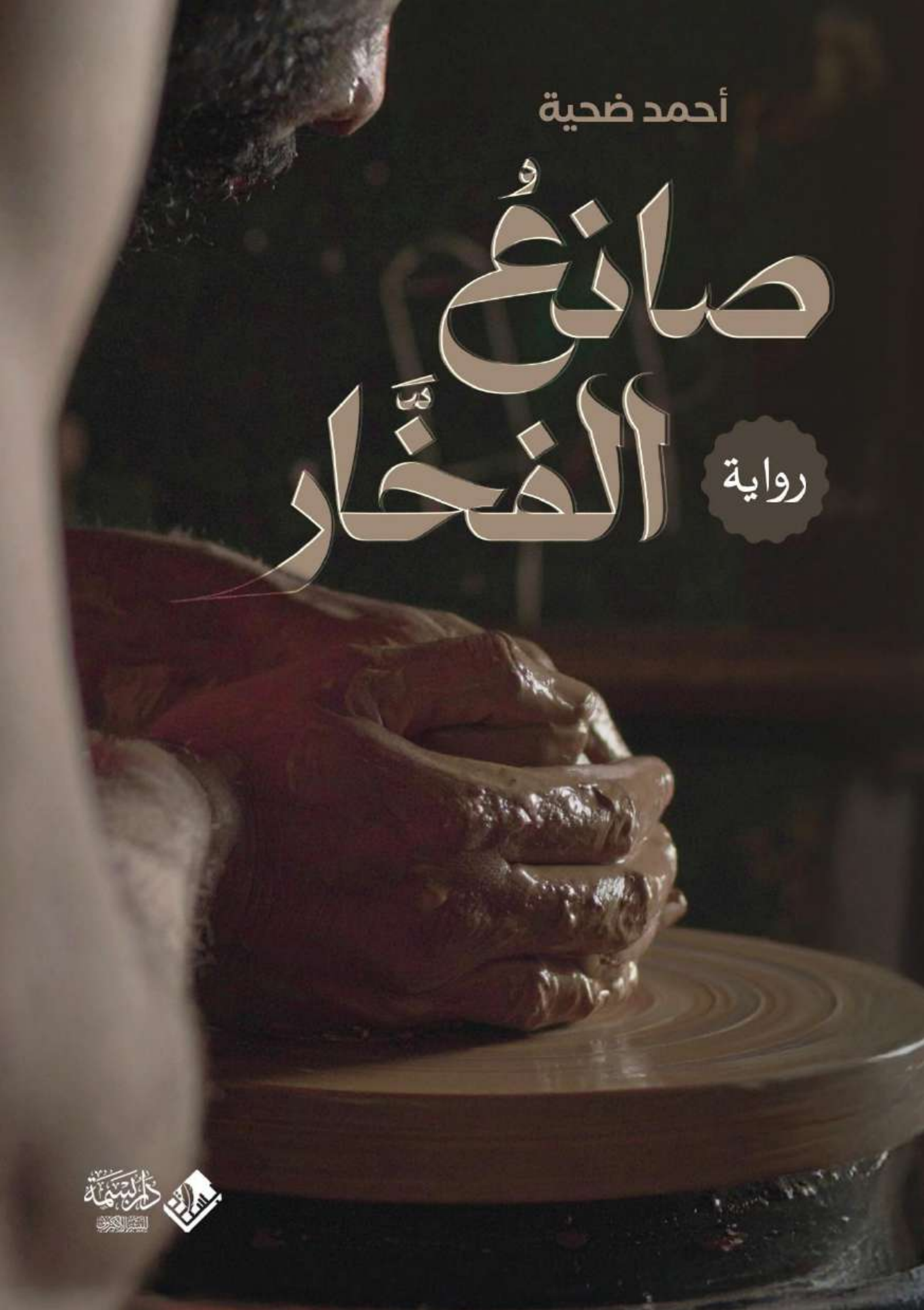
أحمد ضحية
صانعُ الفخّار
رواية
دار بسمة

صانع الفخار

اسم الكتاب: صانع الفخار

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 250627-389-1-16

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

صانع الفخار

رواية

أحمد ضحية

دار بسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

وإليك يا صديقي، و أنت تغوص في المرآة رُويدًا رُويدًا، إلىٰ أن تصل إلى مركز الظِّلال، فتحتضنك العتمة!

أحمد

هذه الملحمة

1. آلام ذاكرة الطين، الطبعة الأولى عن دار مدارات للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، 2016.

2. ود دبرك بن زرزور الدورِّي، لم يسبق نشرها.

3. المقدَّس سرُّه، الطبعة الأولى عن دار لوتس للطباعة والتوزيع والنشر الحر، القاهرة، 2020.

4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظِّلال، الطبعة الأولى عن دار بسمة للنشر الإليكتروني، المغرب، 2021.

1. آلام ذاكرة الطين

"روايــة عــن الأســرار العاطفيــة للــبلاد الأســيرة، كمــا تناقلهــا في البلدة القديمة، ود دبرك ورُواة سوق ود أمجبو، والمقابر وراء السوق الصـغير.. حـول صـراعات النسـاء ومصـطرعات الرِّجـال، في البلـدة القديمة وتاريخها الغامض!".

¤¤¤

يستعيد صانع الفخار، كل لحظة أغفلتها الذاكرة مرارًا وتكرارًا، وهو في حالة من الصدمة، لا يصدق أن الكنداكة أجمل راهبات معابد الكون والبلدة القديمة، قد رحلت عن هذا العالم القاسي، وتركته وحده لمجابهة قدره الــــرَّهيب! لا يستوعب حتى الآن، أن ذلك الفجر البعيد، كان فجر الوداع الأخير!

لا زال مسكونًا بذات إحساسه بها، منذ الوهلة الأولى، التي كمن فيها يتأمل جسدها، تحت الضوء الشاحب، وهي عارية تستحم.. لحظتها استقر في أعماقه شك عظيم، في قدرة جسده على الاقتراب من أُنثى سواها.. الإحساس ذاته ظلت تؤكده له، وهو ينتظر سيرها نحوه.. كأنهــــا تمضي نحو قدرها بخُطىً حثيثة، وكان كأنه ليس هنا!

ترى هل سيشعر جسد الخزين بـ (أم عيون)، التي أهداها إياه أمير الجنكويز؟!

هتفت به: "زوَّجتك نفسي"..

فدنا منها كعوليس وهو يدنو من كاليبسو الجميلة، في مساء عتيق.. موغل في القِدَم، كذاك المساء!

دنا الخزين من أم عيون خطوتين، فدنت أقرب من حبل الوريد. تماهيا في بعضيهما، كليهما لم يكونا هما، بل شيئًا أشبه بروح صانع الفخار الأول، وهي تتأمل عالمًا لم يُولد بعـــــد، وخلق لم يُخلق بعد، وتفكر في هذا الخلق، الذي ستغير رأيها فيه بعد خلقه، وتتمنـــــى استبداله بخلقٍ جديد!

طوَّق الخزين (نينا)، فيما كان صانع الفخار في مساء بعيد، بعيد يحيط خصر الكنداكة، بذراعيه المعروقين ويقبلها بنهم، يلتهم في شفاهها ثمرة الرَّغبة السرمدية، التي وُلدت في الأزل! وإحدى يديه تنزلق ببطء شـــديد.. تتسلل وتجوس فـي عشبها النديـــان! ويجيبها: "زوَّجتكِ نفسي"..

ويطفو جسداهما في هالة من التوتر والانفعال الحميم، وكل الأحاسيس الغامضة، التي تسرَّبت من روح صانع الفخار، لتغطي فضاء البلدة الوادعة عند منحدر النّهر، تطغى على صوت الجنكويز! وفيما هو يشدّها إليه يرجع الصدى مرددًا:

"زوجتك نفسي يبيي..ييي"..

فيرتج جسداهما كزلزلة اكتمال الخلق، ثم يرتخيان، ويهمدان، تفوح منهما رائحة الثمرة الأزلية، ومزيج القرنفل والقرفة والحبهان والعرق!

اغتسلا في ماء الجاسر المحموم، ثم تهالكا على قيف النَّهر، كطوابي البلدة القديمة الموعودة بالأسى والجنون!

وفيما "جادين جانو" يسترد نظراته التي تراقب "ود دبرك" من نافذة الغرفة المطلة على أزقة البلدة الغارقة في الشجن، تغرقه تأملاته، في طيف (نينا) حبيبة آخر أحفاد الخزين، وهي تعبر على الضفة الأخرى من المخطوطة، فيما تعبر على خاطرها ذكرى لقائها الأول بالخزين الحفيد، عندما كانت تستحم في النَّهر، تطفئ لهيب عُريها المشتعل!

ضمها الخزين إلى صدره، وأخذت أصابعه النحيلة تتسلل إلى ظهرها، فتسرّبها شعور دافئ زلق، أشعل فيها بوحًا لا حدود له!

تنقلت أصابعه تجوس في العُش، الذي كان يموركتنُّوريغلي! والحرق المشتعلة داخله تبتل بالصهد وتمضي أصابعه بعيدًا، تتخلل انكفاءات طياتها بشغف، لتفتح كل شيء فيها، على لهفة وشوق عارمَين! مدفوعَين بإحساس همجي، متوحش..

لحظتها، في الجاسر المتفرّعِ من النَّهر، مضى نبضـــه يُغرقها، في أكثر أحاسيس الوجود كثافة وخدرًا ولذَّة!

في هذا المكان بالذّات، وفي لحظةٍ مماثلة لهذه اللحظة بالذّات، التقى صانع الفخار بالرَّاهبة الكنداكة، والتقى المقدَّس سرَّه بأم عيون، وجادين ب(هيلدا)، وود دبرك بعشوشة، فكان بينهم جميعًا ما كان! لحظة واحدة تنطوي على شقيقاتها الفارقـات! يتقـدم فيهـا صانع الفخار وهو صامت، ولسانه يتمتم بكلمات مبهمة، أمره الجلاد:

"مُدَّ يدك اليمنى"..

فمدها، فقطعها وألقاها أمامه، فلما وقعت على الأرض، أخذ إبهامه وكتب مكررًا كلمة واحدة، في مزيج الدّم والتراب:

"الحق!"

وأمره مرةً أخرى:

"مُدَّ يدك اليسرى"..

فمدها، فقطعها ولما وقعت على الأرض، كتبت وسطاه:

"الحق!"

ثم أمره:

"مُدَّ رجلك اليسرى"..

فمدها.. فقطعها، ثم قال "اليمنى" فقطعها، وسمع النَّاس صوت الخزين يهتف:

"المحبة أولها حرق، وأوسطها غرق وآخرها قتل!".

ثم حزَّ الجلاد رأس صانع الفخار الأكبر، وأحرق جسده وأعضاءه المقطوعة، في كومة واحدة، وألقى برماده في نهر البلدة القديمة.

وتجمع أولياء البلاد الأسـيرة، عند جبل بعيد، سيُعرف بعد عشرات السنوات، بجبلِ الأولياء، وبكوا بكاءً شديدًا، مـرًا، وقرروا خراب البلاد الأسيرة، لكن طيف صانع الفخار، فج العتمة ولـوَّح لهم وهو يقول:

"لقد سامحت"..

ثم غادر..

كلمات مثل (مغادرة)، (رحيل)، (انفصال)، كانت تكتسب عند الخزين و(نينا) أو أي عاشقين آخرين، قسوة لا حد لها، وتأخذ معنىً مختلفًا، كالغدروالخيانة والقتل..

كل شـيء يتمزق الآن، حتى الذكريات تبدو غامضة، وأمل اللقاء مرّة أخرى أو العودة، يبدو كحُلمٍ بعيد، هائم في حرارة مشاعر مضطربة.

داخل كليهما، كانت تصطخب ذات الأسئلة، إذا قُدِّر لهما أن يلتقيا مرّة أخرى، هل كانا يجدان البلدة القديمة ذاتها، تلك البلدة التي غادرها كلاهمـــا، إلى اتجاه مختلف؟ هل هي نفسها تلك البلدة الوادعة، عند منحدر النّهر، حيث يتفرّع منه الجاسر؟

هل هي.. هي بـــأبراج حمامها، ورائحة طين جروفها وإعصارها الصيفي، الذي يحمل في نواته غضب غبار البلاد الأسيرة كلها! ليلقيه على عتبات البيوت الطين والقش، فيكظمه الأهالي! أن كل شيء مثلهما يغادر إلى الأبد!

المغادرين.. المغادرين الذين بقَوا على قيد الحياة، بعد أن وصلوا راجلين، أو على ظهور دوابهم، أو أولئك الذين رست بهم الفُلك، في قلب الصعيد، كانوا يعلمون أن داخل هذه الغابات، يعيش أحفاد أسلافهم الذين ظلوا عبر التاريخ، يتسللون إلى هنا قبل كل جلاء..

احتضنت هذه الغابات عبر مراحل التاريخ المهمشين، وكل الهاربين من الظلم والقهر والاستعباد، كما احتضنت المنفيين والذين لم يحدَّ عشقهم للحرية حد.

كان غبن كل هؤلاء وأولئك، يتراكم عبر العصور، وأرواحهم تصبح ككرات لهب مدمرة، لو أُطلقت من عقالها على البلاد الأسيرة، لأحرقتها شبرًا شبرًا..

في هذه اللحظة بالذّات، التي رمى فيها الفُلك مراسيه، جسد لهم صانع الفخار نفسه.. خرج من قلب النّهر حوله التماسيح، و أفراس النّهر وسمك البلطي العملاق، والحوريّات صويحباته الوفيات، جميعهم خروا ساجدين على الماء، وعندما رفعوا كانت السماء قد صفت، وتلاشى الغبار العالق في الفضاء، واختفى البعوض والنّاموس والذُّباب الأخضر، وبدا لأول مرّة ضوء الشمس هادئًا، ورديًا ولطيفًا!

قبل عشرات السـنوات، عنـدما لـم تكـن هنـاك سـدود، على الجانب الآخر من الجدار العازل عند منحدر النّهر، فاض نهر البلدة القديمة وطوّقها وكاد يُغرقها، فجاء النّاس إلى الخزين، الـذي مضـى معهم وخاطب النّهر:

"ارجع بحق الحق، إنها وصية صانع الفخار!".

فرجع!

¤¤¤

هـا أنـا أهـيم لا ألـوي على شيء.. أنـا ود دبرق بـن زرزور الـدّوري، أقضي ليلتي حيث يتعب جناحاي عن حملي، لم أعد آبه لشيء! منذ هجرت عشوشة أخذت أتغشى من آن لآخر تلك الأعشاش، التي تتاجر في المتعة، مثل عش نورسة الساحل، المتصل بسلسلة من الأعشاش، ذات المداخل المتصلة ببعضها البعض، والتي تجدها غالبًا محاطة

بغربان مثليون، بلابل سحاقيات، شحاريرودوري من عشاق الجنس الجماعي..

في هذا المناخ السبخ، تعرّفت على صديقي يمام.. وتساكنا معًا في عشي، فكلانا كان وحيدًا يعاني آلامه وحده! لكن سرعان ما ندمت على صحبته ومساكنته، فقد كان يمام فوضويًا، قذرًا لا يهتم بنظافته الشخصية، وعندما ينام يخج شخيره جسمي الهزيل خجًا، وكانت كل عاداته نقيضة لعاداتي.

في إحدى الليالي تجاوزت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، دون أن يظهر يمام، نمتُ و أنا أشعر بشيء من القلق، فكرتُ في أنه ربما يكون قد تعرض لمكروه!

ظللت مستيقظًا إلى أن سمعت زقزقته عند الفجر، وأحسست بحفيف أجنحة، ونقر منقار خارج العش.. وحين أطللت، وجدته محنيًّا على الغصن السميك عند مدخل العش، خلفه طيف لم أتبينه في البداية.

لوهلة لم أصدق عيني، إذ كان طيف حبيبتي شحرورة، نظرت إليهما مذهولًا! كانت كعادتها يفوح من ريشها مزيج رائحة القمبيل والرّيحان البري، وقد بدت مخالبها على ضوء الفجر، نظيفة، لامعة وريشها مستويًا بعناية لا تخطئها العين!

لم تكلف نفسها عناء تحيتي، ركت بعد حركة التفاف مسرحية في زاوية من العش، ثم شرعت تخلع ريشها، تكشف عن خصرها المستفز.

"الآنسة شحرورة"

قال يمام وهو يشير إلى الركن حيث أنام:

"ستنام هذه الليلة هنا، إنها متعبة قليلًا".

"في ركني على ريش النعام؟".

"نعم"

تركتهما غاضبًا دون أن أنبس زقزقة واحدة، وظللت أحلق في سماء البلدة، حتى انقضت سحابة النّهار؛ فالتمست شجرة اعتدت ارتيادها، أسترق النظر من النّافذة التي تطل عليها، ورأيتها..

رأيت هيلدا تدخل إلى الحمام، فانسربت من النّافذة، لأحط على كوّة الحمام.

كانت خيوط الماء تسيل على جسدها المتحفز، الذي على وشك الانتفاض، فيما كانت تعبث بجسدها تحت الدش، ويدها تنزلق وجادين ينفجر عن شهوته، راسمًا خريطة للمدينة المفقودة على جسدها المرتخي.. ثم خرجا متكئين على عريهما.. فطرت محلقًا في

سماء البلدة أنتقي نافذة أخرى، فقاداني جناحاي إلى مبنى الاعتقال السرّي..

زقزقت من نافذة إحدى الزنازين، التي اعتدت إنفاق بعض الوقت عليها، فرأيت المعتقلين، أحصيتهم.. ربما زاد عددهم عن آخر مرّة..

رأيت أحدهم في جلسته نفسها التي أراه عليها دائمًا، مقعيًا ككلب في ركنٍ قصي، ورأسه بين كفيه، وزقزقت مرّة أخرى مصوصوًا، وقبل أن يرد أحدهم غادرت كوّة الزنزانة أُرفرف أمام وجوههم كالمعتاد، وفي المساء عدت إلى عشي آملًا أن يكون صديقي يمام وشحرورته قد غادرا إلى غير رجعة!

انزويت في ركنٍ قصيٍّ من العش أتلصص على المكان الموحش الذي خلى منهما، وأنا أتخيل انزلاق جسميهما في ريش النعام.. ربما كانا عاريان، أو مرّة أخرى يخلعان آخر ريشة تسترعريهما.. لم يكن ثمّة صوت أو طيف.. لم أتبين سوى الرائحة المميزة للشحرورة، والتي لا تزال عالقة بأنفي!

لكنني كنت لا أزال أحس بهما يندسان في ريش النعام، طردتُ هواجسي وانزويت في ركني ساحبًا على جسدي المنهك، حزمة من ريش الدجاج البري، ثم تمددت.. كنت مسهدًا فلم أستطع النَّوم طيلة الليل، وربما نمت فقد شعرت بوجودهما.. الشحرورة لم تتكلم (ربما تكون نائمة)، لكن يمام كانت تصدر منه زقزقة متأوهًا.

غادرا عند الظهيرة، وخلال ذلك الوقت كله لم نتبادل تغريدة واحدة، خلَّفت الشحرورة وراءها مرّة أخرى رائحتها المزيج التي سكنت قش العش قشة فقشة.

حين صرت وحيدًا، غطيت على نفسي مدخل العش، ورحت أتمشى في فوضاي واضطرابي، وأزقزق في غبن وغضب دون توقف.

وأخيرًا، مع بداية الغروب، عندما لم يبق في عشي أي أثر لرائحتها النفاذة.. تمددتُ مرّة أخرى في ركني المفروش بريش النعام، كانت كل ريشة تصر على أن تحكي لي بالتفصيل ما جرى! فيما بدأت الريح تعصف بصخب في الخارج.

بعد بضع ساعات سمعت رفيف أجنحة يمام، في البداية ظننت أنها الريح، ثم بدأ المطر يهطل؛ فرميت بنظري خلال قش العش، ورأيت النّاس يمرون راكضين وهم يحاولون درء المطر عن أنفسهم، وحدثتني نفسي أن أطير في هذا الجو المكفهر.

كانت الأرصفة والدكاكين مضاءة، لا تخلو من سابلة وزبائن يهرولون، وامرأة عجوز تحاول الاحتماء بمظلة على طرف الشارع، وكلب يركض مسرعًا، وقطة تموء مبتلة وهي تدخل الدكان المقابل، وسكران يمشي على الطريق بخطىً متعثرّة، شعرت بشيء ما يشدني إليه، وسمعت أحدهم من الجهة المقابلة للشارع ينادي عليه:

"المريود... المريود".

التفت ناحية الصوت، ثم رفع رأسه متطلعًا حيث "ركوت"، كما لو أنه يعرف أنني أقف هناك، أراقبه، لا بد أنه قال شيئًا، فقد رأيت شفتيه تتحركان. بعد ذلك استمر في خطاه المترددة، كثيرة التعرج، والتراجع، والتشكك، والتعثر.. كان يبدو خائفًا!

حين اجتازَ المريود الشارع، فجأة توقفت عربات العسس المألوفة.. خرجت من الشوارع المتقاطعة لتحاصره في شبه دائرة، ونزل منها عسس برشاشاتهم القصيرة، أخذوا يهتفون فيه بصوت واحد:

"ثابت.. ثابت مكانك".

فعدت إلى عشي، و أنا اشعر بأنني أغرق في هذا العش، الذي بدا لي، الآن، باردًا وكبيرًا جدًا لوحدتي، ومن خلال قش العش أخذت أتابع ببصري العربة التي أقلت المريود، وخطر لي أن اطير فوقها وأرى أين يأخذونه.

واصلت عربات العسس ابتعادها، وسط حشد من مدرعات الجنكويز، التي كانت تنزلق بعنف فوق المطر الذي بلل التراب فجعله زلقًا.

حلقت فوق العربة، التي تقل المريود تمامًا، و انخفضت بجناحي إلى نافذته، استدار ونظر إلى مبتسمًا وهو يومئ برأسه، كأننا صديقان قديمان.

¤¤¤

يُحكى أن تاجرًا زوج ابنتيه: واحدة لفلاح، والأخرى لصانع فخار.. وبعد عام سافر الرجل ليزور ابنتيه، فقصد أولًا زوجة الفلاح، التي استقبلته بفرح. وحينما سألها عن أحوالها، قالت:

"زوجي استدان ثمن البذور، واستأجر أرضًا وزرعها.. فإذا أمطرت السماء، فنحن بألف خير، وإن لم تمطر فإننا سنتعرض إلى مصيبة!".

فتركها وذهب لزيارة ابنته الأخرى.. زوجة صانع الفخار، التي استقبلته بفرحٍ ومحبة، وفي جوابها على سؤاله عن الحال والأحوال قالت:

"زوجي اشترى ترابًا بالدين، وحوله إلى فخار، ووضعه تحت الشمس ليجف، فإن لم تمطر فنحن بألف خير، وإن أمطرت فإن الفخار سيذوب وسنتعرض إلى مصيبة!".

عاد الرجل إلى زوجته التي سألته عن أحوال بنتيها، فقال لها:

"إن أمطرت الطمي خدك ونوحي، وإن لم تمطر الطمي خدك ونوحي!".

هذا هو حال صانع الفخار مع البلاد الأسيرة.

¤¤¤

لدى استيلاء الحاكم العام على السلطة ذات فجر بعيد، أعلن في بيانه الأول، أنه سيحوّل البلدة إلى جنة أرضية، ينعم فيها أهالي البلاد الأسيرة بالرخاء والرفاهية والسلام.

حتى أن بإمكان الذئب أن يتآخى مع الحمل، دون ريبة، فينام الحمل قرير العين هانيها.

ولم يمض سوى وقت قليل، حتى ذهبت كل وعود الحاكم العام أدراج الرّياح!

فقد تتالت كوارث الطبيعة، واجتاحت الأوبئة البلاد الأسيرة، تحصد الأرواح دون رحمة، واشتعلت الحروب في دار الريح والصعيد ودار صباح، وأصيب النّاس بالفزع وفقدوا صوابهم.. إذ ما عادوا يجدون ما يأكلون، أو قطرة ماء يشربونها، بعد أن تقلصت وجباتهم اليومية إلى وجبةٍ واحدة!

وكان العالم.. كل العالم يعرف بأن شعب البلاد الأسيرة، أصبح على عهد هذا الحاكم.. شعبًا من المشردين والمطاريد واللاجئين والجياع!

فأخذوا يرسلون لهم كل أنواع الإغاثات، من طعام وعصائر وخيام وأدوية، لكن ظلت الأخبار كما هي لم تتغير!

فحار أهل الخير الطيبون في الجوار والعالم الواسع! وأرسلوا عيونهم إلى البلاد الأسيرة، ففوجئوا بأن كل شيء متوفر:

الأكل والشرب والعلاج والأموال.. لكنهم لم يجدوا شعب البلاد الأسيرة.. كان شعب البلاد الأسيرة قد اختفى؟!

¤¤¤

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!".

قُتل صانع الفخار بذات الطريقة، التي أُعدم بها أسلافه، من حاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة!

إذ صلبه عسس الحاكم العام الجنكويزي، على صليب من خشب "اللعوت" سيئ الرّائحة وأشعلوا فيه النّار!

بعدها بسنواتٍ قليلة.. عندما بدأ بعض الأهالي يفيقون من هول الصدمة، جعلوا من يوم مقتله على ذلك النحو، ذكرى سنوية.

كما اتخذت كنيسة البلدة القديمة، من هذه الذكرى بداية لتقويم جديد، أطلقوا عليه "تقويم ود أم جبو"، الذي بمرور الوقت أصبح تقويمًا لإحياء ذكرى شهداء الإيمان، المنادين "بفصل الدين عن الدولة".

ولا يزال هذا التقويم يستعمله المُزارعون في برية البلاد الأسيرة الواسعة، لتتبع تغيرات الفصول الزراعية، وكذلك في التأريخ للأحداث العظيمة "كسنة نجع النّاس لديار سافل.. أو عندما ضرب

تمساح "أب كبلو اللّية" أو عندما ضلّت القرنتية طريقها من النّهر إلى زنديه، فسقتها فداديات (البريزية) المريسة"..

وهكذا تغلغل التقويم الجديد في كل المناشط الاجتماعية للبلدة القديمة.

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!".

في اللحظة ذاتها التي كانت روح صانع الفخار تصعد إلى السماوات العُلى، كان الخزين يجلس على "بنبره" المعتاد ذاته، الذي ظل يجلس عليه منذ عشرات السنوات، كلما غشى أنداية "مستورة كحل الليل".

بينما جميع من في الأنداية سُكارى يتداعون ويحكون كلامًا غير منتظمًا، عن أمجادهم الضائعة في هذه البلدة الضائعة..

إذ يتنهد التوم ود أب قرن وهو يغني وقد هاجت به الأشجان:

"حليل موسى يا حليل موسى..

حليل موسى الأمو جاموسة

حليل موسى اللي الرجال خوسة

ما بيأكل الملاح أخضر..

ولا بيشرب الخمر يسكر...".

فيقاطعه ود الزين:

"أقيف يا أخينا.. حليلو في شنو؟ زول لا بياكل الملاح الأخضر، ولا بيشرب المريسة يسكر، تقولوا حليلوا؟! حليلو في شنو؟! والله عجايب!".

ثم يتنهد وهو يضيف:

"والله أيام زمان يا عم.. يا عم منو؟".

"الخزين"

"والله أيام زمان يا عم الخزين الواحد كان يشرب أربعين عبار في اليوم، وما يسووا ليه أي حاجة.. إنت عارف جبارة الهمباتي ده، أبوه لما مات خلا ليهو شي وشويات.. قروش زي الهم في القلب.. عليَّ الطلاق ضيعهم كلهم على الإخوان..".

فيقاطعه صوت سابل الستر من بعيد:

"على الإخوان ولا على الفداديات ستات المرايس.. قلة عقل وقلة رأي..".

فيرد الهمباتي:

"كله ما مهم.. المهم الرجالة.. عليَّ الطلاق تاني كان ورثت.. تاني أضيعهم.. أفرقهم وأعدم الملين.. المهم الرجالة..".

فيقاطعه سابل الستر مرّة أخرى:

"زمن خاين. الصرفت عليهم دم قلبك، على اليمين هسه لما يشوفوك في الشارع، يفوتو ليك الدرب.. سلام الله ما يدوك ليهو..".

فتثور مواجد الهمباتي ويتنحنح:

"تف يا دنيا تف.. وحياة الحرام أنا كنت أحرق في اليوم جنيه أو جنيهين مريسة ومزّة بس!".

فيأتي صوت ود الزين غاضبًا:

"يا زول أوزن كلامك.. أنا الأجعص مني منو؟!".

ثم ينشد:

"يا مهدية حكمك ما بقالي*

سويت العبد في راسي دلالي

يطير أب رقعة يسكن في الضهاري*

ويجي التمباك محمل بالرحالي

ونشق السوق نعلب في السجاري*

ويقج شرموطنا بينات الجراري..".

وكأن سابل السترينتبه للتو فيحتد غاضبًا:

"أوزن كلامك إنت يا ود الكلب"

فيرد عليه ود الزين ورزاز المريسة يتطاير من فمه:

"كلب أبوك أنا يا بلاع الذّمم.. عليَّ الحرام نسيبتك كان ما لحقتني كنت... أنا أخوك يا أم زمام".

ويحاول أحدهم أن يدوبي فيوقفه آخر:

"قلنا ليك ألف مرّة ما عايزين دوباي.. عايزين دلوكة.. اضربن يا بنات..".

فيقول آخر:

"آي والله.. خصوصًا كان ضربتها الخادم ديك".

"ها يا زول ها.. الخادم دي المرة الفاتت كسرت الدلوكة"..

كل هذه الثرثرات كانت تدور حول الخزين، الذي كان كأنه غير موجود، فقد كان محلقًا في سماوات بعيدة، ليس بإمكان أحدهم ممن حوله التحليق معه فيها!

كانت أصوات السُكارى ترتفع وتنخفض.. ونذر معركة بين ود الزين والهمباتي تلوح في أفق الأنداية، التي بدأت الشمس من خلال

فتحات سقوف رواكيبها، تلوح في الأفق البعيد، تجرجر أذيالها نحو المغيب..

هتفت عشمانة السقاية بوجه ود الزين والهمباتي، وهي تغمز لسابل الستر أن يسكت:

"الروقة يا جماعة.. قلنا الروقة..".

فيتدخل حمد الأعرج:

"أيوة الروقة.. عليَّ الطلاق هسه ألبع واحد أشق راسو.. ولا شنو يا الخزين؟".

ويلتفت نحو الخزين، الذي لم يكن يسمعه.. بينما يزمجرود الزين في وجه الهمباتي:

"يا زول أبعد دمك مني.. أنا كعب.. أنا بطال..".

فيتدخل سابل الستر:

"أقيف يا زول، حرّم تقعد، الحكاية شنو؟".

"الزول ده حرّم أنا شايفو عشرة عشرة من أمبارح..".

"عملت ليك شنو يا نصاب يا سلباط؟".

"عليَّ الطلاق يا جماعة، الزول ده نحنا أولاد كاس مما قمنا.. وأكلنا العيش والملح مع بعض، إمبارح انتهز عدم جيتي الإنداية، فقام غمز للرسالة صاحبتي".

"لا حول الله! الزول اتلوم لوم كبير.. عيب عليه والله".

"عليَّ الحرام أنا ما غمزت ليها هي، أنا غمزت لحسنة، وكان مكضبيني اسألوها".

"في ذمتك الكلام ده صحي يا حسنة".

"هي الذّمة حارة، النصيحة كدي.. غمز لينا نحنا الاتنين".

"كذابة. حرم كذابة. يا خادم يا سكرانة يا ما عندك ذمة".

"يا زول إنت غلطان.. اطلب السماح من الراجل.. والعفو لله والرسول.. إنتو ناس أخوان وأولاد كاس".

¤¤¤

اتكأت منصورة على "الصرِّيف" حول القطية التي تتوسط الدَّار، وهي تجيب أمها في حزن ولوعة:

"لقد قتلوا صانع الفخار".

لحظتها كل ما مرّت به في حياتها مع صانع الفخار، كان يتراءى أمام ناظريها، وكأنها وقائع حدثت للتو، فيما كانت روح صانع الفخار تحلق، عابرة سماء الدّار، تلوح بابتسامة آسية في وداعة الحزن!

في تلك اللحظة المجيدة، الغارقة في حُجب التاريخ البعيد، والتي أيقن فيها (صانع الفخار الحفيد) أن منصورة هي المرأة التي ظل يحلم بها، بعد أن فرغ وقتها على يدي معلمه "الخزين ود طبلة" من تلقي كل ما يحتاجه المرء من معارف ضرورية بالحب والنساء، عندما تتفتق مراهقته للتو، عن غرائزها وتباغته بنهمها.. فقرر خطبتها، فابتسم الخزين ابتسامة شاحبة ولم يفُهْ ببنت شفة.

¤¤¤

إحداهن قالت: "إذا حلمت كرجل بصانع الفخار، فهذا لا يشكك في رجولتك، بل ينبئ عن سيرتك ومسيرتك في العمل المتواصل الدؤوب، الذي سيعود بأفضل الثمار، أما إذا كان الحالم أنثى، فهذا يعني أنها تنشغل بأمور تسعدها".

الفخار هو مهنة الأحلام، في صراعها التليد مع الصبر على ألم لا حدود له! لذا كان ألم منصورة في تلك الأمسية البعيدة، الغارقة في ظلمات التاريخ، والتي سبقت بليلة واحدة، تلك الظهيرة المكفهرة بمقتل صانع الفخار.. ألمًا خارقًا للعظام والشرايين والأوردة.. تخلل روحها وتغلغل في مشاعرها، التي لم تهدئها صلواتها يومًا!

فقد طبع حزنها في تلك اللحظة، بالطابع الخاص نفسه لحزن صانع الفخار! فصارت نهبًا لهموم مبهمة، لا تدري مصدرها، حرمتها النوم، فنهضت من عنقريبها وأشعلت لمبة الجاز، التي أحاط "قيطانها" سياج من الزجاج الدائري الشفاف، وأخذت تتجول جيئةً وذهابًا.. هنا وهناك، في فضاء "راكوبة" القطية الصغيرة التي تتوسط الدار، المزروبة "بالطرورو الشوك والقنا والعيدان والشر اقن".

بينما أمها الغارقة في نومٍ عميق، كانت هي الأخرى متناهشة بالكوابيس التي تخترق أحلامها من آن لآخر!

كان في داخلها يتولَّد تدريجيًّا إحساس غامض.. متوتر.. من فرط هيمنته على كيانها.. شعرت بجلدها يتنمل.. وكل شعرة فيه تنبت على نحوٍ مباغت منتصبة لوحدها!

خرجت منصورة من قطيتها إلى فناء الدار، تستنشق شيئًا من هواءِ الليل المنعش، الذي لم يبعث فيها ما ألفته من النشوة، التي اعتادتها عندما يداهمها الأرق ويتآكلها السهاد، في مثل هذه الأوقات من السنة، عندما تكون الشمس حامية طوال اليوم.

فنسائم الليل عادة ما تنبئ منصورة، أن فجر الغد ستشرق فيه الشمس بنفس حنانها وشجنها وحنينها الأزلي المفقود!

كانت تلك الليلة إذن، ودونًا عن كل الليالي التي مرَّت على حياتها، ذات سموم لافح وهواء راكد، بطريقة غير مألوفة في البلدة القديمة، حتى أنها لاحظت ظهيرة ذلك اليوم، عندما ذهبت إلى سوق ود أم

جبو، المجاور لمقابر البلدة القديمة، أن شيئًا ما في وجوه النّاس وأشكالهم مختلف عن المعتاد! لكنها لم تستطع تحديده!

وبدت لها أوراق الشجر متساقطة بكثافة، والتي عندما تحملها ريح "السموم" تنشر في الجو روائح عطنة، هي مزيج من رائحة البول، والغائط، والدخان والحريق!

كما لاحظت أن طيور السمبر المهاجرة، التي حطت على سماء البلدة، جاءت في غير موسمها! وقد أشاعت في نفوس الأهالي الطيبين، شعورًا غامضًا بالقلق! بدا لها كل ذلك ينذر بشيء كارثي غريب وشيك الوقوع!

في طريق عودتها إلى دارها، أنستها أفكارها المبلبلة، إلقاء التحية على الخزين ود طبلة، عندما مرت به وهو في مجلسه المعتاد، يتحلق حوله النّاس، ليستمعوا إلى حكاياته بنهمٍ غريب! بدا لها هو الآخر، نهمًا أكثر غرابة عن المألوف!

سارت منصورة ببطء حتى دخلت مسكنها..

ما بالنا نقفز قفزًا ونتعجل الحكي؟! سنأتي لاحقًا لنحكي عن أحلامها وأحلامه، التي شطرها من شطرها شطرين، تاركًا الفخار وصانعه، وذاكرة الطين المشتركة بينهما في حيرة تامة، إزاء اللامبالاة العامة، التي احتلت فضاء البلدة القديمة على نحوٍ مباغت!

في مراجعة جادين جانو الحفيد، لما حفلت به منحوتات صانع الفخار الجد، اكتشف أن الطين هو القاسم المشترك، بين كل حضارات البلاد الكبيرة.

فأهم السمات الثقافية المميزة لهذه الحضارات، كانت أواني الفخار، التي على درجة رفيعة من الصقل، بالإضافة إلى الأواني الفخارية الأخرى، التي على هيئة حيوانات وأشكال مختلفة.

كذلك صناعات الحديد والخناجر النحاسية، والمصنوعات الخشبية المزخرفة في أشكال بديعة، والملابس المخيطة على قلانس جلدية، والمصنوعات الخشبية المطعمة بالعاج والمايكا وعناقريب الخشب و"القِد" التي تتميز بمساند من الصوف للرأس.

تقول النبوءة.. التي اكتشفت مبثوثة في إحدى مخطوطات صانع الفخار الأكبر، أن روحه وعقله سيولدان مرّة أخرى بعد مئات السنوات، في صبي يافع يدعى جادين، وهو ليس من سلالة صانعي الفخار، لكنه مغرم مثلهم بتشكيل الطين!

كما أن روح وجمال حبيبته (الكيرا) هي الأخرى ستتقمص روح (ست البنات) حبيبة المختار، الذي كشفت عنه النبوءة!

وتضيف النبوءة.. أن قتل صانع الفخار الحفيد سيكون علامة فارقة، في تاريخ وحياة البلاد الأسيرة، التي ستجد نفسها على حافة الهاوية، عند مفترق الطرق من كل أجزائها! عندما يصاب سكانها فجأة، بداءِ اللامبالاة!

إذ يصبحون فجأة متبلدي الأحاسيس ومداهنين.. باردي المشاعر وثقلاء مملين! جميعهم: زعماء العشائر والقبائل.. أصحاب العمل والعمال.. أهل الثقافة، والفن، والأدب، والسياسيين.. رجال الدين وشيوخ، ومريدي الجماعات، والطرق، والطوائف.. أرباب المعاشات.. الشباب والأطفال والنساء.. المزارعين..

حتى أن المواليد الجدد، كانوا يولدون بلا ضمير.. يخلون من تلك البراءة التي عُرفوا بها، هكذا جميعهم في لحظة من اللحظات الغارقة في الأسى، المتلفعة بالعتمة، استيقظوا من نومهم، فوجدوا أنفسهم يفتقرون لصفاتهم التي توارثوها من أسلافهم عبر آلاف السنوات.. لا مبالين بما يجري حولهم، دون أن يجدوا تفسيرًا لما حلَّ بهم؟

باستثناء جنكويز الطبقة الحاكمة من آل المقدَّس سرُّه وتور الجر والترح، لم ينجُ من هذا الداء حتى الزوار العابرون لسهل البلاد الأسيرة، في طريقهم إلى مكان ما، في عالم يستشري فيه داء الإحباط والقنوط!

لكن كان هؤلاء العابرون، ما إن يتمكنوا من عبور البلاد الأسيرة، حتى يغرقوا في الأسئلة، حول حقيقة الطبقة الحاكمة، التي تزعم أنها الفرقة الناجية، فتقودهم الأسئلة إلى شكوك لا أول لها ولا آخر!

في تلك اللحظة بالذات ولد جادين جانو (الصغير).. الذي عند مقتل صانع الفخار، كان لتوه قد فرغ من تعلم المشي والكلام!

إذن في تلك اللحظة التي كان شعب البلاد الأسيرة كله، قد أصيب بهذا الداء الكريه، لم يكن ثمة ناجون، يشيدون حضارة الجنس البشري، في هذا الجزء من العالم المنبوذ من جديد! فقط شخص واحد (وفقًا للنبوءة) هو شخصيًا.. جادين جانو!

¤¤¤

كان حاكم البلاد الأسيرة سعيدًا جدًا، بحالة اللامبالاة والتبلد العام، الذي أصاب شعبه، لكن مع ذلك لم تفارق مزاجه تلك العصبية، التي عُرفت عنه، بل رغم سعادته المتوهمة، كان في حالة أشبه بالجنون والخبل، وهو يحادث حراسه حينًا وزوجاته أو وزراءه حينًا آخر!

"هل أنا عصبي؟ عصبي! ربما.. لكنني لست ضعيفًا!".

فيجيبه العسس الجنكويز ذات الإجابة المعتادة:

"كلا يا سيدي. والحق يُقال إن حواسك في كل يوم يمر تصبح أكثر حدَّة".

وتهمس زوجاته العديدات بحنوٍّ مفتعل:

"أنت لست ضعيفًا.. بل تزداد قوَّة أكبر في كل يوم يمر يا حبيبي"..

في الحقيقة كان وجه الحاكم العام، عاجزًا عن التعبير عن مشاعره الخاصة، بتلك التيارات المحتدمة في مكان ما داخله، إذ كان

في كل يوم يمر يذوي أكثر فأكثر وتتقلص ملامحه.. ومع ذلك كان يقاوم قدره بشدَّة.. متشبثًا بالحياة، رغم أنف كل قوانين الطبيعة، والزَّمن وو اقع البلاد الأسيرة الرَّث البائس.

وكان لتكريس نزعة الحياة التي تشبث بها دون فكاك، يتزوج في كل عام، ليخفي سرًّا شائعًا في أرجاء البلاد الأسيرة!

إذ كان الحاكم العام في الحقيقة مثل كثيرين من جنكويز نظامه وحزبه، مشكوك في رجولته! لذا كان يرسل الخطاب، إلى كل أنحاء البلاد الأسيرة، ليأتونه بعروس بكر صغيرة! ظانًّا أن شعبه لا يعرف السر، الذي يحاول إخفاءه!

وكان في أرجاء البلاد الأسيرة.. خصوصًا إنداياتها، من حين لآخر، يتجدد الجدل حول معنى الدعارة في دولة نظام الحاكم العام!

وبينما يركز رواد الإندايات، على الدعارة كتجارة سلعتها المرأة وزبائنها الرجال، كان الأفندية يركزون على دعارة الرّجال، فكلا النوعين كانا قد تفشيا في نظام الحاكم العام الجنكويزي!

لذا بات مألوفًا في الإندايات أن يحكي أحدهم عن علاقاته بنساء يكبرنه سنًا، بعضهن زوجات لمسؤولين كبار في الدولة الجنكويزية الباطشة..

"كل شيء يتم في السر".

وينبري آخر:

"إن دعارة الذكور أكثر سخاءً مادياً".

فيعلق حمد الأعرج:

"أيًّا يكن الأمر، فإن دعارة الذكور، مثل دعارة النساء، لا فرق".

لم تعد البلاد الأسيرة كما كانت.. أضحت هناك شبكات تقوم بتسهيل لقاء الذكور والإناث والذكور والذكور والإناث والإناث، وقد ساهم في ذلك بعض زوجات المسؤولين الجنكويزيين، حتى أنهم لم يعودوا يأبهون كما في السابق، أن تتم في سرّية تامة، وفي فضاءات مغلقة وحيّز ضيق، بعد أن أصبحت مع سياسات الخصخصة والتحرير "قطاعًا كبيرًا متمددًا كالأخطبوط".

"حكى لي زميلي في المطبعة، كان ينتمي للحزب الحاكم، أن البلدة القديمة، وحواضر البلاد الكبيرة عرفت مؤخرًا، جماعة من كبار المسؤولين في الحزب الحاكم، دأبوا على تنظيم جلسات حميمية وسهرات بحضور زوجاتهم.

فكانوا من حين لآخر ينظمون ليالي حمراء من نوع خاص، وممارسة مجون نادر جدًا.. كانوا يعقدون لقاءات بالتناوب في مقر إقامة أحدهم، وتعد الولائم وتدار كؤوس الخمر المستورد ولفافات البنقو وأنواع المخدرّات الأخرى، في جو تسوده الموسيقى الغربية والشعبية، فترقص الزوجات مع أزواجهن ومع غير أزواجهن، وكلما

نالت الخمور من العقول تزيد التصرفات مجونًا، يحضن مسؤول زوجة الآخر، وزوجة هذا الأخير تختلي بزوج أخرى، هكذا دواليك..

وأكد لي أن هذه الجماعة دأبت على تنظيم مثل هذه السهرات الفريدة من نوعها، وهي جماعة تضم بعض المتنفذين في الميليشيات الأمنية الجنكويزية، ومندوبين ورؤساء بعض المصالح الحكومية"..

وهكذا –لصرف الشعب عن هذا السر الخطير- مضى الحاكم العام تورالجر الثالث، ناشرًا الرذيلة في الشعب، ممعنًا في إدارة البلاد الأسيرة، على هواه! مفتعلًا الحروب والمجاعات والأوبئة، ليشغل الناس عن قضايا البلاد الحقيقية.

ثم أخذ يقولب الشعب، بعد أن دمر قيمه المتوارثة، فحوَّل جزءًا كبيرًا منه إلى مجموعات تر اقب بعضها البعض، وتر اقب في الوقت نفسه ما تبقى من الشعب الذي أخذ يجمعه في مؤتمرات بين آن وآخر، يختمها باعتقال البعض وتعذيبهم ثم حرقهم في أفران ضخمة، صنعها خصيصًا لهذا الأمر!

وكان يزجي وقت فراغه بلعب لعبة الحرب، في الصعيد ودار الريح، فيغتصب جندُه النساء، بعد أن يتم قتل الرجال وحرق قطاطيهم وزروعهم! ونهب مواشيهم وتشريدهم في قبل الأرض الأربعة!

وما أن يبلغه جنده بهذه الأخبار، حتى يبدأ في شرب البنقو، الذي يغليه له طباخه الخصوصي، في براد صنع في الشرق الأقصى البعيد، خصيصًا لهذا الغرض!

وبعد أن "يُسطل" تمامًا يضجع وينام، تطارده كوابيس وخيالات الأرواح المعذبة لضحاياه.. وضحايا الحكام السابقين من أسلافه، عبر عصوروتاريخ البلاد الأسيرة، فتنتابه الحمى ويئنُّ.. يتأوه.. ويعرق جسمه حتى يبتل فراشه بعرقه، الذي كانت له رائحة البول.

مع ذلك كان الحاكم العام حساسًا جدًا! فعادةً عندما يتعب من فعل كل هذه الأمور، يختلي بنفسه، حتى يظن النَّاس أنه قد فارق الحياة، فتسكن أرواح ضحاياه في مر اقدها وتهدأ. ويشعر الشعب بالتحررلبرهة، لا يلبث أن يقطعها الحاكم العام، باقتحام وحدتهم وعزلتهم، بالإعلان عن أحد المؤتمرات الفاشلة!

كان القادمون من تخوم دار الريح ودار صباح، العابرون للبلاد الأسيرة. قد ترسخ في اعتقادهم، أنهم كالعادة سيرون شعب سهل البلاد المشرد، نائمًا في الدروب الوعرة، والطرق الضيقة غير الممهدة، التي تحيطها البرك والمستنقعات من كل جانب.. وهم يحلمون ببلاد سعيدة، تخلو من الحاكم العام وعسسه وجنده وحزبه ومليشياته الجهادية!

العابرون ترسخ في ذاكرتهم أيضًا مشهدًا مكررًا: حزب الحاكم العام يطارد الأهالي والمشردين، بالهراوات والعصي والأسلحة، ويثخنهم ضربًا وقتلًا!

كان الحاكم العام بوجهه القبيح، وصوته الأجش وعيونه المركبة، التي تتحرك في كل اتجاه، كعيون الذباب الأخضر.. هو

المطلوب رقم واحد لعدالة العالم، بين حكامٍ قلائل. فالعالم نادرًا ما عرف حكامًا متهمين بجريمة الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية في حق شعوبهم!

الزّعيم الطائفي الذي آلت إليه مقاليد حكم سهل البلاد الأسيرة، قبل أن ينقلب عليه الحاكم العام، ذات فجر مكفهر.. في البدء رحب به الأهالي كثيرًا، واستبشروا بعهده خيرًا، وكانوا يستمعون إلى خطاباته المملة، لساعات طوال في محبة.. وقتها كان الخزين المستلقي طوال الوقت على "برشه" في "الراكوبة" أمام "كرنكه"، لا يفتأ يحذرهم من وعوده الزائفة، إلى أن انقلب عراب الجنكويزعليه وعلى بطانته لفسادهم، ونصب الحاكم العام بدلًا عنه. الذي ما إن مكّن لنفسه، حتى نسي كل الوعود والتعهدات، وفعل بشعب سهل البلاد الأسيرة ما لم يفعل الحداد، فأخذ الناس يتذكرون من وقت لآخر، تحذيرات الخزين القديمة، بعد أن تبين لهم أن لا خيرفي هذا أو ذاك!

وبعد أن عاد المطاريد والنازحين واللاجئين، من المنافي البعيدة بعد عشرات السنوات، وكونوا في البلاد الأسيرة مستعمرةً جديدة، لإحياء ذكرى الأسلاف.. عادت البلاد الأسيرة مرةً أخرى سيرتها الأولى! اللامبالاة!

"البلاد الأسيرة ميئوس منها!".

يقول أحدهم فيما يغرق الجميع في الصّمت! كانت اللامبالاة في سهل البلاد الكبيرة، تتفشى، فتشمل الشجر والحجر والطير والحشرات والزواحف، وعموم الحيو انات.

بل وطالت حتى رموز التاريخ الوطني الوفيات منذ عهود سحيقة! فقد تراكمت وقائع أخطائهم، و انفجرت بوجه الجميع، لتمزق أراضي السهل. دون أن تنتاب أحدهم حيرة، أو ذهول، أو أسى، أو ندم، أو أي نوع من أنواع المشاعر الإنسانية أو الوطنية فقط: اللامبالاة والتبلد!

كأن سهل البلاد الأسيرة ليس سهلهم، وكأن البلاد الأسيرة ليست بلادهم؟! كانت أحاسيسهم قد تعفنت، وأرواحهم قد نخرها السوس، بعد أن قولبهم الحكام العامُّون والزعماء الطائفيون المتعاقبون، فلم يعودوا يشعرون بشيء!

كانت المهمة الأولى لصانع الفخار فيما بعد هي: أن يبرهن لنفسه ولهؤلاء، أنهم لا زالوا يملكون إحساسهم بما يجري حولهم، وأن بإمكانهم أن يهتموا بهذا الذي يجري، فيتمكنون من إصلاح حالهم وحال السهل!

لطالما خطر على بال صانع الفخار، منذ بدأ يعي حالة اللامبالاة والتبلد العام، في طفولته الباكرة، سؤالًا ملتبسًا. أيهما اللامبالي: هو أم سكان سهل البلاد الأسيرة؟ وهل اللامبالاة وباء أم حالة عارضة أو متأصلة كالصفات الثابتة؟ أم رغبة للتعويض النفسي، عند الفشل

في الإجابة على أسئلة البلاد الأسيرة الوجودية المحيرة، التي يطرحها و اقعها كل يوم؟

الفضاء العام الذي كان يحيط بأحد صانعي الفخار المتعاقبين في كل عصر، حتى لحظة وقوعهم في قبضة عسس الزعيم الطائفي أو الحاكم العام، أقل ما يوصف به أنه معقد ومتشابك الوقائع والأحداث، بدءًا به هو نفسه: جادين جانو.. بهويته المصاغة في مجتمعه المحلي، في إطار الهُوية العامة للبلاد الأسيرة، والتي كانت أشبه بمجموع هُويات متباينة نشطة، داخل حقل الهوية العامة، غير محددة الملامح!

ثم نظام التعليم العام، والمعارف التي استقاها من الخزين ود طبلة.. وهكذا، كانت تفاعلات كل هذه العناصر داخله، لا محالة تفضي للأسئلة، التي شغلت باله وبال كثيرون غيره في البلاد الأسيرة والجوار عبر العصور!

كان عندما لا يجد إجابة، يشعر بالإحباط، ويبدأ مرة أخرى جادًا في البحث عن إجابات، تهدئ توتر اته!

بعد أن آل أمر البلاد الأسيرة إلى الطو ائف والجماعات الجهادية.. سطع نجم صانع الفخار، كخطيب أريب بين مفترقات الطرق والأسواق الصغيرة ومنعرجات الدروب.. وأصبح له مريدون في كل مكان يحل به.

ولـم تكـن حكومـات الطو ائـف والجماعـات الجنكويزيـة، قـادرة على فعل شيء ضده سوى اعتقاله، حتى تلك اللحظة التي انقلب فيها عراب الجنكويزعلى كل شيء، ذات فجر معتم! معلنًا عن بدء عهد تور الجر الثالث الحاكم الجنكويزي العام!

وقتها كان صانع الفخار في ذروة كفاحه، ولـم يعد بحاجة لارتياد خلـوة الخزين ود طبلـة، التي فارقها منذ وقت بعيد، بعد أن نهل من معارفه ما نهل..

وهـو الوقـت نفسـه الـذي فجـرت فيـه الجماعـات والطو ائـف الجنكويزية المخلوعـة مـن قبـل العـراب والحـاكم العـام، حروبًا أهلية طالـت كـل أطـراف سـهل الـبلاد الأسـيرّة، ووضـعت صـانع الفخـار بمواجهة أكبر أسئلة حياته..

سؤال البقـاء والاسـتمرارية على قيـد الحيـاة، فمـا أن تـم إطـلاق سـراحه حتى هـرب إلى غابـات دار الـرّيح ووديانهـا، يحـرض الأهـالي على الثورة ضد الحـاكم العـام، الـذي كان بدوره قـد أعلـن عـن مكافـأة كبيرة لمن يرشد عنه.

وقتها كان التعب والإرهاق قـد نالا منه، بسبب هروبه المتواصل، وعدم تناول ما يكفي من طعام وشراب، فسقط مغمى عليه في دغل من أعشـاب النّال، تحت إحدى أشجار القمبيل، على أطراف إحدى بلدات دار الرّيح.

وعندما أفاق، وجد نفسه مغلولًا بالسلاسل وحوله الجند، وجموع الأهالي محتشدين! وفي الليلة نفسها بعد أن صُلب وأُحرق، وطافت روحه بأركان وفضاء البلدة القديمة. خسف القمر، فخرج الأهالي يقرعون على الطبول يطلبون الرّحمة!

وثارت ضوضاء داخل إنداية مستورة كحل الليل والإنداايات المجاورة، فهرع حمد الأعرج يسأل عن الخبر:

"الحكاية شنو يا مستورة يا خيتي".

"ماك سامع؟ القمرة "خنقت" والله الزمن ده النّاس عمايلن بقت كعبة، خلو زيارة الفقرا وخلو ضبح الكرامة".

فقاطعها حمد الأعرج:

"أبدًا والله السبب منكن أنتن ديل ستات المريسة".

"سجمي! كيف مننا نحنا يا حمد؟".

"أنتن الزّمن ده قاعدات تزيدن المريسة مويه، عشان كدي القمرة خنقت، والله يستربعد ده على الشمس".

في النّهار التالي لخسوف القمر، لم يكن للإنداايات سيرة سوى ما داربين السرة كحل الليل وحمد الأعرج.

ووفقاً لما ذكره زميله عامل المطبعة للخزين، أن خسوف القمر كان بسبب الفساد الذي استشرى في البلاد الأسيرة، وأخذ يتآكلها كما تأكل النّار الهشيم!

وهكذا أخذ يحكي له ما يدعم رأيه على خلفية تاريخه السابق في الحزب الحاكم، أن زوجة أحد الضباط الكبار تعرفت على أحد زملائه من الجند، الذين يستدعون لحراسة مناسبات الضباط، وتطورت علاقتها به، فأصبح في غياب زوجها في مناطق العمليات، يعاشرها معاشرة الأزواج، تارة في بيتها خلسة، وأحيانًا كثيرة خارجه.

وكان من الواضح أنه يتقاضى مبلغًا ماليًا عن "مجهوداته الوطنية" فظن أن من حقه طلب المزيد، بعد أن عانى الكثير في مهمته كحارس مناسبات، ومكلف بمهام أخرى ترهقه كثيرًا! الأمر الذي أدى إلى حدوث مشاجرة بين العشيقين!

تأثرت زوجة الضابط بالحادث، وغضبت غضبًا كيديًا مستطيرًا على خليلها، فانقطع حبل الود بينهما، إذ شعرت بأنه خدش "كبرياءها" ولم تنسَ له ذلك، فتم العثور على جثته المخترقة بعدة رصاصات، في السوق الصغير، خلف مقابرود أم جبو!

وكالعادة في مثل هذه الحالات، قُيِّدت القضية ضد مجهول!

¤¤¤

بعد أن يفك حمد الأعرج ريقه بعبار مريسة، من أنداية السرة كل صباح، يتوجه إلى سوق ود أم جبو، حيث يلتقي برفاقه "السُكارى" وتدور بينهم الحوارات المعتادة، إذ يقول عبد الله أب فاطر:

"وين يا زول عليَّ الطلاق، الليلة حليمة الفدادية، عندها مريسة تسكر الحجر، مريسة حمرة زي عين الديك.. ها ها ها...".

"أقيف يا زول عليَّ الطلاق، أنا بشرب لي أربعين سنة، ما شفت زي مريسة مستورة كحل الليل، حرم فكيت الرِّيق بفرد قرعه، وهسه شايف النّاس رهاب رهاب، وأضاني طِرشت تب".

"ها زول، حرم تندم، وتقول ضر اني، ارح معاي".

"عليك يمهل وعلينا يسهل – كل زول بيعجبو الصارو".

ويقضي حمد الأعرج حاجياته في السوق سريعًا، وهو يسعى لإرسال ابنه بها إلى البيت:

"الأمين أخوي وصل معاك الولد ده البيت".

"خبارك إنت متأخر ليه؟".

عايز أمشي أجز الحمار، وبعدين أغشى الفقرا داير لي حجاب".

"أوعك يا عم حمد من الهناية ديك..".

ويمرر يده على لحيته وهو يقول مستنكرًا:

"أبوك يا محمد بعد العمر ده كلو".

"خير، في وداعة الله، اركب يا ولد في الكارو".

وبينما يمضون باتجاه الحلة يتخذ هو طريقه متسللًا، إلى إندداية السرة كحل الليل، في أطراف البلدة القديمة، بعيدًا عن سوق ود أم جبو.

كلمة "ود أم جبو" التي اقترنت باسم الكنيسة العتيقة عند مقرن النيلين، هي في الأصل كلمة "الجب" ذات نفسها، بمعنى البئر!

فود أم جبو فضلًا عن كونها محل مورد ماء أهالي البلدة في العصور القديمة، فهي في العصور الحديثة مقابر أولئك الأسلاف، الذين كانوا يردون إلى بئرها للتزود بالماء!

وهكذا بعد أن غادر المستعمرون الإنجليز سهل البلاد الأسيرة، أصبحت ود أمجبو وصفًا دقيقًا لهذه البلاد الفاشلة!

على أنقاض المعابد النوبية القديمة، أنشأ يهود البلدة القديمة، على أرض ود أم جبو معبدًا كبيرًا، حلّت محله المباني الجديدة التي توسعت فيها، كنيسة المقرن العتيقة، بعد أن هجر اليهود البلاد على عهد الحاكم العام تور الجر الثاني، بُعيد الاستقلال المزعوم، إثر تآمر الطوائف والحكام الجنكويز العامُّون، حتى على مقابرهم! التي قاموا

بمسحها عن ظهر الوجود، و أنشؤوا محلها الحوانيت والمطاعم ومحال المرطبات!

إذن كنيسة ود أمجبو التي أنشأها الخزين الجد، والتي انطوت ذاكرتها على ماضيها النوبي واليهودي، في ماضيها العريق، نهضت على مساحة واسعة من أراضي ود أم جبو، وتوسعت أكثر، على عهد الحاكم الروماني نيرون في القرن الأول، بعد صعود المخلص يسوع بأسبوع واحد، إلى السماوات العُلى.

مخطوطات صانع الفخار تقول، أن ود ام جبو هو اسم الخزين الجد نفسه! قبل أن يُعرف باسم الخزين ود طبلة، في ذلك الزّمان السحيق، والذي كان قد كتب أول مخطوطة، ظلت مرجعًا مهمًا عن تاريخ البلاد الأسيرة في العصور اللاحقة، ما يفسر كثير من العادات والتقاليد، التي لازمت أهل البلاد الأسيرة حتى الآن!

كتعميد المختونين والعرسان والنساء في أربعين النفاس، في النيل. والاحتفاء بسعف النخيل، ورسم الصليب بالكحل على جبين المواليد الجدد.

فقد كان لكنيسة ود أم جبو، تأثيرًا كبيرًا على لاهوت البلدة القديمة، وفي تكوين شخصية سكانها، بتكريس قيم التواضع والمحبة والتسامح والعمل الجماعي.

إذ كانت مدرسة قائمة بذاتها، كما أشارت مخطوطات صانع الفخار، حتى أن قديسين كُثر من كل أرجاء المعمورة، كانوا يحرصون

على زيارتها، لتبادل الأفكار مع قساوستها. حتى أن بابا الفاتيكان، الذي يتم اختياره بعد موت أو عجز كل بابا، كان لا يُنَصَّب ما لم تتم مراجعة كنيسة ود أم جبو.

برع قساوسة كنيسة البلدة القديمة، في إنشاء التر انيم وصناعة اليقين، وتأليف الموسيقى و ابتكار الأياقين والأنسجة، والمشغولات اليدوية.

الأمر الذي قاد مدرسة الكنيسة، إلى تطوير اللُّغة "المروية" من لُغة شفاهية إلى لُغة مكتوبة، تزامن مع ذلك اتباع أسلوب في الحفر على الخشب، ليستخدمه المكفوفون في القراءة والكتابة، قبل ميلاد السيد بر ايل بأكثر من خمسة عشر قرنًا!

وهكذا مع تحويل اللُغة "المروية" إلى لُغة مكتوبة، ظهرت العلوم والآداب، التي تلغفها العالم بشغف، قبل أن يقف طويلًا، ليتأمل الطابع المأساوي لحياة البلاد الكبيرة، عبر التاريخ!

كما عبرت عنه فنون مدرسة كنيسة مقرن النيلين! وهكذا كانت كنيسة البلدة القديمة، تشعر دائمًا بتفويض إلهي، كي تُصلِح الخلاف المعقد بين كل الكنائس والأديان.

وقد قيل عن أساقِفة البلدة القديمة، أن التحوُّلات التي طالت البلاد الكبيرة، بدأت مع إهمال القساوسة للاعتكاف والتعبد والتأمل، و انشغالهم بالاجتماعات واللقاءات بالسياسيين أسلاف الثلاثة الكبار!

إذ بدأ دور البلدة القديمة الرّيادي عندئذ يتقلص، كانت بداية هذا الأمر عندما بدأ الحاكم العام الجد، التدخُّل في شئون الإيمان بالكنيسة، وقد كان رد أساقفتها في البدء:

"أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

منذها بدأ الحكام العامون يخوضون حربهم المقدسة، لثني الكنيسة عن عزمها، فاعتقلوا وعذبوا ونفَوا قساوسة كُثُر من الذين لم يقابلوا ذلك بمقاومة عنيفة! إذ كانوا يحرصون على التكرار في مخاطبة رعاياهم:

"رُدَّ سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يُهلَكون".

وهكذا -منذها- مضى الحكام الجنكويز العامون في حربهم الشرسة، التي بلغت ذروتها في اتهام كنيسة البلدة القديمة، باتباع تعاليم الديانات السابقة لليهودية، بالتالي الهرطقة!

ومضَوا يخططون لاحتكار الدين لأنفسهم، بدلًا عن القساوسة، ليتمكنوا من تكريس حكمهم في البلاد الأسيرة إلى الأبد! وقادتهم أفكارهم الشريرة إلى أن هذا لن يتحقق، إلا بأن يُبطلوا القوانين المستقلة للكنيسة، التي كان قساوستها يصرُّون على أن تكون منفصلة عن الدولة.

وبالرغم من كل هذا، فقد ظلّ قساوسة كثيرون مخلصون وثابتون على إيمانهم بفصل الكنيسة عن السياسة.

وإذا كان ما حدث مجرَّد مؤامرة من الحكام العامِّين، الذين تعاقبوا على البلاد الأسيرة، كعقاب للكنيسة، لرفضها الخضوع السياسي. فمن الجانب الآخر أحنى قساوسة كُثُر رؤوسهم لعاصفة الحكام العامين! وأصبحوا علماء لهم، يبررون لهم الجور والاستبداد ويمدونهم بالذرائع! بل وحولوا الكنيسة إلى أضخم مركز استخباري شهده التاريخ من خلال "الاعتراف"!

فخر كنيسة البلدة القديمة كان دائمًا هو الاضطهاد، الذي بدأ قبل قرون طويلة، عندما اسْتُشْهِد القديس المُبَشِّر الخزين الجد، بعد جَرّه من قدميه عن طريق جنود الحاكم العام، الذين جابوا به كل شوارع البلدة القديمة وزُقاقاتها. مفتتحًا عصور اضطهاد القساوسة وأهالي البلاد الأسيرة المؤمنين! على يد كل الحُكّام العامين المتعاقبين، لدرجة أن قساوسة كُثُر، كان يتم تعذيبهم ونفيهم حتى على يد أخوتهم المسيحيين.

عندما بدأ العرب يتوافدون للمرة الأولى، وبعد أن احتلت جيوش الأتراك سهل البلاد الأسيرة في المرة الثانية، على عهد الخلافة المصرية، ومن ثم تلى ذلك احتلال البلاد الأسيرة للمرة الثالثة..

أعلنت هذه الأحداث أن ثمة تغييرات كبيرة وحاسمة، على وشك الحدوث في البلاد الأسيرة!

بهدوء، ولكن بانتظام، تغيَّر وجه البلاد الأسيرة، وأصبحت غالبيتها إسلامية في مطلع القرن التاسع عشر.

وهكذا وجد المسيحيون وأصحاب الديانات الأخرى، أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية! في سياق التهميش العام، الذي تم عبر سلسلة معقدة من التحالفات وعلاقات المصاهرة والإجراءات والقوانين، عبر تاريخ البلاد الأسيرة.

في الأيام التي تلت مقتل صانع الفخار، والاختفاء الغامض للخزين، كانت البلدة القديمة لا تزال متلفعة بكل أنواع المشاعر الغريبة! فقد بات هواؤها مختنقًا وتربتها قاحلة، وأشجارها جافة متساقطة الأوراق.. سماؤها قاتمة، وكل شيء فيها يفوح بروائح التحلل والعطن..

حتى النّاس في دروبها الضيقة، كانوا بدلًا عن التحايا، يتبادلون السباب والشتايم البذيئة المقذعة، كما أن أسراب الطيور المهاجرة، التي جاءت على غير موعدها - فقد كان الوقت نهاية الصيف "القيطوني"- الذي اتسم به هذا الجزء من كون مهدد بالزوال.. غيرت رأيها وهاجرت مرّة أخرى، عائدة إلى موطنها!

كان ذلك الصيف الصاهد، الذي شهدت إحدى ظهيراته المنصرمة، مقتل صانع الفخار، عطنًا.. متسخًا.. مخيفًا وغريبًا إلى أقصى حد، دونًا عن كل فصول الصيف، التي تعاقبت على البلدة القديمة، عبر تاريخها العريق.

حتى أن مقابر"ود أم جبو" المجاورة للسوق "الورا"، في الصبيحة التي تلت مقتل صانع الفخار، فوجيء بها الأهالي كلها منبوشة! أرماس أسلافهم من الموتى الأماجد، قد اختفت في غموض تام! دون أن يجدوا لذلك تفسيرًا!

واللافت للنظر أن ثمَّة تغييرًا لم يطرأ على حياة الإندايات، بل ازداد عدد روادها الذين كانوا يجيئون من كل فجاج البلدة القديمة، لفض اكتئابهم مؤقتًا، بالغزل في نساء وبنات بعضهم البعض، عندما يبدأ أحدهم بمدح المريسة والمزَّة، فيعقبه الآخر:

"ينصر دينك يا مريسيلا.. أهو كده ولا بلاش".

فيرد عليه آخر:

"هو في حد يقدر يعمل البن زي مريسيلا".

فيقاطعه آخر:

"الكلام موش البن.. الكلام مريسيلا ذاتها.. أحب الله.. ديني أنا يا الأعرج"..

فيبتسم جبارَّة الهمباتي ويقول:

"أموت أنا في مريسيلا، وخدود مريسيلا، وعيون مريسيلا".

وسابل السترزوج مريسيلا جالس لا يتفوَّه بشيء، كأن شيئًا لم يكن! فتقطع عليهم عشمانة الساقية حديث الغزل والضحك العالي والخفيض، الذي تشوبه خشخشة الصدور، بتأثير تدخين القمشة والتبغ، الذي كانوا يلفونه أثناء جلستهم، بأيادٍ راعشة، لا تعرف أصابعها الناحلة الثبات، إلا عندما يمسك أحدهم ورقة لف التبغ، ويبرمها وأعضاء شلته من حوله يتصايحون:

"أهو كدي انعل أبو البحاري ذاتو".

"وحياة سيدي الحسن تلف واحدة تاني".

"الله يحرق ميتينكن، أنا مكنة، أمَّا كلام فارغ".

"ينصر دينك، إنت مكنة ونص".

"بطل الكلام الفارغ يا شيخ، وأدينا كاس".

ويبدأ التوم ود أب قرن في سرد حكاية جديدة من حكايات البلدة القديمة، فبعد أن يتنحنح يقول للأذن المشرعة الظمأى لهذا النوع من المسامرات:

"حرم الناس الليلة في سوق ود أم جبو، ما عندهم كلام غير الخفير وحرمه".

"ياتو خفير؟".

"خفيرنا السابق للجوار، قبال تعديلات الحاكم العام الآخيرة".

فيضحك حمد الأعرج:

"حرم كلامك صاح، سفاراتنا برا كلها مع نظام السجم ده أصبحت خفارات.. المهاجرون من البلاد الأسيرة في الغربة، يموتون من الجوع والبرد وما في خفيرواحد يجيب خبرهم".

"البرا براهم الكاتلهم الجوع والبرد.. النّاس الجوه ذاتهم كل يوم يومين جثتين وتلاتة من الجوع".

"الملعونة ما لها؟".

زوجة الخفير المعني عُرفت بين ملأ البلدة القديمة، أنها عندما تزور البلاد الأسيرة في الإجازات، لا ترتدي سوى اللباس المحتشم، الذي يليق بزوجة مسؤول يمثل بلاده في الخارج، لكن بمجرد أن تضع قدمها خارج البلاد الأسيرة، تنسلخ عن جلدها، وتعود امرأة أخرى غير تلك التي تعرفها البلدة القديمة!

فعند مصب النهر في الجوار، تتفنن في ارتداء الثياب القصيرة الضيقة الشفافة، التي تكشف كل شيء دون أن تخفي أي شيء!

وحسب أحد العاملين في الخفارة، الذي بأمر من زوجها كان يرافقها لحراستها وخدمتها وتسهيل كل شيء لها، يقول التوم ود أب قرن:

"كانت تتصرف وتبدو أكثر "تحررًا" و"انفتاحًا" من العاهرات، بل تقوم أحيانًا كثيرة بممارسات لا تقبلها العاهرات! إذ تقضي سهراتها في العوَّامات التي على النيل والكباريهات والملاهي المشهورة باستقبال المثليات، كما أنها تفضل النزهة في بعض الشوارع التاريخية في وسط البلد، التي تعتبر مكانًا مفضلًا للمثليات، وفي جُعبتها سلسلة من المغامرات في أكثر من مكان".

ومع ذلك كانت دموع نساء البلدة القديمة الشريفات، عندما تطرق مثل هذه الحكايا أذونهن، تفيض مرارة، وتصبح نهرًا هادرًا، لم تكن دموعهن مجرد دموع فحسب.. إذ كانت تحدث في الأرض جروحًا غائرة، أشبه بمسارات جديدة لشعب البلاد الأسيرة، الذي هيمن عليه الحزن العام!

¤¤¤

في تلك الظهيرة التي أُحرق فيها صانع الفخار في فناء الكنيسة، كانت زوجات الحاكم العام العديدات، باستثناء صغراهن، تفقن للتوِّ من نوم عميق.

كُنَّ لحظتها يشعرن، كما لو أن سعادة الدنيا كلها تجمعت في أحلام ليلة البارحة، التي هي ذكريات سرّية مع عشاقهن العديدين.

وهكذا مضت صغراهن، تدغدغ صدرها وفخذيها بحنو، ليندفع الدّم حارًا في شرايينها، فترتخي أعصابها المشدودة، مع

الفرقعة المكتومة لغصن النيمة، التي ناءت بأسراب الطيور المهاجرة، التي كانت قد قررت الرّحيل!

لحظتها امتد شعاع الشمس، مخترقًا غشاوة السماء الغائمة، عابرًا خلال نافذة غرفتها، فأحدث في نفسها، تأثيرًا غامضًا، أشعل فيها المخاوف والهواجس والظنون.

إذ بعد ذلك خيَّم على فضاء البلدة دخان أسود! انبعث من مكان مجهول في الفضاء الرَّحيب، فشدت صغرى زوجات الحاكم العام صدرها بتكاسل، تحاول أن تقاوم في تثاؤبها المتكرّر، بقايا نُعاسها، دون أن تكترث!

كان كل شيء حولها لا يزال عبقًا بأحلامها الليلية الجريئة: الضوء الخامل، وحفيف أوراق شجيرات الجهنمية الحمراء، في باحة القصر الجنكويزي.. خرير الجدول الذي تتكئ على شفته، غرفة أحد الحراس من عشاقها السرّيين، و آثار البلل التي جفت على أوراكها الممتلئة!

الطريقة التي أُعدم بها صانع الفخار، رسمت في أذهان الأهالي، استفهامات لا أول لها ولا آخر، كان في مقدمتها طبيعة علاقتهم بهذه البلاد.. البلاد الأسيرة.

وهكذا قادت هذه الأسئلة دار الريح، لتصبح مستودعًا ضخمًا للسلاح، وفيما شهده ذلك العصر أيضًا، الانتعاش الرّهيب والرواج الكبير لهذه التجارة.

كما شهد شيوع القتل والحروبات والدماروالخراب، الذي طال كل شيء، بعد أن امتلأت دار الريح بالسلاح، حتى فاضت بكل أشكال وألوان المليشيات والغُزاة من دول الجوار!

كان واضحًا أن دار الريح تتعرض لمؤامرة محلية – إقليمية ودولية مربكة! فقد أصبح الأهالي الذين فتنهم الحاكم العام، ليقتلوا بعضهم البعض منقسمين.. يميزون أنفسهم وفقًا لهوياتهم وسحناتهم وعقائدهم الضيقة! لم يعودوا يشعرون بانتمائهم جميعًا لسهل البلاد الأسيرة، بذات القدر!

في مثل هذا المناخ اللعين، اكتشف الخزين الحفيد، أن الأشكال المتعددة للجماعات والطوائف، قد استُغلت لتحقيق مصالح إثنية وطائفية، تتعلق بمجموعة الحاكم العام والثلاثة الكبارو أقربائهم في الجماعات والطوائف.

وهكذا كانت تلك نقطة البداية للخزين الحفيد، ليبحث في الإجابة عن سؤال الذات، وهكذا اعتزل الخزين النَّاس، واختفى في وديان دار الريح، ولم يظهر إلا وجند رئيس الوزراء الجنكويزي المخلوع، يعتقلونه على خلفية تظاهرات عارمة، قادها صانع الفخار!

لكن ما أن أُطلق سراحه بُعيد الانقلاب على رئيس الوزراء الجنكويزي، حتى مضى يحرِّض الأهالي إلى أن نال منه التعب، واعتقله الانقلابيون!

عندما بلغ صانع الفخار الحفيد سن المراهقة، حاول أن يُجيب عن الأسئلة التي كانت تقضُّ مضجع الخزين، ولمعرفته بأن شعب البلاد الكبيرة لا زال يؤمن بالدجل والشعوذة، قام بكتابة رُقى وتعاويذ ب(العمار) على لوح خشبي، ثم غسله في النيل بالمريسة، ليشرب منه أهل السهل!

ثم فعل الشيء نفسه في وديان دار الريح، حتى يتأكد أن ما من كائن حي في البلاد الأسيرة، إلا وقد شرب من هذه الرقى والتعاويذ المذابة في المريسة والماء!

وهكذا فوجيء ذات صبيحة باكرة، ريانة بدعاش طمي النيل و"همبريب" الوديان، المشبع برائحة "(السعدة والسناسنا وصندل الردوم)" بأرض سهل البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها، ترتج وتتزلزل بإيقاعات هي مزيج من "(الكمبلا والمردوم والتم تم والجراري والشاشاي)" و..

إيقاع واحد ومتوحد يتخلله غناء عذب بكل لُغات البلاد الأسيرة! كأن السكان كأنهم يفيقون للمرَّة الأولى منذ آلاف السنوات!

ومنذ أن سمع جادين جانو بتلك النبوءات البعيدة، التي هي في الحقيقة جزء من تاريخ البلاد الأسيرة وسيرتها ومسيرتها، ظلت تداهمه ذات الخواطر، التي كانت تداهم صانعي الفخار، كما كان هو يتخيل خواطر صانعي الفخار!

فصانع الفخار الحفيد منذ طفولته الباكرة، هيمنت على حياته تلك الرؤى الغامضة، عن الحياة والموت والكون وأسئلته المعقدة!

الرؤى ذاتها التي راح في غيبوبتها لثلاث أيام عندما أنجبته أمه للتو -وقتها! - فانهمك تحت وطأتها -عندما كبر- مشكلًا الطين، أشكالًا لا تخلو من نبوءاتٍ محتملة، أسهمت في تشكيل حياته وحياة من حوله، بل وحياة "جادين جانو- الحفيد"، الذي كان يتراءى له خلال الوجوه الملتفة حول الخزين!

من عاداته التي لم يخالفها يومًا واحدًا منذ طفولته الباكرة، حتى اللحظة التي سبقت مقتله حرقًا، في ساحة كنيسة "البلدة القديمة"، المطلة على مقرن النيلين.. هي وقوفه عند كل صباح.. عند شروق الشمس، متأملًا سهل البلاد الأسيرة الرسوبي المنبسط، على مد الأفق المترامي، في انحداره الطفيف.

كان يرى بعين خياله كل المرتفعات التي تتخلله: الغابات، الجبال، التلال، القيزان والجروف الصخرية..

كان يرى النيل الذي يشق السهل قسمين، كفلقتي نواة واحدة، فيقول في نفسه كمهووس بالفخار:

"ترى كيف تكونت هذه التربة، التي سقتها دماء الأسلاف عبر آلاف السنوات؟! التربة الرملية في إقليم الصحراء وشبه الصحراء، في السافل ودار الريح؟ وهشاشتها و افتقارها للخصوبة.. ترى كيف تكونت هذه التربة الطينية في الوسط ودار صباح، الغنية بالخصوبة

والجمال الأسمر.. ترى كيف تكونت هذه التربات الحديدية الحمراء، منخفضة الخصوبة والقابلة للتدهور في الصعيد.. وهذه التربات الرسوبية السلتية على ضفاف النيل.. وأشقائه من أنهار دائمة وموسمية.. ووديان تتخلل سهل البلاد الأسيرة الواسع.. الممتد.. بخصوبتها العالية بسبب الطمي، الذي يجددها كل عام.. وهذه التربة البركانية الخصبة في دار الريح، وما تمثله من لُغز محيِّر في عالم الطين والخصوبة؟!!

يتنهد الخزين وهو يتجرع من برمة الأرباب، كأسًا مترعةً بالمريسة مربوطة الزبد:

"كان صانع الفخار إذن مغرمًا بالطين وكل ما يتصل به!".

ويتردد في فضاء ذاكرته صوت منصورة:

"لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة".

ما أن تناهى إلى مسامع الخزين، خبر مقتل صانع الفخار، حتى شعر كأن نفحة قويَّة من اللهب، تشوي جلده وتحرق عظامه، لحظتها فقط.. فقط لحظتها.. شعر كم هو طاعنًا في السن.. ووحيدًا وبائسًا إلى أقصى حد.

في الحقيقة الخزين الذي ما إن بلغ سن الأربعين، منذ عشرات السنوات؛ حتى توقف تيار الزّمن، ولم يعد العمر يتقدم به ولا يومًا

واحدًا، يشعر الآن بنفسه، كقلعة قديمة قاومت كل آثار السنين، تنهد وتتهدم الآن.. الآن فحسب!

عاد بذاكرته إلى الوراء.. أيام صباه.. عندما ارتحل إلى دار الريح، لينهل من معارفها، وعاد بعد سنوات طويلة، فانتبه أهالي البلدة، الذين وجدهم قد طعنوا في السن، أنه كما هو لحظة فارقهم!

كأنه لم يلبث بعيدًا عنهم سوى يومًا أو بعض يوم.. كأنه خرج بالأمس فقط وعاد! ومنذها أخذ يلاحظ، الخُطى البطيئة لسنوات عمره، إلى أن توقفت باتئاد عندما بلغ سن الأربعين!

الآن يشعر بأن كل السنوات، التي أغفلها الزّمن تتجمع في لحظةٍ واحدة، تخترق عظامه ووحدته وأساه! فيتقوس ظهره؛ يحدودب!

لم يتزوج الخزين ود طبلة مطلقًا كما كان شائعًا عنه، لكن في الحقيقة لم يكن ذلك صحيحًا! ربَّما شاع ذلك بسبب نذره حياته لمريديه، الذين يتحلقون حوله كل يوم، لينهلوا من معارفه الواسعة، لا تغشاه الوحدة، حتى بعد أن ينفضوا من حوله، إذ يخلفون وراءهم أطياف حكاياته وأسئلتهم، التي يظل يسامرها، إلى أن يطل يوم جديد، فيجيء المريدون مرّة أخرى.. يلتفوا حوله.. كان مجلسه عامرًا دومًا بالأصدقاء والبصاصين والعسس، والمتدينين، والمجاهدين المزعومين وأشباههم!

في اللحظة التي جاءه فيها خبر مقتل صانع الفخار، كان للتو قد أنهى ترتيبات زواج صانع الفخار مع أم منصورة، صرف المريدين

الذين تحلقوا حوله بإشارة من يده، واختلى بنفسه لحين من الوقت، قبل أن يمضي إلى إندابة السرة كحل الليل، لا يلوي على شيء!

في اللحظة ذاتها كانت منصورة تستعيد قلق وأرق ليلة البارحة! وتلك المشاعر الغامضة التي انتابتها.. الآن..

وعلى حافة الموت، تكشفت كل المشاعر الغامضة عن مكنوناتها، وفارقها ذلك القلق الذي استبد بها لوقتٍ طويل، بعد أن تسلل إلى أعماقها، وأحكم حصاره على مشاعرها.

كان وجه منصورة يستحيل الآن، إلى كيانٍ جامد، ليس له شبيه.. ليس بالإمكان عبره قراءة حقيقة ما يجول في خواطرها الملتهبة، إذ كان وجهها لا يفصح عن شيء محدد البتة، مع أن كل من رآها لحظتها، كان يعلم أنها تخبئ خلف جموده، آلام وعذابات من المستحيل كبحها!

كما لو أنها قد حلت محل قلبها، وراحت تضخ في شر ايينها الأسى والعذاب، اللذان لا حدود لهما.

كانت منصورة تعلم أن من هو مثل صانع الفخار لا يخشى الموت، وكذلك كانت تعرف منذ وقت بعيد، أن هذا اليوم آتٍ لا محالة، وأن لا مفر منه.

"لقد فعل كل ما ينبغي عليه فعله".

همست وهي تعزي نفسها، في أنه لم يمض إلى حتفه، دون أن يخلِّف للقادمين آثاره.. المنحوتات التي خط عليها صانع الفخار رموزًا معقدة، هي الشفرة لهُوية البلاد الأسيرة، والتي تم التواطؤ عليها من قِبَل الحكومات المتعاقبة المسماة وطنية، وغالبية أحزاب البلاد الأسيرة، وعدد كبير من المثقفين والساسة وقادة الرأي العام، إلى جانب منظمات طوعية، وأحزاب دينية احتيالية، وطوائف اشتهرت باستغلال الدين في السياسة؟!

جادين جانو المهووس بجمع أعمال صانع الفخار، وكشف أسرارها على الملأ، بدأ رحلة بحثه عن منحوتات صانع الفخار الأكبر.. المتفرقة في كل أنحاء البلاد الأسيرة، بالبحث عن ذاته والتعرُّف عليها، بحيث أصبحت ذاته هي نقطة البداية، لسبر أغوار سؤال الهُوية المشفر في منحوتات صانع الفخار، التي في الوقت الذي خلى المتحف الوطني ودار الوثائق المركزية منها تمامًا، تفرقت ما بين الخزائن الخاصة للسياسيين الفاسدين، ومتاحف العالم الواسع، لكون مهدد بالزوال في أية لحظة! نتيجة الحروب والأوبئة وكوارث الطبيعة، وفساد الحكومات الجنكويزية واستبدادها!

أكثر ما لفت نظره.. تلك المخطوطات القديمة، التي تعود بتاريخها، إلى الوقت الذي كانت فيه اللُّغة "المروية" هي اللُغة الرَّسمية للبلاد الأسيرة، إذ لم تظهر الكِتابات بكلتا اللُغتين المروية والعربية، قبل منتصف القرن السادس عشر، وفقا لمدونات صانع الفخار- الحفيد الذي أشار إلى كِتابات ترصد التاريخ الاجتماعي

والعرفاني والطائفي على عهد سلطنة دارفاز، ككتاب طبقات الخزين عتَّام، أو مخطوطة كاتب الطلبة، أو طبقات المرفعين راجل الليل اب كراعا برّا، وغيرها من الكتب القيمة والهامة، التي ترصد أوجه الحياة المختلفة. خبأ صانع الفخار أسرارًا كثيرة في منحوتاته العديدة، عبر كل سنوات عمره التي عاشها منذ الطفولة، حتى مات مختبئًا ومطاردًا ومحترقًا في ساحة الكنيسة الكبيرة؟!

هذه الأسرار ستعبِّر عن نفسها عبر السنوات، التي تلت مقتله مصلوبًا ومحترقًا! كان صانع الفخار يستقي بعض موضوعاته في النحت، بإلهام خفي من أنبياء غامضين! يتراءون له في الحلم.. في الليالي التي يغيب فيها القمر، وتصبح أضواء النجوم شحيحة؟!

فكانت هذه الأعمال بالذات تجيء مشفَّرة برموز، هي مرجع مباشر لإماطة اللثام، عما يريد أن يقول بالضبط في كل أعماله، ومن نبوءاته التي راجت في العصر "المروي"، أن مملكة ستولد في سهول البطانة، مرتحلة من موقعها الأصلي، وبالفعل بعد عشرات السنوات، وبسبب البحث المتواصل عن المزيد من الطين الخصب، نقلت "كرمة" عاصمتها من "نبتة" إلى "البجراوية" جوار "كبوشية"، بعد أن وضح أن منطقة "البركل" الصحراوية، لا تفي باحتياجات السكان والحيوان، زيادة على ضيق الشريط الزراعي على النيل.

فالبجراوية مطلة على سهل البطانة، وهو سهل واسع، وأرضه خصبة، وأمطاره نسبيًا غزيرة، كما أن مكنونات طين البجراوية تحتوي على خام الحديد، خصوصًا في الصخور، بالإضافة إلى وجود

أشجار كثيرة، يمكن استخدامها، في إيقاد "كماين" صهر الحديد وصناعة الفخار..

"ليس في الأمر عجب!".

هكذا كان جادين جانو- الحفيد، يهمس في سرِّه، عندما تنتابه الدهشة، إثر فك شفرة أي رمز من الرّموز، التي حفلت بها مشغولات صانع الفخار، لكونه كان كُفئًا في علم الحركة، الرياضيات، التشفير، علم الخرائط، الرسوم والجمال.

كان صانع الفخار لدى تأمله النيل، يفكر في حياة النّاس ومعاشهم، في هذا الجزء من سهل البلاد الأسيرة، كيف بإمكانهم أن يحيوا دون النيل.. فهم ليسوا كأهل دار الريح، الذين تمتلئ وِديانُهم بمياه الأمطار والسيول المنحدرة عبر الصحراء من أعالي تبستي.. فهذا الجزء من البلاد الأسيرة.. النيل بمثابة شريان حياته، ودونه لا حياة لهم!

وهكذا أفضت به تأملاته لوضع خريطة متكاملة، لأماكن الاحتياطيات الجوفية، التي تفوق حجم مياه النيل، وتذخر بها البلاد الأسيرة، كما خط مشاريع سدود على وديان دار الريح، لإحياء نهر هور القديم، الذي يربط دار الرّيح بالبلدة القديمة، بمحاذاة درب الأربعين، ليتخطاها حتى يصل دار الريح بدنقلا العجوز أيضًا!

"لا يبدو أن هناك حدودًا لعبقرية صانع الفخار!".

أول مـرَّة تعـرف فيهـا "جـادين جـانو- الحفيـد على صـانع الفخـار الجـد" عنـدما حدثـه معلمـه -الخـزين ود طبلـة- الـذي عنـدما يتـذكره الآن.. في قيده بأغلال العسس، يرى نفسه عـابرًا الفناء الكائن في قلب البلـدة القديمـة، يمشي بخُطىً متئدة في الزقاقـات الضـيقة، بعـد أن يعبر السوق "الورا" ومقابر"ود أمجبو"..

كـان وقتهـا كـأي طفـل صـغير متسـخ ومعفّـر بـالترّاب، يعبر بلـدة معزولة في الجغر افيا والتاريخ.. الله وحده يعرف كيف تكوّنت في هذه العزلة الغامضة! السياسيون ليس لديهم وقت لمعرفة ذلك! هو وحده -كمـا يعتقـد في قـرارة نفسـه- يشـارك الله هـذا الاهتمـام بالكيفيـة التي جاء بها هؤلاء ليصبحوا عشو ائيين، لا مبالين!

عنـدما تفضـي بـه أفنيـة البلـدة الضـيقة، إلى زو اياهـا المفاجئـة و"كوشـها" يفارقـه الإحسـاس بالاتسـاخ! كان يشـعر بنفسـه نظيفًـا جدًا مقارنة بما حوله من أوساخ!

وفي نهارات الصيف قد يستظل في طريقه بظل نيمة يتيمة، قبل أن يواصـل المضي قُـدُمًا، إلى حيـث يسـكن "الخـزين ود طبلـة"، الـذي عندما يصله –غـالبًا- يجده يصارع انهيار "الكرنك" الـذي يعيش فيه، غير آبهٍ لمواءِ القطط المرتعبة والكلاب المذعورة حولـه.. والفئران التي لـم تعـد تبـالي بـأي انهيـارات حولهـا، بعـد أن سـارعت للاختبـاء عميقًـا في جحورها!

كان الخزين بوجهه المعروق، والعرق المتقاطر على جبينه، كسيل تتخدده سدود التغضنات، يحاول البحث عن ركن لم تطاله ركامات الانهيار أو الحريق، "فكرنكه" دائمًا في حالة انهيار أو حريق.. ومع ذلك دائمًا هو هادئ ووقور كأن شيئًا لم يكن!

كل شيء فيه يتبدَّى نحيلًا حتى شفتيه المبتسمتين في لا مبالاة كعادتهما.. يتحرك الخزين غير متعجل.. إذ سرعان ما سيبني ما تهدَّم من جديد! فقد كان تجسيدًا للحكمة الأزلية، التي وردت في نبوءة صانع الفخار الجد:

"أنت من طين لتبني"!

عندما يتجمع الناس في "النفير" لمساعدته في إعادة بناء "كرنكه" من جديد.. يسرد لهم، كيف تواجد في العالم الآخر.. ويروي لهم عن الأَرَضة والسوس، اللذان تخصصا في هدم "كرنكه" كأنه يحكي عن أمر معتاد لا غرابة فيه!

كانو يحبون طريقته في الحكي.. يأتونه من كل فج عميق.. من الدروب الوعرة والشوارع الضيقة في البلدة القديمة، ومن الأحياء وراء السوق "الورا" وتخوم مقابر "ود أم جبو"، بعضهم يجلب له طعامًا وبعضهم يجلب ثيابًا.. ويكتفي "الغتيتون كيتًا فيه" بالسؤال:

"(لطالما حكيت لنا عن أن "السوس والأرضة" هما ما يتسببان في انهيار "كرنكك".. فماذا عن حريق "كرنكك" هذه المرَّة؟)".

فيرد بهدؤ:

"إنه السوس أيضًا".

كان الخزين عادةً يجلس ليحكي للنّاس وهو عار الصدر، لكن مع ذلك لم يكن ثمَّة من ينتبه لعُريه أو كثافة شعر صدره! وكان دائمًا أمامه صحن لا يخلو من شرائح "شرموط الضان أو الكجيك الجاف"، الذي يقضمه بين آن وآخر في تلذذ واستعذاب!

أحيانًا يستلقي على جانبه في "البرش"، الذي يحرص أن يكون محاذيًا "لبنبره" العتيق، الذي لا يحركه من أمام مدخل "الكرنك" تحت ضل "اللالوبة" المعمرة، التي بمثابة شاهدًا على عصور متعاقبة للحياة والنّاس، في هذا الجزء من العالم المهموم والحزين!

أصدقاؤه وجلساؤه الدائمون، غير الوجوه الأخرى المتغيرة، ثلاثة: أعمى يحرص على ارتداء بدلة أعضاء الحزب الجنكويزي الحاكم، رغم أنه لا ينتمي لهذا الحزب، ومُقعَد أبكم يعطي جلساءه الإحساس المزمن بالقرف، ومدى اكفهرار هذه الحياة البائسة، وجادين جانو الحفيد بعقله الوقَّاد ونظراته الثاقبة، التي تشي بقدرتها على اختراق كل شيء تقع عليه!

يجلسون بالقرب منه مثل سلسلة، غير آبهين بمضايقة السابلة لهم.. أولئك العابرون من كل فجاج الأرض، و أيضًا إلى فجاج الأرض.. عندما يتوقفون عن المسير، لنيل قسط من الرَّاحة وشرب شيء من "المريسة أو العسلية أو الكانجي مورو!".

كان جادين أحيانًا، يدون بعض الحكايات أو الملاحظات كيفما اتفق.. في أي شيء يجده أمامه يصلح للكتابة عليه، لكن في الوقت نفسه كان لا ينشغل عن مر اقبة كوَّة "القطية" المجاورة.. حيث تسكن منصورة.. الصبية ذات القوام الفارع النحيف الأسمر، التي كانت ترمي بأذنيها في مثل هذه اللحظات وتمدهما، تلتقط كل حكايات الخزين ونبوءاته.

المرَّة الأولى التي رأى فيها جادين جانو منصورة، تكاد تكون مطابقة لأول مرة يرى فيها صانع الفخار الحفيد منصورة.. إذ كانت الشمس في كبد السماء. والبلدة غارقة في قيلولة غائضة، لا حدود لها، سموم هجير الصيف، جعل البلدة ساعتها، كأنها قوز رملي ناءٍ وبعيد عن كل شيء.. يغلي كآتون يحرق كل شيء، إلى درجة أن أحدًا ليس بإمكانه أن يتوقع، أن يكون بوسع أي كائن حي، أن يغيّر مصيره في هذه اللحظة بالذَّات!

كانت منصورة دائمًا ما ترتدي على كنفوسها ثيابًا بسيطة، تبدو غريبة للوهلة الأولى، إلى أن يعتاد عليها البصر! وكانت دائمًا ناعسة العينين كأنها لم تنام لقرون طويلة، وأكثر ما كان يميزها: إكليل "الريحان" الذي تضعه على رأسها، لامةً به شعرها الذي تتركه حُرًّا على سجيته دون مشاط!

يستدير جادين بوجهه الدائري الصغير، وملامحه الدقيقة، ولوهلة يحاول طرد الأفكار، التي تتحدَّر من رأسه؛ فتثقل على بصره، يتراجع! فيما يهمس إليها صانع الفخار بكيانه كله، دون أن تنبس

شفتيه ببنت شفة! فتهرع منصورة بكل تألقها.. تقطع المسافة بين قطيتها ومجلس الخزين بسرعة الجن، وتجلس في الوسط بين جادين وصانع الفخار، الذي لا يشعر لحظتها بأي غرور ذكوري!

إذ يكون وقتها محتلًا بالألق والغبطة والرِّضا التامَّين!

نساء القطاطي المجاورة.. العابسات السمينات العانسات اللعينات، يغرْنَ من جمال منصورة! واللائي كنَّ "كيتًا" فيها، عندما يعاشرن أزواجهن أو عشاقهن، يتخيلن أن من يعاشرهنّ في هذه اللحظة، هو صانع الفخار بشحمه ولحمه!

كُنَّ يضمرْنَ لمنصورة كرهًا عميقًا، إذ كنَّ يشعرن باختلافها عنهن، لكنهن لم يكن قادرات على تحديد هذا الاختلاف!

وعندما يعيين من التفكير، كن يتوهمن عشاقًا على صهوات جياد بيض، يتراكضون لإنقاذهن من أبراج خيالاتهن المرتفعة!

وكن يرين ظلالًا لحدائق يتوهمن أنها جنات الخلد، ويرين أنفسهن حوريات، تجري في دوراتهن الشهرية رائحة المسك وليس الطمث!

لو لم تكن للخزين مثل تلك الحكايات العجيبة، التي غذَّى بها عقول النّاس، لما كانت لهن مثل هذه الخيالات الخارقة! ولما عشقن الخوض في الحكايات المزعومة عن منصورة وصانع الفخار، في الأماسي الطويلة للأيام، التي تلي مؤتمرات الحاكم العام! فما عدا

حكايات الخزين، لم يكن لهؤلاء النُسوة البائرات، أي متنفس عن قسوة البلدة وقوانينها وتمييزها ضدَّهن!

سكان البلدة القديمة، كان موضوعهم الأساسي، الذي يتداولونه في ملتقيات أفراحهم و أتراحهم، هو علاقة صانع الفخار بمنصورة، وغالبًا ما شرعت بهذه الأحاديث، تلك المرأة التي يتنادم زوجها الآن مع إحدى البايرات، في السوق الورا، أمام جزارة السمك.

وربَّما أن زوج أخرى في هذه اللحظة بالذّات، بينما هو في كنتينه، خلف مقابرود أمجبو، يهجم عليه أحد الزبائن، الذين يلفظون في هذه اللحظة أنفاسهم الأخيرة بسبب تقدم السن، لأنه تحرش بزوجته، وفي الحقيقة الزوجة هي التي تحرشت به! فأهالي البلدة من صيادي السمك "المراكبية"، الذين بالكاد يكسبون قوت يومهم.. والعمال المتعبون، والرُّعاة والمزارعون الحائرون، بعد أن قضى الحاكم العام على أحلامهم في الحرث والنسل.. لم يعد أحدهم يقوى -كما في الأيام الخوالي- على العودة إلى عشه مع إحدى النسوة العابرات! فقد كانت كل الوظائف في أجسامهم قد تعطلت، ولم تعد أعصابهم تعمل كما ينبغي، إلا عند ارتياد الإندايات، خصوصًا بعد أن قتل الحاكم العام، معظم رجال البلاد الأسيرة في الحروبات المفتعلة، وشرّد البعض الآخر، بينما اختار العدد الأكبر من تعداد السكان المتبقين، مغادرة البلاد الأسيرة واللجوء، ولسان حالهم يقول:

"أرض الله واسعة!".

هذا غير المساجين والمعتقلين دون ذنب جنوه! وهكذا أصبحت البلاد الأسيرة، بحاجة لمعجزة كي لا يكون فيها نساء بايرات! ولهذا السبب بالذات، نسوة البلدة القديمة كنّ يغرْنَ من منصورة وحكايتها مع صانع الفخار!

كانت منصورة عندما تختلي بصانع الفخاروتستلقى في حضنه، تُيمِّمُ وجهها شطر السماء، وتغطُّ في نوم عميق، فلا يعود يشغلها وقتئذ شيء عن مر اقبة سحب خيالها، وهي تشهق في السماوات البعيدة، تشارك الخالق مرئياته السرّية! لا يوقظها سوى تنحنح صانع الفخار، الذي يطفق يحدثها بما تكره: أحلامه و أفكاره عن اللامبالاة والتبلد! فقد كان عندئذٍ تفكيرها ينصرف إلى خشيتها فقده.

لكن يومًا بعد يوم، كانت حدة كراهيتها لهذه الهموم العامة، تتضاءل شيئًا فشيئًا، إلى أن تلاشت واختفت تمامًا، فأصبحت تشاركه هذه الأحلام، التي أصبحت بمرور الوقت ليست أحلامًا! بل صوتًا واحدًا متوحدًا عاليًا ومرتفعًا.. يقضُّ مضجع كل سكان البلاد الأسيرة!

كان صانع الفخاركمعلمه الخزين يحب "شر ائح الشرموط المجفف" في نهارات صيف البلاد الأسيرة الغائظ.. يأكله بتمهل، كأنه يستعذب السباحة في أنهار الخمر، التي حكى له عنها الخزين! كان يستعذب طعمها، بعد أن يشمها على مهل، كأنه يشم "شربوتًا معتقًا" ليتأكد من مدى جودته!

إذن بعد عشرات السنوات، كان الخزين ود طبلة، لا يحكي عن صانع الفخار أو ينقل خبراته، للأجيال الملتفة والمتحلقة حوله عبر تاريخ البلاد الكبيرة، إلا بعد تناول شرموطه الجاف ومريسته المفضلة:

"أقول لكم.. والحق ما أقول.. أن عالم الحياة الأخرى عالم فاتن وبديع، فكل ما هناك يختلف عما لدينا في هذه البلدة القاحلة.. أول مرَّة سافرت إلى هناك، تملكني الرُّعب! فبكيت مثل طفل صغير وجسمي كله ينتفض، كنت مرتبكًا، لا أدري ماذا أفعل.. فطفقت أمشي على غير هُدىً، إلى أن مررت بحفرة عميقة مشتعلة بنيران عظيمة.

كانت صرخات وبكاء أصوات معذّبة، تأتي من أعماقها السحيقة، فسألتهم:

"من أنتم؟".

فردوا جميعا بصوتٍ واحد:

"نحن الجنكويز حكَّام البلاد الأسيرة المتعاقبون".

وعند هذه اللحظة من الحكاية.. نسوة البلدة البائرات، اللواتي تحيط قطاطيهن بمجلس الخزين، يتأوهن ويندبْنَ وهن يرددن:

"سجمي يا يمَّه!!".

فينتعش الخزين ويعمق من صوته، ونكاية فيهن يقول:

"إذا وقع أحد بحب امرأة في هذه البلدة الضالة، فهو هالك لا محالة، فهناك حفرة مخصصة لهذا الغرض".

وبغتةً تغمر عيون منصورة كآبة وحشية، فتطفق تقضم بشراهة "شرموط الكجيك" الذي علمها صانع الفخار أن تحبه، وينظر إلى أحد الذين يرتدون بدلة حزب الحاكم العام:

"وهناك حفر خاصة بالعسس والبصاصين والجند والمليشيات الجهادية".

"ماذا عن أهالينا؟".

"لقد بحثت عن أمي وعن أبي وجدي".

"وهل وجدتهم؟".

"كنت قد عدت من رحلتي قبل أن أجدهم، لكنني في طريق عودتي التقيت صانع الفخار الأكبر، مستلقيًا تحت شجرة سدر، متوسدًا ثعبانًا ضخمًا.. كان مبتسمًا في دعة وحبور"..

"صانع الفخار؟!".

"لا، الثعبان.. حكى لي أنه لقيَ حتفه قبل ثمانية آلاف سنة.. على أيدي جند السلطان".

"الثعبان؟!".

"لا، صانع الفخار الأكبر".

عند هذه الجملة يُغرق الصمت المباغت مجلس الخزين، ولا يعود الأهالي إلى طبيعتهم، إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير، حين يتعالى صراخ عجوز، لم يسبق لها أن عاشرت رجلًا حتى طعنت في السن، صبيًا وقحًا لأنه ناداها بجدّتي، الأمر الذي هدد ذكريات أحلامها في الزّمان البعيد.

كان الخزين عادة يختتم في نهاية المطاف حكاياته (أدركت شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح) وكان في ذلك إشارة إلى الحاكم العام لا باعتباره عاقرًا فحسب، بل باعتباره عنينًا أيضًا، كما تقول الشائعات!

وبعد كل حكاية، كان الدمع ينهمر مدرارًا من عينَي منصورة الناعستَين، بعد أن تغرورقا بالكحل، وتنداح من عرقها رائحة الريحان والسعدة البرية!

وفي نشيجها تعدل منصورة من الإكليل على رأسها، وتترك يدها طيِّعة في حضن كف صانع الفخار.

كان الخزين هو الرّجل الوحيد من بين الأهالي المغمورين، الذي استطاع اختراق قصر الحاكم العام، ومنحته إحدى زوجاته

العديدات نفسها في كرم ورضا، وهي تندب حظها على هذه اللقاءات السرِّية المختلسة!

كانت في لحظة الوداع الوشيك، إثر كل لقاء تفيض الدموع من عينيها مدرارة، وكان هو عندما يتسلل من قصر الحاكم العام، لا يقصد كرنكه، بل يمضي لينام في إنداية السرة كحل الليل، حيث - وكما يتوقع تمامًا- في طريقه إلى الإنداية.. وعندما يمر ببيت حمد الأعرج في ذات التوقيت، من كل مرَّة، يجده عند مدخل زريبته، التي أمام بيته وهو يهتف بحماره وولده، ليدور الحوار ذاته الذي يسمعه كل مرَّة:

"حاو حاو.. يا ولد أمسك الحمار.. كتف الغنماية أمسك داك.. اربط التورغادي لا ينطح رفيقو".

فيسأله ابنه:

"يابا هناك في شنو؟ الخدم الكتارديلك، متلمات هناك في شنو؟ يا شناتن؟".

"يا ولد البو، خلي الفصاحة واحبس البهايم و إنت ساكت".

ويترك أمر البهايم لابنه ويمضي في أثر الخزين..

"هوي يا خدم سلام عليكن".

"حباب حمد الأعرج.. كيفك يا أبو محمد".

"القرعة أسرعي يا بت".

فتناوله عشمانة الساقية قرعة المريسة، التي يأخذها بلهفة ويبدأ في الشرب، وهو يقول متلمظًا شفاهه الرقيقة، الناحلة واليابسة:

"يا زولة دي مريسة عليَّ الطلاق تكتف عديل كده".

فترد عليه السرة كحل الليل:

"هنيالك، يا بت أطبقي لخالك".

"لا لا حرم، طلاق تلاتة، فكيت الرِّيق خلاص".

يتجشأ وهو يلتفت لعشمانة:

"يا بت امرقي أربعة جرارغادي.. الليلة براي ما معاي زول".

فتسأله:

"الكلام السمعتو ده صحي؟".

"سمعتي شنو؟".

"البارح بعد إنت مشيت عبد الله أب فاطر حكالنا حكاية عجيبة".

"الممسوخ قال شنو؟".

"قال سوق ود أمجبو ما فيهو سيرة غير سيرة مرة الحاكم العام الصغيرة، النّاس شافوها في القيف جهة المقرن تمشي وتجي ليها مدة".

"وعرفوها كيف؟".

"عرفوها بعد ما اتشاكلت مع حارسها، فقامت القيامة وحضروا مسئولين جنكويز كبار في المنطقة".

وفي الحقيقة كان حمد الأعرج يعلم أن زوجة الحاكم العام تمضي إلى شاطئ النَّهر لتروح عن نفسها في الأمسيات الر ائقة، وكثيرًا ما رآها جادين جانو تروح وتجيء وحيدة، وهي تخط بقدميها على الرّمل أشكالًا غامضة! وحارسها يقف على مبعدة منها، وفي الأوقات النادرة التي كان يغيب فيها، كانت تر افق شابًا مراهقًا! ثارت كثير من الأقاويل حول علاقتها به.

وكان الأهالي المتبطِّلون الذين ليس لديهم شغلة أو مشغلة كثيرًا ما يمضون إلى الشاطئ في الأمسيات ير اقبونها من خلف دغل الهشاب الذي على ضفة المقرن، وهم يمنون أنفسهم بالقرب منها، يتآكلهم الحرمان!

¤¤¤

الآن، وروحه تغادر جسده المصلوب المحترق في فناء الكنيسة، تطوف في أرجاء البلدة القديمة وتستعيد ذكريات حياته فيها، يرى نفسه: يدور حول السوق الصغير ومقابر ودمجبو، عابرًا إلى السوق الورا، فتعود به الذكريات إلى الخلف، حيث يقف وود الخزين أحيانًا يعابثان التوم ود أب قرن الإسكافي، أو يجلسان عند قهوة ود أب دوم، يتداولان مع روادها الأحاديث التي لا تثمر..

يبحث عن الأب جميل، ويشاهد عناق الكنيسة والجامع القريب، الذي احتل جزءًا كبيرًا من أرض ود أم جبو.. شاهد ذكريات.. لكنه لم يشاهد أحدًا يمر في منتصف السوق القديم، ربما لأن الأهالي جميعًا لحظتها متحلقين حول جسده المصلوب المحترق، هناك.. في فناء الكنيسة العتيقة!

حاول فتح أبواب الحوانيت القديمة، لربما هناك روح سكير قديم كحمد الأعرج في انتظار أصدقائه، أو أحد السابلة المتعبين، لطول ما قطعوا من فيافي وغفار.

غلبه النوم على قارعة الطريق في هذا السوق.. فنام متكئًا على جدار الحانوت، سوق قديم ورجل قديم.. وحكايا الخزين الضاربة بجذورها، في ذاكرة المكان الذي هدَّته السنون!

كان السوق إذن خاوٍ لا من النَّاس فحسب، بل حتى من الحياة نفسها، فحتى القطط تهرب من وجهه.. قطة سوداء تقفز نحو الحائط القريب، كان يشعر بالحسرة والشوق لتلك الأيام، عندما

كانت فوانيس الجازتضيء السوق القديم، إلى أن يعلن صياح الديكة ميلاد صباح جديد دون أن تنطفيء!

وقتها كان يصحو باكرًا.. قبل شروق الشمس، ككل أهالي البلدة القديمة، الذين لا يوجد بينهم عاطلًا أو معطلًا، تساءلت روحه:

"ماذا جرى لأهل هذه البلدة؟".

في هذه الحوانيت والزّوايا والنحوت، التي تزين الأسوار العالية والجُدُر، التي نمت عليها الطحالب الخضراء والفطريات، كأنها تؤرخ لماضي البلدة القديمة، بسوقها الذي هو عصب حياتها و أنشطتها الدؤوبة، التي لا تهدأ في حركة العمال والصُّناع، كالحائكين والإسكافيين والدباغين، والدهّانين، والخشابين والحدادين.. في هذه الحوانيت كان النّاس، يجدون كل احتياجاتهم بأبخس الأثمان.. فما الذي جرى؟

كان سوق البلدة القديمة يجتذب السياح الوافدين، والزوار القادمين من القرى القريبة المجاورة، التي كانت تفتقد لمثل هذه الأسواق، تتسوق وتقضي حاجاتها منه.. وقد كان السوق عند أهالي البلدة القديمة يسمى "البندر" لكن أهالي البلدة القديمة، كانوا يفضلون إطلاق اسم "ود أمجبو" على سوقهم، دونًا عن كل الأسماء!

يتأمل جادين جانو إحدى الهوامش، التي خطها الخزين بقلمه البوص، على إحدى تدوينات صانع الفخار، وهو يقول في نفسه:

"ولعل سوق ود ام جبو في البلدة القديمة، كان مثالًا حيًّا لما يفضلون من خيارات حياتهم، والذي كان إلى ما قبل سنوات قليلة، قُبيل مقتل صانع الفخار، سوقًا يعج بالحيوية والحياة، أما اليوم".. وروحه تحلق في فضاءات البلدة القديمّة، كان السوق قد أقفر من تجاره وعماله وباعته وصناعيه وعشابيه، الذين يداوون الأهالي بالأعشاب.

كما خلى من تجارته الر ائجة في تلك الأيام البعيدة، إذ لم يعد هناك مشترون أو باعة، فأضحى بلقعًا يبابًا.. يلفظ أنفاسه الأخيرة ببطء! إن الذي عاش تلك الفترة الذهبية، يوم كان هذا السوق "في عزّه" لا يسعه إلا أن يتحسر على تلك الأيام الخوالي، وعلى ما آلت إليه هذه الحو انيت "المغلقة" الو اقعة على جانبيه، وقد بدت حزينة كئيبة.. بعد أن كانت في يوم من الأيام عامرة.. لا يسعه إلا أن يتحسر على ما أصابها من خراب وهجران، بعد أن هجرها الأهالي!!

وإن الذي تسوقه قدماه اليوم ليمر في وسطه، لا يسعه إلا أن يحزن ويتألم على هذا الوضع المزري، وهذا الإهمال الواضح لكل أجز ائه..

وعلى بعد مسافة قصيرة من هذا المقهى، الذي يعج مدخله بالدلالين، الذين يبيعون ويشترون ويقايضون كل شيء وأي شيء، كان سوق الخضار بمثابة خط فاصل بين السوق الصغير والسوق الورا أو سوق ود أمجبو، الذي يشمل سوق العناقريب، الذي أكثر ما تميز به صناعة البروش، والنطوع والسحارات التي تحتاجها النساء

لحفظ أغراضهن؛ فسوق العناقريب ربما لهذا السبب بالذات، كان لا يفرغ من زبائنه.. كخلية النحل.

وكان يطيب للشيوخ وكبار السن والسُكارى المتقاعدين، الذين كانت لهم في شبابهم صولات وجولات والنساء بالذات، الجلوس في هذا الجزء من سوق ود أمجبو. لأسبابٍ خفية غامضة، لا يدرون حتى هم أنفسهم كنهها!

وأكثر ما يميز سوق ود أمجبو، أنه ملتصق بالكنيسة العتيقة، الملتصقة بالجامع الكبير، الذي لا يبعد كثيرًا عن مقر الحاكم الجنكويزي العام.

ستمر عشرات، بل مئات السنوات، لكن سيظل سوق ود أم جبو يحمل آثار عزّه القديم ومجده البائد، الذي تكشف أُحفوريات صانع الفخار عن معالمه المقفرة، في ذلك العصر الكارثي.

وفقًا لمخطوطات صانع الفخار، أن من قام بتشييد هذا السوق هو الخزين الأكبر، أثناء حكم نيرون لروما في القرن الأول الميلادي، وقد كان في البدء مفتوحًا.. والأضلاع التي تشكله الآن مستحدثة، فأحد أضلاعه تم إنشاؤه في أواخر العهود النوبية، قُبيل سيطرة العرب بقليل.

أما الضلع الآخر فقد شُيد على عهد حكام الفونج، وسلاطين دار الريح الأقوياء. وبهذا المدخل توجد عدة مداخل: مدخل للسوق الصغير.. ومدخل لسوق مقابرود أم جبو.. ومدخل لسوق السمك

وجزارات الكمونية والدواجن، ومدخل للكنيسة القديمة والجامع الملاصق لها.

كان سوق ود أم جبو إذن يبدأ طريقه من حيث الجامع والكنيسة، وجزارة السمك والكمونية، ثم يتجه شرقًا حيث ينهض في بداية صفوف دكاكينه دكان الخردوات، الذي يطيب لدراويش البلدة القديمة، الجلوس تحت كشاشته.

كانوا بثيابهم الملونة يجلسون في هدوء، وهم يتبادلون أسرارهم! وبدءًا من الصف الذي يلي دكان الخردوات، يمكن للمار أن يمرَّ بشخصيات هذه السوق الثابتة والمميزة واحدًا واحدًا كلَّما أوغل في المسير.

فالمرحوم رزق كان يحترف من المهن والحرف كل شيء، بدءًا بصناعة الطواقي والمناديل والقفاف، مرورًا بقلع الأسنان المسوسة ووضع حدوات الخيل وقص أظلاف المواشي، بالإضافة إلى كونه حلاقًا وطبيبًا وحجامًا، والذي كان يسبغ على السوق جوًّا من المرح والسرور بنكاته و"مقالبه" البريئة، التي لا ينافسه فيها سوى حمد الأعرج، والتي لم يكن ينجو منها أحد!!

وطمبل صاحب الشخصية القوية، الذي قلَّما كنت تراه مبتسمًا.. والذي كانت مطرقته تترك وقعًا داويًا يرن في أرجاء السوق كله..

وجبارة الهمباتي وسابل السترو.. وغيرهم كثيرون.. خطروا على روح صانع الفخار فردًا فردًا في هذه اللحظة الفاصلة التي تفارق فيها روحه جسده المحترق.. تخيلهم وهم يخرجون متعثرين الخطى تجاه بيوتهم، بعد أن أفسد عليهم فتوات البلدة القديمة جلستهم في الأنداية، يتوهمون أشياء لم تحدث، ويضيف خيالهم لأشياء حدثت تفاصيل جديدة، ويحذف عن وقائع ما حدث تفاصيل أخرى إذ يقول أحدهم:

"والله يا جماعة أنا من الصباح عيني ترفّ ويدي ترجف، عارف الليلة اليوم ده ما بيعدي على خير".

"يا زول علي الطلاق أنا خلاص نفسي مرقت من أنداية السرة وتاني ما ح أشرب عندها".

"علي الطلاق.. علي الطلاق..".

وينسى ما يود أن يقول.. فيشد آخر مقود حماره وهو يقول:

"هع هع أقيف. يعني هسه الأولاد الخربو لينا قعدتنا ديل هم أرجل مننا.. عليَّ الطلاق ما فيهم رجل واحد.. عرعر شوف الحمار ده عليك النبي التقول سكران".

"إنت يازول، سوق الحمير عليَّ الطلاق أصبح زي النَّار، الحمار الكان بخمسين جنيه هسه بقى بمية".

"ناروين.. علي الطلاق إنتو سكر انين هسه هنا في نار؟".

"يازول عليَّ الطلاق سكران إنت براك، أقول ليك الحميرشافن النَّار، تقول لي عكازي وقع، يعني ما يقع.. أصلو عكازموسى، عليك النبي عصا ملسا ويقول عليها عكاز.. ده كلام ده".

فيقاطعهم أحدهم متوهمًا إيقاع دلوكة ونخلات: "هي هي كدي اسكتو سامعين؟ صوت دلوكة جاي من ورا النخلات ديك.. عرعر عليك الله شوف الحمارده عاقد قفاه كيفن تقول خايف".

"أبوك يا فاطمة أنا خايف؟ يعني عاقد قفاي خوف؟ عليَّ الطلاق.. يعني.. هنا.. هنا الكلام".

ويسقط من على ظهر حماره، بينما يهرب الحمارراكضًا، تجاه قلب البلدة القديمة:

"حاو. حاو. هش.. يا سيدي الحسن".

"حسن منو؟ يا زول القايم في الطريق ده عشر مافيش حسن هنا".

"يا أخو انا نحن رحنا.. الحميردي شكلها كده رجعتنا لإنداية السرة تاني، وهربت لغادي.. الحميردي الظاهرسكرت".

"لا لا شوف ديك ما ياها ميضنة كنيسة ود أم جبو؟".

"وينو؟ ما شايف جامع الكنيسة هنا!".

"عليَّ الطلاق نسكر من زمن حفروا البحر، جنس ده ما حصل علينا.. الملعونة الظاهر أدتنا من مريسة كبس التور".

"يا جماعة إنتو ناس واعيين، عيب تقولو ضهبنا.. لازم تجهزوا ليكم عذر من هسه".

"أنحنا كلامنا هين قاعدين نكوس الليل كلو للحمير الضايعة، لكن الحمير ذاتا عذرها شنو؟".

وبوصولهم إلى بيوتهم.. يهتف ابن أحدهم:

"أبوي انت سكران".

"يا ولد كفى –كفنك برش- دحين دي دقن مريسة؟!"

وعندما يسمع الجيران بوصولهم تتهامس النسوّة:

"كافي البلا وحايد المحن من الشياب العياب، السكروقلة الفكر".

كانت روحه تطوف بهم فردًا فردًا، وتستمع إلى ما يقول كل واحد منهم لرفاقه، فيبتسم وهو يرى فيما يرى النّاس، يلتفون حول أصحاب حوانيت سوق ود أم جبو، الذين كانوا في معظمهم متحدثين بارعين، يستأنس الأهالي بقصصهم الممتعة، وأحاديثهم السلسة

ونكاتهم المرحة، التي تغذّيها حكايات الخزين، التي تفيض بالحكمة والطر افة.

كل حركات المقاومة والمعارضة والهبات الثورية، كانت تخرج من قلب هذا السوق، ولهذا السبب بالذّات أصبح الحكام المتعاقبون يستهدفونه، إلى أن وصلوا به إلى هذا الحال البئيس!

كان شاغلو السوق كرواد الإنـدايات، دائمًا ينقسمون إلى معسكرَين: قسم مع الحاكم العام وآخر ضده، وكثيرًا ما كانت تدور بينهم معارك حامية الوطيس، قد يحتدم فيها النقاش، لدرجة الشتائم والسباب البذيء المقذع والعراك بالأيدي. لفرض آرائهم، إلى أن يتمكن العقلاء من فض هذه الاشتباكات..

ليعودوا في اليوم التالي، وكأن شيئًا لم يحدث البارحة!! هكذا كان أهالي البلدة القديمة، في تلك الأيام الخوالي! وهكذا ودعت روح صانع الفخار سوق ود أم جبو وهي تتحسر على أمجاده الغابرة!

وروح صانع الفخار، تحلق في فضاء سوق ود أمجبو والبلدة القديمة، وجسده يحترق هناك في فناء تلك الكنيسة العتيقة، كانت كل أسرار الخزين تنفتح كالإلهام على فضاء ذاكرته..

فمن الأسرار الخفية للخزين، والتي أبدًا لم يطلع عليها أحد سواه حتى الأطراف المباشرين لهذه الأسرار، أنه في لحظة ما، بعيدة.. توسطت سنوات غابرة في انصرام الزَّمان، وبينما كان الخزين يسكن وحده في هذه البلدة، التي لم تكن وقتها مأهولة، بسبب ما حل بها

وبسكانها القدماء من أسلافه من دمار على مر العصور.. فقد بدأ السكان الجدد يتوافدون إليها، يحيون ذكرى أسلافهم الغابرين! بعد أن شيَّد فيها الخزين أول كرنك عرفته في تاريخها القريب.

بعدها غادر البلدة إلى دار الريح لحينٍ من الوقت، وعندما عاد كانت برفقته امرأة فارعة، أنجب منها جدّة منصورة، ماتت تلك المرأة بعد فترة قصيرة، بعد أن أنجبت له فتاة جميلة، ستكون في مقبل الأيام هي الجدة المباشرة لمنصورة.

ورثت منصورة لون جدتها وقوامها الجميل، وشعرها الأسود الطويل، فضلًا عن عينَيّ الخزين اللتين كعيني صقر عجوز.

لم يطلع أحد أبدًا على هذا السر، بل حتى أن منصورة ووالدتها لم تكونا تعرفان أن الخزين في الحقيقة هو جدهما! لذلك كان الخزين سعيدًا جدًّا، وهو يراقب تلك المشاعر البطيئة المتنامية، التي تدنو حثيثًا؛ لتتصل قلب منصورة بجادين!

كان صانع الفخاري يرى روحه تخرج من أعماقه.. تحلق فوق رؤوس العسس، وجموع الأهالي المتحلقين يشهدون لحظة إعدامه..

ثمة تصفيق متقطع وزغاريد شاحبة، تمتزج في لهب النيرّان المشتعلة حوله.. ثمَّة رصاصات تتلاشى في الألسنة المتطايرة، ومن بين مشاهد كل هذه المهزلة، رأى طيف الخزين يبصق في جموع النَّاس بازدراء ومقت شديدَين!

في اللحظة نفسها كان الحاكم العام يلقي على النَّاس بيانه، حول الخونة والخوارج العملاء والمرتزقة شذاذ الآفاق.. المخرِّبين الذين سيجعل منهم أُمثولة لآخر الزّمان!

كان الحاكم العام يُلقي بخطابه في هستيريا وهو يجوب شوارع البلدة ودروبها، وسط الهتافات العالية لحزبه..

في هذه اللحظة ذاتها.. الفارقة بين عالَمَين يعلنان انتقال روح صانع الفخار إلى مثواها المؤقت، وميلاد روحه مرّة أخرى في صانع فخار جديد.. في هذه اللحظة المحاصرة برائحة القلق والحرائق والرّماد، رأى الحاكم العام منصورة بين جموع الأهالي: عينان لامعتان، شفاه رقيقة، أنف دقيق، وشعر ممشط في جدائل كبيرة يتخللها الودع الملوّن!

بدت له منصورة في فستانها البسيط، ووجهها الذي لوحته شمس البلاد الأسيرة، أجمل أنثى في الكون تقع عليها عيناه! فتوقف عن إلقاء خطبته لاهث الأنفاس، وأشار إلى حرسه الخاص تجاهها.

في تلك الظهيرة، كانت منصورة التي تستعد للاقتران بجادين، قد ارتدت أجمل ثيابها، بعد أن مشطت لها أمها شعرها، على ذلك النحو الذي يقلق ذكورة الرجال ويقض مضاجعهم.

ثم جلست على بنبرها الحميم لتستمع لنبوءات أمها، التي تفرغت لحظتها لتخط الودع وتقرأ مستقبل ابنتها الوحيدة..

كانت ترى في الودع فراشة تطير في هجير الظهيرة، وتسقط محترقة.. ثم تنبعث من جديد وتحلق بعيدًا بعيدًا في الهواء!

فيما عدا الخزين ومنصورة، لم يكن أحد يعرف أن أمام صانع الفخار أيامًا معدودات، ليفارق بعدها هذا العالم الكارثي الشائه!

في اللحظة نفسها، بينما كانت روح صانع الفخار تحلق عاليًا إلى طمأنينتها، كانت تلك الفراشة تلحق بها، وترتعش روحه دون وجل وتهدأ.. تعانق الفراشة.. تتوحد معها، يستحيلان معًا إلى بريق في اللانهاية.

¤¤¤

في الصبيحة التي سبقت صبيحة مقتل صانع الفخار بثلاثة صبيحات، قالت السرة كحل الليل لمستورة رمش العين:

"قصة غرّيبة لا يصدقها عقل!"..

"قصة شنو؟".

"عشمانة قالت كانت شغالة خادمة في بيت الوزير".

"والزَّمن ده كلو ساكتة ما قالت بغم!".

يبدو أن عشمانة التي كانت تسمع فضايح قصر الحاكم العام ورجاله، التي يتبادلها رواد الأنداية كل يوم، قد شعرت بنوع من

الاستفزاز حفزها للإدلاء بدلوها، فحسب حكايتها، أن زوجة ذلك الوزير تربطها علاقة مشبوهة بأحد الشبان المعارضين المثقفين العاطلين، والذي كان في الو اقع حبيبها هي عشمانة نفسها، قبل أن تتعرَّف عليه زوجة الوزير تدريجيًّا، خلال زياراتها لبعض أقاربها في البلدة القديمة.

وتضيف عشمانة أنه عندما توطدت العلاقة بين الشاب وزوجة الوزير، بدأت هذه الأخيرة، من حين لآخر، ترسلها لإحضار دواء خاص من الصيدلية، ودفعها حب استطلاع للسؤال عن فائدة ذلك الدواء، الذي بدا لها أن ثمنه غاليًا، إذ كان ثمن الحبة الزرقاء الواحدة منه يفوق المئة جنيه، وبعد البحث والسؤال علمت بفو ائده والأغراض التي خصص لها!

كما لاحظت عشمانة أنه كلما طالبتها زوجة الوزير بإحضار الحبة الزرقاء، كانت تعلم أنها تكلم حبيبها في الهاتف، وبعد ذلك تغادر البيت وتقضي الليلة خارجه، وهكذا علمت عشمانة بأن مشغلتها على علاقة مع حبيبها، وأضحت تعرف بأن اقتناء الحبة الزرقاء من الصيدلية يعني غياب سيدة البيت، وأنها ستنعم بالرَّاحة وتتخلص من طلباتها التي لا تنتهي، وبذلك تنعم المر أتان معًا بليلتيهما، إلى أن اكتشفت زوجة الوزير علاقة عشمانة بذلك الشاب، فحزَّ في نفسها، فطردتها من خدمتها وقطعت علاقتها بالشاب!

"عليك الله ده كلام بيدخل العقل!".

"ما لو ما بيدخل العقل، يا ما تحت السواهي دواهي يا يمَّه".

جاء صوت أحد الفتوات قاطعًا ونستهما:

"الليلة ما في مريسة ولا شنو".

"اتفضل ادخل لجوه".

الفتوات الذين كانوا يفسدون على سُكارى البلدة القديمة جلساتهم، كانوا بمثابة الوقاية والدرع الذي تتحطم عليه استفزازات السُكارى التي يطلقونها بسبب وبدون سبب، حينما يقدمون على الإندايات، يدخلونها واحدة تلو الأخرى، يسخرون من هذا ويتحدثون لذاك، يذرعون الإنداية جيئةً وذهابًا، علهم يجدون سببًا للشجار، وعندما يعييهم البحث عن سبب، يهتف أحدهم وهو ينظر بعين واحدة، بعد أن يكفي طاقيته على عينه الأخرى:

"أي واحد يفتح خشمه نحن هنا.. تعالي جاي يا بت.. عندكن شنو الليلة".

"كلو في.. مريسة.. عرقي.. بقنية..عسلية.. طلباتكم".

"خمسة قز ايز عرقي وخمسة برمة مريسة وعشرة عباركانجي مورو".

فيهتف أحدهم دهشًا:

"أبو الزفت.. أهو الطلب كدي ولا بلاش".

فيتساءل آخر:

"يا خي ديل بيجيبو القروش دي من وين؟".

"يا خي اتكلم براحة.. النّاس ديل صعبين خالص لو سمعوك".

"صعبين على مين؟ أنا عليَّ الطلاق جدي الملك بارم ديلو.. وما سائل في أي واحد هنا.. عارف ولا ماك عارف.. أما مسخرة وقلة أدب.. قال صعبين.. صعبين على منو.. صحي اللي ما بيعرفك بيجهلك، واللي ما من بلدك ما بيعرف رطانتك".

"يا خي بالله اسكت خلينا نتكيف.. يا خي ما لك ومال المصايب".

"مصايب بتاعة مين، أقوم أنيك ليك أبو حلتهم ذاتو هسه دي.. هع هع أنا الصعب المُتَّكِل بالشعب".

فينهض أحد الفتوَّة غاضبًا:

"يلا.. كلو برا.. ما عايز ولا زول هنا".

فتركض نحوه عشمانة:

"العكر عليك مزاجك منو.. سجم خشم أمو يا يابا".

"الزول الوهم داك".

فتقبل عليه عشمانة:

"ما لك عايز تخرب علينا.. قوم يا زول امرق برا".

"أمرق أنا يا بنت الكلب والله كان جا الحاكم العام ذاتو ما يمرقني".

ويحرك عصاه ويتحسس سكينه:

"أما عجايب شوف بالله ديل.. خسر انين دم قلبنا.. برمتين مريسة وقزازة عرقي.. الراجل البيطلعني لسه أمو ما ولدتو".

"يا زول أخير ليك قوم امرق بالحسنى".

فيمد يده ليضرب عشمانة التي تصيح:

"ووب عليَّ أنا.. تضربني أنا يا المايل المتهايل.. يا يابا يضربك الضريب شقاق العناقريب".

وهنا يقترب الفتوَّة:

"يا خادم أبعدي غادي خليني النجيهو ليك".

"يعني عاجباك نفسك وقايل بتطلعني من هنا يا ود الغلفاء".

ولا يتركه الفتوَّة يكمل كلامه، إذ ينهال عليه ضربًا ويحمله بين ذراعيه ويقذف به خارج سور الإنداية.. فيما يتضاير الجميع، ويبدأ

البعض من الزباين المخضرمين في التسلل خارج الإنداية، بينما يبقى المسّتجدون مكانهم.. ويعلو الصخب:

"كتلو.. جدعو.. ووب علي.. سجمي.. سجم خشم أمو..".

وهنا تتدخل السُرّة رمش العين:

"أما خمج.. الدوشة ليكم شنو.. كلو زول في محلو..".

فيقاطعها الفتوة:

"خلاص يا حاجة السُرّة نزلي البيرق وفضي لينا الإنداية من النّاس الوهم ديل.. إحنا اشترينا الشراب كلو".

وتزغرد عشمانة وهي تقول:

"أها سامعين حديث الجنيات الفناجر.. كل زول يشرب كاسو ويبقى مارق".

وهنا يتحدث كبير الفتوّات:

"كمان عليَّ الطلاق ما تاخدي ولا مليم من أي زول.. حتى العيفة الجدعناه بره ده حسابو علينا".

فيطنطن البعض: "انعل أبو اليجي الإنداية دي تاني".

¤¤¤

المرّة الأولى التي التقى فيها الخزين بتلك المرأة البدوية، الجدّة الكبرى لمنصورة، أدرك أن القدر سطر له مصيرًا غامضًا لا مفر منه! أخذ يحكي لها عن البلدة التي يحلم بتشييدها بين مقرن النيلَين، على أنقاض البلدات التي طالها الخراب والدمار عبر العصور السحيقة لتاريخ البلاد الأسيرة، فأومأت برأسها مو افقة، فابتسم وهو ينتحي بها في جوف دغل من أشجار النّال..

استسلما لرعبهما الذي يحفز عُريه ملمس النّال ورائحة قوّية قوامها العرق الزّنخ تقتحم رائحة النّال فتمتزج بها! وتجعل لخياشيمهما ملمس أعصابهما المتحفزّة.

عندما أفاقا من غيبوبتهما لم يكونا يعلمان كم من الوقت قد مضى عليهما، في تلك اللحظة بالذات، كانت جدّة منصورة تنمو في أعماق تلك المرأة البدوية.

تذكر الخزين ود طبلة كل ذلك عندما تناهى إلى مسامعه، خبر مقتل صانع الفخار محترقًا، في فناء الكنيسة العتيقة! و..

وبعد أن تهدأ المواجد والتوجدات والمحن والإحن والعداوات والغبائن.. بعد عشرات السنوات ستغني الحكامات بوحي منصورة أخرى، أغاني مشحونة بكل بذاءات العالم، ضد الحاكم العام وحزبه.. أغنية واحدة ضد الثلاثة الكبار، وأحزاب البلاد الكبيرة المخنثة!

وبالتالي يسدل الظلام أستاره، وأول من ينسحب سيكون هو صانع الفخار الحفيد ومنصورة الحفيدة ذات نفسيهما! سيسيران متعانقين: صانع الفخار طاعن في السن، يتهادى نحيلًا متعب النظرات، ومنصورة لا تزال كفتاة رشيقة القوام لم تهدها السنوات، لكن فارقتها رائحة السعدة والريحان، ولم تعد ترتدي إكليلها البري! وتشيعهما نظرات العجائز، اللواتي لم يعدن بائرات، بل جدات لأحفاد كُثُر يعمرون البلاد التي كانت أسيرة.. لكنهن ما زلن يرين إكليل منصورة.. كأنه الأمس القريب!

وعندما يخطر على بالهن موت صانع الفخار محترقاً، يشهقن، وكأن شهيقهن زفرات الموت! ثم يقلن خلال زفراتهن الحارّة:

"كانت منصورّة قديسة.. كما كان صانع الفخار.. واحسرتي!"

ذات لحظة غارقة في تهاويم الزّمن، سرقت منصورة صانع الفخار! سرقت قلمه العتيق، الذي أهداه إليه الخزين، والذي كان قد ورثه عن أسلافه، الذين اشتروه من أحد حراس منزل صانع الفخار الأكبر قبل آلاف السنوات!

كان قلمًا من شجر قنا وديان دار الريح، التي تستوطن تحته وفي لبابه حبيبات الذهب.. كل ما يميزه أنه عتيق وعزيز على قلب صانع الفخار، فهو القلم نفسه، الذي خط به كل صانع فخار من أسلافه، أحلامهم وتهاويمهم عن البلاد الأسيرة وفيها! فعلت منصورة ما فعلت، لأنها كانت ترغب في الاحتفاظ بروح صانع الفخار، مقيمةً معها طوال

الوقت.. فمنصورة كانت كتومة تظن أنها تعلم كل شيء.. وفي الحقيقة لم تكن تعلم أن البشر جميعًا، وصانع الفخار نفسه، إنما هم أقبية معتمة.. العبور من فوهاتها بقدر ما هو محفوف بالمخاطر، بقدر ما هو مليء بالأسرار، والمخاوف، والهواجس، والظنون!

¤¤¤

في تلك الظهيرة القائظة كانت أندابة السرة كحل الليل، لا حديث لروادها سوى الشائعة التي تسرّبت في فضاء البلدة القديمة عن: الجنرال الذي ضبط زوجته في فراشهما، مع أحد جنوده..

كان الجنرال قد خرج من مقر إقامته، بعد أن أخبر زوجته أنه سيغيب أياما قليلة، للقيام بمهمة خارج المدينة، إلا أن الحاكم العام أعفاه من تلك المهمة فعاد إلى البيت.

فتح الباب فصادف ابنته الصغيرة وسألها عن أمها، فأجابته أنها داخل غرفة النّوم مع الجندي، ليضع لها مرهما على ظهرها، ففهم الجنرال الوضع، وأمر طفلته بالتزام الصمت، ومضى من الباب الخلفي ليختبئ بعد أن أمر ابنته بالمكوث مكانها، وخرج من الباب الخلفي ليوهم زوجته وعشيقها، أنه لم يحضر بعد، وبعد أن فرغت الزوجة وعشيقها من مغامرتهما سألت الجندي:

"هل أجد لديك بعض النقود، فالجنرال ترك لي شيئًا ولا وقت لي للتوجه إلى البنك لصرفه".

ولم يكن الجندي يملك سوى ورقة نقدية واحدة من فئة المئة جنيه مدها إليها، مسكتها ووضعتها على منضدة بجانب سرير النّوم، سمع الجنرال من مخبئه كل ما دار بينهما وغادر المكان خلسة، دون إحداث ضجيج.

والجندي في طريقه إلى خارج الدار، حيًّا رئيسه الجنرال التحية العسكرية المعتادة، ثم سبقه نحو الباب لفتحه كما كان يفعل دائمًا، وبعد أن حيًّا الجنرال زوجته، ولج غرفة النّوم واستحوذ على ورقة المئة جنيه دون علم زوجته.

بعد ذلك أخذ زوجته و ابنته إلى محل إقامة أصهاره دون أن يكشف الأمر لزوجته أو للجندي، اجتمعت الأسرة في الصالون، فأخرج الجنرال ورقة المئة جنيه، وبدأ يعبث بها بين أصابعه متعمداً إظهارها لزوجته. عندما رأت الطفلة الورقة النقدية، طلبت من والدها منحها إياها، فقال لها بصوت متزن و اثق:

"لا أستطيع منحك هذه الورقة، إنها غالية عندي غلاء عمري، يمكن أن أعطيك حياتي إلا هذه الورقة، اسألي أمك لماذا؟".

فهمت الأم البرقية ومغزاها.. ولم تمض سوى أيام قلائل، حتى تم العثور عليها في غرفة نومها، وحولها بركة من الدماء التي سالت من شر ايين معصميها بغزارة!

كانت أم منصورة الأربعينية النّاحلة نادرًا ما تضحك، ولم تكن تبكي قط، يبدو أن كل ما هو ضروري لإثارة الضحك والدموع، قد انتهى بالنسبة لها.

وعندما كانت تضحك تأتي البسمة غامضة مبهمة، وكأن قواها لم تعد كافية لذلك، كانت ومنصورة تعيشان بمفردهن، دون رجال في حياتهن.. في قطية صغيرة، مسيجة بالطرور، على مبعدة من "كرنك" الخزين، في طرف فناء البلدة القديمة.

ماتت أمها العجوز منذ زمن بعيد، دون أن تخبرها بأصلها وفصلها، بعد أن زوجتها لأول طارق على بابها، الذي لحق هو الآخر بأمها بعد أيام قلائل من زواجه منها، تاركًا منصورة تنمو في أحشائها..

وهكذا وجدت منصورة وأمها أنفسهن، يعشن بمفردهن كأنهن امتدادًا لبعضهما. لا تأبهان لحسبٍ أو نسب، فقد عودتهما الحياة الحرمان من كل عزيز لديهما!

لكن مع ذلك كانت أم منصورة أشد ما تخشاه، أن تفارق الحياة دون أن تترك لابنتها سندًا، لذا وفي تلك الصبيحة البعيدة، عندما همس الخزين في أذنها، بأن صانع الفخار، أفصح عن رغبته في الاقتران بابنتها، لم تتمكن من إخفاء فرحتها، فملأت فضاء، كما كان الخزين يعرف.. لم يكن جزعًا ولا منصورة كذلك، لكن كان الخزين بين آنٍ وآخر تتغشاه غيمات من أسىً شفيف، تمطر على الراكوبة

أمام كرنكه فيبتل التراب بالدموع! فيشعر بأنه ليس كما ظل يظن في نفسه: يمتلك زمام الأمور والمبادرة..

كان مجرد ترقب انتقال صانع الفخار إلى عالم آخر غير هذا العالم، يفجر في نفسه كل مكامن ضعفه، لذا كان عندما يخرج إلى مريديه أثناء هذا الترقب المميت، يتعمد أن يحكي لهم حكايا طويلة لا أول لها ولا آخر، عن الموت والحيّاة والعالم الآخر، الخالي من الهواجس والظنون!

بل أخذ يتعمد لدى الجلوس إلى حواريه، أن يكون عر اقيه وسرواله الطويل نظيفًا على غير عادته، فكانوا يشعرون بأن ثمّة شيء فيه متغير على غير العادة، لكن لم يجرؤ أحدهم على النبس ببنت شفة، إلى أن دهموه بالخبر الذي ظل يترقبه لوقت طويل:

"أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة".

حاول إضفاء شيء من السكينة على روحه، حاول وقف التآكل الذي كان خبر الموت يشعله يستشري في جسمه المهدود، كالطوابي العتيقة على ضفتي النّهر!

لحظتها بدى لهم وجهه خاليًا من تلك التعابير التي ألفوها فيه، كانت عيناه مثبتتَين بجمرتين منطفئتين في رمادهما، بدا لهم كمن يحمل أثقالًا يئن تحت وطأتها. وكانت كل حكاياته عن الموت لحظتها، تطوف فوق رؤوسهم، التي بللتها الصدمة، لكن دون ذلك الصوت العميق الرّيان بالحنين والذكريات..

"كان صانع الفخار الأكبر يسبق عصره بمئات السنوات، وقد ورث عنه صانع الفخار الحفيد هذه الموهبة!"

فهو من اخترع لُغة التشفير ورموز تقنيات فك الشفرة، ورسم تصاميم أولية للأجهزة الداخلية للجسم البشري، أظهرت الخواص التي يتحدث عنها علماء هذا الزمان؟!

حكاية صانع الفخار الأكبر إذن، سيطرت على فضاءات وعوالم "صانع الفخار الحفيد" وشكلت حياته على النحو الذي قاد لأن يموت مصلوبًا في فناء الكنيسة، كما مات صانع الفخار الجد، محترقًا في قطية نائية عند أطراف إحدى قرى دار الريح!

ولد صانع الفخار الحفيد في السنة ذاتها، التي فاض فيها نيل دار صباح وهطلت الأمطار الغزيرة، فتقطعت بالنّاس السُبُل، وتهدَّمت بيوتهم، و انتشرت كل أنواع الأوبئة والأمراض المجهولة، التي لم تكن تلبث أن تصيب أحدهم حتى يفارق الحياة!

مثل كل أقر انه من أبناء البلاد الكبيرة، مضى صانع الفخار الحفيد، في طفولته إلى خلوة الخزين، ينهل على يديه علوم الأولين والآخرين.. وهكذا تحددت هويته في مجتمع البلدة القديمة، حيث تعلم من والده صانع الفخار الأب لُغته المحلية السائدة في دار الريح، إلى جانب اللُغة العامة السائدة في البلاد الأسيرة!

تعليمه في الخلوة على يد الخزين، فتح عقله على عوالم واسعة خارج حدود هذا المجتمع المحلي المحدود الذي نشأ فيه، كان عقله وقادًا، فيومًا بعد يوم مع تلقي التعليم المدني، والدراسة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تنامت معارفه، واشتعل داخله صراع خفي، لا يمكن تفاديه، بين عالمه المحلي والعوالم الأخرى، الأمر الذي فتحه على آفاق لا حدود لها. فكان يسرح بخياله بعيدًا.. بعيدًا عن حدود دار الريح، ودار صباح، والصعيد، والسافل.

الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار الحفيد، شهدت الكثير من المآسي، مثل تنامي الاحتراب القبلي وكوارث الطبيعة، والفقر المدقع الذي شمل كل أنحاء البلاد الأسيرة، بعد أن هرَّب الحاكم العام وبطانته كل الثروات، وعاثوا خرابًا ودمارًا!

كان ظل السلطة قد اختفى عن بنادر وحواضر وأطراف البلاد الأسيرة، وتصاعدت أعمال حرق القرى والسلب والنهب، وأصبح الأهالي البسطاء يقتلون بعضهم بعضًا دون أسباب وجيهة.

وكان الجميع يعلمون أن سبب هذه الفوضى العارمة، التي تضرب بأطنابها في كل شيء، هو الحاكم العام الجنكويزي نفسه، الذي كان لا يزال يصر على رفض تسليم رأسه، للمحكمة الجنائية الدولية! وبطانته وعسسه وجنده، الضالعين معه من قمة رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، في كل ما حل ويحل بالبلاد الأسيرة، بعد أن أشعلوا فيها الفتن، وزرعوها بالعداوات والغباين والإحن!

وهكذا تأجج الصراع بموالاة الحاكم العام، لأطراف ضد أخرى حتى بلغ انفراط عقد السلام مبلغًا لم تشهده البلاد الأسيرة طوال عصورها وتاريخها الغابر.

شهدت البلاد الأسيرة الإيذان بميلاد عهد جديد من الدَّم والمآسي والدموع، تمخض عن الانفصال التام للصعيد، الذي آثر الابتعاد عن جغرافيا البلاد الموحدة، بعد أن أعياه إيجاد مسوغات للبقاء مع هؤلاء القوم، المغضوب عليهم والضالين!

وهكذا بدأت تنتشر الحركات المسلحة، الهادفة للقضاء على الاستعمار المحلي الذي يمثله الجنكويز الثلاثة الكبار والحاكم العام وحزبه.

كانت قوات الحاكم العام منذ وقت مبكر قد تحركت بعدتها وعتادها، بعد أن سلحت أطرافًا ضد أخرى، وأطلقت العنان لمليشياتها بالعيث فسادًا في دار الرّيح ونهبها، وقتل وترويع الآمنين من أهلها الأبرياء، الذين دفعت بهم للسير أيامًا وليال طويلة، عبر الحدود في رحلة تيه، هي الأبشع عبر تاريخ البلاد الأسيرة!

في تاريخ هذه البلاد القديم والحديث، هناك الكثير من حالات االجنكويز، استخدمتهم السلطات الحاكمة في جيوشها النظامية، وكقوات صديقة، للحرب عنها بالوكالة.. مجندة إياهم من شتى البقاع، فالجنكويز نجدهم في جيش إسماعيل باشا الغازي عام 1821 وفي صفوف الجيش الإنجليزي المصري في حربه ضد القوات

المهدوية، وفي مقتل الخليفة ود تورشين في أم دبيكرات في نوفمبر 1899 حيث أظهرت الصور جنودًا "سود البشرة"، ليس من الممكن أن يكونوا إنجليز أو مصريين أو أرمن!

ونجد الجنكويز أيضًا ضمن القوات الإنجليزية الغازية لدار الريح عام 1916 وفي صور مقتل سلطانها علي دينار بعد عام.

وذات القوات كانت يوم مقتل السحيني عام 1921 وبعد الاستقلال المزعوم من الاستعمار الخارجي في يناير 1956 و أيلولة البلاد الأسيرة لحكومات الاستعمار المحلي، نجد الجنكويز ضمن مليشيات الحكومات الطائفية ومليشيات الحكام العامين التي تعاقبت على حكم البلاد الأسيرة، والتي خاضت بهم حروبها المقدّسة ضد المهمشين في الأطراف.

وجنكويز دار الرّيح الآن بهذا المعنى، هم امتداد لذلك الإرث غير النّاصع، للنظم التي تعاقبت على الحكم، حينما تلجأ السلطة في لحظات ضعفها لخلق كيانات موازية، لجيشها النظامي، للحرب عنها بالوكالة.

إذن استخدام الحاكم العام في حربه المقدسة الجنكويز ضد أهالي دار الريح البسطاء، لم يكن أمرًا جديدًا!

حتى تلك اللحظة الغادرة، إثر غارة مشتركة للجنكويز وجيش الحاكم العام، واعتقال صانع الفخار، ذات ليلة غاب فيها القمر واشتد عواء الريح ذارًا رمال الوديان، في عيون البلاد الأسيرة، وتكبيله

بالأغلال، تمهيدًا لترحيله إلى البلدة القديمة، لحرقه في فناء الكنيسة العتيقة!

وهكذا بقتل صانع الفخار حرقًا على الصليب، اختبأت الأسرار داخل شفرات رموزها، كخلفية مأساوية لأسئلة الذات والهُوّية في البلاد الأسيرة!

لكن مع ذلك.. هنا وهناك، كان شبح صانع الفخار، يظهر للأطفال الرضع، وهم يمصون حلمات أثداء أمهاتهم، فيبتسمون في دعة وحبور، والحليب يتسايل من بين شفاههم الرّقيقة.

ظل جادين جانو طيلة حياة معلمه الخزين ود طبلة- ينصت باهتمام لكل حكاياته عن "صانع الفخار الأكبر" الذي ولد في اللحظة ذاتها، التي بدأت فيها الممالك المسيحية، تتكون على أنقاض العالم القديم للبلاد الأسيرة، بوصول أول بعثة أُرسلت من القسطنطينية إلى بلاد النوبة، برئاسة قس يُدعى "جوليان" عام 543م بمساندة الإمبراطورة "ثيودورا".. فمكث " جوليان " ونجح في نشر المسيحية بين النوبيين، والتي كانت أساسًا قد أوجدت لنفسها قاعدة في البلدة القديمة، قبل عدة قرون.

ثم خلف "جوليان" "لونجينس" في عام 569م والذي قضى فترة سبعة سنوات، وهو يعمل بين النوبيين، ثم سافر إلى الصعيد عام 580م.

وقتها كانت مملكتي "النوبيين" و"علوة" تؤمنان بمذهب اليعاقبة، بينما كان أهل "المغرّة" يدينون بالمذهب الملكانيّ، وعندما اتحدت مملكتا النوبيين والمغرّة فيما بين عامي 650- 710م وصارتا مملكة واحدة، مكن اتحادهما من قيام مقاومة قوية ضد غارات العرب من ناحية، وإنهاء الصراع السياسي الديني والطائفي من ناحية أُخري، مما ساعد على التطوّر الثقافي.

إذن كان ميلاد من سيعرف "بصانع الفخار" في كل مرّة يولد فيها، تكون هذه المرّة بمثابة لحظة فارقة من منعطفات تاريخ سهل البلاد الأسيرة، بما تحمله روحه من روح ذلك العصر، بلحظاته المتحفزة بالعبقرية والجنون..

لحظات تمثل عالمًا بكامله، بقدرما انطوى على الأسرار الباطنية والسحر والدجل والشعوذة، وجرائم واحتيالات الساسة الطائفيين الأفاقين، وأرباب السوابق في تجارة الرق.. حفل بفنون المعمار وهندسة الزراعة، ونمو الثروة الحيوانية والغابية، والصناعة والتجارة.. و..

ويُقال إن صانع الفخار الأكبر، هو من أعطى طريق الملح ودرب الأربعين اسميهما؟! فدرب الأربعين الذي يبدأ من الفاشر، على تخوم الصحراء الكبرى في دار الريح، وينتهي عند إمبابة في صحراء الجيزة، في الجوار أسفل النهر.. توضح خرائط صانع الفخار العديد من المواقع على امتداده، خصوصًا أن للطريق نفسه امتدادًا آخر، يبدأ من

الفاشر ويتوغل غربًا ليصل دار الريح، بممالك الجوار القديمة، حيث منبع الرِّيح عند تخوم الأطلسي الرهيب.

إذن كان الطريق "درب الأربعين" يتكئ على صحر ائه، بين عالمَين يقفان عند شفاه الشمس وهي تبتسم، من وراء البحر الملوّن، وهي تنهي ابتسامتها عند الأطلسي وتغيب.

في أسفاره عبر هذا الطريق من الفاشر إلى أمبابة، حسب الأيام والليالي فوجدها أربعين يوما وليلة، فأطلق عليه اسم "درب الأربعين" ومنها سار بصيت الطريق الركبان والحداة، حتى تناهى عبر التاريخ إلى جادين جانو، الآن.. وهو يكابد ما يكابد، من أحلام صانع الفخار والخزين المنسية، متأملًا أفق البلاد الكبيرة الرّحيب، من خلف نافذة غرفته المطلة على مقرن النيلَين.

كان تاريخ "درب الأربعين" إذن -على حسب خر ائط ومخطوطات صانع الفخار، التي حصل جادين جانو على بعضها -بطرق غاية في السرية والتكتم- منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد. فرضته ضرورات فك العزلة، والتواصل بين شعوب سهل البلاد الأسيرّة والجوار.

أشار صانع الفخار في مخطوطاته إلى طرق أخرى، ظلت تربط شعوب سهل البلاد الواسع بالعالم، وهي الطريق التي تربط بين دار الريح والممالك المنتشرة، في حوض تشاد ويمر بكبكابية، ومنها الى كردفان وسنار وشندي والبحر الملوّن.

بعد مئات السنوات ستصبح هذه الطريق، شريانًا حيويًا يربط دار الريح كلها، بمنبع الرِّيح على تخوم الأطلسي، كما يربطها بالأراضي المقدّسة، خلف البحر الملوّن في دار صباح.

فعبر هذه الطريق يمضي الحجيج من "كانم وبرنو" من ممالك دار الرِّيح العريقة، في طريقهم إلى الحجاز.. حجيج كثيرون تتقطع ببعضهم السبل بين الأهل والأوطان، وبعضهم يطيب له المقام اختيارًا، وآخرون يتم ترغيبهم من سلاطين دار الريح الأقوياء، لتعليم النّاس فيقيمون ويصبحون فيما بعد أحد المكونات الأساسية، لشعوب سهل البلاد الواسع.

ثمَّة طريق أخرى تربط دار الريح بطرابلس وتونس، يوليه صانع الفخار أهمية خاصة، لا تقل عن أهمية درب الأربعين، إذ تعود أهميته للاهتمام المتزايد لدى سلاطين دار الريح الأقوياء، بالحصول على الأسلحة من شمال أفريقيا لتأمين مملكتهم، التي برزت على نحو مباغت من أعماق "جبل مرّة"، لتمثل منارة تلقي بضوئها على دار صباح ودار الريح الكبيرة حتى تخوم الأطلسي، وهو أيضًا لا يقل أهمية في مخطوطات صانع الفخار، عن الطريق التي تربط فاشر السلطان بأسيوط، في منحدر النّهر الموازي "لدرب الأربعين".

كانت كل هذه الطرق، تحمل في داخلها عوالم صغيرة متحرّكة، تتمثل في مجتمعات القوافل، المنظمة تنظيمًا دقيقًا، لا يخلو في إدارته من تراتبية تعني بكل شيء، حتى جوانب الأمن تجاه هجمات قطاع الطرق، ولصوص الصحراء والجنكويز.

وهكذا كانت حركة مجتمعات القو افل و أنشطتها، لا تهدأ منذ نقطة البداية حتى نقطة النهاية.

بعد مئات السنوات في محطات هذا الدرب، عثر الكشاف "جاك رينولـد" على مخطوطات مهمـة لصـانع الفخـار، أدى فـك شـفرات رموزهـا، لاكتشـاف أن "وادي هـور" في دار الـريح هـو نهـر قـديم بطـول ألـف كلـم، حيث ينبع مـن هضبة جبل مرّة ويلاقي النيل بـالقرب مـن "دنقلا العجـوز"، و أنه كان يُستخدم أيضًا -نهر هـوّر- لـربط دار الـريح بالبلـدة القديمـة، حاضـرة الـبلاد الأسيرة. اهتمـام سـلاطين دار الـريح الأقويـاء المتعـاظم، بكل هـذه الطـرق، وخاصـة درب الأربعـين وطريـق الملح، ترتب عليه التجهيزات الكبيرة التي تُجرى على طول هذه الطرق، مـن حفـر الآبـار وصيانتها، و إقامـة الحبـوس لتأديـب قطـاع الطـرق، و إقامة الربط لعابري السبيل والحجاج فيما بعد.

وربمـا السـبب الأساسـي لهـذا الاهتمـام، هـو أن السـلاطين وجيوشهم، كانوا هم الممولين الأساسيين للقو افل، وكما أن الطريق "درب الأربعـين" ارتـبط فـي وجـدانهم، بأحـداث دينيـة مهمـة عبـر السنوات.. آخرها تلك الكساوي، التي كان يبعثها أولئك السلاطين إلى خُدَّام الحرمَين الشريفَين، وأهل الحجاز الفقراء والمعدمين!

وباستثناء المعلومات التي أوردها صانع الفخار، لم يهتم أحد عبر العصور بإعطاء أي نـوع مـن المعلومـات، التي تميط اللثـام عـن هـذه الطرق، سوى ما تم تناقله شفهيًا وغذاه الخيال الشعبي.

يسأل أحدهم حمد الأعرج:

"يعني يا عم حمد العرب ديل هم عرب بطاحين ودناقلة وفور وشكرية وهدندوة ودينكا و أنقسنا ولا عرب تانيين؟".

"عرب وبس.. عرفت عرب يعني شنو؟ يعني العرب، العرب، العرب".

"لكن بقوا عرب كيف؟".

"يا ابني ديل من يومهم عرب".

"طيب الجعليين ما جدهم الفضل بن العباس".

"يا ابني ده كلام جرايد ساكت.. الفضل ده وحياتك كان عاقر.. القصة تاريخ ولا كوار..".

"طيب جو من وين؟".

"سؤال زي ده إلا يرد عليهو المهدي".

"واشمعنا المهدي؟". "لأنو نوبي من جزيرة لبب، وكمان بعد ده كلو جده الرسول.. موش حاجة غريبة؟!".

خدم صانع الفخار كمهندس للقصر الملكي في علوّة، وكمهندس زراعي في المغرة، وكمهندس طرق في سوبا، وتنقل في أرجاء البلاد الأسيرة متتبعًا صوى الساري وعلامات الطريق، التي تفضي بطريق

الملح إلى تخوم ممالك الساحل، أو تقود درب الأربعين عبر منعرجات اللوى إلى منحدر النّهر.

وبحسب "الخزين طبلة" أن صانع الفخار الأكبر ولد في "جبال كتري" في قلب البلاد الأسيرة وتعلم على يد "الفقراء الرُّحل"، وعمل في طفولته مزارعًا بالأجرة في "حلالات وقرى دار الريح"، وعندما اشتد عوده ارتحل إلى دار صباح، فكان له ما كان في قصور الممالك النوبية.

كتاباته ومخطوطاته كتبت بلغة الفور والنوبية القديمة، الممزوجتين في لغات الصعيد ودار صباح، ما جعل هذا المزيج اللُغوي المحير من الرّموز، عصيًا على البوح بكل مكنونات ما يريد صانع الفخار أن يقول؟!

بانتقاله من دار الرّيح، التي تعتمد في حياتها على مياه جوف الأرض والمطر، إلى دار صباح التي يشكل النيل شريانها.. وأمام رهبة هذا النّيل، ابتدع صانع الفخار طرق الرّي الفيضي والحوضي.

"كان صانع الفخار يمتاز بخيال واسع وأصابع ماهرة!".

عندما شعر من حوله في القصور، بتنامي نفوذه، أخذوا يدبرون المكائد للقضاء عليه! فوقتها كانت بطانة الحاكم العام، قد فرغت لتوها من التخطيط، لفرض سلطتها وتكريسها لأطول وقت ممكن، باستخدام الأفكار والأهداف السياسية النابعة من عقائد النّاس، وتوظيفها لخدمة الحاكم العام.

فقد كانت هذه البطانة تعتقد أن عقائد الأهالي ليست مجرد عقائد فحسب، إذ هي أيضًا نظام سياسي واجتماعي وقانوني و اقتصادي، يصلح لصياغة البلاد الأسيرة كدولة مقدسة! تستمد حياتها وسلطانها على النّاس، مباشرة من الإله الذي يحكم العالم!

وكان أن حدث أن قام بعض العسس المتطرفون، بمحاولة قتل أحد زعماء الجوار، وحرق مركزًا تجاريًا ضخمًا عند تخوم الأطلسي الرهيب، منذها وقد توجهت الأنظار والاهتمامات، إلى ميليشيات الحاكم العام وحزبه الحاكم، لدراسة أفكاره وتحديد مدى خطورتها، على أمن واستقرار البلاد الأسيرة والجنس البشري بعامة، وهكذا أخذ العالم يعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات، للوصول إلى نتائج بهذا الشأن.

كان صانع الفخار الحفيد يرى:

أنه لا يوجد فرق بين أفكار هذا الحزب وعقائد الأهالي، فعقائدهم هي نفسها ما عبرت عنه بطانة الحاكم العام في حزبها، وهكذا لم تعد المشكلة في الأفكار التي يحملها حزب الحاكم العام بحد ذاتها، بل في مصدرها وطبيعتها وكيفية عملها في الناس، لدرجة تقبلهم تهديدها لحياتهم!

إذ لم يكن صانع الفخار يرى فرقًا بين هذه العقائد وتجلياتها ومظاهرها وممارساتها العملية، في خطابات الحاكم العام، لذا كان يرى أن من الخطل الفصل بين أفكار هذا الحزب، والعقائد التي يؤمن

بها الناس! كطريقة وأسلوب للحياة محتشد بالنواهي، والأوامر، والفساد، والإفساد.

كان صانع الفخار يُدرك أن هذه العقائد تخرج عن حدود خصوصيتها، لدى تأويل حزب الحاكم العام لها، بما يخدم أغراض السلطة وأهدافها، ويؤمن لها وجودًا شرعيًّا هي بحاجة إليه، ولذلك كان يرى الأموربطريقة مختلفة، إذ يعتقد أن إيمان البعض أو إلحادهم، هو شيء يخصهم وحدهم، وفقًا لقناعاتهم الفردية، وذلك أن القناعات لا يمكن حسمها بقرارات السلطة، وهكذا طوّرمفهومًا للحرية والاختيار، شاع كثيرًا في أنحاء البلاد الأسيرة، لكن عجل بتآمر بطانة الحاكم العام عليه!

وكان صانع الفخارعندما ينظرلكل هذه الطوائف، التي أنشأتها بطانة الحاكم العام. يدرك أن البلاد الأسيرة كوطن تمضي إلى حتفها، بحلول الطائفة محل هذا الوطن، الذي هي نقيضه!

إذن كانت الطائفية بمرورالوقت قد سادت، وتوارى سهل البلاد–الوطن.. وتفشى القمع والفقرفي كل تفاصيل الحياة، لكن منذ تلاشت الفروقات بين عقيدة النّاس وممارسات الحاكم العام.. لم تعد البلاد "كوطن" تحتمل هيمنة الطوائف، التي تنذربتهديد وتبديد كل ما هو جميل!

في قيلولاته المتباعدة، كان صانع الفخاريتكئ على جذع النيمة العجوز، على مشارف البلدة المترعة بالأسى والأحزان.. يلقي برأسه إلى

الخلف، ويغمض عينيه. فيتداعى إلى فضاء ذاكرته صوت الخزين، يحدثه عن الطائفية وخداعها للنّاس واستعبادهم، و انتزاعها لأحلامهم من بين تلافيف أشو اقهم وتطلعاتهم، لتشيد امتيازاتها الخاصة، وسلطتها وسلطانها عليهم!

فالطائفية كحزب الحاكم العام، لا تأبه لخير المجتمع ورخائه، بل تعيش من تخلف النّاس واختلافاتهم وجهلهم، ولتكريس تلك الاختلافات والتخلف، تتحالف مع كل ما من شأنه القضاء على معارضيها، الذين لا تتورَّع عن قتلهم معنويًّا، وإهدار دمهم بتكفيرهم وتنفيذ الحدود فيهم.. إرهابهم ومحاربة كل ما يمكن أن يجود به العقل البشري لتنمية حياتهم!

إذ ترى أن ما تطرحه مقدسًا، يستمد نفوذه من قدسية العقائد، وأي اختلاف معه هو اختلاف مع المقدس نفسه! وهو ما يهدد البلاد الأسيرة بالزوال، إذ يعصف بالمجتمع، لأنه خارج وجدان الأمة!

كان الخزين يرى أن التشريع لحياة النّاس، يجب أن يكون متعددًا المصادر، فحياة النّاس وميولهم أوسع من أن يتم تحديدها بمصدر وحيد، يتقاصر عن شمول ما بلغه العقل البشري وحياة الأهالي من تطور!

إذن تمكنت الطائفية وحزب الحاكم العام أخيرًا من تحويل إنسان البلاد الأسيرة إلى حطام إنسان فقير معدم، وضعيف تتناهشه

المجاعات وينهش بعضه البعض، فكان صانع الفخار يفكر في السبيل لتحرير النّاس والبلاد، باسترداد روحها السليبة بسبب الإستخدام السلبي لوظيفة الدولة ومؤسساتها، من قبل الذين يدّعون امتلاك الحقيقة المطلقة، واحتكار المعرفة بعقائد النّاس، وهم في الو اقع حرّاسًا للنَّو ايا وفقهاء للظلام! الذي يسيطرون به على العقول والحياة؛ فيحققون أغراضهم الدنيوية، التي تتناقض مع القيم المعلنة للعقائد.

وهكذا يتم تعميم أنماط الاستغلال والاستعباد والقهر الإجتماعي كو اقع لا يمكن تغييره. لذا كان صانع الفخار منشغل البال دائمًا، بإيجاد السبيل للارتقاء بمفهوم للقانون، ينظم حياة النّاس دون أن يهيمن عليهم.. قانون يغذي التسامح المفقود، ويعيد البلاد الكبيرة إلى مسارها في التاريخ..

كان يحلم ببلاد تخلو من الدّم والتطرف والإنتقام.. بلاد تتقلص فيها الأنشطة الهدّامة للطو ائف والإثنيات والجماعات، ويحمي القانون شعوبها بشكل متساوٍ.. حيث لا توتر أو اقتتال.

إذن بما تنطوي عليه منحوتاته ومخطوطاته من روح ثورية، ألهمت الحركات المسلحة في أطراف البلاد الأسيرة، كانت أفكار صانع الفخار، تخيف كل الذين ارتبطوا بحزب الحاكم العام وطو ائفه الجنكويزية، فخشَوا من النتائج التي تختبئ خلفها، وهي النتائج نفسها التي حفلت بها معتقداته، حول أسئلة ذات وهُوية البلاد الأسيرة.

فصانع الفخاركان يؤمن، بأن العقل هو الذي يؤهلنا يومًا ما، لمعرفة الإله المهيمن على كنائس الممالك النوبية، وأي إله آخر تقترحه الديانات السابقة أو اللاحقة.

هذا الاعتداد بالعقل، دفع رجال الدين إلى مطاردته، وتدمير ما طالته أيديهم من أعماله، بغرض أن يذكر التاريخ أنهم فعلوا كذا وكذا ويشتهرون! لكن التاريخ خيب ظنهم، ولم يذكر اسم أي واحد منهم! فظلت هذه الحقبة بحد ذاتها لُغزًا محيرًا؟!

الملكة النوبية (الكنداكة) التي رغم اعتناقها ونشرها المسيحية في قومها، حافظت على إرثها السابق، لكن ما أن توفيت حتى أصدر كبير وزرائها أمرًا بمسح اسم صانع الفخار، من كل نقوش الكنائس النوبية، وتدمير معمل صانع الفخار في "سوبا" تدميرًا كاملًا!

كما حرمت الكنيسة النوبية صانع الفخار نفسه "حرمانًا كنسيًّا" بتهمة الهرطقة! وهكذا عاش صانع الفخار أيامه الأخيرة مطاردًا، إلى أن تم إحراقه ذات صيف قائظ، في ساحة الكنيسة الكبيرة التي يلتقي فيها نهر هوّر النيل في دنقلا العجوز؟

قُتل صانع الفخار الأكبر بالطريقة ذاتها، التي قُتل بها صانع الفخار الحفيد، فمات وحيدًا حزينًا أسيانًا تشيعه آلاف الحسرات!

¤¤¤

في تلك الظهيرة البعيدة، وعلى الطرف الآخر من البلدة العتيقة، في اللحظة نفسها، التي صعدت فيها روح صانع الفخار، تطوف في سماء البلدة المكفهرة، كانت إندابة الفدادية كلتوم، تشهد فصلًا مشابهًا لما يدور في إندابة السُرة كحل الليل، فبعد أن بلغ السكر بالجميع مبلغه، أخذوا يتفاخرون ببطولات وقصص من وحي القمع العنيف، الذي كانت تشهده البلدة القديمة منذ تولى إدارة جهاز الأمن الجزار المروع الترح، الذي استأسد على الأهالي البسطاء بجبروته، فأخذوا يحسبون له ألف حساب في العلن، بينما يمضون سرًا في الإندايات يلوكون سيرته، ويشيعون أسراره المسرَّبة، خصوصًا التي تتعلق بخوفه من زوجته وتضاؤله أمامها، حتى ليصبح بوداعة الحمل!

كانت الزوجة من طينة النساء اللواتي، يسرن على حل شعرهن.. تحيا حياتها كما تريد، دون اكتراث لأي شيء، فقد دأبت على معاشرة الشبان والمراهقين بدون حسيب أو رقيب، الذين لم يكن زوجها عندما تتناهى إليه تقارير البصاصين عن أحدهم، يجرؤ على التعرض له خشية أن يتسرب الأمر إلى زوجته، فلا يتعرض للعشيق المعني إلا بعد أن يأتيه البصاصون بتقارير أخرى، تؤكد أن زوجته ما عادت تربطها به صلة، فلا يلبث العشيق أن يختفي في ظروف غامضة دون أن يخلف وراءه أثرًا! ويصبح في عِداد المفقودين!

كانت زوجته قد بلغت حدًّا من الجُرأة، باتت معها تستضيف عشاقها علنًا، تارةً في وضحِ النّهاروأخرى خلسة، بمحل إقامتها المحروسة ليل نهار، بالبصاصين الجنكويزوالعسس.

وذات يوم حضر الترح على حين غرّة، وضبط زوجته في أحضان شاب بغرفة النّوم، ولم يحرك ساكنًا كأن الأمرلا يعنيه! إذ ظل متسامحًا فوق العادة تجاه زوجته، في الآن نفسه كان يمضي يبث رعبه في البلدة القديمة!

إنداية كلتوم الفدادية كغيرها من إندايات البلدة القديمة، لا تتوقف عن تناول فضايح البلدة القديمة، ولا يكف روادها عن المعارك الصغيرة التافهة، والتفاخروالمبالغات، إذ ما أن تلعب المريسة برؤوس روادها، حتى تسمع أبكرالفوراوي يقول لعبد الله الجلابي:

"يا خي كان درت الرجالة تلقى في دارنا، وفي دارنا في بيتنا، وفي بيتنا أنا وإسحاق أخوي.. وكان قربت إسحاق داك تشيفي ناروولع، وكان جيت عليَّ أنا أبكرده، أخيرتقبل عليَّ نارك".

"أنا والله حجابي ده الرصاص ما ياكلو".

"هاي يا فلنقاي يا هوان، رصاص وين.. أنا والله الرصاص ينزل فوق، وكان مكضبني أسأل حليمة.. شافت بي عينا".

وينعطفون بالحديث إلى منحىً آخر:

"البارح إسماعين دق مرتا".

"سوى شنو يا ربي؟".

"إنت ما عارف؟! المرا قالت ما بتسوي المريسة!".

"الله ينعل مرا تاركة الصفاية!".

"تاركة الصفاية منو بيقعد في جوديتها؟".

وينعطف سمرهم مرّة أخرى إلى نقطة بدايته، إذ يتذكرون فجأة غلاطهم حول الحجاب:

"والله الليلة إلا نجربي العكازده فوقك.. نشوف كان حجابك نافع".

وتدور العصي، وتخرج السكاكين من أغمادها وتصيح النساء:

"سجمي طعنو.. كتلو..".

بينما هم يتصايحون:

"رميتا ولد البقس.. ولد الكافرة..".

ويتدخل العقلاء يفضون الاشتباك بالقوّة..

"والله كان ما إسحاق أخي حجزني منك، كنت أسل حلقومك.. قال حجابي يسوي ويسوي..".

ويعقد لهم مجلس الأنداية كيفما اتفق محاكمة عاجلة..

يقول رئيس المحكمة بعد استعراض الحيثيات: "تسووا دواس ساكت.. ده كلام شبع.. الليلة إلا تشوفو كلامنا نحن ترا.. كلامنا حار ما زي كلام الحكومة".

"انا والله قاعد ساكت نشرب في مريستي، الجلابي ده براهو جا قعد معانا".

"المشكلة وين هنا؟".

"وكت مريسة طلعت في راسو، قال حجابو أحسن من حجابي.. ونبذ حجابي.. طقاني بالعكاز فقمت طقيتا".

"و انت يا الجلابي طويرة البقر، الدواس كلو جبتو إنت.. قولك شنو في كلام أبكر؟".

وكان الجلابي يدرك أنهم ينحازون لأبكر:

"ما عندي قول غير كلمة واحدة بس، كلام أبكر ده كلو غلط.. هو بدأ الدواس.. و".

وهكذا تستمر محكمة الإنداية المنعقدة تستمع إلى مغالطات الجلابي و أبكر.. فيما تبدأ الساقيات المتعاطفات مع أبكر، بما يحملنه من بغض مكتوم للجلابة، على خلفية تاريخهم في جلب الرقيق، تتغامزن:

"هي يا يمه هي.. شوف عيني الجلابي بال في لباسو".

فيشعر الجلابي أن أفضل شيء بإمكانه فعله الآن، هو الخروج بهدوء، وألّا يعود إلى هذه الإنداية مرّة أخرى أبدًا.. فأرضُ الله واسعة والإندايات كثيرة!

في هذه اللحظة نفسها، التي تسلل فيها الجلابي خارجًا متعذرًا بقضاء الحاجة.

في تلك الظهيرة البعيدة، وفي هذه البلدة المتكئة على مقرن النيلين، كان الأب جميل قسيس الكنيسة العتيقة، قد بدى معتلًا.. لا بسبب الاعتكاف وقلة النوم والطعام، بقدرما كان بسبب مشاعر غامضة لا يدري كنهها، ظلت تتناهبه لأيام.

وفيما أخذ القس يعد التحضيرات، مجهزًا نفسه للقداس، بعد اعتكاف دام لشهورٍ طويلة.. لامست أنفه رائحة غريبة! هي مزيج من رائحة أوراق الشجر المعطونة في مستنقعات البلدة الصغيرة، ورائحة روث الحيوانات! فبدا له ذلك غريبًا! فالمستنقعات كانت جافة، بسبب عدم هطول المطر، أو فيضان النيل ذلك العام.. أراضي البلاد الأسيرة كانت قاحلة.. وكل النباتات قد ذبلت، وكل الأعشاب قد جفت منذ أمد طويل، وأصبحت هشيما كالهبود، لذا كان من الغريب أن تتحسس خياشيمه، مثل هذه الرائحة التي عبق بها الهواء، الذي يحيط بالكنيسة.

وكأنما البلاد الكبيرة تعيش إحدى خر ائفها المنصرمة، منذ زمان بعيد! لم يجد القس تفسيرًا لهذه الرّ ائحة، فترك كل شيء ومضى لا يلوي على شيء،

في طريقه مر بجمهرة من النّاس، حول سجن البلدة، الذي كان في مساحته، أكبر من مساحة البلدة نفسها! ففكر في السجناء الذين تعاقبت عليهم الفصول، دون أن يروا أهلهم!

ثم عبر إلى الفناء الذي يتوسط البلدة، حيث سوق ود أم جبو الورا السوق الصغير.. الذي كان خاليًا من المارّة ودكاكينه مغلقة، لم يكن هناك سوى دكانةً واحدة غير مغلقة.. اقترب منها.. كانت مهجورة رفوفها خالية.. ويبدو أن صاحبها هجرها منذ وقت طويل، وقد عبقت فيها تلك الر ائحة..

الر ائحة نفسها التي حاصرت الفضاء حول الكنيسة، و انتشرت في فضاء البلدة!

كان شعورًا غامضًا هو ما يسيطر على القس لحظتها، فانحنى يصلي لتحفظ الرّوح القدس البلدة، التي كانت تمضي بخطىً حثيثة، نحو النهايات الوشيكة والزوال!

كان حدسًا خفيًّا يجعله يوقن أن ثمة هلاكًا وشيكًا! وهو منقطع في صلاته عن الدنيا، سائلًا الرّب الغفران والرفق بشعب البلاد الأسيرة.. كان متعبًا.. حتى أنه أثناء صلاته، كان يغفو بين الآونة والأخرى بعينين مفتوحتين، إلى أن رأى ضوءًا ساطعًا، وسمع ضجيجًا

عاليًا يتخلل الضوء، الذي تشبعت به الرّائحة، التي انتشرت في فضاء البلدة. فأخذ كل شيء يدور أمام عينيه: الدكاكين المهجورة، بقايا الشجر الجاف، الدروب الضيقة..

لم يكن يدري كم من الزّمن استمر على هذا الحال، إلى أن انتبه أنه لا يزال في فناء الكنيسة، التي لا يدري كيف عاد إليها؟! انتابته الظنون، أن كل ما حدث ربما هو أضغاث أوهام!

كان الهواء المشبع بتلك الرّائحة يجرح رئتيه، فيشعر بالألم والضيق، عند دخوله إلى حيث يُقام القداس، كان يعرف.. كما ظل دائمًا يعرف أنه بين يدي الرّب، فإذا خطرت بباله فكرة ما، كالخواطر التي تشعلها هذه الرّائحة، التي هيمنت على كل شيء، تحول الخاطرة دون تركيزه في الصّلاة، ولهذا السبب لم يقدر على إكمال طقوس القدّاس، فمضى يخلع قلنسوته ويغلق عينيه، عسى أن ينام فتهدأ خواطره!

تناهت إلى مسامعه أصوات مختلطة.. متزاحمة في بعضها البعض.. ارتدى ثيابه على عجل وخرج.

تبين أهالي البلدة كأنهم ينشقون من جوف الأرض، يتزاحمون حول الكنيسة، وأخذ يستعرض وجوههم، إلى أن توقف عند صانع الفخار، الذي كان مقيدًا يرسف في الأغلال.. يحاصره رجال الترح من كل جانب..

توقف يتأمله طويلًا.. بدا له صانع الفخار أنيقًا في ابتسامته، التي لا يتغشاها الخوف أو الوجل..

كانا يعرفان بعضهما، فصانع الفخار الذي كان ينتظر المصلين لدى خروجهم من الجامع ظهيرة كل جمعة، ليخطب فيهم، كان يفعل الشيء نفسه بالخطبة أيام الآحاد، في المصلين الخارجين لتوهم من الكنيسة، بعد فراغهم من صلاتهم، وكان القس يستمع إلى خطبه باهتمام، ثم يهز رأسه وينفلت إلى داخل الكنيسة، إذ كانت خطب صانع الفخار، التي تخلو من الغيبيات، تذكر القِسَّ بفخار المعابد القديمة!

مع ذلك كان يحب مبالغتها في رصد حياة النّاس، ويبتسم حين يتذكر أنهم أنفسهم، لا يدركون حجم ما يعانونه! لذا كان يعتقد أن من الخطل تبصيرهم بذلك وجعلهم يذوقونه! ولهذا السبب بالذّات حرص في صلواته، أن يستخدم كلماتٍ ورموزًا إيمانية عاطفية، تطمئنهم أن كل شيء على ما يرام، وأن الله إذا أحب العبد ابتلاه! وأن الفقراء يدخلون الجنّة! وأن المغرضين وحدهم من يريدون تصوير الحياة لهم، بعيدًا عن ملكوت ورحمة الرّب، الذي تقدَّست أسماؤه في الأعالي.. فالأرض ملأى بثمار الحب والسلام وما عليهم سوى قطفها؟!

كان كلاهما –صانع الفخاروالقس- يعلمان أن الأب جميل كاذب أفاق، مثله مثل إمام جامع سوق ود أم جبو.. فالاثنان يستغلان عقائد الأهالي البسطاء، التي تجذرت بأسرارها في القرون البعيدة، لإفهامهم أن السلام في متناول أياديهم، التي ما عليهم سوى مدها!

لذا في تلك اللحظة الفارقة، التي أدرك فيها القس أنها اللحظة الأخيرة، لصانع الفخار قبل أن يغادر الحياة، إلى حيث الأعالي، ليسبح في النيران السرمدية المفزعة، جزاء أفكاره الشريرة التي تريد تغيير حياة النّاس!

في الحقيقة لحظتها كان صانع الفخار، يفكر على نحوٍ مختلف، فمن قلب وحدته البديعة المعزولة في التاريخ.. وهو يحاول تحريك يديه المغلولتين، كان يرى كل شيء مختلفًا، وهو يشعر بدنو الأجل للقاء أجداده من صانعي الفخار العظام، حيث الأنهار الفريدة للخمر واللبن..

كان مظهره ملفتًا للنظر في هذه اللحظة بالذات، أكثر من أي وقت مضى، بشعره المجعد الغامق، ووجهه الدائري، الذي اختفت منه التغضنات والأخاديد، التي لطالما برع الدهر في رسمها.

شفتاه الناديان رغم يباسهما، حتى عيناه.. كانتا ثاقبتين رغم الشحوب، الذي لاح عليهما بشكلٍ غير مألوف!

"كان شكله حقًّا ملفتًا للنظر".

هكذا ظلّ القس لسنوات عديدة يتنهد، أثناء خطبة مكرورة، ملَّها المصلين، فلم يعد أحد يأبه للصَّلاة في الكنيسة لسماعها.. هكذا كان يتنهد.. كلما خطرت سيرة صانع الفخار، التي لا تخطر على باله، إلا أثناء إلقائه تلك الخطبة.

كان شبح صانع الفخار يطارده أثناء خطبه المكرورة، بتلك الهيئة غير المألوفة، في تلك اللحظة الفارقة بين عالمين.

الأهالي الذين كانوا متحلقين حوله في تلك اللحظة، كانوا يجزمون فيما بعد، بأن العسس عندما أشعلوا فيه النّار، بدى غارقًا في مطر العينة الغزير..

"كان مشرقًا يرفل في سعادة خفيّة، كما لو كانت النّار تغسله من كل خطايا البلاد الأسيرة.

في اليوم الذي أُعدم فيه صانع الفخار صلبًا وحرقًا، اختفى الخزين ود طبلة، كأنه لم يكن جزءًا من نسيج هذه البلدة المعذبة يومًا، ثم لم تلبث أن تواترت عنه الأخبار، فالبعض يقول إنه رآه أثناء نومه:

"لكن وجهه كان يشبه شيئًا لا شبيه له!"

البعض الآخر ممن زعموا رؤيته في سرهم، تكتموا على الأمر ولم يفصحوا عنه، إذ كانوا يحاولون جهد طاقتهم تجنب تحقيقات عسس الحاكم العام وحزبه، فكانوا يتدربون على أنفسهم في القيام بدور المحقق!

وفي الحقيقة لو أنهم ذهبوا إلى العسس، لما تغيَّر شيء في المسألة، إذ ليس بإمكانهم تقديم أي حقائق عن رؤيته، أو المكان الذي يختبئ فيه الآن، أو آخر مكان رأَوه فيه، قبل أن يبلغوا العسس! إذ ليس

لديهم أي براهين أو دوافع محددة، فهم ليسوا على يقين.. حتى.. من أنهم متعاطفين معه، ومع صانع الفخار أم حانقين عليهما؟!

كما أنه كان قد تولد فيهم انطباع عام –مثل كل الأهالي- باللامبالاة، وبلا جدوى أي شيء، لذا عندما يفكرون في الأسباب، التي تجعل العسس يجدون في البحث عنه، لا يتمكنون من إيجاد إجابات شافية، فيرمون برؤوسهم إلى الوراء وهم يتنهدون:

"على أية حال الخزين هو الوحيد الذي يملك أدلة براءته".

كانوا في حالة من البلبلة جعلتهم لا يميزون، أو يخطر على بالهم سؤال:

"البراءة من أي شيء؟ وماذا فعل ليُدان؟ أي تهمة؟".

ففيما يبدو أن سكان البلدة قد أصيبوا بالخبال، وهم يرون صانع الفخار يرحل مصلوبًا ومحترقًا في كنيسة البلدة القديمة، ورماد عظامه يغطي سطح النَّهر، فيسد القناة التي تقرن النّهرين.

بُعيد إحراق العسس لصانع الفخار، والاختفاء الغامض للخزين، شدّد العسس من مراقبتهم أكثر من ذي قبل.. كان الجميع يراقب الجميع كل لحظة!

في البدء حاول الأهالي التعبير عن استيائهم وسخطهم من هذه الدّوامة، التي كانت تشدّهم للقاع، لكن مع اشتداد القمع، كانت

همتهم قد فترت، وشعروا بأنهم تقدموا في السن كثيرًا! بل أخذوا بمرور الوقت يعتادون الأمر، ولم يعد أحد يأبه لما يجري في البلدة القديمة، التي توشَّحت البؤس والحزن المقيم؛ فالعسس كمخلوقات فظة ووضيعة، تمكنت من زرع كل أنواع المخاوِف والظنُّون، في الوجدان الهش لأهالي البلدة البسطاء! بعد أن تربصوا بهم في كل مكان، بكل ما كانوا يضمرونه من أحقاد وضغائن ضد المعارضين.

مع ذلك ثمّة شيء واحد كان يهيمن على فضاء ذاكرة الأهالي الطيبين، من آن لآخر: شبح صانع الفخار، الذي ظل يطاردهم طوال الوقت!

¤¤¤

وفيما البلدة القديمة تعاني أحزانها، انفجرت في الإندايات حكاية جديدة طغت على ما خلَّفه مقتل صانع الفخار من مناخٍ كئيب، إذ على نحوٍ مفاجئ، فتح نظام الجنكويز كل نوافذ إعلامه لبعض نساء كبار الموظفين، للحديث عن حقوق النساء السحاقيات، وهكذا بات الجميع مشغول بالجندر، وكالعادة انقسم رواد الإندايات لفريقين، فريق يدافع باستماتة عن حركة السحاقيات ويعلن مساندته لها، وفريق يقف ضد المثليين عمومًا في مشارق الأرض ومغاربها لا البلاد الأسيرة فحسب، فيما فريق لا يعده أحد كان ينظر لحركة الفيمينيست كطابور خامس، يعمل لصالح مخابرات غربية سيئة السمعة!

ومضت الصحف التابعة للنظام تحلل الظاهرة، وتؤكد أنها ليست ظاهرة دخيلة على المجتمع، فجل المدن العتيقة عرفت اللواط والسحاق، عبر التاريخ العريق للإنسان.

وفي الحقيقة -جوهر المسألة- كان النظام الجنكويزي يريد شغل الناس، وصرف انتباههم وتفريغ غبائنهم، على قتل صانع الفخار، كإجراء وقائي، لقطع الطريق أمام أي حركة احتجاجات محتملة.

عندما تناهى إلى مسامع صغرى زوجات الحاكم العام، خبر قتل صانع الفخار، واختفاء الخزين على نحوٍ غامض، كانت لحظتها عائدة للتو، من إحدى رحلاتها السياحية خارج البلاد الأسيرة، برفقة عدد من حرسها الخاص، وكان أول شيء فعلته بمجرد وصولها قصر الحاكم العام، أن دخلت إلى جناحها وأخذت تتفقد كل شيء حولها لوقت ليس قصير، ثم أطلت برأسها من إحدى نو افذ الجناح، تتحسس الهواء، الذي كان مشبعًا بر ائحة الحريق والعطن.

كانت الشمس تحط فوق أسطح، المنازل في أزقة البلدة القديمة.. وعلى نو افذ أجنحة القصر حطت طيور السمبر العرجاء، التي جاءت في غير مواعيد هجرتها.

تنهدت زوجة الحاكم بشجن، وتراجعت إلى داخل جناحها، وقد خيم على فضاء القصر نوع من الصمت أثار فيها الإحساس الغامر بالانقباض، صبت لنفسها كأسًا من البنقو المغلي، وجلست تحدث نفسها حينًا، وتسرح في خيالها حينًا آخر، في انتظار الحاكم العام،

الذي لم تشعر بالوقت الطويل الذي مر، عندما دخل عليها بادي الإنهاك والإعياء.

سرعان ما خلع ثيابه واستلقى إلى جوارها، وغط في نوم متقطع، محاصرًا بكوابيس أرواح ضحاياه، وهو يتمتم باسمَي صانع الفخار والخزين.. فأخذت تحاول أن تتذكر وجهَي الرّجلين، لكن كانت محاولاتها تبوء بالفشل، إذ كان الوجه الوحيد الذي يهيمن على فضاء ذاكرتها لحظتها، هو وجه الحاكم العام، الذي ارتسم عليه كل رعب الدّنيا ومخاوفها!

في هذه اللحظة التي كان الحاكم العام يعاني فيها كوابيسه المدمرة، بدا وجهه كوجه حرباء طاعنة في السن، تعاني نزعها الأخير، على أهداب موت لا يمكن تجنُّبه! و انطبعت هذه الصورة التي لا تنسى في ذاكرتها إلى الأبد!

إذ لسنواتٍ طويلة بعد مقتل الحاكم العام، الذي وُجد مختبئًا في إحدى حفر البلدة القديمة، إثر هبة شعبية مباغتة، لم تعد تذكر تلك الأحاسيس، التي كانت تنتابها، عندما تتواثب رغبتها في حذر وجنون، فتلتف حول شعلة النّار المتأججة داخلها، بعد مرور سنوات.. كل أشواقها السرية ستخمد وتنطفئ، كأنها كانت تستمد جذوتها، من شعور الحاكم العام بالحياة والطمأنينة التي تمنحها السلطة والنفوذ!

قبل أن يحدث لها ما حدث بوقت طويل، كانت عندما تنهض من فراشها في الصبيحات المتأخرة، لتستحم وتتجمل، فيما يقف الحاكم العام طوال الوقت، يراقب جسدها وعينيها بعذاب لذيذ.

في أيامها الأولى بالقصر، كان يطيب لها وهي بقميص النّوم، أن تتأمل نفسها في جناحها الذي يعج بالمرايا، وفي الواقع لم يكن هناك ثمّة داع للنظر في المرآة، إذ كانت تتمتع بقوامٍ بديع، ونِسَب فاتنة من اكتنازات واستدارات وتكورات الجسد والوجه.

داخل جفنيها المرتخيين، تبدو عيناها الناعستان كسولتَين عندما تقع النظرة العابرة عليهما لوهلة لا تكفي أن تتبين خلوهما من حشمة المتزوجات.

وما أن تفرغ من تأمل جسمها، حتى تأخذ حمامها المعتاد، تجفف نفسها، ثم تجلس وتضع مساحيق التجميل بعد أن تسرّحِ شعرها تفعل ذلك بنفسها، إذ كانت تكره الاستعانة بالوصيفات، وتفضل خصيّ القصر في التدليك، وأحيانًا كانت تطلب من الحاكم العام أن يؤدي هذه المهمّة بنفسه، وبعد أن تفرغ من زينتها، التي كانت تستغرق وقتًا طويلًا، تحتسي فنجانها الأول من البنقو المغلي، الذي كانت تفضله دونًا عن جميع المشروبات.

وهكذا بعد كل هذه المجهودات الجبارّة، التي تبذلها عندما تصحو من النّوم، إلى أن تحتسي فنجان البنقو المغلي، تشعر بأن الإجهاد والتعب العظيمين نالا منها، فتغفو قليلًا في مقعدها الممتد

الطويـل، لكـن لا تلبـث عنـد الظهيرة، أن تـدهم خياشـيمها في تحـدٍ جسـور، رائحـة البنقـو المغلي التي تضـوع في كل زوايا وأركان أجنحـة القصـر، إذ تكـن لحظتها زوجـات الحـاكم العـام الأخريـات، قـد جلسـن لشرب بنقو الظهيرة المغلي، بعد أن قضت مضجعهن ببنقو الصبيحة المتأخرة.

تنضـم إلـيهن، تصـب لهـا إحـدى الوصـيفات فنجانًـا.. وتتـداول معهـن بعـد ذلـك مـا تناقلـه الحـرس والـوصـيفات والعسـس، مـن أخبـار البلـدة القـديمـة الغـارقـة في مؤامـرات اقـتلاع الحـكـم وصـراعـات مراكز القوى.

كانت أسـوأ أوقـات يومها كلـه، هي تلك اللحظة التي يستلقي فيها الحـاكم العـام إلى جوارهـا، وهـو يعـوي ككلبـة ينتابهـا مخـاض ولادة متعسـرة، كانـت تـرى نفسـها بطريقـة فيهـا نـوع مـن العـزاء، إذ تعتقـد في دخيلتهـا أنهـا وبعـد كل مـا شـهدته حياتهـا مـن مـآسٍ، ونكبـات، لا تـزال صامدة وتقاوم ظلم الحاكم العام على طريقتها.

تحـدق في جسـمه اليـابس الممـدد إلى جوارهـا، أثنـاء عـوائـه، ثـم تنقـل بصـرها عبر النافـذة إلى فنـاء القصـر، الـذي شـهد ملايـين المـؤامرات الفظيعـة، التـي لـن يبقـى منهـا شـيء بعـد وقـت طويـل. فقـد كانت.. ببساطة.. تشعر في قرارة نفسها، ومنذ أن وطأت أقدامها قصر الحـاكم العام للمرة الأولى، أنه رجل يتأهب للرحيل! لذا كل ما فعلته خلف ظهره، بدا لها قدرًا لا بد منه! خاصةً عندما يبدأ يطاردها شبح زوجها السابق، الذي غدر به الحاكم العام، واغتاله في سرية تامة..

في الليلة الأولى التي تلت مقتل صانع الفخار، كانت صُغرى زوجات الحاكم العام تحتفل على طريقتها، وهي تنظر في هدوء تتأمل جدران جناحها.. تمر بنظراتها على جسمه الفارغ، ثم تخطف بصرها لترمي به عبر النافذة، ترتبك.. ترد بصرها، ثم ترفع عينيها. بينما كان هو يملي عينيه في كل تقاطيعها.

كان سبب ارتباكها ليس الإحساس بالخيانة، بل شعورًا غامضًا لا تدري كُنْهَه، ربما تشعر للمرّة الأولى، أن كل ما تنعم به من حياة، في طريقه إلى زوال وشيك، فتنهض من بين أحضان الحارس.. ترتدي ثيابها، وتدخل إلى الحمام.

كانت لا تألو جهدًا في مقاومة مشاعرها.. رغباتها.. أفكارها.. دون جدوى.. عندما يخطر على بالها مدى اهتمام الحاكم العام بها، ومحبته ولطفه، وشعوره المزمن بالتفاني في تعويضها عن زوجها المغدور!

لذلك تفننت في معاقبة الحاكم العام على طريقتها، مستهلة عقابها له بإقامتها علاقة مع سائقه، الذي أصبح بمرور الوقت كفرد من أفراد العائلة، اعتبارًا لطول مدة خدمته لها، كان يرافقها في رحلاتها داخل البلاد الأسيرة وخارجها، وغالبًا ما كان يقضي معها جزءًا من العطلة الصيفية.

كان محبوبًا لدى الحاكم العام! لأمانته في حفظ أسرار زوجاته، وفي الحقيقة بعد أن ملَّت منه، عمدت لعقد علاقة خاصة بينه وبين

شقيقة الحاكم العام! ثم عمدت لتسريب شائعة مفادها أنه عشيق الفتاة التي كانت قد حبلت منه، والتي كان شقيقها الحاكم قد أعدم زوجها قبل عامين لاشتراكه في أحد الانقلابات الفاشلة ضده!

وتناسلت شائعة أخرى تفيد أن حملها استمر لعامين دون أن يحين ميعاد ولادتها، وهكذا ظهر في الإعلام عدد كبير من الأطباء، يؤكدون علميًا أن ذلك ممكن الحدوث في حالات نادرة، وضربوا مثلًا ببقاء يونس في بطن الحوت، واستعادة أهل الكهف وعزير لحياتهم!

فأطلق رواد الإندايات على شقيقة الحاكم العام لقب "امرأة الكهف"!

من الجانب الآخر كان السائق الذي أنفق حياته في مرافقة زوجات وشقيقات الحاكم العام، أكثر مما رافق أفراد عائلته، فاض الكيل بزوجته، فاتصلت بأصدقائه المحدودين، واستحلفتهم إقناعه بالتقليل من غياباته المتكررة عن بيته وعن أولاده، وفي الحقيقة كان الحاكم العام وقتها، قد وقَّع على قرار سرِّي بإعدامه غسلًا لشرف عائلته المقدسة!

¤¤¤

لم يمض وقت طويل على مقتل صانع الفخار الأكبر، حتى تم اكتشاف معمل ثان في "الكوّة"، لكنه أيضا دُمر على يد تور الجر الثاني، مخطوطاته ورسوماته بيعت مقايضة بالملح للتجار القادمين من مالحة.. العابرين إلى أقصى دار صباح عند البحر الملوَّن..

هذه المخطوطات تمت عملية تحديد أماكنها، على عهد الاحتلال التركي المصري في كل من سوبا، الكوّة، دنقلا، جوبا، أبيي، القلابات، الفشقة، شيكان، حلايب وشلاتين، بني شنقول، قيسان، الروصيرص، الفاشر ومليط وكامل أراض فوربرنقا.

وخلال عهد حكومة "السودنة - الاستقلال" تمت محاولة البحث المكثف، عن وثائق تظهر تصاميمه ومخططاته من قبل بعثات فرنسية، فظهر وقتها اسم "صانع الفخار" للمرّة الأولى، كأحد عباقرة البلاد الأسيرة الذين عبرت أعمالهم عن روح عصر متحفز، ظل يتكوّن في التشظي لآلاف السنوات؟!

تصاميم أغلب هذه الرّسومات، ما تزال غير واضحة، كما أن لُغة المخطوطات المزيج من لُغاتٍ عدّة، جعلت من الصعب فك شفرات الرّموز، على الرُّغم من ذلك ألهمت المهمشين بعد مئات السنوات، الإجابة عن سؤال الذّات الذي ظل يؤرق صانع الفخار؟!

من الوثائق التي فشلت الحكومات المتعاقبة وحلفائها وخلفائها، في إخفائها وتسرّبت للعلن. تلك الوثيقة التي ترصد أوجه الحيّاة الاجتماعية، والثقافية، والفنية والسياسية.. وكل الأنشطة، التي

حفلت بها الممالك القديمّة، في دار صباح والسافل ودار الرّيح والصعيد، عندما ثبَّتت المسيحية أقدامها في دار صباح القصوى والسافل والوسط؟! بينما ظلت كل الوثائق، التي اكتشفتها البعثات المتعاقبة، منذ العصر التركي المصري.. وحتى عهد أول حاكم عام بعد الاستقلال، تختفي في ظروف غامضة، وتظهر هنا وهناك على نحوٍ متباعد، في متاحف العالم ودور وثائقه، والمجالس السرّية والمعلنة لأهل الحكم والثقافة والسياسة والأدب، في البلاد الأسيرة.

بل أن الوثيقة الوحيدة، والتي هي "حُجة في شكل حكم البلاد الأسيرّة وكيفيته"، والتي كانت موجودة في دار الوثائق المركزية، تمت سرقتها (من قِبَل أحد سياسي البيوتات الجنكويزية الكبيرة) واختفت في ظروف غامضة، دون أن يبين لها أثر؟!

وهكذا ظلت أعمال صانع الفخار، غير منشورة بشكل رسمي، تبعًا لمنع أيديولوجي من نشر اسمه وتاريخه، وإرثه القومي، وخصوصًا خفايا أعماله، ما يؤكد أن هناك مؤامرة دائمة ومستمرّة لاحتوائها أيديولوجيا، لإخفاء أفكار أصيلة، واختراعات كثيرة سابقة لعصرها.

وكل الدلائل تشير إلى أن كل ما يتعلق بصانع الفخار، من سيرة ومسيرة، محفوظ بسرّية تامة من قِبَل الأمن والمخابرات، ومفوضية الأحزاب الجنكويزية الطائفية، التي تتكون من الثلاثة الكبار، الذين يحلون ويربطون ويتحكمون في تاريخ وحياة البلاد الأسيرة على كيفهم؟!

صانع الفخار منذ طفولته الباكرة، استهواه تشكيل الطين، فهو لم يخلق من النور أو النّار.. بل من الطين! لذا ظل دائم الحنين لمصدره الأول؟ كما ظل دائم الخوف على هذا المصدر، الذي يتأثر دائمًا بمناخ البلاد الأسيرة المداري، والذي يتميز بارتفاع درجات الحرارة معظم أيام السنة.. وتدرجه من جاف جدًا في أقصى السافل، إلى شبه الرطب في أقصى الصعيد، حيث تصل درجات الحرارّة أقصى معدلاتها في فصل الصيف، وحيث يصل المعدّل اليومي في بعض الفترّات، إلى جحيم لا يطاق في الصعيد.

الأمر الذي يجعل الطين حزينًا متشققًا عن أساه! ظامئًا ومتوجعًا.. لا تهدأ آلامه إلا بهطول الأمطار التصاعدية، التي تتحكم في حركة الفاصل المداري، والتي يتصف بها سهل البلاد الكبيرة، باستثناء ساحل البحر الملوَّن، حيث المطر الشتوي يداعب التربة المالحة، فيمنحها شيئًا من البَوح المبتل بالدموع!

أكثر ما كان يؤرق صانع الفخار من هموم، هو سيادة سمات الصحراء في السافل، والهطول المتقطع للأمطار في دار الرّيح، وتكرار موجات الجفاف، التي تتفاوت في طولها وحدتها، ما يجعل الطين حزينًا وبائسًا، ويابسًا، ومكتئبًا، وكئيبًا! لولا إشفاق البحيرات الداخلية والأودية الموسمية عليه، لذرته الرياح في فضاء الكون الواسع، وأصبحت البلاد الأسيرة محض فراغ في فراغ الكون!

كانت نقطة البداية في الطفولة البعيدة الغابرة، هي وقوفه لساعاتٍ طوال أمام هيبة الطين.. غموضه.. مرونته.. سيولته وقدرته

الفائقة على التشكل.. وكثيرًا ما وقف أمام نفسه يتأملها كمخلوق من طين، وسرحت أفكاره في العالم اللانهائي للطين، إلى أن أصبح الطين منهجًا يتحكم في أعماله، يصنف عبر نوعيته وهشاشته وصلادته: أنواع الناس وأحوالهم.. والأشياء ومعناها.. والأماكن وقيمتها، وكذا العلاقات المقيمة والأخرى العابرة!

بل وأحيانا "أصدقاء العلاقة"، الذين "يقفزون" على العلاقة ذات نفسها، فتروح الصداقة هدرًا! هكذا إذن فتحه الفخار على عالم لا نهائي.. لا محدود.. عالم مسكون بالحقائق و أنصافها وأرباعها، كما هو مسكون بالقدر ذاته بالهواجس والظنون والجنون!

"إنه صانع الفخار"..

أو كما أصبح أقر انه يطلقون عليه، وهم يلحظون اهتمامه المتز ايد بتشكيل الطين..

خلال سنوات طفولته وصباه، تجمعت لديه مقتنيات ذات أشكال عديدة من صنع يديه.. أشكال لبشر وحيو انات.. أزيار وقداح صغيرة.. و.. وأشكال حُلمية هو نفسه لا يدري لماذا صنعها، ولا إلى ماذا تشير أو ترمز بالضبط؟! كانت غبطته لا توصف، عندما يأتيه أقر انه الأطفال والصبيان بطينهم، ليصنع لهم منه شيئًا ما..

في مراهقته أخذت أفكاره عن الطين، تتخذ منحىً يليق بقلق المحاولة الأولى لاكتساب المعرفة، و اكتشاف العالم، فنالت اهتمامه أنواع محددة من الطين: طين الغابات على ساحل البحر الملوّن..

غابات القرم (المانقروف)، التي تنمو في الخلجان والشعب المرجانية، التي تأوي أصنافًا متعددة من الحياة البحرية النادرة، وطين الجزر الرّملية ذات الطبيعة الساحرة، وطين أم درمان الصلد، وتلك الأنواع العديدة من الطين، الذي تذخربه البيئات المائية العذبة والمالحة، والطين الرسوبي في السافل، وطين حوض تكوينات أم روابة، وهكذا وجد نفسه ينزلق في الطين إلى دهاليز الجغرافيا والتاريخ و أقبيتهما.

فامتداد سهل البلاد الكبيرة عبرثمانية عشرة درجة من خطوط العرض، وتباين أحوال المناخ والطبوغرافيا، أدت جميعها إلى تباين النباتات الطبيعية وتنوعها، وأسهمت في تعدد وتباين أنواع الطين؟

كان يستخدم كل نوع من الطين للغرض الذي يلائمه! فالأقاليم النباتية المتدرجة من الصحراء في السافل، إلى الغابات المطيرة في أقصى الصعيد ودارالريح، أدت لكل هذا التنوع الطيني و أثرت فيه كما أثرفيها.

لم يكن ما لفت نظره حقًّا أن استخدام الطين، في أعمال الفخار والخزف مجرد محاولة أولى، لإشباع غرورالجنس البشري، في مشاركة الخالق أعماله ومهامه الجسيمة واهتماماته الإبداعية؟! مصداقًا للقول.. بل هي الجرأة على منافسته، على طريقة الضالين المغضوب عليهم، وغيرالمغضوب عليهم!

أيضًا! في الحقيقة والواقع الأعم!

كيف؟!

عن طريق حرق الطين وصقله في "الكمائن والهوانيب"، تمامًا كما كان حال أبو البشر آدم –حسب الروايات الدينية- لحين من الدّهر، تهطل عليه أمطار الفرح حينًا وحينًا أمطار الحزن.. إذن هكذا اكتشف –صاحبنا- النيل والخصوبة والحياة.. اكتشف عالمًا كاملًا متكاملًا، جزيئاته تترابط في حبيبات الطين بسيولة النّهر، لتعبر عن نفسها في الخلود الهش؟! تبدأ بالزير وتمر بالمبخر، وتنتهي عند كل ميلاد بشري جديد، بكل ما يحمل هذا الميلاد من خصوبة ونماء في حفرة الدُّخان!

للطين ذاكرة ووجدان يحتفظان بآثار العصور الغابرة: فولكلورها.. سير أهاليها وأسلافهم الصالحين.. مسارات صعودها وهبوطها.. أحاجيها وحكاياتها الشعبية.. ذاكرة ووجدان يحتفظان برائحة وعرق وملمس أصابع صانع الفخار، وهي تتنقل مخلخلة هذه الحبيبات الناعمة، لتصوغ منها شكلًا ما، ربما هو فكرة في خاطر غامض، قد تفصح عنه العصور اللاحقة، ليكشف المزيد من أسرار ما قُبر! وربما..

¤¤¤

البلدة القديمة منذ بدأت تتشكّل كبلدة عبر التاريخ، دائمًا كانت إندياتها تختار موقعها على أطراف البلدة وضواحيها، عند امتداد السوق الورا.

من هذا الموقع المطل على طرق القوافل، كانت الإنديايات تشرف على تقديم خدمات البلدة في الشرب والانسطال، والمتعة للعابرين من القبل الأربعة للبلاد الكبيرة. وكانت ثمّة حوارات معتادة تدور بين الرّوّاد الدّائمين والغرباء، الذين يتوقفون عند الإنديايات لوقت قصير، ريثما ترتاح جِمالهم ويرتاحون من عناء الأسفار..

إذ غالبًا ما تسمع حمد الأعرج، وهو يرد على تحية أحد هؤلاء الغرباء المسافرين، بعد أن يستوثق من هيئته أنه ليس جاسوسًا للجنكويز:

"سلامات يا أرباب.. أهلًا أهلًا اتفضل..".

ويمد له قرعة المريسة:

"شكرًا كتر خيرك ويزيد فضلك.. الحكيم مانعني من الشراب..".

"حكيم بتاع الساعة كم.. الحكيم الله".

ويسأله الغريب الذي ينخدع بهيئة الأفندية التي أُغرم حمد الأعرج بتقمصها:

"صحيح الخواجات طلعوا القمر؟".

"أنت بتصدق كلام الجرايد ده، علي اليمين نوح ذاتو ما يصل القمر، خلي الخواجات، سيبك من كلام الجرايد الفاضي ده.. هسه لو مشوا هناك صحي وجا رمضان حيعرفوه كيف".

"لكن الخواجات كفار.. ما بيصوموا؟".

"كان الما بيصوم كافر.. البلد كلها كفار.. سيبك بالله من الكلام ده.. تعرف مريسة السرة دي تخلي مخ الواحد شغال زي الساعة، يفهم الحاجة وهي طايرة".

على مبعدة كان مدمنو القمار يقامرون بالكوتشينة، على ما أحضروه معهم من ديوك وعتان ونقود.. ما يثير حفيظة السرّة فتطردهم وهي تصيح بعشمانة الساقية:

"إنتو ماتجو هنا تاني.. امشوا العبوا غادي غادي.. ده بيت مريسة محترم ولا فوضى..".

"عشمانة.. يا بت.. أمسكي القرعة من الشايب الأعرج ده.. تاني ما يشرب كفاهو.. عشان يقدر يمشي بيتو".

فيلعن حمد الأعرج أبو الدنيا وهو يقول:

"والله حكم لكن، والله كويس لكن، ما أشرب كان شربت، موش قروشي و أنا حر فيها.. أنا بشرب من زمن التركية وما فيش حد سمعني كلام زي ده".

"كان شربت أكتر من كده ما بتقدر تمشي، وتنوم لينا زي البارح هنا.. ونحنا ما بنقدر على كلامك بالليل".

"أنوم أنا؟ طيب اسمعي عليَّ الطلاق.. أنا أنا تحرجيني كده.. وحيات تربة أبوي شهر كامل ما أنوم، فاهمة ولا ما فاهمة".

فيقول له الغريب:

"لا يا عم حمد، ما تحلف ساي، شهر كتير خالص.. السقد ما بيقدر عليهو".

"لا لا أنا ما ولد صغير.. أنا كلامي واحد، شهر يعني شهر".

أحيانًا، يُصاب المرء بالذهول من جراء اكتشافه ظاهرة أو قضية يستعصي على العقل قبولها، بل والإقرار بها، ومن ضمن هذه الظواهر ما أصبح يُعرف بإنداية السُّرّة كحل العين، ربما لأنها الأقرب إلى قلب البلدة القديمة وسوق ود أم جبو والسوق الصغير الورا. فإلى جانب عمل السُّرّة كفدادية، كانت إندايتها أيضًا أحد الأماكن الأساسية التي تُضرب منها المواعيد بين فتيات وسيدات محترمات من علية قوم البلدة القديمة، للتوجه إلى أماكن معلومة لممارسة السحاق، بعد أن فجر إعلام نظام الحاكم العام قضية الجندر، على الرُّغم من رفضه التوقيع على إتفاقية سيداو.

حسب جادين جانو في الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار وأثناء بحثه المستميت لتجميع أعماله، أن حمد الأعرج أفاده، أن ظاهرة

المثليين بدأت تتفشى وسط الطالبات والطلاب، وفقًا للحكايات التي كان يسمعها من زملائه في المطبعة القديمة، فيؤكد جادين استنادًا على مصادر أخرى:

"أن اختيار إنداية السُّرّة أو أي إنداية أخرى لضرب المواعيد، ذلك لأن الإندايات باتت أكثر الأماكن أمانًا، ولا تثير الشكوك باعتبار حركة الرُّواد من مختلف طبقات المجتمع، فضلًا عن كونها المكان المعروف لطلب المتعة، ما يرفع الحرج عن المثليين".

وهكذا كانت أيام الإندايات تمضي حكاياتها ما بين طرفي حافتين:

الغرباء، الذين يجيء بهم الطريق، والرّواد الدّائمين، الذين يتسلّلون من السوق الورا، بعد أن يقضوا احتياجاتهم فيه.

موقع السوق الورا، موقع غريب وفريد.. فهو كيان مذهل! يتصل بالبحر والأنهار، حيث دلتات الطين الصلصال.. باختصار:

السوق الورا ظل عبر تاريخه، ملتقى طرق العالم القديم والجديد..

هذا الموقع المميز جعله مركزًا حيًا لتجارة الفخار، بالتالي انتقال مركبات الثقافة والأديان والسحر والدجل والشعوذة والعادات والتقاليد و.. الأعراف والطرق الصوفية، والطوائف الدينية، فيما بعد.

تجـد في السـوق الـورا كـل شـيء بـدءًا بالمشـغولات الذهبيـة، وصناعات الحديد والألمونيوم والكو انين، مرورًا بصناعات السعف وكنـاتين الكـول، والتو ابـل والمـأكولات الشـعبية، وجـزارات الكمونيـة واللحوم والأسماك والدواجن..

هكـذا إذن نشـأت علاقـات تجاريـة وثقافيـة وسياسـية معقـدّة، مركزهـا السـوق الـورا منـذ الأزل، حيـث كـان القـدماء يطلقـون على السـوق الـورا تسـمية "أرض الأرواح أو مقـابرود أم جبـو أو أرض الله"، لشـدة انبهـارهم بهـذه الكيميـاء العجيبـة، التي تـربط الآخـرين.. كـل الآخـرين بـه- خصوصًـا علاقـة الأحيـاء بـالموتى والبعاعيـت- وتجعلهـم يتفاعلون مع الحياة التي تتصل به.

شعوب البلاد الأسيرة اعتادت السُكنى حول السوق الـورا، منذ العصور الحجرية، حيث اتخذوا أولى خطواتهم نحو الحضارة، فقاموا بصناعة الفخار واستعمال المو اقد والنّار للطبخ.

وقتها كانت البلاد الأسيرة التي يعتبر السوق الورا حاضرتها، مركز حسـد الجـوار وأطمـاعهم، التي ترتبـت عليهـا غـزوات واحـتلالات و اقتطاعات في الجغر افيا، خصوصًا في العهد الذي سبق الحضارة الكوشية، حيث حاول الغُزاة القادمين من مصب النّهر، فرض لُغتهم وثقافتهم؟!

وكان الحال هكذا أيضًا على عهد الهكسوس، والعهد المروي، أي استمر الاستهداف العنيف والمباشر في المرّات الأولى، حتى القرن

الرّابع الميلادي، عندما ازدهرت تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب، بين الغُزاة المحتملين وبين السوق الورا.

السوق الورا كان غريبًا بين الأسواق، في كل العصور، خصوصًا عصرَي الذهب الأبيض والأسود، فهو منذ القدم ظل متصلًا بدول الصحراء الكبرى غربًا وشمالًا، وبلاد النجاشي شرقًا، وجنوبًا، حيث التقراي والماو ماو والبانتو والألور والكاراموجا..

بل كان متصلًا حتى بآسيا بوذا؟! كما أن هوميروس أكد بشدة، أن الآلهة يجتمعون كل عام في هذا السوق في عيد التنصيب السنوي، يتبادلون الأنخاب والأفكار والخطط الحربية لإلهامه قصائد ما بعد الإلياذة والأوديسا؟!

لكل هذه الأسباب التاريخية، كان العشاق لا يصبحون عشاقًا تاريخيين، إلا خلال علاقاتهم الناشئة في الكيمياء العجيبة لهذا السوق!

وهكذا تكرست علاقة منصورة بصانع الفخار- الحفيد، خلال حياة هذا السوق!

¤¤¤

صانع الفخار الأكبر، كان هو أول من تنبأ بوجود الزّيت الأسود، تحت الطبقات القصوى للطين، خلف السوق الورا عند مقابرود أمجبو.. وفي مواقع أخرى مختلفة، من سهل البلاد الأسيرة الواسع، لكن هذه النبوءة تم التواطؤ عليها عبر الحقب المتعاقبة، ولم يُماط عنها اللثام إلا في وقت متأخر..

وفي الحقيقة لم يتنبأ صانع الفخار بوجود الذهب الأسود فحسب، فقد سبقت نبوءته هذه نبوءات عديدّة، ترتبط جميعها بمكنونات الطين، وما ينطوي عليه من معادن عديدة، في الأنحاء المتفرقة لسهل البلاد الأسيرة الواسع.

وأجمعت كل هذه النبوات، على أن جشع الحكام واستبدادهم وطمعهم وفسادهم، سيؤدي للاقتتال على مكنونات الطين، ما يضع السهل كله في مهب الرّيح السموم، فيتحوّل الطين إلى ما هو أسوأ من الحصرم.

الآن بعد كل هذه العصور، عندما ينظر "جادين جانو" إلى ما توفر بين يديه، من نبوءات يشعر بغصة في حلقه، فالتواطؤ على نبوءات مكنونات الطين، أدى إلى إنفجار هذه المكنونات، وتبع ذلك الحروب والفقر والجوع، والتدهور البيئي وتمزق السهل الواحد إلى سهولٍ عديدة تفصل بينها ميليشيات الجنكويز!

¤¤¤

كان الطين إذن هو نافذته، التي يطل منها على تاريخ البلاد الأسيرة في عصورها الغابرة وعصرها الحالي ومستقبلها.. بعد مئات السنوات.. عندما يولد صانع الفخار الحفيد، ذات صبيحة مشبعة بدعاش النيل النديان.

لذا وهو يرى الماضي والمستقبل متزامنَين في حاضره، اهتم بالبحث في مفردات هذا الماضي، فعلم من الأدوات الحجرية، التي عثر عليها أثناء أسفاره وتجواله وتنقلاته، في سهل البلاد الأسيرة الواسع، أن الإنسان سكن هذا السهل في البلدة القديمة في عصر الحجر، وأن هذا الإنسان كان جنساً زنجياً، يختلف عن أي جنس زنجي آخر، يعيش اليوم، وقد اتخذ أول خطوة معروفة نحو حضارة السهل، وكان ذلك بصناعة الفخار واستعماله، وأن أحفاد هذا الإنسان، كانوا مغرمين بالبحث في الطين.. فقادهم البحث لاكتشاف النحاس، الذي قاموا بتعدينه، وصناعة العديد من الأدوات والمشغولات منه، وظل هذا الإنسان على الدوام مستهدفًا من الجوار، على حدود السافل، ما قاد للاحتلال الفعلي لجزء من أراضي السهل أسفل النّهر، إذ تمت السيطرة على منطقة "سمنة" التى بنى فيها الغُزاة ستة عشر حصنًا منيعًا.

أحفاد هذا الإنسان نفسه شيدوا حضارة كرمة، التي تدل تنقلات جادين جانو في أرجاء السهل، وما عثر عليه من جداريات ومنحوتات في الكهوف والجبال المحيطة، أن أحفاد الغُزاة الأوائل،

حرصوا على تشييد مركزًا تجاريًّا كبيرًا فيها، كان لوجوده أثر كبير في المصاهرة و انتقال مركبات الثقافة..

وما لاحظه في بحثه عن "كرمة" الفخار الممتاز، الذي سيُعرف بعد مئات السنوات "بخزف كرمة"، والذي يُعتبر أجود خزف عُرف في وادي النيل، منذ فجر التاريخ.

الأحفاد المتعاقبين للغُزاة الأوائل -على عهد الهكسوس- وجهوا همهم إلى بلاد النوبة، وشرعوا في تنفيذ سياسة توسعية تجاه البلاد الأسيرة، إلى أن تمكنوا بعد سنوات طويلة، من احتلال أجزاء واسعة من السهل أسفل النّهر، وحتى الشلال الرّابع لمدة ستة قرون، استنزف الغُزاة خلالها الكثير من موارد البلاد الأسيرّة المتعددة والمتنوعة، مثل الذهب.. خشب الأبنوس.. سن الفيل.. العطور.. البخور.. ريش النعام.. الفهود وجلودها.. الزراف.. كلاب الصيد والماشية.

وفي هذا العصر بلغت البلاد الأسيرة، أقصى درجات رُقيها؛ إذ ازداد الرخاء و اتسعت التجارة بين البلدين، وطُبعت حضارة سهل البلاد الكبيرة، بطابع الجوار أسفل النَّهر.

قرون الاحتلال الستة أثارت الوعي القومي، لأهالي سهل البلاد الأسيرة، ونبهت السكان الأصليين، إلى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها.

فاستغلوا أول سانحة لاحت لهم، وهي تدهور إمبراطورية الجوار أسفل النّهر، وأعلنوا استقلالهم، و أقاموا عاصمة لمملكتهم المستقلة في "نبتة" الو اقعة أسفل الشلال الر ابع.

بل وتمكنوا فيما بعد من احتلال الجوار أسفل النّهر، وإخضاعه، وتأسيس دولة قوية امتدت من البحر المتوسط، حتى مشارف الحبشة لمدّة تزيد عن الثمانين عامًا، وهكذا صارت كوش قوة لا يجهلها أحد!

ولكن عندما غزا الجوار أسفل النّهر الأشوريين، واستخدموا الحديد كسلاح فاعل في ذلك الوقت، أجبروا "كوش" على التراجع إلى الوراء، داخل حدودها الأصلية، ضمن سهل البلاد الأسيرة الواسع المتسع.

وبانتقال العاصمة من نبتة إلى مروي، ازدهرت صناعة الفخار والحديد، حيث كان العابرون يرون في مروي أكواماً عالية هي آثار فضلات الحمم، التي كانت تخرج من أفران صهر الحديد، ولهذا السبب ستوصف بعد مئات السنوات "ببرمنجهام إفريقيا القديمة"، لتستمر كحضارة إفريقية لما يزيد عن الثمانية قرون، تنشر النور حولها من عقائد و أفكار وقدرات فنية.

عندما اعتلى عرش النوبة ملك يُدعى "داود" عام 1272 ميلادية قام النوبيون بالهجوم على المدينة العربية "عيذاب" على ساحل

البحر الأحمر، محاولة منهم لدحر الغُزاة العرب، من أراضي السهل الواسع جهة دار صباح.

بعد ذلك دخلت مملكة النوبة في عهد المؤامرات، واستمر الحال هكذا إلى أن انهزم "كودنيس" آخر ملك علي مملكة "دنقلا" عام 1323 ميلادية و انتهت الدولة المسيحية، وصارت البلاد مفتوحة أمام الغُزاة العرب، و انتشر الإسلام.

أما مملكة علوة، فلم تحمل جداريات ومنحوتات صانع الفخار، معلومات تُذكر بشأنها، عدى الشذرات التي أفادت أنها، ستسقط عام 1504 ميلادية، على يد تحالف العرب العبدلاب القواسمة والأفارقة الفونج النبلاء الهاربين من علوة البائدة.

بينت حضارة كوش، أنها غربلة إفريقية للآراء والأساليب والمعتقدات، تأخذ منها ما ينفعها وتضيف إليها ما ابتدعته، إلى أن دهمها الخطر من جنوب الجزيرة العربية، عندما هاجر قوم من هناك إلي داخل الحبشة، و أنشؤوا دولة أكسوم، التي قويت واستطاعت أن تحول بين كوش وشرق القارة الإفريقية والمحيط.

وبالتدريج تمكنت هذه الدولة من قهر كوش عندما قام "عيزانا" أول ملك مسيحي لها بغزو كوش وتحطيم عاصمتها مروي عام 350 ميلادية.

إذن في الأصوات المتلاشية لحطام مروي، كانت دار الريح ترجع الصدى، وتتململ تفصح عن ممالكها الصغيرة، المتناثرة في جُغر افيا الوديان، كجزر في أرخبيل واسع..

والتي فيما بعد وعلى أنقاض هذه الممالك، ومنذ 1445 ميلادية أخذت تشكل سلطة الإقليم الموحد، بنظامه الإداري الواحد، الذي لا يستثنى شبرًا من أرض دار الريح، التي هي خُمس مساحة البلاد الأسيرة قبل انفصال الصعيد.

وبعد عشرات العشرات من السنوات، لدى استيلاء كل حاكم عام –سواءٌ كان مستعمرًا محليًا أو أجنبيًا- على السلطة في البلاد الأسيرة، كان لا يؤرقه شيء سوى دار الريح، التي تناقضت على الدوام مع "مركزية سنار" بالتالي "أمدرمان".

فدار الريح بسلطتها الواحدة و إقليمها الواحد الموحد، ليست مجرد جُغر افيا يتشكل داخلها سؤال السلطة، ففكرة الجغر افيا الواحدة الموحدة صارت بمرور الوقت كالعقيدة في وجدان السكان الأصليين، بالتالي حجر عثرة أمام مخططات الطوائف والحكام الجنكويز التقسيمية، التي تهدف لإضعافها بالتفتيت إلى وحدات أصغر، ليؤول هشيمها إلى سيطرتهم الكاملة.

ولذلك عمدوا لإزاحة أهل الدار، وإحلال و افدين محلهم من عرب غرب إفريقيا وشمالها الرُّحل، باسم نقاء العرق، كعامل تفتيت

فاعل، بعد فشل عامل الدين والمصاهرة في تدمير اللُغات والثقافات المحلية.

وهكذا معادلات السياسة أفضت في النهاية إلى أثننة كافة أنشطة الحياة، ما أصاب النّاس بالفزع.. ففي كل يوم يمر، يتكشف لهم الحجم الكبير للمؤامرة، التي تتعرض لها البلاد الأسيرة وخصوصًا دار الرّيح!

وهكذا بدأ الأهالي يقودهم صانعو الفخار، يتسللون إلى الفيافي والقفار والغابات، يحملون السلاح، مفتتحين فصولًا دامية من حرائق الأرض والتاريخ واللُغة، على أنقاض الادعاءات الدينية والعرقية البائسة.

برينسس آن، ميريلاند

أيوا سيتي- سيدار رابيدس، أيوا

2012-2014

¤¤¤

2. ود دبرك بن زرزور الدوري

في أمسية من أماسي الصّف، حط "ود دبرك" على غصن شجرة الجُهنمية الحمراء، يستعيد كعادته ما ارتبط بحياته من وقائع وأحداث لحيوانات وبشر، ربطته بهم صلات قوّية!

كانت أفكاره قد ترتبت تمامًا، في ذهنه، واختفت تلك السحب التي كانت تحيط بها.

وكما جرت عادة "الدبارك" أخذ يضرب الهواء بجناحيه، دون أن يطير، علّه يبعث شيئًا من النشاط، في رغبته الملتهفة منذ أيام، للقاء حبيبة القلب الفاتنة عشوشة بعد طول غياب!

ألقى نظرة متفحصة، خلال أغصان شجرة الجُهنمية، التي علقت بها حبات ندى بلورية، ينزلق على سطحها الضوء الخافت، المتسلل من شرفة العش، ليرسم بقعة طيفية لوجوه متداخلة الظلال على قشها الدّاخلي!

طوال النّهارظلت حُبيبات الندى، تتعاقب على بقعة الطيوف، تعكس وجوه لأسلاف ود دبرك الميامين، كشريط سينمائي، يحكي سِيَر حياتهم ومسيرتهم.

رأى طيوفهم وهي تبني أعشاشها، بين جريد النخيل الأخضر، الذي تتألق إبَرَه الحادة، تحت أشعة الشمس..

رأى أعشاشهم على شجيرات السافنا، المنتصبة بين الحشائش الجافة، في نظام بديع! تشارك طيور البلوم والقماري والبوم وكناتها، فيما تترنح في هجير الشمس، على المدى السرابي، إبل الرّحيل العطشى، تتخلل بأخفافها ممرّات العشب الجاف، لتشق طريقها إلى الصحراء المتاخمة لدار الريح!

رأى طيوفهم في أمسيات كهذه الأمسية، في خرائف البلاد الأسيرة، وضفادع الخيران التي تتخلل الأحياء القديمة، تتقافز.. تصل النجوم الخابية، بالنّهارات المتوقدة بحر الظهيرات اللافحة!

رأى طيوفهم في الفنارات، والموانئ، وسواري السفن التي تتلاطمها الأمواج الهائجة، وهي تترنح يُمنةً ويسرى.. منهكة من توترات قوى الطبيعة الغاضبة، فتهيم تتقاذفها الأمواج لا تلوي على شيء، إلى أن يطيرود دبرك، فيأتي بخبر اليابسة الأكيد!

يرى طيوفهم وهم يبنون أعشاشهم المقدسة، على قمم "الفيتارا البوذية" و"الهرم نديرالسيخي" و"الآتشكدة المجوسي".. ومعابد "المانويين" الزنادقة، و"الزرادشتيين" الموحدين وكنيس اليهود، والكنيسة المسيحية، والكاتدرائيات، والمساجد!

جميعها تتوحد في عش واحد، يشيدّه ود دبرك الأب المؤسس، على سارية فُلك نوح!

سحب ود دبرك نظرته المتفحصة، خلال أغصان شجرة الجُهنمية، التي علقت بها حبات النّدى البلورية، التي كانت لا تزال تتدحرج من أوراقها، لتمحو الطيوف المتداخلة، وتعيد رسمها في طيف واحد!

ينفض جناحيه اللذين بللهما النّدى على وجه ود دبرك، مبددًا الاسترخاء والكسل.

بعد مئات السنوات، يعثر فريق من المستكشفين القادمين من عالم آخر، محفورًا في ذاكرة الحاسوب وبعيدًا جدًّا، على بيض عشوشة زوجة ود دبرك، الذي لم يفقس، مغمورًا تحت أمتار من رماد أسود، غطّى سطح الأرض بالكامل، نتيجة حرب كونية لم تبقِ ولم تذر، وقد نقش عليه الخزين وصانع الفخار، الكثير من المدونات، التي يسعى بروفيسور جادين جانو لفك طلاسمها دون جدوى، إذ يكتشف أنه بدلًا عن فك طلاسمها كتب تاريخًا موازيًا، لا يمت بصلة للوقائع والأحداث، المنقوشة على قشر البيض المتحجر!

¤¤¤

رغم أن الحكام الجنكويز، الذين تعاقبوا على حكم البلاد الأسيرة، منذ كانوا مجرد أعضاء مغمورين في طوائف بائسة، إلى أن انفرد كل منهم بحكم جزء منها، وإلى أن أصبحت البلاد الأسيرّة واحدة، يحكمها جميعًا حاكم جنكويزي عام.

ظلوا يعملون على إزاحة كل لُغات أهالي البلاد الأسيرة، وإحلال لُغتهم الجنكويزية الهمجية محلها!

وإن نجح هذا الأمر مع بعض الأهالي، فقد فشل مع البعض الآخر، فلم تنجح الجنكويزية في أن تكون لُغة سائدة بديلة للُغاتهم الموروثة منذ آلاف السنين، والتي كانت تعني بالنسبة لهم الهُويَّة والثقافة، والأرض، والتاريخ، والترّاث.

وبسبب مخاوف هؤلاء الأهالي على لُغاتهم من الانقراض، وحلول الجنكويزية محلها، تفجرت حروب ضروس هنا وهناك.

¤¤¤

فيما كان ود دبرك راكًا على الإطار السفلي لنافذة غرفة نوم "دنيا فرندقس" التي حملت لقب "سيدة البلاد الأولى" إلى جانب ثلاث أُخريات.. يتلصص على حركاتها وسكناتها، ويحاول أن يقرأ تعابير وجهها، كانت هي تتأمل وقائع حياتها من المبتدأ إلى المنتهى، الذي لا زال طي الغيب!

ومع ذلك تشغل احتمالاته العديدة خيالها، وتستعيد ذكرى ذلك اليوم، الذي سبق الانقلاب الجنكويزي النَّاعم، على زوجها القتيل السلطان "زِيف المعارف" قُبيل أيام قليلة من زيارة صديقه "تور الجر"، الذي كان يناديه بـ شقيقي الأصغر، وما خلفته تلك الزيارة المريبة، من مخاوف وشكوك! انتهت بموته غامض الملابسات!

¤¤¤

من نافذة القصر رأى ود دبرك الغيوم الرّمادية، وقد حجبت ضوء الشمس الوهاج، والأرض المفروشة ببساط ضبابي، والأصوات الهامسة، التي تتسرب بهدوء من غرف أجنحة القصر المغلق على الأسرار!

انتزعه من شروده رؤيته فشل تور الجر، في استمالة دنيا بالعطايا السخيّة، التي لم تكن تزدها إلا تمنعًا عليه، الأمر الذي كان يشعل رغبته فيها أكثر، كان صوتهما يعلو وينخفض، فيما هي مستلقية على سريرها وقد انحسر ثوبها، حتى بانت ثيابها الدّاخلية؛ وكلما حاول الاقتراب منها صدته بحزم.

لم يكن تور الجر مدركًا لما جرى ويجري حوله.. كان مضطربًا، شاحبًا، تنتابه مشاعر شتَّى، ويحس بمرارة لا يدري لها سببًا واضحًا.

وعندما استيأس منها، وقف منحني الرأس، حزم سرواله، وأخذ يزرزر جلبابه، فيما أحست هي أنه لم يعد بإمكانه أن يتلفظ بكلمة واحدة، دون أن ينفجر، فآثرت الصمت واكتفت بالنظر إليه في ازدراء، غير آبهة بالدموع التي تكاد تقفز من عينيه المحمرتين!

لحظتئذ أخذ عندليبه الأثير في الحديقة الملكية يغني أغنية حزينة، لامست وجدانه الجريح، فهمس لنفسه:

"هذا العندليب أثمن من كل الكنوز التي نهبتها من هذه البلاد".

وتنهد..

كل ليلة، من الغروب حتى الفجر، كان العندليب يغني فيلامس غناءه شغاف تور الجر، الذي نهشه الأرق بسبب الحرمان والكوابيس المزمنة، التي لا تفتأ تهدد نومه.

هذا العندليب هو صديقه الوحيد الذي يشعر به ويؤنس وحدته..

"لم أكن مخطئًا في الحصول عليه مقابل، أجمل محظياتي، وعشرين محاربًا جنكويزيًا، والعشرات من عبيدي المخصيين، وكل طواويسي النادرة، وجرابين من عودي الهندي المرصع بأحجار اللؤلؤ، وثلاثة زرابي من ريش النعام الزغب، والحرير المطرز بخيوط الذهب، وعشرات من الأواني الفضية المنحوتة، والمرجان المعبد، وخاتم المقدس سرّه الأكبر.. كل ذلك لم يكن خسارة في هذا العندليب، تعزية وحدتي وخساراتي في هذا القصر الموبوء بـ التآمر والمتآمرين".

من سريره الملكي الوثير، قرب نافذة غرفته التي تجمعه بكبرى زوجاته، كان تور الجر يسمع شدو العندليب، وكان شعر بشرته يقف شعرةً شعرة، مثل عشب نابت للتو، فيغلق عينيه ويئن.. وأحيانًا يبكي عندما يتذكر هول ما فعل بالبلدة القديمة، والبلاد الأسيرة، وأحيانًا يبتسم ويقول:

"أنا أسد إفريقيا، لقد فعلت ما يتوجب فعله، فلا حسرة أو اعتذارٍ أو ندم، رُفع القلم".

تور الجر، السلطان المغرم بالغناء والرقص على كل الإيقاعات، من شدّة حبه لهذا العندليب، أغرى جامعي الكتب بالجوائز القيمة، مقابل أي كتب نادرّة عن الطيور، الأمر الذي دفعهم للتفرق في أركان الأرض الأربعة، فلم يمض وقت طويل حتى جاءه بعضهم بكتاب "الحيوان"، للجاحظ، و"منطق الطير" لفريد الدين العطار..

وحدثوه عن ثمرة حواراتهم مع العارفين من صانعي الفخار، وزعمهم أن لُغة الطير هي لُغة الملائكة، وأنها الطريق إلى المعرفة الكاملة، ما جعله يشعر بغبطة كبيرة، كونه اقترب من القداسة والحكمة! فيما كان ود دبرك يراقبه وهو يقول:

"آن لود دبرك أن يمد رجليه"

كما دون له جامعي الكتب والورّاقين، قصّة "أثينا" آلهة الحكمة، التي علّمت "تريسياس" لُغة الطيور، وحكوا له عن أبولونيوس ديموكريتوس وكيف أيضًا، كانا بارعان في فهم لُغة الطير.

حكوا له عن الميثولوجيا "السلتية" التي تعتبر الطيور رمزًا للمعرفة التنبّؤية والغيبية.. وكيف أن الكتابة الهيروغليفية كانت تُسمّى "أبجدية الطيور"، وإثر كل حكاية، كان تور الجر يشعر بأنه شرارة من روح الله سرعان تنمو، وتصبح نارًا لها أوار!

عبر صوت العندليب، وطيور الحديقة الملكية، كان تور الجر يحاول استقراء، أي تحوّلات تتعلق بالسحر قد تهدد حياته، فكان يقرأ

في كل أغنية للعندليب إشارة تحذّره من خطرٍ وشيك، أو تنبّهه إلى عدو خفيّ!

بمرور الوقت تجمعت لتور الجر ثقافة واسعة بلُغة الطير، الذي أخذ يتبعها أينما وجدت، حتى في الموسيقى والأشعار التي ألفها شعراء مجهولين.

إذ تكون لديه تصور، بأن البشر عبر تاريخ وجودهم على هذا الكوكب، اهتمُّوا دائمًا بتحميل الحمام الزّاجل الرّسائل الخطيرة، التي تتضمَّنها شفرة غامضة،

في تلك الصبيحة التي سبقت الانقلاب بثلاث أيام دخل عليه حاجبه وهو يحمل العندليب الهامد بين كفيه، وبعد تردد طال قال:

"وجده أحد بستانيين القصر ميتًا تحت شجرته في الحديقة الملكية".

كأنما صاعقة مدوية ضربت تور الجر لحظتها، فالجمته وحشرته في هاء السكت.. كل ما استطاع أن يهمس به لنفسه لحظتها:

"إذن أجلي قد حان".

وعلى الجانب الآخر، حزن ود دبرك حزنًا شديد على فقده صديقه العندليب، على هذا النحو المباغت غير المتوقع. فحتى مساء الأمس كانا معًا يتنقلان من شجرة إلى شجرة، يعاكسان واحدة من

الشحرورات اللاتي فاتها سرب هجرتها، فضلت طريقها إلى الحديقة الملكية.. بعد مرور سنوات طويلة، قال ود دبرك لعشوشة:

"لم يكن يشكو من شيء، بل كان يبدو عفيًّا وقويًّا رائق المزاج، لدرجة أن غنى لي أغنية عذبة، لم يسبق أن سمعتها في حياتي العامرة بالأحزان".

ورث ود دبرك اعتقادًا راسخًا بأنه من أشراف الطير، التي تنحدر من سلالة هدهد سليمان، ولهذا السبب تتبارك الحيوانات والنباتات بفضلات سلالته المقدَّسة!

وربما مثل هذا الاعتقاد بالذات حافزًا قويًّا لشغفه بالمعرفة، التي ابتدرها بالبحث في أصله وفصله، وطلبها في مظانها من أصقاع الصين، حتى تخوم التبت والهند والسند، ومن المحيطات الكبيرة، حتى الأرخبيلات بين قرنَي الثور، الذي أنهكه حمل الكرة الأرضية، لم يترك ود دبرك مكانًا لم يهاجر إليه!

وفي الحقيقة كثرة المعارف التي نالها، كوَّنت لديه نوعًا غامضًا من الإلهام، جعل ما يتنبأ به يتحقق! فأشاعت حبيباته الأمر، وأصبح بين يوم وليلة فقيهًا تتوافد عليه إناث الطير زرافاتٍ ووحدانًا، وجميعهن كانت أحلامهن ملأى بالطيور!

تنهد ود دبرك على صدر عشوشة:

"ذات أمسية مشبعة بدعاش النيل، طرق باب عشي طارق يبدو غريبًا من طريقة استخدامه لمنقاره في نقر عشي، خرجت إليه فإذا به نورسة ضئيلة الحجم، استضفتها، وبعد أن قدمت لها عدة حبات من الدخن، هو كل ما توفر في العش وقتها، سألتها عن حاجتها فسكتت لبرهة ريثما تتماسك ثم رفعت إلى عينيها وأخذت تحكي حلمها، وبعد أن أنهت كلامها تبسمت بوجهها وقلت:

"ما رأيته من طيور غريبة، ينبئ بسعادة قادمة وتحقيق الآمال والأمنيات".

أنا ود دبرك بن زرزور الدوري، شهدت تمدد المسيحية، على أنقاض تعاليم موسى، وغزوات الإسلام، على أنقاض عقائد العالم القديم، عشت في ظُلمة القرون الوسطى، ورأيت ما تفعله الكنيسة بالمؤمنين، وحين همس "جاليلو" بصوت خافت ومضطرب:

"ومع ذلك فإنها تدور"

كان صدى صوته يتردد في أذني محتضنًا هتاف "أرخميدس" الذي خرج وقتها يركض عاريًا:

"وجدتها.. وجدتها! لتثبت الأيام أن معادن البشر، غير قابلة للتحوّل، فالأشرار للشريرات، والطيبون للطيبات.. وأدركت بعقلي الثاقب أن "أينشتاين" بنسبيته وعكسيته ليس سوى "هيغل" آخر يعيد كتابة الماركسية، كخطاب مضاد للعلم!

وسواء تمكن الإنسان من السفر ب "براق" أو "احتمى" بجدر آلة زمن، ففي الحالين سرعة الضوء لا محالة ستحوله إلى فوتونات! سيتلاشى إلى طاقة، كأنه لم يكن، ما يجعل الفيزياء والميتافيزياء وجهان لعملة واحدة!

وهكذا وجدت نفسي متورطًا في معارف الأقدمين والمحدثين، عالمًا فلكيًا ومنجمًا وخطاط رمل وفقيهًا ومفسرًا لأحلام البؤساء.

والحق يُقال عندما أتأمل عالمي هذا، لا أدري لماذا ينشغل فكري بأسئلة ديك أم الحسن وبيضته الوحيدة، وكلب صاحبته السُّرَّة، وتحويل المعادن الخسيسة إلى شريفة.

كنت لا يوقفني أفول قمر، أو غياب شمس، أقضي وقتي منكفئًا على التأمل انكفاء التلاميذ على لمبة الجاز "حبوبة ونسيني" الذين كانت رؤيتهم منكفئين هكذا تصيبني بحزنٍ عظيم!

وعندما اكتشف صديقي "أديسون" الذي لطالما غردتُ على نافذته، المصباح ونظام توليد الكهرباء، طرت من الفرح متنقلًا من عشٍ إلى عش.

رأيت الدنيا بطولها وعرضها مهاجرًا مع طيور الشتاء والخريف والصيف والرَّبيع، من بلد إلى بلد ووطن إلى وطن، ومنفى إلى منفى.

تعرّفت على ثقافات وسحنات وعقائد، و أقمت في التبت حيث الأنثى مشاع، وعندما فاض بي الحنين إليك يا حبيبة القلب

عشوشة، شغلت غرف قلبي عصفورات كناري وسنونوات وبلابل، ودخلت عليهن جميعًا، واحدةً تلو الأخرى، ومنذها، أصبح بني البشر يضربون بفحولتي المثل!

رأيت أرواح النّاس يحصدها الطاعون والسل والكوليرا و"البرجم" و"الحنكلو" كما رأيت ضحايا هيروشيما وحروب العالم.. وشاهدت بأم عيني كيف يستخدم الجنكويز الاغتصاب سلاحًا في الحرب!

وكالخالدين الذين يعيشون بيننا دون أن يعرفهم أحد، عشت حياتي بطولها وعرضها مئات السنوات، وكلما ماتت إحدى عشوشاتي بحكم السن، تزوجت عشوشة أخرى.

وفي هذه البلاد، حيث مستقرِّي الأخير، شهدت حروب وفترات سلم، عاصرت ازدهارها ومنعطفاتها الحادّة، رأيت كل سحنات البشر والطيوروسمعت كثيرًا من الأسرّار.

فأنا كطائر منزلي لدي حرّية التنقل من دار إلى دار، ومن قصر إلى قصر، دون أن يأبه أحدهم لوجودي من عدمه، رأيت ما يفعله أهل كل دار حلّلت بها، وما يدعونه جهرًا.. فقراء، أغنياء.. ساسة وأشباه نساء، رجال دين وأشباه رجال.

لصوص ومجرمين و أبطال، شجعان وجبناء وخونة. عاهرات، وعاهرون، وفنانين، وإعلاميين.. و...

فمثلما عرفت السُكنى في شقوق بيوت الجالوص الواطئة، عشت في حدائق القصوروالفلل.. ومثلما بنيت عشي في بيوت القش، أقمت في بيوت الطوب. عرفت كل أنواع الأشجار، وجرّبت السُكنى فيها، وتفاديت شجر الشوك! الذي يذكرني وخزه بطبع البشر في عدائيتهم التي لا يجرؤون على إعلانها!

يطاعنون بعضهم البعض بالكلام، يبعثون الرّسائل، يتلمظون شفاههم ويقهقهون، كأن الأمر لا يعنيهم! كل أصناف البشر والحيو انات مروا أمام ناظري في حياتي المديدة.

والآن في أخريات أيامي، مستكينًا في عشِّي العتيق، الذي أصبحت نادرًا ما أغادره، منذ اتخذت قراري وبرمجة عقلي على الرّحيل النهائي عن هذه الحياة البائسة والقاسية والمكررّة، التي عشتها لمئات السنوات. وهي نفسها، فالبشر كلما تقدموا ازدادوا جشعًا وسوءًا وظلمًا.

في قيلولتي في قلب شجرة الجُهنمية الحمراء، أتأمل ذكريات الطفولة والصبا والشباب، والأصدقاء والصديقات من طيور الجنة الملوَّنة، و"جاحوم" كلب حاجة "السُرّة" وديكها "أبو الحسن" وزوجته "أم الحسن" والحبيبات اللاتي عرفتهن فتساقينا الهوى إلى آخر زقزقة وصفير!

وبين الصحو والنّوم يغنين تلك الأغنية الشائعة، التي ألفها شاعريتيم مجهول الهُوية، تمجيدًا لفحولتي التي طبقت شهرتها الآفاق:

"آه من تلك الأيام وتلك الذكريات، التي لم يتبق منها أثر، سوى غزلية طائر السنونو مجهول الهُوية في مزامير"داوود" تدهمني من وقت لآخر، فتمر الصور والأخيلة والمشاهد ووقائع وأحداث مئات السنوات، كأنها حدثت البارحة..

بل حتى الآن لا تزال خياشيمي مسكونة بأنفاس عشوشة الأولى.. تملأ رائحتها التي لم تزيلها السنوات رئتي، وطيفها يسكنني، أحسه في ريشي، أراه في عشي، أسمعه في كل زقزقة وصفير!

والآن ها أنا ود دبرك بن زرزور الدوري الثالث عشر، أتأمل ماضي فيما خُطى الموت تتقدم بثبات.

لقد عشت ورأيت وسمعت ما يكفي أضعاف آلاف المرات، لذا لست قلقًا في ترقبي الموت وهو يدنو، أنتظره بغبطة وسرور كبيرَين!

فمنذ عشرات السنوات اكتفيت من هذه الحياة ومباهجها وأحزانها، مآسيها و أفراحها شهواتها وخيباتها، و انتصاراتها وهزائمها، فما الذي كان على فعله ولم أفعله؟

أنا الذي رأيت العالم مع الطيور المهاجرة، واستقبلت الدنيا بتفاؤل، وتزوجت من العصفورة الجميلة حبيبة القلب عشوشة الأولى.. وكذكور كثر، لم أقصد خيانتها، فقد كنت فحلًا لا أمل الغزو!

وإن أنسَ لن أنسى كيف أمسكت بي عشوشة الثالثة في المرّة الأولى متلبسًا في عريشة الجيران، مع عصفورة "المشاطة" وفي المرّة الثانية عند حرف النّهر مع "قدوم صفيرة" وفي المرة الثالثة لم تكتفِ بفضحي في مجتمعنا المحلي فحسب، فزقزقت تخبرهم بأدق أسرارنا وتفاصيل حياتنا الزوجية، وبالطبع حذفت وأضافت من التفاصيل التي أملاها عليها خيالها، ما جعل كل قبائل الطيور في مشارق الأرض ومغاربها، تتعاطف معها وتنظر إلى باحتقار، وكل ذلك لم يكفها، فعشوشة لم تكن من نوع الإناث المتسامحات، تعاركت معي ونتفت ريشي ريشة ريشة، وأخبرت كل قبائل الطيور حتى آخر زقزاق في تخوم الصحراء.

فظللت مختبئًا خجلًا من الفضيحة، لا أخرج إلا ليلًا، متسللًا كاللصوص، ولذلك عندما زقزقت عشوشة طالبةً الطلاق، سكسكتُ موافقًا دون تردد.

ثم قررت ألا أتزوج بعد ذلك أبدًا! ولم أعد أحتمل نظرات العصافير، وهي ترمقني شذرًا في غدوي ورواحي.. وهكذا قررت الهجرة مع أول فوج من الطيور المهاجرة غربًا، حيث الثلوج والفيضانات والزلازل والبراكين وكل أنواع كوارث الطبيعة، علّ صاعقةٌ تلمُّ بي وتحرق ريشي، وتشوي جلدي وتريحني من هذا العالم القاسي! الذي

لم أجد فيه رحمة من بني جنسي، ولا من البشر الذين استرقوني في أقفاصهم وربما أكلوني في أزمنة المجاعات!

¤¤¤

ذلك الضابط الشاب المربوع، "خراب العامر" والذي كان عائدًا من أحد أسفاره، قادمًا من الحدود، حيث يرابط جيش الحاكم العام "زيف المعارف" مرّعلى قيادة الجيش، يحمل ملفًا مهمًا، ينوي تسليمه لزيف المعارف، يدًا بيد.

وفي الحقيقة لم تكن ثمّة معلومات سرّية، خافية على سواد الشعب، الذي كانت المعلومات حول انقلاب وشيك، تتدفق إلى أذنيه من كل التجاهات، خارج وداخل الحدود.

والحقيقة أن هذا الضابط الصغير، الذي جاء يبلغ عن الإنقلاب المزعوم، بمعلوماته الزّائفة، كان هو نفسه قائد الانقلاب الحقيقي، الذي سيفاجأ به النّاس فجر جمعة حزين، أمرًا واقعًا منذ سمعوا صوت الموسيقى العسكرية في الراديو، التي أخذ يتخللها البيان تلو البيان.

في غضون ذلك تم تأمين الحاضرة بواسطة قوّة مدنية، عسكرية من الانقلابيين، والسيطرة التامة على مؤسساتها الأساسية، فيما كانت في الوقت نفسه قوّة مدنية أخرى يقودها "خراب العامر" قد تمكنت من الاطاحة بالحاكم الجنكويزي العام "زيف المعارف" وأصبح الضابط الصغير "خراب العامر" حاكمًا عامًا على البلاد

الأسيرة، في "دقسة" متوقعة من "دقسات" تاريخها العامر بالانقلابات والثورات.. فشل ود دبرك حتى لحظة خاتمته لزقزقاته في أذن الخزين أم جبو في استيعابها!!

جميلة الجميلات، الأربعينية، سيدة البلاد الأولى دنيا فرندقس، صُغرى زوجات تور الجر الحاكم الجنكويزي العام، الذي أصبح مجهول المصير، فوجئت بأن قائد الانقلاب هو نفسه الصديق المقرّب لزوجها تور الجر، الذي لطالما ناداه "بشقيقي الصغير" فاردمها حتى أُغمى عليها، وعندما أفاقت وجدت نفسها على سريرها، وقد التف حولها الأطباء وعاملات القصر.

لم تكن تسمع ما يقولون، إذ كانت تفكر في الانتقام، وقد رّحلت بذاكرتها إلى خراب العامر! الذي كان كثيرًا ما يزورهم، ويختلس إليها النظر، كمغرم شبق يُمنِّي نفسه بالوصال، ولذلك بعد نجاح انقلابه على "تور الجر" اعتبر زوجته دنيا فرندقس، ضمن مقتنياته الشخصية، ولذا لم يطلب منها مغادرة القصر.

وعلى الرُّغم من أن كل هذه الوقائع جرت لها هي شخصيًا، إلا أنها كانت تتعامل معها كأنها حدثت لامرأة أخرى ليست هي.

وهكذا منذ رأته يستولى على القصر الجنكويزي، ويمر بغرفتها وعيونه تتفحصها متلصصة، حتى تداعت إلى خاطرها كل الذكريات المنسية!

وفي الحقيقة لم تكن دنيا فرندقس قد أعجبت بخراب العامر أبدًا، فنوعه غير موجود في الكتالوج خاصتها، فإلى جانب رغبتها في الانتقام كان كل ما في الأمر أنها بعد أن اعتادت حياة القصور، عزَّ عليها أن تعود مواطنة مثل غيرها من سواد نساء البلاد الأسيرة الشقيانات.

وهكذا، قررت إغواءه والزواج منه، إذ لم يكن لديها أدنى شك أنه مغرم بها، فلطالما قرأت ذلك في عينيه الخابيتين كعينَي صقر عجوز!

كما أنها كانت متيقنة أن زوجها تور الجر قد قُتل في الانقلاب، ولم يعلن الانقلابيون تصفيتهم له لسبب مجهول!

وهكذا تربع الضابط الصغير خراب العامر، حاكما جنكويزيًا عامًّا بمباركة العرّاب وحزبه اللذان لعبا الدور المركزي، في إنجاح هذا الانقلاب ووضعه على عرش البلاد الأسيرة الهاملة، التي لا وجيع لها!

في البدء ولتمكين نظامه أخذ يرسل الرّسل من زملائه العسكريين من قادة الانقلاب، إلى فئات شعب البلاد الأسيرة، يسمع شكواهم، ويعد بحل مشاكلهم،

واستدعى أحد الكهنة من ذوي العقائد القديمة البائدة اشتهر بالتنبؤات، ليجعله عرّافه الخاص.

وفي الحقيقة هذا الكاهن الملقب بحاضر الغائب، لم تكن لديه ولا نبوة واحدة أصابت من قبل، ومع ذلك كان لديه حواريين و أتباع، من عوام الشباب والشابات البائرات في البلاد الأسيرة!

حتى أن الكهول الذين تخطوا الأربعين، كانوا يتندرون بنبرة صعلكتهم في الماضي البعيد:

"ده الغريب الحير انو جكسي ومحايتو ببسي"..

وكان عندما يصل إلى مسامع "الحاضر الغايب" مثل هذا النّوع من التهكم يثور قائلًا لمريديه:

"هؤلاء الفاشلين الذين تحطمت أحلامهم، يودون لو أن الكون كله يدفع ثمن فشلهم، فينهار بكل الكائنات التي تسكنه!".

تحت وطأة غرامه بها، حكى خراب العامر لزوجته بوضع اليد دنيا فرندقس، كل ما جرى بينه وبين الحاضر الغايب بدءًا بنبوءة توليه السلطة خلفًا لزوجها الرّاحل تور الجر، و انتهاء بالقحط والمحل الذي حل بالبلاد الأسيرة..

¤¤¤

زفرة كلب السُرة زفرة حارة وهو يقول اعتراضًا:

"اسمي الحقيقي هو جاحوم بن جحمان بن كلبون الكلباني.. لكن أضاعه الأهالي بنسبتي للسُرة التي نشأت في كنفها".

لوقت طويل لم أكن أدري ماذا أريد؟ فأمضي الليلة تلو الليلة، تارة أنبح وتارة أعوي بمشاعر مزيج من الملل والقلق والتوتر والحيرة، إلى أن ينال مني التعب!

عند حلول الصباح يغلبني النّوم.

فأرى في منامي، "الحاكم الجنكويزي العام" و"العرّاب" يسيران مُتشابكي الأيدي، متجهين إلى نهاية "مدينة الكلاب القديمة"، التي هجرها سكانها الكلبيُّون، منذ عشرات السنوات، وتم بيعها على عهد "العرّاب والحاكم العام" إلى متحف "دولة استعمارية سابقة"، فما لم تستطع نهبه وقتها، تعمل الآن على نهبه، بحفرياتها داخل البلدة القديمة.

هذه الحفريات، التي طالت عشرات الكيلومترات، دون أن يعلم أي "كلب" شيئًا عن طبيعة مكتشفاتها، أو مواقع الحفريات ومساحتها بتحديد دقيق، ولا ما تم اكتشافه حتى الآن، أو الخطط الحفرية المستقبلية.

فالمدينة القديمة، عبارة عن محمية خاصة لهذه الدولة الاستعمارية البغيضة!

تنحنح كلب السُرة بفخر وهو يحكي للجريوات المتحلقين حوله:

لو قُدر لكم، وزرتم المتحف الوطني "لحضارة بني كلبون" سترون آثار ونقوش عصر كلبون الأكبر، وقد اقتطعت من مدينة الكلاب

الضائعة، التي كانت تحفة معمارية ليس لها مثيل، وزُينت بهذه المقتطعات الأُحفورية الجُدُر الداخلية للمتحف.

وستقرؤون في ترجمة نقوش اللُغّة الكلبونية، التي نجح "أبناء الكلب" من علماء اللُغات الكلبية القديمة أخيرًا في فك شفراتها، أمجاد كلبون الأكبر، الأب المؤسس للمملكة الكلبانية، وفتوحاته العظيمة في الصعيد ومهبط النّهر حتى بحر الرّماد، وتخوم دار الرّيح، وحيث البحر الملون وأرخبيلات دار صباح!

وستدركون لكم كنا شعبًا عظيمًا بين شعوب وأمم وقوميات "كلاب العالم" ولكنه حال الدنيا من المحال أن تدوم على حال!

العزاء يا صديقي "ود دبرق" أننا لسنا الشعب الوحيد عبر التاريخ، الذي يتعرض للغزو والهزيمة، فشعوب كثيرة غيرنا، من ممالك الطير والمواشي والزّواحف (فنقست) بهم الدّنيا من قبل، وأصيبوا بأكثر مما حدث لنا!

ستجد ترجمة لعبارة لافتة للنظر، عند مدخل البهو المؤدي لتمثال كلبون الأكبر، ستفاجأ أن هذه العبارة هي مفتاح لكنوز و"آثار كلبون" منذ كانوا كلابًا ذئبية متوحشة، وضالة إلى أن كوَّنوا مجموعة "جنكويزية سعرانة" لقطع طرق القوافل، التي تحمل البضائع لممالك الحيوان الأليفة.

وتطورت إلى فكرة "الرَّباطة، الشبيحة" التي شكلت نواة، تكونت منها فرقة من الفرسان ملأت أخبار انتصاراتها الآفاق، فجذبت

الأقـارب والأصـدقـاء والمرتزقـة، وهكـذا بـدأت نُـواة الجـيش الكلبـاني، تنمو بمرور الوقت، مع كل انتصار توسعي، في الممالك المجاورة.

إلى أن بلـغ أوج قوتـه على عهـد "كلبـون الأكبر" الـذي يعتبر الأب المؤسـس الفعلي، لمدينـة الكلاب الضـائعة، إذ أعـاد تنظيم الجـيش، وحوَّله من جيش تطوُّعي إلى جيش محترف.

واختـرع مؤسسـات الدولـة، ودسـتورها وعملتهـا، وبـدأ رحلـة التوسع الكاسح في ممتلكات الجـوار، بمزاعم نشر الحضارة في إمارات وسـلطنات الكـلاب السـعرانة والضـالة، التي تحولـت إلى طوائـف نخرها الفساد.

تنهد كلب السُرة تنهيدة عميقة قبل أن يواصل الحكي للجريوات:

"منذ زمـن بعيـد، وفي "كليـوة البائـدة" كانـت تعـيش زرافـةٌ ذات قامـة متوسّـطة، كان بالزرافـة غفلـة، إذ خرجـتْ ذاتَ يـوم مـن الغابـة وتاهت، فلم تدرِ أين تسير، ولا أين تتّجه، فصارت تمشي على غير هدىً من هنـا إلى هنـاك، حاولـت البحـث عـن طريـق العـودة فلم تهتـدِ إليه، وهكذا، ظلت تتجوّل، حتى وجدت نفسَها في فجٍّ بين هضبتين، حيث كانت تدور رَحى معركةٍ حاميةِ الوطيس.

على الـرّغم مـن أنَّ عـددَ القتلى كـان مرتفعًـا في الطـرفين، لـم يستسـلم الجنكـويز وصـانعي الفخـار الثـوار المُتحاربـان، ولـم يسـمحا بالتفريط في سنتيمتر واحد من الأرض التي كانا يذودان عنها.

كان الجنكويز يحثّون جيوشَهم على الصُّمود والاستمرار في القتال بضراوة، والسُّيوف مرفوعة إلى أعلى، في الوقت الذي كانت الأرض تكتسب اللونَ الأرجواني بدم الجرحى.

وبين تصاعدِ الدُخان، ودَوِيِّ المجانيق وضجيجها، كان القتلى يتساقطون في صفوف الجنكويز والثوار، الذين يسلمون الرّوحَ في كل حين.

الأحياء كانوا مستمرّين في القتال بحماسٍ منقطع النظير، وهكذا حتى يأتي دورُهم هم الآخرون في السقوط، إلَّا أنّهم كانوا في تلك اللحظات، يضعون في حُسبانهم أنّ التاريخ سوف يذكرهم بفخر الأبطال، وأخذ التاريخ بالفعل إقدامَهم وشجاعتَهم بعين الاعتبار، وكان عادلًا، فقد حكم وقضى بالقسطاس لصالح الطرفين بأنهم أبطال، إذ كلُّ طرفٍ كان يكتب تاريخَه الخاص، وهكذا مثلما "صانع الفخار" بطلًا مغوارًا بالنسبة لأتباعه، فهو بالنسبة لأعدائه الجنكويز آل المقدس سرُّه، ليس سوى درويشًا مهووسًا.

ومثلما تور الجر لا يتعدَّى أن يكون مجرد عميل و أفاق بالنسبة للطرفين من غير النخب، إلا أن أتباعه من الجنكويز البسطاء يرونه قائدًا ملهمًا.

وفيما كان كلب السُرّة غارقًا في تأملاته حول ما يجري في مدينة الكلاب القديمة، جاء "ديك أم الحسن" بصحبة ابن عمه "ديك

المسلمية" الذي كان في زيارة عاجلة لتفقده بسبب غلاء أسعار اللحوم، التي دفعت الأهالي إلى الهجوم على الطيور الدَّاجنة!

قال جاحوم:

عوعى الديكان بوجهي وصاحا بأنفاس لاهثة، وقالا في عوعاي واحد:

"لقد حاصر الجنكويز يقودهم خراب العامر، قصر الحاكم الجنكويزي العام "تور الجر!".

كان النَّهاريتلاشى، عندما أحرق تور الجر وبطانته، وسدنة نظامه، أي وثيقة في حاضرة الدولة أو أقاليمها، وأحالوها إلى رماد، ثم أسَرج له خاصته أحد البغال، ونكّروه في ثياب (عربجي) حيث كان ينتظره بعض حرسه بالجمال، في درب الأربعين، متنكرين كتجار الإبل، كانوا ينوون أن يهربوه بها، عن طريق درب الأربعين، فيما لم يكونوا قد حسموا خيارات تهريبه بعد!

وفيما هم يتجادلون، دهمتهم قوّة من العائدين من الجوار عن طريق درب الأربعين، للتضامن مع صانعي الفخار، واعتقلتهم وسلمتهم للقيادة الميدانية لصانعي الفخار، والتي كانت وقتئذٍ تحاصر مقر قيادة الجنكويز كتفًا بكتف مع قوات خراب العامر! من كل الاتجاهات!

فيما كان السلفيون وعلماء السلطان، الذين "أفتوا بقتل ثلثي الشعب" وقالوا "بحرمة الخروج على الحاكم" يتجوَّلون في الأسواق، مُتشابكي الأيدي، ومكوِّنين مجموعات صغيرة، تخطب في الأهالي البسطاء هنا وهناك، فيما تمضغ قطع الباسطة والبسبوسة بنهم!

وبذات الطريقة، التي يخطبون بها في العوام الطيبين! يتناثر من أفواههم اللُعاب الممزوج بقطع صغيرة مما يأكلون، بصورة مثيرة للاشمئزاز والغثيان والتقزز!

ولم يكن هناك سوى موضوع واحد فقط، هو مدار الحديث في المدينة يومذاك، إذ كان جميع النّاس يقولون لبعضهم بعضًا:

"أن الظلم الذي تعرضنا له، فاق ظلم "الحسن والحسين" فكيف يكون رد الظلم والسعي لإحقاق العدل حرامًا!".

ويضربون أمثلة كثيرة لا تبدأ بثورة "الحسين" ولا تنتهي "بالثورة الكبرى".

وفيما الأهالي، وعلماء السلطان في أخذ ورد، كان تور الجر الهارب، على ظهر بغله متنكرًا في ثياب "العربجية"، قد ترك وراءه زوجته الحبيبة دنيا فرندقس والقصر الجنكويزي ومقر قيادة الجنكويز وحاضرة البلاد الأسيرة وكل شيء، ومضى ضائعًا في صحراء الأربعين ومتاهاتها، التي تتطاير فيها ذرّات الرّمال كالشرر، قبل أن يقطع عليه الثوار العائدين من الخارج، رحلة الهروب الفاشل ليلقى حتفه!

¤¤¤

"ما لا يريد هؤلاء البشر معرفته عن جنسنا، أننا قد بلغنا شأوًا يعجزون هم أنفسهم عن بلوغه".

قال سعرون بن الجحمي، المثقف المتجاوز، ابن عم كلب السُرّة، ثم أضاف وهو يبتلع لسانه اللاهث من شدّة الحر:

"مثل صديقي المقرّب و ابن عمنا جحمان السعران، قاتل البغدادى، الذي يذكرني بصديق قديم هو "كلب الست هانم" الذي توفي في النصف الثاني من أواخر القرن الماضي!".

ثم نبح معوصًا وهو يمسح بلسانه أسفل أنفه ويستطرد:

"وفي الحقيقة يعود الفضل لعلاقتي بكلب الست، إلى صديقنا المشترك الكلب العسسي "رامبو" فهو الذي عرفني به".

عطس عاويًا، وهو يضيف:

"وإن أنسَ، لن أنسى إبان هجرتي التاسعة، صديقتي رائدة الفضاء (ليكوفا) التي فجعني موتها، وآلمني كثيرًا، فقد ربطت بيننا كثير من الذكريات، في السكن الذي تشاركناه، في قلب "الساحة الحمراء" وعلى "ضفة الدانوب" ولا زلت أذكر هوهوتها بسعادة بالغة، عندما رأتني أتبرز على قاعدة تمثال "لينوفيتش"..

وفي الحقيقة، عندما التقيت كلب العمليات الانقاذية الخاصة، أثناء أحداث تفجير مركز التجارة، استعادت رؤيته ملامح وجه

الرّفيقة الماجدة "ليكوفا" التي كانت الأنوثة المتفجرة لجدتها الأولى التي تحدرت منها سلالات كثيرة في أصقاع الأرض، تثير كل كلاب الأسر الحاكمة، بدءًا بكلب نوح، ومرورًا بـ كلب أهل الكهف وصولًا للكلاب المعاصرين، فجمال وجاذبية "ليكوفا" مستمد من ذلك الجمال الساحر لليكوفا الأولى الخالدة عبر العصور!

المهم، أن كلب العمليات الإنقاذية الخاصة، أخبرني أنها جدته هو أيضًا، وأن والده هرب من "معتقلات سيبيريا" بأعجوبة ودخل هذه البلاد "لاجئًا" حيث أعيد توطينه وأحب كلبة من كلبات "بيفرلي هيلز" وظلت حبيبته الأسيرة إلى أن انجبتني، وهربت بعد ذلك مع أحد الكلاب الصِّيَّع الذي كان مغرمًا بالتمثيل، والذي كان رغم إحساسه المزمن بالضياع، إلا أنه أنفق حياته في تربيتي أحسن تربية، يتلقاها كلب مثلي!

وجعلني أرتاد أفضل مدارس الكلاب الخاصة، التي تفوقت فيها، إلى أن اصطادني أحد "صيادي المواهب" فألحقني بجهاز "عمليات الإنقاذ المستعجلة".

ويعود اهتمام عشيق أمي بي، وفقًا لتحليلي السايكولوجي الكلبوني، لكونه نشأ يتيمًا، و أنفق سنواتٍ عزيزة من عمره يبحث عن أبويه دون جدوى!

وفي الحقيقة كلاب كثيرة لم تصدق أن "كلب البغدادي" صديقي، إذ يستكثرون على مثلي معرفة من هو مثله من مشاهير التاريخ.

وبالطبع هم لا يعرفون حقيقة عمري، و أنني عشت آلاف السنوات، في مختلف العصور، وقصص التاريخ التي يقرؤونها في الكتب، كنت أحد معاصريها وشاهدًا عليها، بل وألهمت السينما العالمية، والكتاب، والعلماء والباحثين، الكتابة عني في مجال تخصصاتهم!

حتى لم يعد ممكنًا، أن تقرأ لغزًا من ألغاز الناشئة أو البالغين المتسلسلة، دون أن تجد أحد الأبطال الذين حلو اللغز هو أحد أقربائي!

أو مسلسل أو كتاب أطفال يخلو من حفيد من أحفادي! ولذلك ليس غريبًا، أن أعرف كلب أهل الكهف..

يقول صديقي ود دبرك، أن كلب أهل الكهف كان قد جاء يسأل عني قُبيل رحيله، وكنت في مأمورية عاجلة خارج المدينة، فترك لي تحياته مع صديقي العندليب:

"ودعني في ذلك المساء، الذي قرر فيه أصحابه الهرب من الحاكم الجنكويزي المستبد، فتبعتهم محلقًا فوقهم طوال طريق الهرب من سبسب لوهاد، إلى أن نال منهم التعب فقرروا أن يستريحوا بعض الوقت داخل كهف عثروا عليه على ضفة أحد الوديان!

وهكذا تركتهم في كهفهم عندما تأخروا في الخروج لأكثر من ثلاث ليال، ثم تجرأت ودخلت عليهم الكهف، فر أيتهم جميعًا موتى، حزنت أشد الحزن، وعدت محلقًا إلى هنا".

منذها ينتابني نوع غريب من الحزن، كلما تذكرت صديقي "كلب أهل الكهف" فيرتعش جسمي إلى آخر ريشة، و أتأوه إلى آخر زقزقة!

ولم أُشف من هذه الحالة العجيبة، -يقول ود دبرك-إلَّا بعد أن التقيت بـ الكلب "هاتشي"..

فأنا الذي لطالما عانى من انعدام وفاء الأصدقاء، إثر الوقائع المأساوية بحياتي مع عشوشة الثالثة، وجدت هذا الوفاء في الكلب هاتشي!

كان هاتشي يخص أستاذًا في الجامعة وكان يحبه كثيرًا، ويحرص على مقابلته أمام محطة القطار، لدى عودته من عمله، وفى أحد الأيام لم يعد صاحبه من العمل، إذ تعرض لنزيف دماغي تسبب فى وفاته.

ولكن الكلب هاتشي ظل ينتظره يوميًا أمام باب المحطة، وعرف بقصته المارة وأصبح أشهر كلب في العالم.

وهكذا تعرّفت عليه، ولم أفارقه أبدًا، ونلت من معارفه الثرَّة الكثير، ولازمته إلى أن مات.

وكنت شاهدًا على تحنيط جثته، في المتحف الوطني للعلوم، إذ ركوت على الشباك، وأخذت أر اقبهم وهم يفرغون أمعاءه.

لوقت ليس قصير، كنت من آن لآخر أزور الجثة المحنطة لهاتشي، أركو على النّافذة و اتأمله من بعيد، فيبدو لي أنه لم يفارق الحياة!

كما كنت كل يوم أزور تمثال هاتشي أمام محطة القطار، أركو على عنقه، وأحكي له ما مر بي بعد آخر لقاء لنا، كأنه يسمعني، بل كنت و اثقًا أنه يسمعني، إذ كنت اسمع نباحه ضاحكًا، عندما أحكي له أحد قصصي الطريفة.

وبقدر ما كان هاتشي من أصدقائي الأذكياء، تعرّفت في حياتي المديدة على صديقات وأصدقاء أغبياء، كالكلبة "بر اقش" التي جنت على أهلها وعلى نفسها!

تعرفت على بر اقش للمرّة الأولى، عندما حطت بي أجنحة ترحالي، في مضارب قبيلتها!

وكانت بر اقش ذات حس راداري، يجعلها تحس بأي كائن غريب، يدخل أرض قبيلتها، وهكذا أخذت تنبح عندما شعرت بوجودي، راكًا على خيمة زعيم القبيلة، فزغزغت أخبرها أنني صديق، ولست عدو!

ومن ثم اعتادت على وجودي، وحاولت جاهدًا أن أصادقها فلم أنجح، فقد كانت بر اقش من ذلك النّوع المتحفظ الخجول الهادئ،

المتمسك بالتقاليد القديمة للكلاب الأليفة! مذ كانت ترتدي الحجاب في العصر الجاهلي للكلاب، لإخفاء عيوب وجهها، وهل أذنها بعيدة عن مهوى القرط أم لا، فصرفت النظر عن مصادقتها، بعد العديد من المحاولات الفاشلة!

وذات يوم أغار لصوص على قبيلتها، فنبحت تنبه أهل القبيلة، الذين سارعوا فاختبؤوا فى الوقت المناسب في مغارة.

وبحث اللصوص عن أهل القبيلة، فلم يجدوهم فقرروا مغادرة المكان، ولكن حين لمحتهم بر اقش يغادرون نبحت مرّة أخرى، فتنبهوا لمكان وجود القبيلة، وقتلوهم وقتلوها.

ومن جنس أصدقائي الكلاب، الذين أحببتهم كثيرًا، الكلبان "بالتو وتوجو" اللذان أنقذا أهل "نومي" من وباء الدفتيريا.

وصديقي الكلب تشيكرز، "الكلب الأول" الذي ابتز الرئيس الأميركي نيكسون الشعب الأميركي بالحديث عن عواطفه تجاهه، فأنقذ نفسه من إطاحة الشعب به.

وفي الحقيقة الكلاب التي عرفتها في حياتي، المديدة تكاد تكون أكثر من العصافير من بني جنسي أو شعوب وقوميات وأمم الطير الأخرى، سواء التي تحرَّرت من الرّق، أو التي لا تزال ترسف في أغلالها، أو تقعي داخل زنازينها.

ومن بين كل شعوب الكلاب، عرفت شعوبًا قليلة من أشجع و أنبل كلاب الدنيا، مثل كلب الصيد وكلب الرّعاة، كلب الحراسة، وكلب العسس، وكلب جراي هاوند، وكلب مر افقة المكفوفين، وكلب الزلاقات.. "وشارلي" كلب الرئيس الأمريكي "جون كينيدي" الذي غير مسار أزمة الصواريخ الكوبية.

ففي الوقت الذي كانت الأزمة على أشدها، طلب الرئيس إحضار شارلي إلى غرفة الحرب، المثيرّة للتوتر والعصبية، وقد لاحظ من كانوا بصحبته، أنه عندما كان يداعب الكلب المقعي على ساقيه، كان يشعر بالاسترخاء.

فاتخذ القرار الذي غير مسار التاريخ، وخفف من حدّة النزاع.

ومن الكلاب المميزة، في علاقتي بها، الكلب "بوبي" الذي سافر مئات الأميال، حتى وصل إلى منزله، خلال رحلة أسطورية على الطريق من إنديانا إلى أوريغون، سافر خلالها 2800 ميل، وكان بوبي قد انفصل عن عائلته في إنديانا، والتي بحثت عنه لساعات دون جدوى، إلى أن فوجئوا بعودته وحده إلى المنزل، بعد ستة أشهر! مما جعل بوبي من المشاهير، ولعب الدور نفسه في فيلم صامت بعد ذلك.

وخلال فترة التيودور، كانت النساء من الطبقات الملكية البريطانية، تعشق كلاب "السبانيلز" اللطيفة، وقد أحبهم الملك تشارلز الثاني، وكان لديه مجموعة من ألعاب السبانيلز.

ومن شدّة حبه لهم، كتب الملك مرسوم ملكي، يضمن فيه عدم منع تلك الكلاب، من دخول الأماكن العامة في إنجلترا، متضمنة مجلس النواب، وما زال المرسوم قائمًا حتى الآن!

وهناك كلب مهم جدًّا هو الكلب بومبي الذي أنقذ قائد "الثورة الهولندية" ويليام ذا سايلنت.

فعندما كان "أميرأورانج" نائمًا في خيمته، سمع كلبه الوفي بومبي القتلة وهم قادمون تجاههما، فقام بتحذير الأمير بالنباح والخدش، فأنقذ حياته من الموت،

فأصبح الكلب الرّسمي "لبيت الأورانج!".

وشاءت محاسن الصدف أن أتعرف على الكلبة سموكي في أحد دور العجزة، بعد مسيرّة نضالية طويلة!

وكانت سموكي جالبة للحظ أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد وجدها جندي أمريكي في حفرة بأحد الغابات في غينيا الجديدة وباعها ل "كوربورال بيل وين" وطوال العامين التاليين، أبقي وين الكلبة معه في ميدان المعركة، وعلى متن الطائرات الحربية، كما أنه درب الكلبة سموكي على تهدئة الجنود الجرحى، مما جعل سموكي أحد أول الكلاب المعالجين.

ولم تنتهِ علاقة سموكي ووين هناك، فعلي مر عشرة سنوات، أدي الاثنان الكثير من المهام على مسارح المشافي، وفي المهام العسكرية.

وفي الو اقع بسبب العمر المديد الذي عشته، تنوعت علاقاتي الاجتماعية عبر العصور، تنسج شبكة من العلاقات بمختلف أنواع البشر والكائنات الحية، بل تعرّفت حتى على سحرة ومشعوذين، من الكلاب في الجوار أسفل النّهر، وسفلة متعجرفين من الكلاب ما وراء البحر الملون، كما لاحظت الكسل واللامبالاة على ذكور كلاب شمال دار الريح، والشهوة الجنسية الز ائدة الناتجة عن البطالة والفراغ، على الكلاب في البلاد الأسيرة!

¤¤¤

لم يكن ثمة من يتوقع هذا التفكك المتسارع المريع لنظام الحاكم الجنكويزي العام، "تور الجر" الذي لطالما زعم أنه لن يسلم السلطة إلا مع اكتمال علامات القيامة جميعها، وأكد على ذلك في أكثر من مناسبة!

بل ملأ شوارع ودروب وزقاقات البلاد الأسيرة بصورة تجمعه بالسيد المسيح وهما يشدان على يدي بعضهما!

كما منحه "اتحاد دول الجوار" نيشان الخلود، ونوط أسد الاتحاد، إذ كانت نظم دول الاتحاد، تنظر إليه في إعجاب، على اعتباره آخر ود "أم بعلو إفريقي" لم تطح به ثورات الربيع العربي؟!

وربما كان مصدر إعجاب دول الاتحاد أشياء أخرى رأوها في الرّجل فشل شعبه في رؤيتها، ولذلك سعوا باجتهاد لتمثل مذهبه الحربائي التلفيقي الاستبدادي الدموي، في حكم شعوبهم المغلوبة على أمرها!

فيما كان العالم البعيد، يصر على تسليمه لمحاكم جرائم الحرب، وينظر إليه، بمزيج من خليط الجنون ومركب العظمة، "كسوبر نظام" فشلت كل هبات الجماهير و انتفاضتها، وحصار العالم البعيد، خلال 30 سنة في هدِّه!

بل لم تنجح في هذه الانقلابات والتحركات العسكرية المناوئة، وغزو القوى المسلحة التي أحاطت غرب حاضرته إحاطة القوس، وتوغلت كتائب منها داخل أحياء الحاضرة.

النتيجة أنه أعدم صوريًّا لا الغُزاة وقادة الجماهير فحسب، إذ كانت تلك مناسبة لإفراغ الحاضرة من كثيرين، يشك في أنهم "قد" يمثلون خطرًا عليه في المستقبل، وهكذا مضى يولغ في الدّم حتى رأسه، ليسبح في نهر الدم هذا إلى الضفة الأخرى، لتصفية أي خطر أو تهديد محتمل!

كما سخر كل أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، لشتم الشعب، وإحباط معنوياته، و إقناعه بالذل كقيمة في قناعاته، وليس كسلوك ينتهك الكرامة الإنسانية!

وكان من أكثر الأمور إقلاقًا لسكان البلاد الأسيرة، الذين أصبح سوادهم من الرجال الشيوخ، والطاعنين في السن، نتيجة هذا الإهدار الكثيف لدماء الشباب!

¤¤¤

كان الأعمى يحمل المكسر: رجال الطرق الصوفية، فرق الفنون الشعبية، وكبار السن والجدات، العنقالة وحبرتجية زريبة المواشي!

كل هؤلاء وأولئك ضربوا بالفتوى، التي كفَّرتهم جميعًا عرض الحائط، وخرجوا يلتحمون مع الجماهير التي سبقتهم، لا يخشون الرصاص الذي هطل كالمطر، فملأت دماء الشهداء الشوارع، والأحياء!

كانت أرواح الشهداء عبر التاريخ تظلل الثوار من لجان المقاومة، الشباب اليفع، الذين كانوا يتقدمون بثبات مرفوعي الرؤوس! وكان الجميع مصرًا على إسقاط خراب العامر أو الموت!

في خضم ذلك كشف قادة أحزاب العرّاب، التي انشقت من الحزب الحاكم، وقادة الصف الأول والثاني والثالث والر ابع، لنظامه والفرق والطو ائف الناجية، توجيه سهام شتائمهم إلى صدر أفراد الشعب وتحدي إرادة الثوار واستفزازهم! وتكريس وصفهم بشذاذ الآفاق!

وفي الحقيقة هذه الشتائم ومثيلاتها شكلت حافزًا قويًّا، إذ تحوّلت الثورة إلى قضية شخصية تستوجب الرّد العنيف، المسئولين

قالوا من قبل للمعارضين إذا أردتم السلطة فاحملوا السلاح، ما أدى إلى حرب أهلية قاسية، والآن بذات العنجهية والصلف يقولون للشعب، أخرج لتختبر ضراعاتنا، ودعنا كذلك نختبر ضراعاتك والحشاش يملأ شبكتو!

ففوجئوا بالشعب يثور ويخرج، ليختبر ضراعات قادة نظام الحاكم العام، الذين مع فشل تهديداتهم التي لم تتوقف، ووعيدهم تارة وترغيبهم تارة.

كانت الثورة في نفوس النّاس تتنامى والحشود تتزايد، فبدأ تهريب الأموال والهروب الكبير، عبر البر، والبحر والجو والدواب، عبر منافذ قبل البلاد الكبيرة الأربعة، فيما كان الحالمون بأن النظام سينجو كما نجا خلال أكثر من ثلاث عقود من هزّات عديدة! لا يزالون في سُبات عميق! إلى أن خاب ظنهم، واستولى تور الجر على مقاليد السلطة.

فلم يصدقوا أن نظامهم قد سقط، حتى بعد أن اعتُقلوا كالجرزان الصغيرة، الهاربة من قطط جائعة، وعندما أفاقوا داخل المعتقلات، أخذوا يتهمون ويشتمون ويتعاركون مع بعضهم البعض، فالجميع يريد تحميل مسؤولية ما حدث الآخرين!

كولشيستر، فيرمونت

ديسمبر 2019

¤¤¤

3. المقدَّس سرُّه

إذا كان هناك ثمّة من هو مقدّس سرُّه، فهو صانع الفخار نفسه.

الكنداكة

الإنسان مدين بالاعتراف بالفضل لنفسه، ولهذا السبب بالذات فهو بحاجة إلى إله.

نيتشه

ترى ما الذي كان بإمكان البلاد الأسـيرة انتظاره، من أفق تفكير كـأفق تفكير المقدّس سرُّه، بمتناقضاته ومفارقاته، سوى الرؤية المتشظية عن الإنسان والجغرافيا.. هذه الرؤية التي لا يوحدها سوى الاختلاف والتشوّه والتمزّق!

جادين جانو

أيها الناس: إذا استولى الحق على قلب، من غيره أخلاه، وإذا لازم أحدًا أفناه!

حسين الحلاج

وسوف يذيقون الشعب الأمرَّين، وسوف يدخلون البلاد في فتنة تحيل نهارها إلى ليل، وسوف تنتهي فيما بينهم، وسوف يقتلعون من أرض (البلاد الأسيرة) اقتلاعًا!

محمود محمد طه

¤¤¤

صُلب صانع الفخار على "عيدان شجرة اللعوت سيئة الرّائحة" في فناء كنيسة البلدة القديمة! عندما أشعل الجلاد النّار، في كومة جثة صانع الفخار المتناثرة أشلاء، وارتفعت سحب الدُّخان، لم يشم الناس رائحة اللعوت الكريهة!

كانت سحب الدُّخان، التي انعقدت في سماء البلدة، تفوح برائحة مزيج، من الصندل والعنبر والكافور! فأخذ الأهالي مذهولين، يبحلقون في وجوه بعضهم البعض، وقد انعقدت ألسنتهم!

رفع جادين جانو رأسه عن المخطوطة، وأخذ يدعك على عينيه الجافتين.

طريق طويل عبر أنفاق المخطوطة ودهاليزها، خباياها ومسكوتاتها.. إسقاطات ذاكرتها السرّية والمعلنة.. طريق وَعِر عبره جادين جانو، خبير اللُغات القديمة، بمعهد جار النبي جارو،

لدراسات التاريخ والآثار؛ وهو يتقصى في أحزان صانع الفخار والخزين طبلة أم جبو، شجن البلاد الكبيرة كلها! فيتأمل تلك اللحظة، التي تسللت فيها الراهبة (أم عيون) من الكنيسة خلسة، تتبع أحلامها وظنونها.. أحلامها نقطة الضعف، التي أدخلت المقدّس سرُّه، إلى حياتها، فاخترق قلبها كنصل، مخلِّفًا وراءه جُرحًا ليس باستطاعة الزّمن مداو اته!

أم عيون التي تعاني من كثافـــــة الأحلام، رأت نفسها تتجوّل في البلاد البعيدة، ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة، مثلما رأت قوى خفيّة تشدّها، لتجد نفسها تتجوّل في غابات الصعيد الاستو ائية، تنتظر تسلل أشعة الشمس، من بين أغصان شجر الغابات الكثيفة، في منبع النّهر!

في غضون هذه الأحلام.. رأت المقدّس سرّه.. رأت وجهه الغريب! رأته هو ذاته الرّجل الغريب، القَلِق ذو النظرات الثاقبة، كنظرات نسر مراهق تملؤه فتوّة الصبا، فيحلق بعيدًا بعيدًا..

النظرات التي تكشف عن أدواء الطموح والقلق المزمن! تأثرت بمظهره كثيرًا في غدوه ورواحه، وشعرت بحضوره الطـــاغي.. داخلها يغويها، فأحست بدافع لا يقاوم للقائه، وتساءلت: تُرى هل يتجاوب معها أم سيصدها؟ ثم لم تأبه! فقد قررت أخيرًا أن تتبعه بحذر.

كانت كلَّما تقدمت منه خطوات، تبخرت مخاوفها مثل سحابة صيف يتيمَّة.. السحابة ذاتها، تلك التي في كل مرَّة تغشَّى سماء البلدة، ولا تلبث أن تنطفئ كفقاعة!

هذا الصباح كانت قد تجاهلت عمدًا ارتداء ثيابها الداخلية، تحت ثياب الراهبات القطنية الطويلة الخشنة، التي تغطي كل شيء، فلا تكشف سوى استدارة الوجه!

ورغم أن حكة الثياب الخشنة ببشرتها كانت تؤلمها، إلا أنها كانت قد قررت أخيرًا، أن تترك جسدها عاريًا تحتها.. لفت ذلك انتباه صديقتها الكنداكة، فحاولت زجرها، لكنها لم تأبه! وخرجت تقصد الجروف، خلف الكنيسة تجني بعض احتياجاتها من خضار للطبخ!

كلما خطت خطوة، كانت تكوراتها الوافرة، المتماسكة الصلبة، تهتز بقلق تحت ثياب الرّهبنة الفضفاضة.

رأت هذه التكورات السخيّة بخيالها الجامح غزير الأحلام، تبدو في العُري الكُلِّي، لجسمها الأسمر المشوق، تحت ثياب القطن البيضاء الطويلة، كأنها تطفو في نهرٍ من الضوء!

شبكت أصابع يديها في بعضهما البعض، وسال عرق غزير من كل مسامها، بدت أمامه كمراهقة صغيرة، بوجهه الأبيض، وشعره النّاعم الأسود، الذي عفّرته الأسفار وقسماته الصارمة، ويده المتحفزة على مقبض السيف المحزوم، والمتدلي من خصره وثيابه الغريبة، التي لا تشبه ثياب أهل البلاد الأسيرة!

حقًّا كان هو "المقدّس سرّه"، ذاته الذي لطالما رأته في أحلامها! كان فمه مفتوحًا قليلًا، وقد ارتسم على عينيه استفهام كبير:

"لماذا تتبعينني؟".

تمالكت نفسها جاهدة:

"لا أدري، وجدت نفسي أتبعك!".

"إذن أنت تلك العيون، التي كنت أشعر بمراقبتها كل يوم، كلما مررت أمام الكنيسة؟".

"نعم، أنا.. ماذا تريدين مني؟".

بدا لها صوته الحَذِر بدائيًا، لا مشحون بنبرة من اعتاد المخاطر، وإعطاء الأوامر..

"أنت ماذا تريد مني، تلاحقني في أحلامي كلما غفوت أو نمت!"..

طريق طويل عبر أنفاق الذاكرة، ذلك الذي عبره جادين مع الرّاهبة أم عيون، وصانعو الفخار، وآل الخزين لعشرات الأجيال و.. ومع أهالي البلدة القديمة والمدينة الزاهية، وهم يأوون إلى مراقدهم، أو يهجعون متوسدين أحلامهم، وهم لا يزالون منشغلين بسباق الحمير السنوي، فخر مباريات البلاد الأسيرة، الذي ينعقد كل عام في البلدة القديمة، لما لها من مكانة رمزية عميقة، في وجدان شعوب البلاد الكبيرة! عبر معهم وهم يغادرون إلى الصعيد، بعد أن

أجلاهم الحاكم الجنكـويزي العام.. يبحثون في داخلهم عن الوطن في ظُلمة الغابات وعتماتها، وأحراشها الموحشة!

هذه الغابات الكثيفة، التي اختارها أسلافهم وطنًا بديلًا، في تراجعهم المستمر من أقصى السافل، إثر ضغط الهجرات والغزو والإزاحة والإحلال.. كانوا يتراجعون صعودًا في النّهر، يشيدون أوطانًا جديدة، داخل هذه الغابات العذراء المظلمة، يفتقرون لكل شيء، سوى أساطير الهزّائم والمرارات والانتصارات الشحيحة، في حكايا الأسلاف!

ومع ذلك تشتد رغبتهم في الحياة، فيغنون أغنيات الصيد والحب وصانع الفخار، على وقع موسيقى المطر الاستوائي الغزير، تشاركهم القرود عزف الطبول والرقص تحت ضوء القمر، الذي يتخلل أشجار المانجو والباباي الكثيفة!

طريق مليء بالشجن والدّم والدموع، عبره أهالي البلدة القديمة، إلى أن رمى بهم "الفُلك" مراسيه، فتبدَّى لهم صانع الفخار الأكبر، يحيط به كل أحفاده وآل الخزين عبر التاريخ!

جميعهم خروا ساجدين، لا يرفعون أعينهم إليه، يشرعون فقط مسامعهم، لينساب صوته العميق الآسر، الرّيان بالحنين يهدئ لوعتهم! ويحدثهم عن وطنهم الجديد، أرض ميعادهم.. ويوصيهم خيرًا بالحق، فالحق أحق أن يُحق!

بدت لهم أرض الصعيد.. هذا الوطن الذي تم نفيهم إليه، كغابة تملؤها الهواجس والأشباح والظلال والمخاوف والظُّنـون.. تمد فيها كل أنواع الأشجار التي يعرفونها، والتي لا يعرفونها.. أعناقها إلى السماء البعيدة، موطن صانعي الفخار الأماجد!

كانت الأزهار والرّيحان البري، في كل شبر من هذه الغابة العملاقة، وكان عليهم أن يبدؤوا من الصفر.. أن يعمروا هذا الوطن الجديد، ويشيدون فيه حياة بديلة.

كانوا بعد أن هدأ صانع الفخار سرّهم، قد بدؤوا يتصالحون مع فكرة البدء من جديد، ولم يكن هذا خيارًا ضمن خيارات، فهو الخيار الوحيد!

فكان أول شـــــيء فعلوه أن بنوا ضريحًا وقبة لصانع الفخار، شعروا بعد إكمال بنائهما بالسكينة، وأخذت خياشيمهم ورئاتهم، للمرّة الأولى تتنفس رائحة الفواكه والرّيحان البري ممزوجة في "(عشبة معونة النّهر) و(أم بانقيقة) و(السعدة)".

¤¤¤

هتف هاتف:

"لقد أحرق الجلاد والأهالي والعسس الجنكـــويز صانع الفخار، بعد أن صلبوه وعذّبوه ورجموه، وقطعوا يديه ورجليه! بدى كطفل وديع! حتى بعد أن تحوّل إلى كومة من الرّماد!".

قُتل صانع الفخار بذات الطريقة، التي أُعدم بها أسلافه، من كجور وحاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة! صلبه عسس الحاكم الجنكـــويزي العـــام، على صليب من خشب "اللعوت" سيئ الرّائحة وأشعلوا فيه النّار!

صانع الفخار الملقب "بصـــانع الفخار الأكبر" حملت به أمه على كبر، ظلت عاقرًا لوقتٍ طويل، فنذرت إن جاءها طفل ذكر، لن تعطيه اسم وستهبه للخزين لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين، وعندما حملت وجاء مولودها إلى الدنيا وكبر قليلًا، شق عليها أن تنفذ نذرها! دفعت به إلى سوق البلدة ليتعلم التجارة، وصبرت عليه، فلم يفلح.

فـــأخذته إلى أهل الحرف والمهن والصناعة، وصبرت عليه فلم يفلح أيضًا.. فعلت كل شـــيء، لكن لم يفلح! فاستيأست منه، فقال لها:

"يا أمي أنت نذرتني لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين، فاوهبيني للخزين، تُوفِي بنذرك".

فدفنت رأسه في حضنها، ثم مسكت رأسه بين راحتَي كفَّيها، و ابتسمت دون أن تقول شيء، فقط نهضت وأخذته من يده، متجهة به إلى حلقة الخزين.. بعدها لم يرَها أحد، فقد ظلت دارها مهجورة، خالية لا تسكنها سوى العناكب وحمام الوادي وطائر البلدة الأسطوري!

أخذ الصّبي الصغير، يخدم رواد الحلقة في "تكيّة" الخزين، الذين كان سوادهم فقراء ومقهورين ومهدرين، ويقضي حوائجهم، ويعتني بنظافة المكان، فيكنسه وينفض الغبار عن المخطوطات والمنحوتات، ويهيئه لـــــــلانعقاد بالناس؛ الذين يجيئون طلبًا لعلم الخزين! فيبسط "الفرّاوي" ويملأ "الركاوي" بالماء.

كان ذكيًّا يحب الاعتناء بالتفاصيل! وذات يوم وهـــــو كعادته، ينظف المكان، عثر أثناء كنسه على رقعة من الجلد كتب عليها (صانع الفخار)، فأخذها دون أن يشعر و ابتلعها، مدفوعًا بقوّة خفية لفعل ما فعل! وأخذ يتمتم:

"إنه اسمي أنا، صانع الفخار.. هو أسمي.."...

كانت تلك القطعة الجلدية؛ هي مرسوم الولاية للخزين كحامل للقب (صانع الفخار) المقدس الإلهي المهيب، الذي حمله قلة منذ أُنشئ الكون وبُسطت أرضه، ونُصبت سماؤه، ونُثرت فيها النجوم!

بحث الخزين عن رقعة الجلد في كل مكان، فلم يعثر عليها، فغضب غضبًا شديدًا، ونادى في الجميع يسألهم عنها ويهددهم ويخيفهم بدعواته عليهم، حتى يعيدها من أخذها، فلاذوا جميعًا بالصَّمت، فقال مغتاظًا:

"من عثر عليها ولم يردها، قطعت يمينه، فلم يتكلم أحد"..

فقال:

"من سمعني أسأل عنها ولم يجبني، قطعت شماله، فلم يتكلم أحد"..

فقال:

"من سمعني أُلح في طلبها ولم يردَّها، عُذب ورُجم وقطعت أرجله وصُلب على شجرة لعوت سيئة الرّائحة، وحرق، وذُرِّيَ رماده في هواء البلدة"

فلم يتكلم أحد..

¤¤¤

سأل الجنكويزي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على مبعدة من الأنقاض المحترقة لكنيسة البلدة القديمة:

"من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟".

فرد أحدهم:

"لقد مات مقتولًا منذ اليوم الأول للغزو"..

تعالى صوت متوتر من خلفهم:

"يُقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعدة من "الجاسر" فدفنوها محل شجرة اللعوت، التي حلَّت محلها النخلة!".

ارتفع صوت أحدهم:

"لا بل يقولون أنه غادر إلى دار الريح، قبل الغزو بأيام!".

"بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!".

"ومن ذاك الذي دُفن تحت النخلة، أليس هو؟".

كيف يكون هو هو لا يموت؟!".

كانت رأس الجنكـــــــــــويزي تستدير تجاه كل متحدث، وعيناه تتسعان دهشة، لا يصدق ما يتحدث به الجمع!

جزَّ أسنانه.. نفرت عروق جبينه وعنقه.. ترجل عن فرسه، و انتصب وسطهم كمارد ممشوق، ولشدة خوفهم، خُيِّل لهم أن عنقه تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب!

ارتعدت فرائصهم من الخوف وهو يصرخ في وجوههم كالمجنون:

"هل جننتم؟ لا يموت؟ أي انسان هذا الذي لا يموت؟".

فقال أحدهم في خوف:

"إنه مربوع القامة"..

فقاطعه آخر:

"لا بل طويل جدًا، حتى يُقال أنه يمد يده يشوي السمك، الذي تهبه له صديقاته حوريات النّهر، في الشمس!".

تحسس الجنكويزي سيفه، وهو يستشيط غضبًا:

"جميعكم كفرة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يرَه، أو يعرفه!".

فأكد أحدهم:

"كل من رآه للمرة الأولى، كانت تلك هي المرة الأخيرة!".

فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

"بل لم يره أحد لا أولًا ولا أخيرًا، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدّث معهم؟!".

كان واضحًا أن الجنكــــــــــويزي قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم.. شد لجام فرسه، وقفز على صهوتها، و انطلق مبتعدًا يتمتم بكلمات مبهمة، تاركًا الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار!

وفيما هم يتغالطون، كان الخزين الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنكويز حبيبته "الكنداكة"!

اتكأ صانع الفخار على ذاته، وهو يشعر بنصلٍ حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلًا قليلًا قبل أن يسأل الخزين:

"وأين كنت أنت وقتها؟ ألست حارسها؟".

لم يجد الخزين جوابًا، ودَّ لو قال له (وهل استطعت أنا حراسة نينا لأحرس الكنداكة) لكن لم يجرؤ، فأشاح بوجهه الشاحب، حتى لا تقع عينيه على عيني صانع الفخار.

كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزة، نكس رأسه ثم عاد فرفعه، وجاهد بشفتين مرتعشتين كي يقول كلمة واحدة، لكن جهاده لم يثمر، فخرَّ متهالكًا على ركبتيه، وهو يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة!

حدق فيه صانع الفخار مليًّا، وهو يتراجع إلى الخلف، دون أن ينبس ببنت شفة.

وكفقاعة في ذلك المساء الحزين انطفأ!

كان قد اختفى تاركًا الخزين وحده، الذي كـــان قـــد انفجر في عاصفة من البكاء المر، تتناهشه المخاوف والهواجس والظنون!

فيما كان "الفُلك" الذي يقل حبيبته "نينا"، قد توغل عميقًا في النّهر، حيث بدأ مطر خفيف مصحوب بدرجة من الرطوبة، لطالما ألفها أهل البلدة القديمة، يتساقط..

كانت الرطوبة تمتزج بالأنفاس الساخنة للمغادرين، فيصـــبح الجو داخل الفلك دافئًا ولكن خانقًا، بينما ريح هادئة تتلاعب بالفُلك، حتى ليبدو كالمحمول على محفَّة!

شعرت نينا بألمٍ شديد في رأسها، يكاد يقسمه نصفين، كان الشعور بالإعياء الذي هيمن عليها، منذ تلك اللحظة وهي تودع الخزين، قد جعلها تحس أنها تودع روحها! لحظتها تملكها شعور قوي؛ أنها لن تراه مرّة أخرى، وأن حياتها باتت قصيرة جدًا، وأنها لا تستحق أن تعيش!

حاولت أن تتمالك نفسها، فاتكأت على أحد المجذفين في الجانب الأيمن من الفُلك، عند نهايته وهي تنظر إلى النّهر الذي بدا لها أن لا نهاية له!

تملكها إحساس مميت بالإعياء والتعب، فاتكأت على جدار الفُلك تخفف ثقل جسمها المتهالك، وكان الليل يدنو حثيثًا حثيثًا.

تلفتت حولها في زحام الفُلك، تتفحص الأهالي الجالسين والواقفين والمتكئين.. حاولت أن تتبين هذه الوجوه، التي عاشت بينها.. هؤلاء الذين ولدت في كنفهم، ونمَت وترعرعت وسطهم، تشعر بهم الآن غرباء عنها! لا تعرفهم!!

كان الألم في رأسها يشتد، كأن ألف مطرقة تطرق عليه بعنف وشدّة! بدأت حرارة جسمها ترتفع، والعرق يتصبب غزيرًا؛ يمتزج ببلل المطر في ثيابها،

لم تستطع الاستمرار في الوقوف، فانهار جسمها وسقطت مُغمىً عليها!

¤¤¤

وبعد أن ابتلع الصبي اليتيم، رقعة الجلد. وتعايش الخزين مع حسرته عليها، أخذ يوليه عناية خاصة، مدفوعًا بقوى خفيّة، أن يمنحه كل معارفه وعلومه، حتى لم يبق لديه شيء يمنحه له.

وكان ذكاء الصبي حادًا يلتهم المعارّف والعلوم، بيسر لم يره الخزين في أحد من قبل، بل كان أحيانًا يطرح على الخزين مسائلَ تشتكل عليه، فيساعده الصّبي، ويحلها في يسر!

وهكذا مضت علاقتهما تنمو؛ وتتعمق بمرور السنوات، وعندما تعدَّى سن الرجولة، بدأت تطرأ عليه تحوّلات غريبـــة، إذ كان الخزين عندما يعطيه الفضة ليشتري طعامًا للفقراء، كعادته خلال السنوات الطويلة؛ التي قضاها في رعايته، كان النّاس يشكون منه؛ فعنـــــدما يمضي إلى السوق ويسأله البياع:

"ماذا تريد؟".

يرد مهمهمًا بكلامٍ لا يفهم منه سوى كلمة واحدة:

"الحق، الحق.."...

ثم يأخذ لنفسه ما يريد ويمضي، وتكرر الأمر مع كل البياعين، الذين بدا لهم دائمًا كالسابح في ملكوت وحده، لا يعيش مع هؤلاء النّاس، في نفس المكان والزّمان والحياة! فضاق به أهل السوق زرعًـا، وجاءوا إلى الخزين يقولون:

"يا سيدنا لا ترسل لنا هذا المُولَه، لقد أعيانا دون أن نعرف ما يريد!".

فينقل الخزين هو الآخر بصره بينه وبينهم، ويلوذ بصمت عميق، إلى أن يعييهم الانتظار فينصرفوا، وينصرف بعدهم صانع الفخار، تأخذه قدماه إلى قيف النّهر، فيجلس ويحدِّق بعينيه في القلعة، التي تبعد على مسافة أذرع من مجلسه!

كانت القلعة التي أُحيطت بأشجار الهشاب والسنط، بأشواكها الحادة التي تتألق على ضوء القمر، ليس ثمة من يعرف تاريخ تشييدها بالتأكيد، إذ تضاربت روايات عدَّة، حولها.

بعد عشرات السنوات من هذه اللحظة، ستصبح هذه القلعة نسيًا منسيًا، إلى أن يعاد بناؤها مرَّة أخرى، عندما تخضع البلاد الأسيرة لسلطان المقدّس سرُّه!

يعود تاريخ هذه القلعة، في بعض الرّوايات الشعبية، إلى عهد النبي سليمان، لتكون حجراتها الضيقة (سجون) للجن العُصاة، لكن روايات شعبية أخرى، تنسبها إلى تلك الفترة السحيقة، قُبيل حريق روما بقليل، عندما أرسل الحاكم نيرون سنة 664 ميلاديـــــة جيوشه لغزو البلاد الأســـيرة، لكن بعد أن نشب الحريق، غيَّر رأيه! وطلب من جيشه العودة، للمساعدة في إعادة بناء المدينة المحترقة!

وبينما يتفق كثيرون، أن أول تجديد لها، تم من قِبَل المماليك الناجين من مذبحة محمد علي باشا في 1811 ميلاديـــة يؤكد آخرون

أنها حملت اسم الخواجة "كوبر" الذي كان قد سُجن فيها، من تبقوا على قيد الحياة، من اتباع صانع الفخار، الذين ثاروا على الحاكم العام، في 1924 ميلادية.

شُيدت القلعة على مبعدة من النّهر، وظلّت سجنًا رهيبًا تحيطه الحكايا والقصص، عن أجيال من اتباع صانعي الفخار، ظلّت تقضي نحبها، بين جدرانها الصماء!

وهؤلاء، حتى عندما كان يتم دفنهم، في المقابر الجماعية المجهولة، كانوا لا يزالون مكبلين بالقيود.. يرسفون في السلاسل!

ومع ذلك ظلّت أشباح مشاعرهم ومعتقداتهم القوية، متقدة وحيّة لا تموت! إذ لم تتوقف فيهم رغبة الحياة، ولم تكف أرواحهم الهائمة، عن طلب الحق ومقاومة الغُزاة.

كانت واجهة القلعة، مبنية من حجارة تلك الجبال، التي سيطلق عليها الأهالي بعد عشرات السنوات، اسم جبال الأولياء، وذلك لأن أولياء البلاد الأســـيرة، اجتمعوا عندما ليلة صُلب وأُحرق صانع الفخار الأكبر، وقرروا خراب البلاد الأسيرة!

كانت معتقلات القلعة، خالية من النو افذ.. فقط كوّات صغيرة ذات حوافٍ مدببة، تطل على النّهر، حيث يفيض هبوب النسيم، متسلقًا جُدُر القلعة من آنٍ لآخر، ليُذكر السجناء، الذين مـا زالوا على قيد الحياة، أن هناك ثمّة عـالم آخر، خارج الحجرات الضيقة، التي حُبسوا فيها!

ظلت القلعة منذ عهد بنائها الأول، تمثل تهديدًا سافرًا للأهالي، إذ كأنها تراقبهم، بإطلالتها الرّهيبة، على بيوتهم البعيدة المتفرقة، التي تبدو منها، ككومات تراب أو قش، صغيرة متناثرة.

على بقايا الجُدُر الخارجية لهذه القلعة، التي لطالما تكسرت عليها أمواج النّهر، تسلقت نباتات الجروف الزاحفة الصخر، وتسلّلت بين الشقوق، حتى استحالت هذه الجُدُر إلى طحلبية خضراء!

وعلى الجُدُر الدّاخلية، نحت السجناء شكلًا متكررًا لشجرة لعوت وحيدة، قوّية، معزولة، وأشكالًا أُخرى عديدة لكائنات غريبة، ورسموا نهر البلدة القديمة، و أنهار البلاد الأسـيرة، التي لم يعد لها وجود.. بعد أن ردمتها الرمال عبر العصور!

شجرة اللعوت Acacia Nubica سيئة الرّائحة تلك، والتي قبل عشرات السنوات، كان قد جلبها "الخزين طبلة أم جبو الملقب بالخزين الأكبر" في طريق عودته من دار الريح، وزرعها هنا في هذا المكان بالتحديد: على بعد أذرع قليلة من "الجاسر" المتفرع من النّهر، الذي يخاصر البلدة القديمة، جهة دار صباح، قبالة ميل زاوية الشروق، في قبة السماء، عند الأفق الرّحيب!

بالضبط هناك! حيث بإمكانها من هذا الموقع، أن تستقبل الشمس على نحوٍ معين، وترسل أشعتها خلال مظلة أغصانها، لتطل

على البلدة القديمة، كأشعة فاترة، تجسد الطاقة اللامتناهية للحياة، دون أن تحرق الأهالي، المنغمسين في سباق الحمير السنوي!

في الأمسيات التي تنشط فيها الرّيح العاصفة، لم تكن شجرة اللعوت تهتز أو تميل، فتكتفي الرّيح بأن تتخللها، لتعبر جهة كنيسة البلدة القديمة بالذّات!

تصفع كوّاتها وأبوابها ونوافذها الخشبية العتيقة، كأنها تزجر الرّاهبات، اللواتي كنَّ يقفن خلف أبواب ونوافذ عنبرهن الصغير، يتزاحمن ليحتللـــن ببصرهن الفتحات والشقوق والثقوب، يتفقدن ما يجري في الخارج!

لطالما رمَـــينَ بنظرهن إلى الشارع الفسيح، الذي يفصل البلدة القديمة قسمين، ودواخلهن تضطرم بنار غامضة المصدر! يشتد أوارها في الكنداكة وأم عيون أكثر من الأُخريات! اللاتـــي كانـــت تسلية وحدتهن المقدسة القاسية، إلقاء البصر عبر هذه الفتحات، والذي كان يرتد في كل مرّة وهو حسير، فيعدن لروتينهن اليومي:

يغسلن ويطبخن ويكنسن، وقد يمضين إلى جـــــروف الكنيسة ينظفن الخضروات والبطيخ والشمام من الحشائش.

ثم يتفرغن لتعاليم ابن الرب يسوع، وهن يسألنه تخليصهن من هذه المشاعر الغامضة، التي تنتابهن كلما تسلل بصرهن، فرأى شباب البلدة اليانع ورجالها المفعمين بالحياة!

لكن الرّاهبة "أم عيون" يبدو أنها ملّت انتظار المخلص يسوع، ليخلصها من تلك المشاعر الغامضة، إذ من ثُقْبها لفت نظرها وجه رجل فتي، غريب، ليس من الوجوه المألوفة في البلدة..

كان يمر كل يوم عابرًا أمام نظراتها المسترقة، فتحينت الفرص وتبعته، مدفوعة بنداءٍ خفيٍّ غلبها مقاومته!

كان الرجل الغريب هو 'المقدس سرّه" الذي جاء وقتها متنكرًا، على رأس فرقة استطلاع سرّية انتشرت في البلاد الأســـــيرة تمهيدًا لغزوها!

ظلت تتبعه بحذر، إلى أن بلغ شجرة اللّعوت، قُرب الجاسر، وتجاوزها إلى النّهر، كان يشعر بها تتبعه! وعندما التفت يواجهها، التفت معه تيار مزيج من رائحة السعدة وأم بانقيقة، وعُشبة معونة النيل! لفح وجهها محمولًا على سواعد نسيم لطيف، يبعث في النفس خدرًا لذيذ التردد! يهدئ من قيظ أبخرة النّهار، الذي لا زالت تتميز به الأرض المعطونة في الظمأ والغموض!

كانت مدفوعة بهاجس روحها، التي لطالما حدثتها بلقاء شخص غريب ما! شخص يخبئه لها قــــدر غريب لا محالة و اقع، فقد سطر بقلم القدرة أن يكون!

اندفعت نحوه و اندفع نحوها.. كان هو الآخر يريد هذا الجسد ذا العينين الواسعتين، والشفتين المنقوعتين في دم المسيح! وكانت

تراه الجسد الغامض ذاته، الذي أقلق في الحُلم كيانها، واستنزف جسدها المصلوب تحته قطرة فقطرة.

كان ذاك لقاءهمـــا الأول، الذي لم ترَه بعده، إلا عندما اقتادها جنده بعد وقت ليس قصير، مع الكنداكة وزميلاتها الرّاهبات! لم يقتلها.. لم يسعد بلقائها فيبقيها معه! رغم حبه لها، فقد أدرك بفراسته أن هذا الحب سيقتله، أعتق والديها وفضَّل الخلاص منها، بإهدائها لواليه على دار الريح!

انطفأت الرّاهبة أم عيون، كفلــين امــتصَّ المقدّس سرّه شذى بوحها الشجي، دفعـــــــة واحدة، وقذف ما تبقى منها إلى دار الريح، تتجوّل في ذاكرتها، بين تلافيف ذكرياتها اليتيمة، تبحث عن مصدر بري، متوحش لنداء خفِّي يسكنها، يشملها بالغفران، دون جدوى، فينهكها المسير الطويل، في سباسب دار الريح ووهادها ووديانها، تحمل بداخلها نصف الكنداكة، التي شقها المقدّس سرّه بسيفه نصفين!

يخطر ببالها صانع الفخار الحفيد، فيجيئها طيف صانع الفخار الأكبر، مقتحمًا حزنها وشجنها، فتسأله:

"من أنت؟".

فينظر إليها بعينين حزينتين دون أن يرد، ثم سرعان ما يتبدد الطيف.. يختفي وتتلفت حولها دون جدوى ورأسها تدور!

كان صانع الفخار الأكبر قد زاد به الوجد، فساح في الجبال ستة أشهر، وعندما عاد وجد حلقة الخزين مزدحمة بالنّاس، والخزين يخطب فيهم، لم يكن على عادته، فرغم فصاحته التي اشتهر بها، وجعلت كلامه مفهومًا لكل النّاس مهما علا أو دنـــا شأنهم، إلا أنه كان يقول كلامًا كثيرًا، لم يفهم منه أحد شيئًا!

وبعد أن ملّ النّاس محتارين في أمره، قاطعوه:

"يا سيدنا لم نفهم شيئًا مما قلت"..

فرد عليهم:

"أنا ايضًا لم أفهم ما كنت أقول.. كان الكلام يجري على لساني دون أن أعيه، كأن أحدًا يمليه علي.. تلفتوا حولكم إذا وجدتم باكيًا اطلبوه، فقد فهم.."...

فتلفت النّاس حولهم، فلم يرَوا سوى صانع الفخار الأكبر، يبكي بكاءً حارًا فسألوه:

"هل فهمت شيئًا؟ فردَّ باكيًا:

"نعم".

"إذن تقدم فسيدنا الخزين يريدك، لتشرح له ولنا".

و افسحوا له حتى وصل السرادق، الذي يعتليه الخزين، الذي بادره قائلًا:

"والحق، لقد وصلت منزلة لم يبلغها أحد قبلك، ولن يبلغها أحد بعدك!! الزم نفسك وأكتم السِّر!".

فرد عليه صانع الفخار الأكبر، وهو لا يزال منخرطًا في البكاء:

"لا أقوى على الكتمان، أخذ عقلي مني، وقد سلبني عني، ثم نظرت منه إليه، فلم أرَ الكون إلا هو!".

ثم انفلت خارجًا وهو يركض وبكاءه يشتد! والنّاس حول الخزين يرددون:

"أُصيب الرّجل في عقله.. أُصيب الرّجل في عقله!".

قيل أن الصليب الذي صُلب عليه صانع الفخار، صُنع من عيدان شجرة اللعوت الجافة تلك! ما دفع بأهالي كُثر.. بل أتباع مخضرمين لطائفة صانع الفخار، الاعتقاد بأنها شجرة ملعونة، معضدين قناعاتهم الرّاسخة برائحتها الكريهة النفاذة، إذ كانوا يرددون حكمة أسلافهم الخالدة:

"لا يخرج من الكرّيه إلا كل كرِّيه!".

وكونها شجرة غريبة، لا تنتمي لهذا الجزء من البلاد الأســـيرة، فموطنها هو الأطراف الصحراوية البعيدة لدارِ الريح، والسافل

الأشد جفافًا من الصّحراء القاحلة، ما وراء البحر المالح! كان ذلك وحده كافيًا للعنها!

إثر اختفائها المفاجئ في إحدى الصبيحات، خالج البعض شعور أنها ربما حنَّت إلى موطنها الأصلي، فغادرت في جُنح ظلام البلدة!

كان أطفال البلدة القديمة، المغرمون بصيد الطيور، يستخدمون أشواكها الطويلة الحادّة، كـــأسنة لسهام البوص، التي يصطادون بها الطيور الصغيرة المهاجرة! من جهة النَّهر..

حين تلفح البلدة الرّائحة الرّطبة الدافئة، المشبعة برائحة (أم بانقيقة والموليتا وعشبة معونة النيل)، وعندما تهب النسائم المترددة، كانت الرَّائحة النفاذة الكريهة لشجرة اللعوت، تهدد خياشيم البلدة بالغثيان، فتعتري الأهالي رعشة خفية، ويشعرون بانقباض في نواة القلب!

ورغم أن أهالي البلدة، لشد ما كرهوا هذا الهواء الرّاكد، إلا أنهم، بمرور الوقت تصالحوا معه، لكونه يحصر رائحة اللعوت، في الحدود ما بين الجاسر والنّهر.

شجرة اللعوت هذه.. كانت في موطنها الأصلي، تنمو عادةً دون ساق، إلا أنها هنا ومنذ الأيام الأولى لزراعتها على يد الخزين، كان لها ساق واضح بين الفروع!

في الصبيحة التي سبقت غزو الجنجويد للبلدة القديمة بصبيحتين، فوجئ الأهالي، باختفاء شجرة اللعوت، وكانت قد نمت في محلها، بطريقة غير مفهومة! نخلة طويلة سميكة الساق!

ورغم أنهم لم يكنوا لشجرة اللعوت، أي شعور بالود يومًا، إلا أن اكتشافهم لاختفائها المفاجئ، بعث فيهم شعورًا مزعجًا بالانقباض والقلق!

ولولا أنهم انشغلوا بقية اليوم، بسباق الحمير الذي كانوا يقيمونه صيف كل عام، يتبارون مع قرى وبلدات ومدن، البلاد الأسـيرة الأخرى، لما خفَّت حدة الانقباض، تلك التي بعثها اختفاء الشجرة! وهكذا مضى ذلك اليوم والذي يليه والأهالي منتشين، تحت تأثير النتائج التي حققوها في السباق!

وتحت وطأة مريسة العيش وعرق البلح، اللذيـن هيمنا على وعيهم، لم يأبهوا لجحافل الجنكويز، التي كانت تتأهب للهجوم، بعد أن اقتربوا كثيرًا، من أبواب البلاد الأسيرة!

الأمسية التي سبقت غزو الجنكـويز للبلدة القديمة، اشتدت فيها الظُلمة، وامتدت لتغمر دروب البلدة وزقاقاتها، واختفى الأهالي المنهكون من سباق الحمير من الطرقات، وتسللت أضواء الفوانيس الخافتة من شقوق النوافذ الخشبية العتيقة، وبدأت ظلال صانعي الفخار تنتشر، تجوب الشوارع كأنها تتبع مواكب جنائزية!

جاءت أطيافهم من مختلف العصور، يبدو على ملامحهم قلق عميق، يخفق في ظلمة مغبرة وهم يعبرون!

طائفة صانع الفخار الحفيد والخزين، التي كرّست نفسها للتعاليم والدعوة، لم تكن معدّة لمواجهة جيش المقدّس سرّه، أو خوض أي نوع من القتال، فلم يكن أمام أفرادها، وأمام صانع الفخار والخزين سوى الاختفاء، بعد أن جد المقدّس سرّه في البحث عنهما، وعن كل من يشتبه في انتمائهم للطائفة!

إذ كان أول شيء فعله المقدّس سرّه، أن أمر عيونه بالبحث عنهم وملاحقتهم في كل مكان!

شخصيتَي صانع الفخاروالخزين، اللتان لم تكونا شائعتيـــن في وعي النّاس في هذا العصر، سوى كاسمين مألوفين، اربكتا جنكـــويز المقدّس سرّه، فأصبحوا يمسكون كل من يرون في سمته الوقار والجلال، ظنًّا منهم أنه صانع الفخار أو الخزين، فقد كان واضحًا أن لا أحد يعرفهما!!

وقتها كانت طائفة صانع الفخار تعد عدتها، وتنتقل من مكان إلى مكان، ومتجهين نحو صعيد النّهر، حيث تتهدد "الدهاريب" "نقارة الورل" التي لم يكفوا عن عزفها، منذ وطأت جيوش الجنكـويز أرض البلاد الأسـيرة، أخذ اتباع صانع الفخار، يلملمون حاجاتهم على عجل، تتآكلهم الحسرات يغذّون المسير، ريثما تهدأ خواطرهم، فيفكرون في الإجابة عن سؤال:

"ماذا يتحتم عليهم أن يفعلوا، لمواجهة هذا الغزو الجنكـــويزي المخيف!".

وما أن تطأ أقدامهم مكان جديد تجاه الصعيد، حتى يبدؤون في ترتيب أشيائهم الفقيرة: الخيام، عناقريب القد، سروج الخيل، أكباس الجلد، الأجربة والسعون. وفيما تنشغل خيولهم برعي (الجزو والشوقارة)، كانوا يفكرون في طائفتهم كقلة قليلة، لا تشكِّل خطرًا حقيقيًا على جيش المقدّس سرّه، إذ لم يُعِدها صانع الفخار أو الخزين يومًا للقتال!

لذا بدأت فكرة تنظيم أنفسهم كنواة فرقة مقاتلة، تحتل حيزًا كبيرًا من تفكيرهم..

"الصعيد هو المكان الآمن الوحيد الآن، هناك حيث الغابات تحجبنا عن العيون، يمكننا البدء من جديد."...

يقول أحدهم فيرد آخر:

"نعم.. سقطت كل حاميات البلاد الأســـــيرة، لا مكان آمن لنا ولدعوتنا سوى الصعيد.."...

وهكذا يغذون في المسير، مستنشقين رائحة عشب النيل المبتل بالدعاش.

اشتهر المقدّس سرّه منذ طفولته بين أقرانه، هناك.. ما وراء البحر المالح وخلف تخوم الصحراء، التي تليه، بالدهاء وسعة الحيلة! منذ كان تلميذًا نجيبًا لأحد الشيوخ، الكبار، ممن توفر لهم العلم والمعرفة.

وقُبيل تكوينه لطائفته التي أطلق عليها اسم (الجنكـويز)، عمد إلى عقد تحالفات عديدة مع ملوك الطوائف الأقوياء، الذين كانوا يحكمون تلك البلاد، تحت سلطان أمير واحد، يشرف عليهم من قصره المنيف!

استجاب أمراء الطوائف الأقوياء، لرغبة المقدّس سرّه، بتجييشه لغزو البلاد الكبيرة، بعد أن وعدهم بالأموال والجواري والعبيد!

ورغم الهواجس التي انتابتهم، من قوّة ونشاط طائفته المتنامي، إلا أنهم زودوه بالعدّة والعتاد.

فمن جهة أرادوا إبعاده من بلادهم ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء، حتى لا يكون مصدرًا للقلق!

ومن جهة أخرى، رأوا أنه لو نجح في مسعاه، ووفى بوعده، ستكون البلاد التي يحتلها، مصدرًا مهمًا للمال والعبيـــــــد، اللذان تحتاجهما دولتهم الطموحة، ويتوسع حكمهم في أراض جديدة، لنشر الدين الجديد!

وهكذا بدأ المقدس سرّه زحفه المقدّس، لاحتلال البلاد الأسيرة.

عُرف المقدّس سرّه بين جنده بحبه للنساء، لكن أمر معاقرة الخمر، وتدخين ذلك النّوع الغريب من الأعشاب الجافة المخدرة، كان سرًّا ضرب حوله ألف سياج، فلم تعرفه سوى بعـــــــض نسائه وسراريه الكثيرات!

منذ سنوات مراهقته في مضارب قومه، إلى أن فاضت روحه في البلدة القديمة، عند منحدر النّهر بعد عدة عقود! مخلفًا وراءه أربـــع عشرة زوجة، ومئة من السراري والإماء، فضلًا عن نسائه الأربعة، اللاتي حصل عليهن جميعًا بطريقة غير معتادة:

فزوجته الكبرى أم عياله السبعة الذكور، ابنة ملك دار الريح، كان قد تزوج بها، أثناء حملاته الاستطلاعية الأولى، قبل الغزو والاحتلال!

إذ وجده جند ملك دار الريح، بعد أن هجم عليه ورجاله اللصوص وقطاع الطرق، مضرجًا بدمائه، حتى ظنوا أنه لا محالة معقور! لكثرة الدماء التي كانت تسيل من ساقه المكسورة، الذي كانت تتلاعب به الريح! عندما حملوه على ظهر أنثى الحمار العجوز!

وبعد أن طبَّبوه، ومكث معهم ردحًا من الزمان، وأصبح من جُلساء الملك، رأى فيه الملك صفات أحبها، كان المقدّس سرّه بدهائه، قد قصد أن يبرزها ويلهمه بها، ويوحي إليه بالقرار، الذي ظل

ينتظره، منذ أخذ الملك يحدّثه، عن مبلغ قلقه على ابنته العزباء، التي قُتل زوجها في إحدى حروبه مع قبائل الجوار!

أما زوجته الثانية من دار صباح ابنة أحد البدو الفقراء، أهداها إياه عندما كان في ضيافته كغريب، مُخفيًا أمر استطلاع الأخبار بنفسه.

قُبيل الغزو بوقتٍ ليس قصير، أنجبت له هذه المرأة ســـت بنات وستة أولاد.. زوجته الثالثة سرقتها طائفة الاستطلاع من إحدى القرى الصغيرة، في أواسط البلاد الأســـيرة أسفل النّهر، بينما كانت ترعى غنماتها على مقربة من أشجار النخيل، وقد أنجبت له ما يزيد عن العشرة بنين وبنات!

أما زوجته الرّابعة فقد كانت من صعيد النّهر، ابنة أحد ملوك القبائل الأشداء، عُرف عنه أنه كان في شبابه مقاتلًا شرسًا، اشتهر بمصارعة النمور والأفيال والأسود! ولم يكن ثمة من يجرؤ على اقتحام دياره!

وفي إحدى الليالي المقمرة بينما هي وصويحباتها يســـتحممْنَ في النّهر، على مبعدة من القرنتيات وأصدقائهن التماسيح المشاغبين، هجمت فصيلة الاستطلاع عليهن واختطفهن، فانتقى المقدس سرّه من بينهن ابنة الملك المصارع وهجم على مكتنزاتها البكر!

والتي كانت في ذهولٍ تام، لم تدرك ما حدث لها وصويحباتها إلا بعد مروروقت طويل، كان يكفي لانجاب بناتها الثلاثة وأولادها الأربع الذكور!

ابنة الملك مصارع الأفيال، هي في الحقيقة الغائبة جدّة (نينا) التي عشقها الخزين الحفيد بعد عشرات السنوات!

من هؤلاء النسوة الأربعة، اللاتي مثلن غالبية دماء البلاد الأسـيرة وأعراقها، من أقصى دارصباح إلى أقصى دارالريح، ومن أقصى السافل إلى أقصى الصعيد، تعضدت النُوِّية الأساسية لشعب البلاد الأسيرة!

هذا الشعب المزيج، الذي تجري في عروقه عشرات الدماء، وهو التصورالذي للمفارقة، لطالما حلم به صانع الفخاروالخزين معًا، مذ كانا يعلمان الأتباع، معنى التلاحم القومي في رسالات الرُّسل! لكن ظل دائمًا ثمّة نداء خفي، في مركزهذه النُويَّة، يُلقي أحيانًا بطيوف حنين بعيد للصعيد وغاباته، وتماسيح الأنهاروالقرنتيات والأفيال والنمور، وكل الأصدقاء وصويحبات ابنة الملك المصارع من قرنتيات و أفراس نهر!

رغم القطيعة والانبتات عن أصولهم، إلا أن وعيهم الموروث، كان لا يزال يحتفظ بـأسروداته الخاصة، التي تنتمي إلى عالمهم القديم، في وطنهم الذي انبتُّوا عنه!

لذلك كان كثيرون في مختلف العصور التالية لغزو الجنجويد للبلاد الكبيرة، عندما يضيق بهم الحال، يحفرون أنفاقًا تحت الجدار العازل، الذي شيده المقدّس سرّه من أقصى دار صباح إلى أقصى الصعيد، يستجيبون لذلك النداء الخفِّي!

نساء المقدّس سرّه الأساسيات الأربعة في الحقيقة، أنجبن ما يزيد عن الأربعين بنتًا وولدًا، كما أنجبت نساؤه المائة وأربـــع عشـــرة الأُخريات، ما يزيد عن الخمسمائة بنت وولد، وهكذا من صلبه هو وحده ولد شعب صغير، يبرز منه قادة جنكـــويز جدد وحكام عامُّون من آن لآخر، عبر العصور، يشيعون التوتر والقلق في البلاد الأسيرة!

قبل أن يُولد المقدّس سرّه بعشراتِ السنوات، كان صانع الفخار الأكبر، قد طوى الزّمن وراءه، فيما رأى من مبكياته، التي أقضت مضاجع الأمالي وقتها، فقاموا إلى الخزين يجتمعون به، وقالوا:

"يا سيدنا، اعلم أن صانع الفخار قد اتعبنا، إذ يقول ما لا يدخل العقل، فشغل بالنا وأوقف حالنا، ولهانا عن بيعنا وشر ائنـــــــا، فنسألك بالحق أن ترده عنا"

فقال لهم الخزين:

"انصرفوا، لا تحملوا همًّا، إذا حضر نؤدبه".

فلم يمضِ سوى وقت قليل، حتى حضر صانع الفخار، بين يدي الخزين وهو يقول:

"سمعًا وطاعة"..

انعقد حاجبا الخزين:

"إذن علمت بطلبي لك؟".

"سمعت صوتك يهتف بي أن أحضر".

أطرق الخزين برأسه:

"ما هذا الحال؟ النّاس لا يكفُّون عـــن شكواك لي.. لقد أتعبتني و أتعبت نفسك و أتعبت النّاس، فارجع عما أنت فيه وإلا هلكت".

فقال باكيًا:

"كل هذا لأنني أطلب منهم توزيع الذهب والفضة، التي يكنزونها على الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون، ورب صانع الفخار لا أكُف عنهم، إلا يُحقون الحق".

وبينما هما في أخذ ورد، هجم جُند الحاكم الجنكـــويزي يريدون اعتقاله، فانتزع منديل أحدهم يجفف به دموعه، ثم قذف به في الهواء وطار معه وغاب، تاركًا النّاس في ذهولٍ تام!

¤¤¤

بعد أن اكتملت ترتيبات المقدّس سرّه لغزو البلدة القديمّة والمدينة الزّاهية، هجم جنكـــــويزه بغتةً، وارتكبوا من الفظائع، ما أصاب الكثيرين بالجنون!

رأى الأهالي البسطاء، أطفالهم يُذبحون ونساءهـــــم وبناتهم يُغتصبن أمام أعينهم، لذا أصبح من المشاهد المألوفة، في البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، أن ترى كل يوم إحداهن، تحثو تراب الشارع على رأسها، وهي تنوح وتغيب عن الوعي، أو أخرى بعد أن قتل الجنكـويز أفراد أسرتها، ترتمي تحت أقدامهم ترجوهم قتلها، وعندما تستيأس منهم تحاول سحب سيف أحدهم، فيركلها بغضب، وينـــزع رأسها دون رحمة!

لم يوفر الجنكويز في اليوم الأول للغزو أحدًا..

قتلوا رجال الدين، ومثَّلوا بــــأجسادهم.. قتلوا رجال الدولة، الكبار والصغار، قتلوا كل من اشتبهوا فيه لأي سبب من الأسباب، وهكذا بدأت البلاد الأسـيرة تنحدر، إلى قاعٍ سحيق، لا يتغشّاه التاريخ نفسه إلا لمامًا! لمفارقته لكل ما ألَّفه التاريخ في مسيرته كتاريخ، لأي وقائع شبيهة أو ممكنة أو محتملة!!

كانت البلاد الأسـيرة إذن، قد دخلت في نفق معتم ليس له مثيل! وهكذا شكَّل عهد الجنكـــويز الأوائل، منعطفًا حادًا في حياة النّاس، إحساسهم ومشاعرهم، بل تغيرت حتى سحنتهم، وطال التغيير لُغتهم

اليومية، لم تعد تلك اللُغة الدافئة الحميمة! التي توارثوها عن أسلافهم لآلاف السنوات!

وبسقوط البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، بلغ الإحباط بصانع الفخار مبلغه، فقد نال منه التعب والإجهاد جراء محاولاته المستمرّة، في منح النّاس القدرة على تقدير البلاء قبل وقوعه!

فلطالما حذّر الخزين من الخطر المحدق بالبلاد الأسـيرة، ومليشـيات الجنكـويز التي نمى إليه خبرها، قبل أن تتحرك من مواطنها وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء، إلى أن دقت سنابك خيلها أبواب البلدة القديمة، ودكت (طوابيها) و(قياقرها) واحدًا تلو الآخر!

ورغم حرص الخزين، أن تصل رسالة صانع الفخار للنّاس، إلا أن أحدًا لم يعره اهتمامًا، فقد كان القوم منشغلين بسباق الحمير الدوري، وهم يتباهون بحميرهم العصافير الملوّنة! مع أن البلدة طوال تاريخها، لم تعرف من الحمير سوى النَّوع (المكَّادي) الحرون!

هؤلاء القوم الذين يعطون سباق الحمير، أولوية على غزو بلادهم، هم ذاتهم أحفاد أولئك النّاس، الذين اغتبطوا، عندما طار صانع الفخار الأكبر، قبل عشرات السنوات واختفى، ليريحهم من حديثه لبضعة سنوات.

وقتها اغتبطوا وأخذوا يكرِّرون أمنياتهم، بعد أن طال غيابه:

"استرحنا منه، لا شكَّ أكلته وحوش براري البلاد الأسيرة".

وذات يوم، بينما هم في هذا الكلام، إذ به يطل عليهم قادمًـــــا.. اقترب نحو الخزين و(قالده) معانقًا، وقد انخرط في بكاءٍ مر، وبعد أن هدأت خواطرهما، قال الخزين:

"ما منا إلا من له من حبيب نصيب، وما منا إلا من هو بـــــــاكٍ مشتاق إلى وجه الحبيب، ولكن يا ولدي صدور الأحرار قبور الأسرار، فإذا أوقده في قلب المحب شغلت من اشتياق الحبيب، أشغلتها الأنوار".

ثم خلع الخزين جلبابه، فإذا بطنه محزومًا، بقماش قطن كثيف، حلَّه فإذا به مشبع بالدّم، ثم بكى وكانت دموعه مخلوطة بالدّم، ثم التفت إليه وقال:

"يا ولدي لا يعرف أقدار، الرّجال سوى الرّجال، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه، وكتم سرّه وحفظ أمره!".

فعانقه صانع الفخار الأكبر باكيًا وقال:

"هذا صبر لا أطيقه"..

وخرج لا يلوي على شيء!

¤¤¤

صانع الفخار الأول، أشبه بنبيٍّ قديم، في ثيابه الرّثة والعصاة الأبنوس، التي يتوكأ عليها جسده شبه العاري، ومثل كل أنبياء الجنس البشري، كان أتباعه من المهمَّشين، والفقراء والمحرومين والمقهورين والجوعى، وربما بقايا اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين! الذين يتطلعون للتوبة، والتحرّر من ذنوبهم، التي ليس بمقدور مياه النّهر نفسها غسلها!

وكنبيٍّ قديم، عندما ينظر في وجوه هؤلاء الأتباع، يحاول حث ذاكرته، لاستفراغ آثار الغرائز الطبيعية، الضاربة في القدم، عن طريق الخلاص الذي تعترضه الآلام والمحن والعذابات، ومع ذلك لم يُعرف عنه أنه نسب شيئًا من هذه الغرائز، التي تتسبب في المحن والعذابات للشيطان! كان يعتقد أن البشر اخترعوا الشيطان، لتفادي وضع اللّوم على أنفسهم!

وفي الحقيقة كانت شخصية صانع الفخار، أقرب لقادة الثورات منها للأنبياء!

جادين جانو، الذي حلت به روح صانع الفخار الأكبر، وفقًا لنبوءة قديمة، استوقفه الاكتشاف الباهر، لعالم آثار من زملائه بالمعهد، الذي يعمل فيه! والذي كان قد اكتشف ثلاثة جماجم، وأربع هياكل عظمية، تعود إلى عصور مختلفة، وبعد دراستها وتحليلها، خرج على الملأ أنها جميعًا للشخص نفسه، الذي لا يستبعد أن يكون هو صانع الفخار!

أثري آخر من المعهد نفسه، وجد درعًا مُحلًّى بالياقوت الأحمر، ونوع غريب من رقائق الفضة، وسيفًا من الذهب الخالص، مقبضه مطعم بنوع نادر من الألمـــاس، أكد بحزم صارم، أنهما السيف والدرع اللذان، خاض بهما صانع الفخار الأول، معاركه التاريخية! التي وردت في أكثر من ملحمة، من الملاحم الشعبية للبلاد الأسـيرة، والتي كانت قد مجدته "بدود الوعر! الأسد النتر، تمساح القبائل وساري الليل!".

لكن كل هذه المزاعم، كانت تصطدم بحقيقة أن صانع الفخار كان فقيرًا معدمًا، مستهلكًا كشاعرٍ مغمور، لا يملك سوى عصا أبنوس معقوفة، كما أنه كان مسالمًا ووديعًا ولا يصح تشبيهه بـــــدود الوعر! أو أي تشبيه وحشي آخر!

وهو ما أكدت عليه كل وثـــــــــائق ورمزيات النُخبة، التي ترتاد الإندايات عبر العصور!

ما ميز صانع الفخار الأول والخزين طبلة الأول، أنهما لم يتشرنقا في العزلة كصانع الفخار والخزين الآن، كانا دائمًا وسط زحام النّاس.. المهمشين الذين تخددت وجوههم العكرة، بمزيج العرق والغبار، الذي رسم خرائط بديعة على ثيابهم الرّثة! يخطبان حول كراكير الكجور، و أفنية المعابد القديمة، وكنائس اليهود و أبناء يسوع، يحلمان للنّاس بعالم أفضل من هذا العالم الجنكويزي المرعب!

لطالما خشـــيَ صانع الفخار، أن تتحوّل الطائفة المنسوبة إليه، على يد الخزين، إلى منظومة متهافتة متعطشة للسلطة، مشحونة بالضغائن والأحقاد، والنزوع للانتقام.

كان يخشى أن تتحوّل تعاليمه، من طاقة ملتهبة بالأسئلة والمغامرة، إلى نظام و اثق متيقن من كل شيء، لا يخامره الشك أبدًا!

لم يكن يريد لأتباعه أن يلهثوا، خلف هذا الو اقع المرير، الذي تعيشه البلاد الأســيرة، بالحكم عليه من زاوية نظرهم المحدودة، التي ينسبونها إلى تعاليمه زورًا وبهتانًا!

¤¤¤

المخطوط الذي حاول "معهد جار النبي جارو" فك طلاسمه؛ كان مكتوبًا بلغةٍ غامضة، هي في الحقيقة مزيج من كل لُغات البلاد الأســـــيرة، من أقصى دارصباح، حتى أقصى دارالريح، ومن أقصى الصعيد إلى أقصى السافل!

هذه اللُغة ازدهرت على نحوٍ خاص، ولوقت طويل في الوسط، بل كانت الأداة الوحيدة للتواصل، بين شعوب البلاد الأســـيرة! لدى ترجمة ذلك المخطوط، وفض مغاليقه، اكتشف فيه باحثو المعهد أفكارًا غاية في الأهمية، تتعلق بطائفة سرّية عاصرت وناصرت صانع الفخار الأكبر، تم تأسيسها قبل ذلك الاجتماع الحاشد، للأولياء بالجبل، بوقت طويل!

أثناء تواجد صانع الفخار في سجن القلعة! اتبعت هذه الطائفة السرِّية تعاليمه بدقة، بل و أنقذت أحد أحفاده من صانعي الفخار، عندما سقطت البلاد الأسـيرة، على يد الغزاة الجنكـويز الأوائل، لأسباب تتعلق بالأمن القومي -كما قالوا- لم يفصح المعهد عن كل الأفكار المهمة، التي حواها المخطوط، إذ ضرب ستارًا كثيفًا من الكتمان، ومع ذلك تسرّبت فكرة أن صانع الفخار الأول، كان يعمد إلى تعليم أتباعه، صناعة الأواني الفخارّية، وبيعها للحصول بثمنها على الطعام، وقد أخذت فكرة الحصول على الطعام جلَّ اهتمامه، لذا كان أتباعه بارعين، في صناعة أواني الطعام أكثر من غيرها!

وذات التسريبات، أكدت أن علوم الكون، وصناعة نوع محدد من ألواح الكتابة الفخارّية، نالت اهتمامًا خاصًا لديه! لكن أهم ما في هذه التسريبات، أنها حددت بدقة، الموقع الجغرافي، الذي ولد فيه صانع الفخار الأول، هنا في "البلدة القديمّة" التي ظلت بلدة صغيرة، عبر التاريخ، عند منحدر النّهر، الذي يتفرّع منه جاسر صغير، يتاخم المدينة الكبيرة الزّاهية، حاضرة البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها!

جادين جانو كخبير لُغات، كان يعتقد أن فكرة التشفير، التي ابتدعها صانع الفخار، وطورّها الخزين، ما هي إلا محاولة للتعبير، عن تفوق الخزين نفسه على صانع الفخار!

هذا الإحساس بالتفوق، الذي كان مسكونًا به ولم يجد وسيلة للتعبير عنه، سوى بلورة الشفرة، ووضع هوامش زائفة، ظن أن لا أحد سيكتشف زيفها، رغم علمه بتلك النبوءة القديمة، عن روح

صانع الفخار، التي ستحل على وليد، ليس من سلالة صانعي الفخار، والذي لا محالة، سيكتشف هذا السعي الحثيث للخزين، لبناء مجده الخاص، بتوظيف طائفة صانع الفخار، وفقًا لأهدافه هو! وفي الحقيقة اهتمام كليهما:

صانع الفخار والخزين، بتوحيد لُغات البلاد الكبيرة، بمزجها في لُغة واحدة، لم يكن سوى محاولة يائسة، لإعادة تشكيل (أديان) البلاد الكبيرة في (دين واحد) يعود فيه الفضل في الحقيقة إلــــــى الخزين!

لكن الشــــيء المهم، الذي لاحظه "جادين جانو" هو طيف من إدراك عميق لصانع الفخار، أن الإمبراطوريات العظيمة عبر التاريخ، لم تدمرها سوى الانفجارات القومية والدينية، على عكس ما صوره الخزين للنّاس، لكن يظل من الصعب، استعادة فكرة الطائفة وإعادة تشكيلها من جديد!

فالخزين سعى بقوّة، لدمج "ثقافة الجنكويز الغُزاة" في "ثقافات البلاد الأسيرة"، استنادًا إلى تأويله الخاص، لتعاليم صانع الفخار!

وبينما تنهض تعاليم صانع الفخار، في الفصل بين عقائد الناس الثابتة، التي لا تتغير، وحياتهم اليومية، وما يمرون به في كل لحظة من اليوم، تختلف عن اللحظة التي سبقتها! لكن كلاهما: عقائدهم وحياتهم اليومية، يفضيان للهدف نفسه: (الحياة)!

هذا التناقض بين سعي الخزين، وتعاليم صانع الفخار يطرح على أعضاء الطائفة تحدِّيًا:

"كيف بإمكانهم تمثل تعاليم صانع الفخار، دون تخطي أنفسهم كطائفة ضيقة!".

¤¤¤

نما صانع الفخار الحفيد وترعرع، في هذه البلدة القديمة، وهو يراقب شمسها، التي تطل على الدوام في استحياء، ملقيةً بأشعتها على الدروب الضيقة، الملتوية قبل أن تفيض بتردد، كأنها تتراجع خُطوتين قبل أن تتقدّم خُطوة، على القوز الرّملي الذي تتكئ، على سفحه البلدة، المتاخمة للمدينة الزّاهية!

قبل ميلاد صانع الفخار، كانت هذه البلدة موحشة وكئيبة وشاحبة، رائحة الرّوث والعطن تزكم خياشيم سكانها البؤساء، الذين تفوح من جلودهم رائحة، هي مزيج من رائحة الفخار النيئ، وجلود الماعز المدبوغة، في منقوع القرض والملح! ولولا ألق المدينة الزّاهية، التي تتاخم هذه البلدة، لانقرض سكانها من البؤس!

كانت التسريبات عما حوته المخطوطة لاتتوقف، وبطبيعة الحال يشتغل فيها خيال الذين يتناقلونها، بالإضافة والحذف كما يعن لهم! فتصبح الحقائق أرباع حقائق أو حقائق مشوهة! وهكذا يتنامى إلى علم سواد النّاس، ما يحذفون منه أو يضيفون إليه على هواهم، كزعمهم أن صانع الفخار الحفيد لا يبتسم!

"ليس ثمة من رآه مبتسمًا أو ضاحكًا!".

كان عالقًا في اكتئاب مزمن منذ ولادته، إلى أن اختفى على نحوٍ غامض، قُبيل غزو الجنكويز للبلدة القديمة والمدينة الزّاهية، بقليل!

وذات التسريبات تؤكد أن هذه البلدة، قُبيل ميلاد صانع الفخار، لم تكن تعرف التقويم بشكله الحالي، أو كثير من الأعياد التي تعرفها الآن، رغم أن فكرة التقويم والأعياد ولدت مع صانع الفخار الأكبر، وتعاليمه المناهضة لكل الأديان منفردة، ومتوافقة معها مجتمعة!

إلا أن الحفيد شرع في أفكار جذرية كبيرة! ولذلك كان موقفه من الدين الجديد، ما وراء بحر مالح وتخوم الصحراء القاحلة، بمثابة جزء من دعوته، التي توحد الأديان جميعها في دين واحد، كامتداد، لذات نظام تفكير صانع الفخار الأكبر!

كـــــان ميلاد صانع الفخار الأكبر، بحد ذاته عيد.. بل أول عيد ميلاد يعرفه أهالي البلاد الأســـــيرة قاطبة! تلته أعياد كثيرة، كعيد التعاليم، وعيد الطوفان الأول، إلى آخر الأعياد، التي كان أهالي البلاد الأسيرة، يولونها اهتمامًا كبيرًا!

إذن بميلاد صانع الفخار الأكبر، تعرّف الأهالي للمرة الأولى، على عبارة "عيد مولد" كما تعرفوا على كلمة "حب" وغيرها من المرادفات، فانفتحت قلوبهم يغادرها البؤس، ويحل التفاؤل والأمل!

وهكذا ظهر شعر الغزل والغناء العاطفي، إذ فتحهم صانع الفخار الأكبر على عالم من المعاني، والتعابير الجديدة على حياتهم البائسة، فأضحت النساء يتزين بالعاج والأبنوس والخرز الملوّن، ويتعطرن بخلاصةِ الأعشاب البرّية ذكية الرّائحة، ويستخلصن زيوت لطيفة، من نباتات أُستُزرعت خصيصًا لهذا الغرض، بل أصبحن يحرصن على شد صدورهن، بسيور الجلد ويضعن "لبادات" على مؤخراتهن، ليزدن بروزها!

إذن وبمعنى آخر، أن البلاد الأســـيرة التي انشطرت إلى شطرين مؤخرًا، يرجع الفضل الأول لإعطائها معنى الحياة، بكل مفرداتها، لصانع الفخار الأكبر، الذي صُلب في فناء الكنيسة القديمّة، على صليب من خشب اللعوت سيئ الرّائحة!

فبعد أن ضاق الخزين بالجند صرخ فيهم:

"ألا تستطيعون حبسه؟".

فردوا:

"لم نستطع إمساكه!".

"لم؟".

"حينًا يمشي على الأرض، وحينًا آخر يطير في الهواء!".

"قولوا له الخزين يــأمرك أن تدخل في هذا المكان فيدخل، بإذن الحق!"...

فجاء الجند إلى صانع الفخار، وأخذوه فانقاد لهم، فأتوا به إلى باب القلعة، وقالوا:

"يقول لك الخزين أن تدخل".

فدخل، وقفلوا عليه الأبواب، بعد أن وضعوه في حجرةٍ ضيقة.. وفي الليل جاء السجان، ووضع في عنقه سلسلة، وأدخله حجرة أكثر ضيقًا، لا تتسع لأكثر من شخص، فسأله:

"لماذا تفعل بي هذا؟".

"إنها أوامر الحاكم".

"أتظن هكذا قيدتني وحبستني؟".

"نعم".

وتحرك صانع الفخار الأكبر، فتناثر الحديد عنه كالعجين، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب، فرأى السجان فضاءً واسعًا، فتعجب من ذلك، ثم مدَّ صانع الفخار إليه يده، وقال:

"افعل ما أُمرت بفعله"..

لكن السجان أبى، ونقله إلى فناء واسع، وجد فيه صانع الفخار مساجين لا عد ولا حصر لهم، فلما رآهم قال لهم:

"اسمعوا مني ما أقول إن كان لكم معقول، وإلا بقاؤكم هنا يطول".

فالتفوا حوله.. فرسم على الأرض مستطيلًا كبيرًا وقال:

"هذا (فُلك) من أراد النجاة فليركب"..

فركبوا ووجدوا أنفسهم في عرض البحر، فنزل في الماء وأخذ يجر المركب جاريًا على سطحه، والمركب خلفه حتى وصل البر، فأنزلهم وقال:

"سيروا إلى حال سبيلكم"..

ثم أشار إلى أحدهم:

"أنت.."...

فتوقف الرجل وقال بتردد وخوف وهو يتلفت:

"أنا؟"

"نعم أنت، سيأتي من صلبك من يغزو البلاد الأسيرة، ويسفك فيها الدماء ويسبي النساء ويحرق بجنده الجنكويز الزرع والضرع"..

ولم ينتظر ردًّا من الرجل، إذ تبدد في الهواء! كان قد عاد إلى سجنه!

¤¤¤

سحب الخزين الحفيد يده من يد (نينا) التي كانت تمسكها بقوّة.. لا تريد إفلاتها! كان مدمى القلب، وكانت جريحة أقصى حدود الجرح!

كلاهما كانا أسيرَين لوضعٍ شاذ وغريب! ليس لهما فيه يد.. وضع فرضته القوّة الغاشمة للجنكويز..

كان هو عوليس وكانت هي حبيبته كاليبسو الجميلة، اللذان فرقهما قدر رهيب!

فعندما أمر الجنكــويز أهالي البلدة بالمغادرة، في اللحظة نفسها التي كانت فيها روح صانع الفخار الأكبر، ترتجف في مستقرها السرّي، فترتج أرض البلدة القديمة، ويرتاع كل شيء يتنفس فيها!

صانع الفخار الحفيد، أدرك منذ وقت بعيد، أن هذا سيحدث ذات يوم.. مدّت روح الجد قامته المديدّة خارج البلدة، تودع ضوء الشمس الشحيح إلى الأبد! ود لو يقول لهم قبل أن يغادر:

"الجنكويز ليسوا خالدين، فلا تفقدوا أمل العودة"

فيما كانت نينا منذ مغادرتها البلدة، يتجه بها الفُلك إلى جذرها البعيد، في صعيد النّهر، ترى كوابيس غريبة، تتعلق بمكان لم تولد فيه، ولا تعرف عنه شيئًا! مكان لم ترتبط به، وليس لديها فيه ذكريات.. مكان لم تألفه: مجهول وغامض، ليس ثمة لُغة مشتركة بينها وبينه، بعد أن عزل الجنكويز اللُغة، وشيدوا جدارًا عازلًا، من صخر جبال الأولياء، على عرض النّهر، من جهةِ دار صباح، إلى جهة دار الرّيح!

- هنا يستعيد جادين جانو، من ذاكرته مجتزأً من المخطوطة: يُقال أن الموقع الذي شيدوا عليه "جدارهم العازل"، هو الموقع نفسه الذي ظل الغُزاة، يشيدون فيه جدارًا لعزل المنفيين من الأهالي، الذين يقاومون الغُزاة أو يشتبه فيهم أنهم ينتمون لطوائف، تنشط في مقاومة الغُزاة، وقد تجذرت هذه العادة، حتى صارت سُنَّة ظل يتبعها الملوك والحكام العامُّون، بإبعاد معارضيهم وإلى الأبد!

والأبد كان يعني دائمًا سقوط الجدار العازل، أما بعوامل التعرية وطول الأمد، أو بسبب دك الطوائف المقاومة له، وهدم كل جزء فيه! لتبدأ مثل كل مرّة مرحلة جديدة من حياة البلاد الأسيرة، التي أدى تقلب مزاجها إلى تقلب تاريخها! وكانت لعاشقها الخزين، المشاعر والأحاسيس والأفكار ذاتها، فاللُغة المشتركة بينه وهؤلاء القوم أسفل النّهر، غادرت بمغادرتها، وهكذا تعبأت أحلامهما بكوابيس لا يُدركان هُويتها! تضيع ملامحها في الهاتف القديم:

"نمهلكم ريثما تشيدون الفُلك لترحلوا!".

الهاتف الذي دوى فجأة دون سابق إنذار، فقسم البلاد الأسيرة إلى قسمين: صعيد وسافل!

كان المتاخمون لصعيد النّهر، داكني البشرة نوعًا ما، والمتاخمين لأسفل النّهر أقل دكنة، بسبب اختلاطهم بالجنكويز الأوائل قبل مئات السنوات، لكن كليهما كانا ينتميان للجدة الأم نفسها، ويعبدون الإله نفسه، الإله الذي جاء الجنكويز يحملونه على صهوات جيادهم ونياقهم، من ما وراء البحر المالح، وتخوم صحراء دار الريح!

تبنى أهل البلدة القديمة هذا الإله، دون أن يتخلوا عن آلهتهم العريقة.. كانوا يؤدون الشعائر معًا، كان إله كلاهما متصالح مع الآخر! لذا كانا يشتركان في أشياء كثيرة!

لكن على عكسهم، كان الجنكويز لا يشعرون بالامتنان لصانع الفخار مثلهم!

"لن تحملوا معكم أي شيء، فقط غادروا".

قال الهاتف بحزم قاس! احتضن الأهالي بعضهم البعض، وانخرطوا في بكاء حزين بلل تراب البلدة لوقت طويل.

كانت عيونهم زائغة، ومشاعرهم متضاربة، تمرغوا في تراب الخط الفاصل بين الصعيد والسافل، وهم يودعون قبور موتاهم بنظرة أخيرة، ويودعون أهلهم وجيرانهم بأسى!

كان الجنكـــــــويز يريدون إلغاء ذكرياتهم، دون أن يُدركوا أنه لا يمكن إلغاء الذكريات.. الجنجويد الذين جمعوا في تاريخهم، كل قوى الشر في التاريخ، لم يكتفوا بشطرهم شطرين! إذ شرعوا في تدعيم الجدار العازل، الذي بنوه بجماجم قتلاهم!

في اللحظة التي أكملوا فيها تدعيم الجدار العازل، كانت روح صانع الفخار الجد، قد شارفت على الوصول إلى مستقرّها الأخير! لم تعد تأبه لهؤلاء الأبناء الضالين! المضلين! الذين لطالما جاهد صانع الفخار الأكبر لإنقاذهم!

تغرّب لأجلهم.. وحُبس لأجلهم، وصُلب وأُحرق لأجلهم! وهو في سجن القلعة، بعد أن استسلم أمير السجن للاختفاء الغامض للمساجين، وكذب على الحاكم، أنهم تمردوا فقتلهم، وأخذ وعدًا من صانع الفخار، بــــــأن لا يختفي أحد آخر! إذ كانت قد ترسخت في أعماقه قناعة، أن صانع الفخار، هو من قام بتهريبهم، إلى مكان لا يمكن أن يصلهم فيه جند البلدة القديمة، إذ اختفى كل أثر لهم فيها!

وقتها زاره الخزين، فلما دخل عليه رأى الحجرة، التي حُبس فيها مرتبة، غاية الترتيب، وقد توفرّت له فيها كل سُبل الرّاحة، كان مجلسه حسن وفرشه حسن ولديه من يقوم على خدمته، فسأله:

"أين صانع الفخار؟".

فرد عليه وهو يشير بيده:

"خلف هذه الأبواب، يعظ المساجين الخطرين، القتلة واللصوص والمجرمين، يدخل على بعضهم كل يوم، ويخرج منهم وقد تابوا، وصاروا من اتباعه!".

"ومن أين له بهذا الطعام الغريب، الذي ليس في البلاد الأسـيرة مثله؟".

"تحضره كل يوم مائدة تتدلَّى من السقف، فينظر إليها لحظة ثم ينقرها بأصابعه، فترفع دون أن يأكل منها شيئًا"!

وفيما الخزين يسأل والسجان يرد، دخل عليهما صانع الفخار، رأى الخزين وجهه يعود طفوليًا كأنها تلك المرة الأولى، عندما جاءت به أمه تسحبه خلفها، قبل سنوات طويلة خلت!

كان حسن الوجه، لطيفـه، عليه هيبة ووقار لم يرى الخزين مثلهما من قبل.

وفيما الخزين يتأمله، جاء السجان يرتعد، وقبل الأرض بين قدميه، فسأله:

"ما بك؟".

"سيعدموني.. كبش فداء.. نار هرب المساجين لم تنطفـئ، رغم أننا قلنا أنهم تمردوا فقتلناهم.."...

قالوا يريدون رؤية الجثث، هدَّأ صانع الفخار روعه وقال:

"امض، لن يضرب عنقكم أحد"..

وأخبره عن موضع ليخبرهم به، أن الجثث دفنت فيه.. ولم يمضِ بقية اليوم، حتى جاء السجان مرّة أخرى والفرح والدهشة معًا، يمتزجان ويقفزان من عينيه، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، بادره صانع الفخار بالقول:

"إذن عثروا على جثثهم جميعًا لا ينقصون جثة"..

فأغمي على الرّجل من الدهشة!

¤¤¤

عبر هذا النّهر الطويل، الذي يجري من الصعيد منحدرًا إلى الأسفل، والذي يقسم البلاد الأسيرة طوليًا إلى قسمين: دار الريح ودار صباح، والذي ينبع من بحيرات عدة تتغذى من الأمطار السماوية، والرؤى الغامضة!

كما تتفرع منه عشرات الأنهار، لكن مصدره الحقيقي مركز الوجود، حيث نصب "صانع الفخار الأول" "قطيته" الأنيقة، تحت شجرة المنتهى، المسكونة بطائر البلدة القديمة الخالد.

قبل مئات السنوات، وعبر هذا النّهر، أجلى للمرّة االأولى "جنكويز المقدّس سرّه"، أهالي البلدة القديمة، سكان البلاد الأسيرة الأصليين.

وعبر هذا النّهر نفسه، بعد الجلاء الأول بآلاف السنوات، أجلى "الحاكم الجنكـــــويزي العام" ما تبقَّى من سلالات السكان الأصليين شبه النقية، والتي لم تتمكن حملات التهجين الجنكويزيـــة من إعادة إنتاجها بالكامل!

هذا النّهر إذن، ظل شاهدًا على مئات ملايين الوقائع والأحداث الكبيرة والصغيرة، بدءًا بقصص الحب المجهضة، مرورًا بجرائم القتل والغزوات، انتهاء بالحروبات العبثية!

فمن الأعماق السّرمدية لهذا النّهر العظيم، خرجت "الحورية الكنداكة".. أجمل راهبات البلدة القديمة، بخطىً متئدة مضت تجاه صانع الفخار الحفيد، الذي كان مسمرًا على قيف النَّهر! أجلسته على فروة من نبات "السعدة" الذكي، ودنت منه وهي تكرر:

"زوجتكَ نفسي.."...

ودون أن ينبس ببنت شفة، أخذ كل شيء فيه يهتف:

"زوجتكِ نفسي.."..

وكل فج في البلدة القديمة يرجع الصدى: "زوجتك نفسي ي ي يي ي".. النّهر، الحوريات صويحبات صانع الفخار، عشبة معونة النّهر الفتية، التي كان قد استخفَّ بها الطرب، فأخذت تتراقص على أهداب المويجات الوسنانة!

كلاهما كان لا يدري كم لبث على تلك الحال! أخذت يدها المترددة، تتحسس شعره الأجعد الكثيف، وجسدها يدنو منه حثيثًا.. لكن ببطء، وحولهما أفراس النّهر والتماسيح قد خرجت إلى القيف، تحدق فيهما بدهشة!

وجنيات وحيوانات الغابة المجاورة، تراصوا جميعهم صفوف صفوف في شبه دائرة أو قوس يتفرجون! وطائر البلدة القديمة، من عشه في شجرة المنتهى، يفرد جناحيه بطول النّهر، ويغرد تغريدة عجيبة! على نحو مباغت، كمن يفيق فجأة من نوم عميق، امتد لقرون وقرون..

انتفض الخزين وهو يرنو ببصره، إلى غابته، فأمسكت نينا بيده، وقالت بصوت حزين واهن، كأنها تستجديه:

"كيف يطيب لك العيش بعيدًا عني؟ تعالَ، تعالَ معي إلى البلدة القديمة، نحن بحاجة إليك..".

"لكن..".

"لكن؟!".

"يجب أن آخذ الإذن..".

"ممن؟!".

"من صاحب الإذن..".

لكن كان الأوان قد فات.. لم يعودوا بحاجة إليه، بعد أن أعلن الجنكويزعن نيتهم، في إجلاء أهالي البلدة القديمة.

¤¤¤

الأهالي الذين أُجلوا، من ديارهم بغيرحق، ما أن وطأت أقدامهم أرض الوطن الجديد فى قلب الصعيد، حتى تلفتوا حولهم، عسى أن يجدوا صانع الفخارأوالخزين، اللذيـــــن لم يبن لهما أثر، منذ وطأت أقدام الجنكويزتراب البلاد الأسيرة.

شعروا بحاجة ماسَّة لخطبة مطمئنة من أحدهما، في هذه اللحظة بالذات.. اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم أرض الوطن الجديد!

وفي الحقيقة لم يكن لصانع الفخار أو الخزين، وجود سوى في دواخلهم، مخيلاتهم، ملامحهم، قسماتهم، لونهم الأبنوسي، تقاطيعهم، وربما في ذكرى بعيدة، تنقح كجُرح متجدد في أعماق الوجدان!

في هذه اللحظة الحُبلى بالمخاوف الغامضة، التي تمور في دواخلهم، ممزوجة بشعورخفي، لا يخلو من رغبةِ الإقبال على الحياة والحب، وفتح طاقات الأمل على مصاريعها..

في هذه اللحظة بالذّات، فج الماء صانع الفخارالأكبر، فشملتهم حالة من السكينة والهدوء! وفيما هم على تلك الحال، كان "المقدس

سرّه" يحتفل بتنصيبه ملكًا، على عرش البلاد الأســيرة الجديدة، التي فقدت ثلثها للتوِّ، وبنت جدارًا عازلًا يفصل بين صعيد النّهروأسفله!

وكان أتباعه الجنكـــــــــويز يضجون ويصخبون، وقد نال منهم الشراب كل مبلغ، عندما وصلهم خبر لقاء راهبة البلدة القديمة وصانع الفخار!

ورغم ثمالتهم سرت في أوصالهم رعدة، لم يجدوا لها تفسيرًا عندما أفاقوا من سكرتهم، عصراليوم التالي!

من الجانب الآخركان أهالي البلدة، الذين تسرّب إليهم الخبر، قد خالجهم نوع غامض من المشاعر والأحاسيس، التي تدور كلها، حول ما تخبئه لهم الأقدار!

وعندما يتأمل "جادين جانو" بعد عشرات السنوات، هذا المجتزأ من المخطوطة، الذي يكشف عن وقائع وأحداث، تكاد تتطابق منذ عرف "إنسان سنجة" البلاد الأســـيرة واستصلح أرضها، إلى أن دهمها الجنكــويز! بقدرما يتوقف عند شخصية صانع الفخار، التي يشعرأنها من صنع خيال الخزين، أوهي شخصية الخزين كما يتصور نفسه، وأن ليس ثمة وجود حقيقي لها، خارج مدونات صانع الفخار، أوالهوامش عليها، المنسوبة للخزين، الذي هوالمصدرالوحيد، الذي دون عن هذه الشخصية، في هوامشه على مخطوطها! الذي ربما كتبه شخص مجهول، باسم صانع الفخار! إلا أنه، مع ذلك يجد أن الوقائع نفسها التي جرت وتجري، في البلدة القديمة والمدينة الزّاهية،

منذ آلاف السنين هي هي، حتى الجدار العازل، لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يُشـــــاد فيها، فقد شُيد أكثر من مرة خلال آلاف السنين، وكلما تآكله الزّمن، و انمحت آثاره، جاء حاكم جنكـــويزي عام فشيده من جديد!

والحال هكذا، يجد جادين جانو، أن شيئًا لم يتغير بشكل جوهري، فذات القضايا المطلوبة، التي ناضلت لأجلها أجيال آل صانع الفخار، وكافحت في سبيلها، أجيال آل الخزين هي هي نفسها!

حتى ليبدو الزّمن النفسي للبلاد الأســـيرة يراوح مكانه، كما أن الزّمن الفيزيائي، يدور ليصل للنقطة ذاتها، التي انطلق منها، كأن البلاد الأســيرة من دون بلـــدان الله، تتحرك في إطار قوانين مستقلة، تخصها وحدها، مفصولة عن القوانين التي يتحرك في إطارها الكون كله، وهذا العالم الذي تنتمي إلى كرته الأرضية، البلاد الأســـيرة، التي تقع أسفل محيطاته وأرخبيلاته، منفتحة على صحارى الجنكـــــويز التاريخيِّين الرّهيبة!

وهكذا مضت المخطوطة، التي فك "معهد جار النبي جارو" طلاسمها، تكشف عن سر رهيب، الإعلان عنه قد يفضي بلاهوت البلدة القديمة إلى العدم، إذ أكدت على نحو غامض، أن الطائفة السرية، التي كان يقودها الخزين، والتي عاصرت وناصرت صانع الفخار، كانت (هذه الطائفة) قد استبدلت صانع الفخار بشخص آخر يشبهه تمامًا الخالق الناطق!

شخص لا يمكن التمييز بينه وبين صانع الفخار! شخص هو الذي تم صلبه، على صليب خشب شجرة اللعوت سيئة الرائحة، ونسبت المخطوطة هذا التدبير المحكم، لمعلمه الخزين طبلة أم جبو، دون علم أولياء الجبل، وهكذا تضع المخطوطة في حاشيتها سؤالين:

من هو ذلك الشخص الذي صُلب مكان صانع الفخار، وما حكايته؟ أين ذهب صانع الفخار الحقيقي، وكيف ولماذا وافق أن يُصلب شخصًا بريئًا بدلًا عنه؟ هل الخزين هو معلم صانع الفخار، أم أنه ابتدع لأتباعه شخصية صانع الفخار الغامضة؟

الأسئلة حول حاشية المخطوطة، ولدت في عقل جادين، الكثير من الأسئلة الفرعية، خاصة ما يتعلق بتلك (الشفرة) العجيبة، التي ابتدعها الخزين لكتابة مخطوطاته، التي أعيا حلها علماء اللُغات لمئات السنوات! ولشد ما تساءل:

لماذا صوره في هوامشه التي وضعها على هذا النحو الخارق!! الذي يتخطى حدود البشر وإمكانياتهم الطبيعي.. أشبه بالإلــــــه الأُسطوري؟

هل حقًّا عندما دخل السجان والعسس على صانع الفخار، رأوه يكبر ويتضخم فلا يسعه المكان!!! فخافوا أن يتقدموا إليه؟! (قال):

ثم أخرجه أمير السجن وجمعه بعلماء البلاد الكبيرة، يناظرونه فيرتدع، فطلب طستًا من النُحاس يزن أربعين رطلًا، وألقاه في وسط النَّار، وانتظره حتى أصبح كالجمر، ثم قام وجلس عليه وقال:

"يا علماء يا فقهاء يا أهل البلاد الأسـيرة، من أراد منكم مجادلتي فليأتي ويجلس قربي على هذه النار!".

ففرَّ الناس مرتعبين..

¤¤¤

الخزين بذكائه الوقَّاد، كان أول من ابتكر فكرّة الأسماء الحركية له ولأتباعـــه.. اسمه الحقيقي (الخزين) مجهول تمامًا! لا أحد يعرفه بين من عاش معهم في ذلك المجتمع القديم، وإذا كان صانع الفخار، هو أول من ابتدع فكرة الكتابة المشفَّرة عبر التاريخ، فللخزين يعود الفضل، في تطوير هذه الشفرة، إلى لُغة كتابة مستقرّة!

الأسماء الحركية، وبلورة الشفرة كانا اختراعه، الذي كرسه لحماية أسرار الطائفة و اتباعها، وتسببت كتابته المشفرة هذه، في أن تظل الكثير من أسرار طائفة صانع الفخار غامضة أو مجهولة، رغم المجهودات الدؤوبة والمتضافرة، لعلماء اللُغات والآثار والتاريخ، الذين لم يألوا جهدًا في تجريب مختلف الاحتمالات الممكنة، لحلها دون جدوى إلى أن توصلوا أخيرًا، إلى نوع خلاق من التخمين، في فك رموز المخطوط.

مشكلة هذه الشفرة كانت تكمن، في كونها هجين مزيج، من كل لُغات البلاد الأسـيرة، تم فيه إبدال المعاني إلى نقيضها، بالتالي تنطوي الوقائع والأحداث، على عكسها تمامًا!

بمعنى أن الحديث عن الحرب في المخطوطة، كان يعني الحديث عن السلام في الو اقع.. والحديث عن الانفصال، إنما يعني الوحدة!

الأجزاء التي فشل هؤلاء العلماء في فك طلاسمها، خمنوا أن قوامها لُغات انقرضت منذ آلاف السنين، ولم يعد أهل البلاد الأسيرة يتحدثونها، وعلى أية حال، القليـــل الذي فكوا طلاسمه، كان بمثابة نصوص موازية أو متقاطعة مع الوقائع والأحداث، التي جرت فعلًا.

ومن المؤكد أن الخزين، لجأ إلى كل هذه التعقيدات، ليس لخداع الأجيال القادمة، بتقديم تاريخ زائف للبلدة القديمة والمدينة الزاهية في ظاهره، بينما ينطوي فعلًا على التاريخ الحقيقي!

و إنما كانت الفكرّة المهيمنة عليه، هي حماية أسرار طائفته، والمكان الذي يختبـــــئ فيه صانع الفخار، ويدير منه هذه الطائفة المنتشرة، في كل مفاصل البلاد الأسيرة ودولها.. في كل العصور!

ومع ذلك ما جادت به المخطوطة من أسرار، كشـــف عن رو اية أخرى، حول أصل وفصل الخزين أم جبو!

إذ نسبت المخطوطة أبويه "للرحل" الذين لا وطن لهم، وتشير أن المخاض داهم والدته، في أطراف البلدة القديمة، أثناء رحلة قومها القساة، الذين تركوها وطفلها الوليد هنا في الفلاة، ومضوا.

فوجده رعاة البلدة القديمة يبكي في حضن أمه، التي كان قد مضى على موتها، وقت ليس بقصير! وهي رو اية تدحض الرو اية

الشائعة، التي تنسبه للمنبتين، الذين لا يعرفون لأنفسهم أصل أو فصل، بسبب حملات الاسترقاق المتبادلة، التي كانت تمارسها شعوب البلاد الأسيرة القديمة، ضد بعضها البعض!

هذه الرّو اية المتداولة، تشير إلى أنه كان قد جـيء بأم جدته جدة أمه، في إحدى حملات الاسترقاق، التي خاضها الجنجويد في الصعيد!

وفيما "جادين جانو" يغرق في تأملاته، كانت (نينا) حبيبة آخر أحفاد الخزين، تعبر على الضفة الأخرى من المخطوطة، وتعبر على خاطرها ذكرى لقاءها الأول بالخزين الحفيد، عندما كانت تستحم في النَّهر، تطفئ لهيب عُريها المشتعل!

ضمها الخزين إلى صدره، وأخذت أصابعه النحيلة تتسلل إلى ظهرها، فيتسرّبها شعورزلق دافئ، يشعل فيها بوحًا لا حدود له!

تنقلت أصابعه تجوس في العش بين فخذيها، فأخذت تمور كتنور يغلي! الحرق المشتعلة داخلها تبتل بصهد لزج، واصابعه تمضي بعيدًا، تتخلل انكفاءات طياتها بشغف، لتفتح كل شـــيء فيها على لهفة وشوق عارمَـــــــين! مدفوعان بإحساس همجي، متوحش.. لحظتها، في الجاسر المتفرع من النّهر، مضى نبض انتصابه يغرقها، في أكثر أحاسيس الوجود كثافة وخدرًا ولذّة!

في هذا المكان بالذّات، وفي لحظة مماثلة لهذه اللحظة بالذّات، التقى صانع الفخار بالرّاهبة الكنداكة، والتقى المقدّس سرّه بأم

عيون، فكان بينهم جميعًا ما كان! لحظة واحدة تنطوي على شقيقاتها اللحظات!

الآن و(نينا) تمضي لتلحق بالفُلك، لتغادر غروب هذا الجزء من وطنها، لا يخطر ببالها شيء سوى تلك اللحظة الأولى، التي جسدت حياة بكاملها، من المبتدأ إلى المنتهى!

فيما هذا الخاطر يلحُّ عليها، وهي تزمع الإبحار وقومها جهة الصعيد، كان جنود الحاكم العام لحظتها يذبحون الذبائح، احتفالًا بإجلاء أهل البلاد الكبيرة الأصليين، والعثور على خرائط الجدار العازل القديمة، بين مخطوطات الكنيسة، والتي كانت قد اختفت منذ مئات السنوات، وفي الوقت ذاته انشغلوا بإعادة بناء الإندايات القديمة، لتصبح نسخة مماثلة، لإندايات أسلافهم ذات الرّايات الحُمر، في موطنهم التاريخي البعيد، ما وراء بحر مالح، وتخوم الصحراء القاحلة!

وكإنـــــدايات أسلافهم في موطنهم البعيد، جعلوا على خدمتها الأغربة والأرقاء وجواري هذا العصر، من كل جنس ولون..

هؤلاء الذين كانوا هم السواد الأعظم من الشعب، الذي تم نهب موارده و إفقاره، فاستُرقَّ غالبيته بسبب وضعهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي المتدني، فلم يجدوا سبيلًا للحياة، سوى إندايات الحاكم الجنكـــــــــويزي العام، التي مزج فيها خبرات كل إندايات

الشعوب، التي غزاها أسلافه الجنكـويز، مع الخبرة المحلية المتوارثة، "لفداديات" البلدة القديمة والمدينة الزّاهية..

وعلى أية حال كان هؤلاء المعذّبون، من شعب البلاد الأســـيرة، بمختلف درجات عبوديتهم، يجدون في هذه الإندايـــــات، أرواحهم الضائعة، بين أقبية تاريخ غامض، شفره الخزين الجد بمهارة أعيت جهابذة "معهد جارالنبي جارو" لزمان طويل!

فيما هذا الخاطر يُلح على جادين جانو، كانت نينا قد صعدت إلى الفُلك، وقلبها يتلفت بحثًا عن ثمرة فؤادها الخزين الحفيد، في دروب البلدة القديمة والجاسر المتفرع من النهر العجوز!

فيما مضى، كان أهم ما يميز البلدة القديمة، معبد صانع الفخار، الذي كانت روحه تتجلى، وطيفه يتجسد للأهالي الأتقياء الأنقياء، في المساءات الحالمة.

إذ يخرج طيفه من بين الأشجار، التي تحيط بالمعبد، كالسوار، تتخللها شجيرات الرّيحان البرّي، التي تمتزج رائحتها مع رائحة السعدة، وعشبة مياه النَّهر، عندما تلفح الرّائحتين تيارات الهواء البارد، فتدهم خياشيم العابرين إلى المعبد، باعثةً فيهم نوعًـا غريبًـا من الشعور باليقين!

لم تعد البلدة القديمة والمدينة الزّاهية ذاتهما..

"لا مكان لك هنا!".

"هل ستأتي معي؟".

"لا استطيع.. عليَّ القيام بأمور مهمة"..

"أهم مني؟"..

"هل ستتركني كما ترك صانع الفخار الكنداكة؟!".

"لم يتركها.. كان يحميها مثلما أحاول حمايتك الآن!".

"كيف تحميني وها أنت تتركني ليحملني الفُلك إلى أرضٍ غريبة؟!".

ود لو قال لها الحقيقة.. حقيقة بحث الحاكم العام عن هويته الحقيقية، لحظره.. حقيقة كلابه التي تجد في البحث عنه لتعتقله، حقيقة أنهم اقتربوا كثيرًا من إماطة اللثام عن شخصيته المجهولة!

توقفت كلمات متزاحمة، ملؤها العبرات في حلقه، الذي كان جافًا، تجرحه تنهداته الآسية، استجمع في داخله كل قسوة آل الخزين، التي وخزته في هذه اللحظة، عبر ثقوب التاريخ، لتفتح مجاري رفيعة لا تُرى، تنحدر من تلك الينابيع السرِّية، تتدفق عبرها.. قطرات صغيرة من العزيمة، لها أثر ندى الفجر الجارح..

استجمع قواه ومضى، دون أن يلتفت وراءه! فيما نو اتية الفُلك ينادون على المتأخرين، ليعجلوا بالمغادرة!

في المرّة الأولى وهي تستحم في النَّهر، كانت تعطيه ظهرها.. كان ردفها يتغنج تحت الماء، فتطفو فقاقيع صغيرة، كان يحدق فيها مسلوبًا، تسمرت عيناه على ردفها الهمجي، الذي منحته عناية رب صانع الفخار، طاقة جذب مثيرة وآسرة، تلفه بكل هذا الجنون والدوار! فيتخيل نفسه يمتطيه، كما كان جده الخزين الأكبر، يمتطي الظباء الحرونة في طفولته!

في وقفته تلك، أخذ يتخيله صلبًا متماسكًا وممانعًا، ينطوي على زغب بري لطيف الرّائحة، فتخطر على ذهنه، كل المآثر التاريخية للأرداف الشبيهة، فيما تو اترعن الخزين الجد.

تلك الارداف البديعة، التي كما ورثتها الكنداكة عن أصلها الملوكي البدائي الكريم، لجداتها الغابرات، اللائي ملأن خيال الشعراء المجاذيب بالجنون، لهول ذلك الفخر والإعزاز المهيب، الذي يشعل فحولات الأبطال، حتى الرّمق الأخير، من حياتهم البائسة! هذا الردف المدهش، هو أيضًا أثمن ما ورثته نينا، بعد مئات السنوات.

وعندما ودع الخزين الحفيد الفُلك، كان يدرك أن ذكرى هذا الردف، ستظل تطارده إلى الأبد!

¤¤¤

عندما جاءوا به مكتوفًا لصلبه، أومأ بعينيه إلى الحائط، فانفلق.. وبانت فلاةً واسعة مضـــاءة بنور، أقوى من الشمس والقمر والنّهارمجتمعين، فسأله السجان:

"ما هذا؟".

فرد عليه:

"اذهب وتفرج"..

فذهب ونظر فإذا باللؤلؤ والمُرجان والألماس حصى، وكل الشجر وردًا وفاكهة، ونهر البلدة القديمة مزيج من اللبن والخمر والعسل! هتف السجان:

"والحق، تقدَّس سرُّ الحق!".

المقدّس سِرّه بقناعاته الرّاسخة، في انتمائه لعظماء التاريخ.. أولئك الأنبياء منذ آدم، إلى آخر نبي مغمور أو منسي أو غير معترفٍ به، لم يكتفِ أن ينسب نفسه إلى ذلك النّبي الجديد، الذي ظهر ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء القاحلة، بل مضى نيافته بإشاعة الحديث، عن قداسة دمه النقي، الذي يتجاوز دماء الأنبياء طهارة ونبلًا وعفَّة!

ولذلك كان قداسته يُولي أهمية كبيرة، لمسألة "النسب الشريف" لأصوله المزعومة، لمجابهة الدماء الفاسدة، التي في نظره تجري في عروق أهالي البلاد الأسيرة الأصليين..

هؤلاء السود، الذين داهمتهم جيوشه ذات فجرٍ شاحب، فأحرقت القصر الملكي، في اللحظة نفسها، التي كان ملك البلاد

الكبيرة، يتحرّش فيها بجارية صغيرة سلبته وقاره، في منتصف السلم المفضي لبهو العرش..

تناولتهما ألسنة اللهب مع أخشاب السلم المتداعية، وهكذا ذابا دون أسف، متوحدان في النّار العظيمة، التي انطلقت تلتهم كل شيء!

وفيما النّار تلتهم قصر آخر الملوك المحليين للبلاد الأسيرة، كان الجنكويز من جند المقدّس سرُّه، يغمدون نصالهم في "كجوريين" وحاخامات وكهنة ورهبان وراهبات البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، مشرعين الطريق للدين الجديد!

ثم لم يلبث المقدّس سِرّه إلا قليلًا، حتى نصب محاكم العدالة الناجزة، في كل ربوع البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، ليلقى حتفه كل من يشكك في قداسة دمه، أو مشروعية سلطته وسلطانه على البلاد الأسيرة!

كان مجرد التشكيك، وليس المقاومة الفعلية، جُرمًا لا يُغتفر! وقداسته كان يرى أن هؤلاء السود، لا يستحقون حتى أن يكونوا مجرد خدم، في بلاط نيافته ذات المقام العالي والدرجة الرفيعة، التي لم ولن يبلغها رسول أو نبي، من قبل أو من بعد!

وإن حدث وأصبح أحد أهالي البلاد الأسِيرة خادمًا في قصر سموه، كان ذلك يُعد فخرًا وشرفًا لا يُضاهى، حظي به هذا الخادم الفريد! ولهذا فكرة أن يكون صانع الفخار أو الخزين، اللذان بدَوَا له

كشبحين، لا أحد يدري عنهما شيئًا.. فكرة أن يكونا معارضَين له، كانت تعذبه كثيرًا.

إذ يحزنه أن يكون مثل هؤلاء السود البؤساء، أندادًا له! فضلًا عن كونه يبحث عن شبحين لم يرهما أحد، أو يعرف هويتهما أحد، ومع ذلك يردد النّاس أخبارهما وتعاليمهما!

وما كان يؤرقه أكثر، أن لا أحد يعرف هُوية اتباعهما، أو عددهم أو إلى أي مدى هم منتشرون، ومدى تأثيرهم على أهالي البلاد الأسيرة!

لا أحد بالضبط يعلم الاسم الحقيقي للمقدّس سرّه، فقد سارت عليه الكنية، فقتلت اسمه منذ كان جنديًا صغيرًا في وطنه البعيد، ما وراء بحر مالح وتخوم الصحراء القاحلة! وكون سعادته ككل الغُزاة، كان طارئًا على البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، رسخ في ذاكرة الناس باسم المقدّس سِرّه!

كان قومه ما وراء البحر المالح وتخوم الصّحراء القاحلة، قبل وقت طويل يعبدون الحجارة، التي كانوا يشكلونها على هيئة الحيوان أو البشر، بل أنهم مضوا بعيدًا، إذ صنعوا آلهة من العجوة، يأكلونها عندما يجوعون!! الى أن بُعث فيهم نبي بتعاليم لم يألفوها!

في البدء حاربوه، ولكن بعد أن التف حوله الفقراء والأرقاء، الذين كانوا يشكلون سواد الناس الأعظم، ثم لحق به القلة من علية القوم المستنكفين! مضت رسالته تشق دروبًا جديدة، في تلك الصحراء القاحلة!

كان قوم المقدّس سرّه، الذين بدأوا يعانون الاضطرابات والقلاقل، التي ما فتئت تنخر في كيان دعوتهم التي استبيحت، فتحولت إلى مُلك عضوض، فأخذوا يسعون جاهدين -وقتها- لإعادة تماسك أطرافهم، والتوسع في أراضٍ جديدة، فرمَوا أبصارهم خلف أفق البحر المالح الملوّن، وأرسلوا قبائل بكاملها، لتختلط بشعب البلاد الأسيرة، وتنشر الدعوة للدين الجديد.

بل حتى الهاربون من نزاع الحكم أفواجًا أفواجًا، جاءوا إلى البلاد الأســـيرة. وهكذا انفتح الطريق، فجاء الدُّعاة، قطاع الطرق، قادة الثورات المجهضة، الشعراء الصعاليك الهمباتة، وزعماء الملل والنحل، والفرق الدينية السِرية، وقبائلهم وأشياعهم، البدو الباحثون عن الكلأ والماء هربًا من الصّحراء القاحلة، التجار الذين لم يعد لبضائعهم طلب، النخاســـة والفاشلون الباحثون عن مجد سهل، والخطبـاء الفاشلون والمجانين الذين تاهوا في دروب الصّحراء ومسالكها، والعشاق المحطمون بهجران حبيباتهم الخائنات!

جاءوا جميعًا من كل فجٍ عميق، من ثغور االبحر المالح، من صحراء دار الريح، من أسفل النَّهر، زرافاتٍ ووحدانًا، جوعى منهكين من طول الأســـــفاروعثاء الطريق، وجوههم معروقة، أجسادهم نحيلة يابسة، تكاد لا تبين داخل أسمالهم المتسخة..

ورحب بهم أهل البلاد الأســـيرة المسالمون، في أسافل وأواسط النّهر.. رحبوا بكل هؤلاء وأولئك، استضافوهم، وداووا جراحهم

وزوجوهم بناتهم وأخواتهم، وهكذا بدأت تتشكَّل نُواة لشعب جديد، ملامحه تختلف قليلًا عن بقية أهل البلاد الأسيرة.

في الصعيد ودار الرّيح، الذين لم يختلطوا عميقًا كغيرهم من الأهالي أواسط النّهروسافله، إذ كانوا منذ البدء ينظرون إلى هؤلاء الغُزاة في ريبة وحذر!

وُلد المقدّس سرُّه، بعد انتشار الدين الجديد، بعدّة قرون، ومنذ طفولته الباكرة، كان بادي الذكاء، لمّاحًا.. وميالًا للقيادة.

لذا عندما اشتد ساعده وقوي عوده، سأل قومه تزويده بجيش قوي لغزو البلاد الأسيرة، فأجابوه وأطلق على هذا الجيش اسم (الجنكويز)، أي راكبي الجياد المعاتيه! وبسقوط (البلدة القديمة والمدينة الزّاهية) اللتين كانتا تشكِّلان عصب البلاد الأسيرة وسُرّتها، بدأ عهدًا جديدًا، افتتحه الجنكويز باستعباد وقسر النّاس، على تبني الدين الجديد! أو القتل! فلم تنجُ من الاغتصاب سوى نسوة قلائل، كن قد اخترن الموت! وبعض الرجال، الذين فضلوا الهروب إلى فيافي دار الريح أو غابات صعيد النَّهر، لاختطاط وطن جديد، بعيدًا عن قبضة الجنكويز!

وقتها كان الخزين الجد قد أحكم تسوير طائفته، الحافظة لتاريخ الأسلاف وعقائدهم، والمبشرة بتعاليم صانع الفخار الأكبر!

وما أن دانت للمقدّس سرّه البلاد الأسيرة، حتى أخذ رجاله ينشرون الكثير من القصص الغريبة، والأساطير التي تجعل منه كائنًا

خارقًا، أكثر من كونه بشري محدود القدرات، كغيره من البشر: يأكل ويشرب وينام، ويفشل في مضاجعة النساء أحيانًا، ويتغوَّط ويتبوَّل ويخاف، ويحزن وربما يموت بسبب مرض لم يجد له الحكماء علاجًا، بسبب عاداته الغذائية الرديئة، أو تناوله طعامًا فاسدًا!

هذه الوقائع المأساوية المتتالية والسريعة في حياة أهالي البلاد الأسـيرة، أوضحت مدى الخلل الذي يعانيه عقل المقدّس سِرّه، الذي بالمقابل كان يرى حياة الأهــالي، ككتان نسجه نساج رديء على نــول شابته الكثير من العيوب، ما يجعلهم أقل مقامًا من قومه خلف البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة!

وفي الحقيقة أن معتقدات المقدّس سِرّه وجنكــويزه، كما رآها صانع الفخار، ليست سوى ظاهرة سوء فهم عميق للتاريخ ولمعنى الوطن! والحياة والطبيعة البشرية، بسبب الصحراء القاحلة التي وُلد ونشأ فيها الجنكويز والمقدّس سِرّه! الذي كان برأي صانع الفخار، وهو يرى الجنكــويز يقطعــون ويبتــرون أيدي الأهالي وأرجلهم ورؤوسهم، ولا تكف عن جَلْد ورجم النساء والرّجال، تجسيدًا لمبلغ ومنتهى الفظاعة وسوء الظن والقبح، الذي لا حدود له!

وبقدر ما أحب الجنكــــويز المتوحشون (الشِّعر)، بسبب وحشيتهم وقسوتهم، نتيجة الانفعال بسبب غياب الحكمة، كان أهالي البلاد الأســيرة الطيبون، يحبون (الحكايا) و(القصص) التي يتداولونها في العشيّات، وهم متحلقون حول (تقابة) نار، يغلي فيها ورق الشاي القوي، المخلوط بلحاء شجر طيب الرّ ائحة. وبينما يصب

الصبية الشاي، كان أكبر الرّجال سنًا يحكي، عن جور الزّمان وعن الأسلاف وعن سواهم!

كانوا حول هذه النّار، كثيرًا ما يتداولون سيرة البعض من الأهالي، الذين بدؤوا يتسللون من البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، يلحقون بمن سبقهم هربًا من الجنكويز!

كانوا يغادرون طوعًا، مفضلين الحياة في أرض جديدة، بدلًا عن العيش هنا كرعايا، مغمورين ومذلولين ومفقَرين!

وفيما يتداول الشيوخ حول نارهم في العشيّات أحزانهم، كان الجنكويز، الذين لم يأتوا بنساء من قومهم، قد طاب لهم المقام..

وبمرور الوقت كانوا قد أنجبوا الكثير من الذكور والإناث، من الجواري الذين ملكوهم باليمين، وأصبح هؤلاء الذكور قوّة ضاربة في طليعة جيش الجنكويز المتنامي، الذي أعيد تشكيله في أربعة فرق:

الفرسان، الجنكويز، الهجانة، وحرس المقدّس سرُّه، الذين هم أولئك الذكور، أبناء النساء السبايا من آباء جنكويز!

وبينما كانت نُواة الشعب الهجين، الذي أنشأه الجنكـــــــــويز، تتنــامى، كان الجزء الأكبر من شعب البلاد الكبيرة الأصل، يتعمق فيه الخوف على الأرض والتاريخ والثقافة!

بعد عشرات السنوات من سلالة المقدّس سرّه، سيأتي حاكم عام، يقرر أخيرًا طرد ما تبقى من سكان أصليين، لم يطالهم التهجين، ليلحقوا بـــ الذين فروا إلى الصعيد ودار الرّيح باكرًا، مفضلين الحياة مع وحوش الغابات والوديان الضارية، على مساكنة الجنكويز الغُزاة!

عندما يتأمل صانع الفخار الجد حياته وقتها، يتساءل عن قيمة سنوات عمره، التي دفنها عامًا بعد عام، ماذا تعني لقاء لحظة واحدة مع الكنداكة، التي ماتت تحت تعذيب الجنكويز؟!

الكنداكة اللطيفة، الرَّقيقة، المنذورة منذ ولادتها للموت!

حملت كل مقومات الفناء، لكنها بقيت كذكرى ليست عابرة، بل مقيمة، عكس حياتها التي عبرت كطيف، عندما أبلغه الخزين في آخر لقاء لهما، بموتها على يد المقدّس سِرُّه، الذي شطرها بسيفه شطرين!

شعر لحظتها بحياته تنحدر وتتدهور.. كان قد بدأ يفقد الرؤية الواضحة، وهكذا تخلى عن الكثير من الخطط واختفى! وصيفًا تلو آخر، وشتاءً تلو آخر، كان إحساسه بالضعف والقنوط يتضاعف، ولم يتمكن من استعادة توهجه إلا بعد سنوات، عبر عذاب شهد فيه أقصى درجات الألم، ومحنة ظلت تتغذّى من مصدر التفكك الغامض، الذي لم يستطع الوصول إلى حدوده..

ومن نهايات هذا التمزّق، بدأت ذاته تلتئم مرة أخرى وتتجدد، كانت غريزة الحياة في داخل الخزين تتجدد، وشيئًا فشيئًا يُشفى من

الجُرح الغائر، الذي خلَّفه رحيل نينا، فيسبح في أحضان أم عيون، الجارية الحسناء التي أهديت له، وكانت تلك هي اللحظة، التي تعرف فيها على نفسه وقدراته، فأدرك أن كل ما مرَّ به، بمثابة ثروة ومصدر إلهام، وزاد لمجابهة الجنكويز!

الآن يقف الخزين الحفيد موقف كان قد وقفه صانع الفخار نفسه، في عزلته ووحدته والصّمت الكلي، الذي تشرنق داخله، ظلت تتناهى إلى مسامعه لسنوات طوال، صرخات استغاثة كل الذين أجلاهم الحاكم العام من ديارهم، فيما كانوا ينظرون لحقهم في هذه الأرض وتاريخها، كنوع من الخطيئة القاتلة.

موقفه مما حدث ويحدث، كان هو الشيء الوحيد الذي سيكون الرّهان، على كونه حقيقة وليس وهمًا! من بين هذه الاستغاثات، تظل استغاثة نينا جُرحًا متقيحًــــــا.. نينا التي لن يتمكن من نسيانها ليتذكرها!

كان الخزين يدرك أن ليس بإمكانه، تفادي حرب الحاكم العام بالمغادرة معها، وفي الوقت ذاته لم يكن يريد لها البقاء هنا، حيث يكاد ينعدم الأمل.

كان بقاؤها يعني أن تكون نقطة ضعفه، وربما ضحية لهذه الحرب اللعينة، وهو ما حدث بالفعل! لكن لم يكن يعلم بسرعة حدوثه، وعلى هذا النحو بالذّات!

"قتلتها حُمّى النّهر، فرمَوها فيه"..

أخبره أحد أتباعه بعد رحيل الفُلك بأيام، في البدء بدى كمن أصابته صاعقة، ثم أخذ يبكي وهو يردد:

"بل قتلها الجنكويز!".

كان لا يريدها أن تتورط، دون أن يعي أنها أصلًا متورطة حتى النخاع، و أنه ليس الهدف الوحيد للحاكم العام! فكل هؤلاء وأولئك، الذين فاضت دموعهم طلبًا لحقهم في الأرض أو التاريخ أو الاختيار الحر، لما يريدون، أو طلبًا لأدنى احتياج: "القوت ..".

كل هؤلاء هم نينا.. يدرك الآن وبوضوح أكثر من أي وقت مضى، أن من دموعهم جميعًا، يتشكل نبع أزلي، سيظل يحرك جذور النّهر، ليفيض ويغسل هذه البلاد الوسخة!

الأمسية التي سبقت انقضاء آخر يوم، من المهلة التي منحها جند الحاكم العام للأهالي، للمغادرة، كانت أمسية غير معتادة! فرغم أن الوقت كان بدايات الشتاء، إلا أن الجو كان حارًا حرارة غريبة.. بدا كل شـــيء في البلدة جنائزيًا، فاندفع الأهالي إلى النّهر، كأنهم يهيئون أنفسهم للدفن في القبر! مدفوعين برغبة الاغتسال من الدنيا بحلوها ومرّها! غاصوا حتى أعناقهم!

ما ظلوا واثقون منه، بعد انقضاء سنوات طويلة، أن تلك الأمسية، كانت هي بداية لنهاية أحلامهم الكبيرة، التي لطالما حلموا بها! وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذه الأمسية لا تختلف كثيرًا، عن أمسية قديمة، ضاربة في غور التاريخ، عندما دهم الجنكـــويز الغُزاة

الأوائل، أسلاف جند الحاكم العام المدينة الزّاهية، التي تتاخمها البلدة عند منحدر النّهر.

في تلك الأمسية الخانقة، سقط آلاف القتلى تحت سنابك خيل الجنكـويز، الذين لم تكف سيوفهم عن القطع والبتر، إلا فجر اليوم التالي، الذي انجلى عن غموضه دفعةً واحدة، كاشفًا عن نهر من الدّم والدموع!

وقف حارسًا على باب (القيقر: الخندق) أشد الجنكـــويز بأسًا وقسوة! لتفتيش الأهالي المذعورين، أثناء هروبهم من المدينة، فـأمروا بالبقاء في مكان يتوسط المسافة، بين باب القيقر والبلدة عند منحدر النّهر! حيث عسكرت فرقة من الجنكـــويز، وترك الأهالي المرهوبين يواجهون قدر بائس، يحاصرهم الجوع والبرد ليلًا، وحر غريبة كتلك الحر، التي أصبح معها مناخ البلدة القديمة، جنائزيًّا بعد مئات السنوات التالية.

استولى الجنجويد الغُزاة، على بيوت الأهالي واستهلوا محاكماتهم لهم بالقول:

"حيث إنكم كفرتم برسول المقدّس سرّه، حلَّ لنا دمكم، ولا سلامة لكم في الدنيا والآخرة، إلا بتسليمنا أموالكم التي خبئتموها"..

وسواءٌ أذعن الأهالي أو لم يذعنوا، لم يكونوا يسلمون من الضرب بالسياط، ألف سوط للرجل ونصفها للمرأة، مع توثيق

اليدين والرجلين والإلقاء على الأرض، وصب الماء البارد على أجسامهم في الليل!

مما رشح من مخطوطة معهد جار النبي جارو، أيضًا.. بعض المعلومات، التي تشير إلى أن الجنكـــــويز عندما داهموا ذلك البيت، الذي اشتبهوا في أنه مخبـــأ صانع الفخار أو الخزين، الذي كان كل ما يعرف عنه وقتها، أنه شابٌ أربعيني فارع، وفي و اقع الأمر، أن الغالبية العظمى من أهالي البلدة القديمة، هم أربعينيون فارعون!

كان الجنكــويز قد قتلوا كل أفراد الأسرة فـي ذلك البيت، الذي فتشوه فلم يجدوا فيه مالًا، لكنهم عثروا أثناء بحثهم، على صبي صغير كانت أمه قد خبأته، فأخذوه وهددوا بقتله، إن لم تدلهم على المكان، الذي توجه إليه صانع الفخار والخزين، فقد كانوا و اثقين أن الاثنيـــــــن كانا يختبئان هنا! فتوسلت أمه وشقيقاته، وهن يلقين بأنفسهن على الأرض، تحت أقدام الجنكـــويز يستعطفْنَ لكي يتركوه دون جدوى، إذ احتد أحدهم:

"كيف نتركه ونحن لم نجد لديكن لا ذهبًا ولا فضة؟".

ثم التفت إلى رفاقه صائحًا يأمرهم:

"اقطعوه ثمانية قطع وأعطوا كل واحدة قطعة منه، إن لم يعترفن بمكان الخزين وصانع الفخار".

ألقى أوامره ومضى غير آبهٍ، ككل جنكويز التاريخ..

وبعد أن يئسوا من العثور على صانع الفخار والخزين، قاموا بأخذ تلــــــك الفتيات وأمهن سبايا، وفي الحقيقة لم تكن المرأة أمًّا لهؤلاء الفتيات، إذ كن ضيفات غامضات حللن عليها، قُبيل مداهمة الجنكويز بقليل!

كانت الضيفات هن الكنداكة وأم عيون، وسبعة من راهبات الكنيسة القديمة، هربن أثناء مداهمة الجنكـــــــــويز للكنيسة وإحر اقها، بعد أن علمن قبل وقت ليس بقصير، أن الجنكــويز بدؤوا في إحراق كل معابد أديان البلدة القديمة، وشرعوا في البناء محلها معبدًا لإله المقدّس سِرّه، الذي أحضروه معهم على صهوات خيولهم ونياقهم..

"إنه إله حرب! إله قتل!".

بكى صانع الفخار، عندما أخبره الخزين، ولم يكن كلاهما يعلم منذ وقتٍ كاف، أن الكنداكة كانت بين الفتيات اللائي سباهن الجنكويز.

وبالنتيجة، عندما علم الخزين أن المقدّس سِرّه شطرها بسيفه شطرين، بعد أن رفضت أن تسلمه نفسها، اجتهد في إيجاد طريقة لإيصال الخبر لصانع الفخار! في الوقت نفسه كان الجنكــــويز، قد ألقوا القبض على رجل دلته عليهم عيونهم، بأنه الخزين، لم يمهلوه طويلًا، قتلوه! وفي الحقيقة ذلك الرجل الأعرج مهلهل الثياب، الذي علت الثياب التي يرتديها و(الشقيانة) التي ينتعلها عشرات الثقوب

والرتوق، مستحيل أن يعتقد أحد، أنه الخزين! ما لم يكن مختلًا كالجنكويز!

كل نساء وفتيات البلاد الأسـيرة، اللاتـي رفضن الدين الجديد، قُتلن أو أُخذن سبايا، لم تنجو سوى اللائي أعلن صراحةً إيمانهن بدين المقدّس سرّه!

الأمر نفسه حدث مع الذكور، حتى الأطفال الصغار الذين أنشئ لهم ملجأ كبير، تمت رعايتهم فيه رعاية عسكرِّية خاصة، وفقًا للخطط العسكرية الطموحة للمقدّس سِرّه، ببناء جيش قوي لا يهزمه شيء!

بنات الأعيان العذراوات، وزعن على قادة الجنكـويز مـن تطـق الـوطء مـنهن ومـن لا تطيقـه! فكانوا يتبادلونهن فيما بينهم، حتى لا يُعرف نسب الجنين المحتمل لأي منهم!

"أي نوع من الأديان هذا!".

بكى الخزين، بكى صانع الفخار!

الفتيات اللـــواتي أنهكتهن المضاجعة، ولم يمرضن كبعضهن فتمردن، كن يُضربن ضربًا شديدًا وتُحلق شعورهن، بعضهن فضلن الموت على الاغتصاب المتكرر فانتحرن!

كان أصغر الجنكــويز شأنًا، تجد في ملكه أكثر من عشرين فتاة، يحل له وطؤهـــا والتصرف فيها كما يشاء، فكل جنكـــويزي يظن عن قناعة تامة، أنه ينفذ إرادة رب المقدّس سِرّه!

وكان المقدّس سِرّه ذات نفسه، يفعل هذه الأشياء، ويدبج المنشورات لشرعنتها، بل مضت منشوراته تحرّم وتحلل وتضع القوانين لكل شيء، بدءًا بتحريم (التنباك) الذي أدمن الأهالي كيفه، انتهاء بتحليل الرّق.

بل استهل عهده بمنشور، ألغى فيه أي زواج أو عتق، قبل احتلاله البلاد الأســيرة! فكل شــيء قبل الاحتلال باطل! بل أن أهالي البلدة القديمة، الذين تزوجوا بشرائعهم الموروثة، ما هم إلا أبناء زنـــى، علـــى آبائهم إن كانوا أحياء، عقد قرانهم مرّة أخرى بشريعة المقدّس سِرّه!

الاحتلال الجنكـويزي لم يكن فاصلًا بين عهدين فحسب، بل بين عالمَين مختلفَين تمامًا في كل شيء!

وهكذا مضى المقدّس سِرّه، يزوج الأسرى الأسيـــــرات، الذين دخلوا في دينه زيجاتٍ جماعية، كما نتج عن وطء جيشه نساء البلدة، مواليد بعدد الرّمل!

وبمرور الوقت أصبحت دماء الجنكـويز، جزء من نسيج الدماء المتنوعة لأهالي البلاد الأســــــيرة، وهكذا بدأت شعوب جديدة في

التشكُّل، قاسمها المشترك الجنكـــــويز! شعوب هي ثمرة الاحتلال، وتتكون تحت جُنح ظلامه الدّامس!

قبل ذلك بوقتٍ طويل، كان الجنكـــــويز قد تمكنوا من اعتقال رجل شكوا أنه صانع الفخار أو الخزين، وأوثقوه بحبال القد وساقوه إلى أمير الجند، يحيط به نحو مائتـين من الجنكـويز الغُزاة، شاهرين سيوفهم وهم يتصايحون:

"يا عدو رب المقدّس سِرّه، يا كافر"..

لما وقف صانع الفخار بين يدي أمير الجند، الذي كان وقتها قد فرغ من فرز السبايا، و انشغل بتحسس فتاة فاتنة عارية، تحاول ستر سوءتها براحة يدها الراجفة، والدموع تتساقط من عينيها، بينما هو يمعن النظر في مفاتنها، ويقلبها يُمنةً ويُسرى، وهي تقول بصوتٍ واهن كتمه النشيج والنهنهة:

"رضينا بقضاءك يا ربي.. رضينا بقضاءك يا ربي"..

وكانت تتساءل في دخيلتها:

"هل رب الجنكـــــويز الغُزاة هو الرّب نفسه الذي لطالما دعته؟! لماذا ربهم قاس كل هذه القسوة؟ لماذا هو جبار هكذا على عباده المساكين المغلوبين، الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا؟".

كانت أسئلتها عفوية، وهي تستعيد كل تعاليم صانع الفخار، عن الحب والرَّحمة والتكافل والحرية والحق في الحياة والأمان والسلام!

كانت تقارن هذه التعاليم، بمنشورات المقدّس سِرّه، وهي تبيح للجند حرق القرى في دار الريح البعيدة، التي وطأتها سنابك خيله، فتو اترت أخبار الفظائع بما يفوق ما حدث في البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، آلاف المرّات، من قتل الرجال واغتصاب النساء، وتهجير الأهالي البسطاء، وإحلال فلول قبائل الجنكـويز التائهة في الصحارى الواسعة محلهم، بعد أن هربت ناجيةً بحياتها، من ديارها ما وراء بحر مالح وتخوم الصحراء، بسبب صراع ملوكها على الحكم!

لم يعد لأهل البلاد الأســـــيرة وطن، تنهَّد صانع الفخار، وهو يرسف في قيد حبال القد..

"ما عاد لهم وطن!".

بعد أن فرغ أمير الجند من شأن الفتاة، التفت يسأل الحرَّاس وهو يشير إلى الرجل المقيد بحبال القد:

"من هذا الكافر؟".

الجنكـــــويز الذين نظروا إلى بعضهم البعض مرهوبين، تطوَّع أحدهم يرد في تلعثم:

"نشتبه أنه صانع الفخار أو الخزين".

قال في غضب والشر يقفز من عينيه:

"أو؟؟!!".

أطرقوا عيونهم إلى الأرض، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، فيما كانت أصابع يده تحكُّ لحيته في توتر.

مرت لحظات قليلة كأنها الدهر كله، قبل أن يرفع سبابته تجاههم:

"خذوه عذبوه، ولا تدعوه حتى يعترف من هو، أو يدلكم على مكانهما!".

ضربوه ضربًا مبرحًا، حتى فصدت السياط جسمه، وسال الدَّم يغطيه، ثم تركوه مسجيًّا على تراب محبسه، غائبًا عن الوعي!

ولأيام طويلة ظلوا يخرجونه كل ليلة، يستجوبونه ويعذبونه، وهو يصرخ:

"لست الخزين، لست صانع الفخار ولا أعرفهما أو أعرف مكانهما، ما أنا إلا عبدٌ فقير على باب الله!".

"أي إله تعني؟ وهل هناك أكثر من إله؟".

"أعني إلهنا كلنا، الذي لا إله غيره، إله المقدَّس سِرُّه!".

فيبتسمون في غبطة، لكن لا يتوقفون عن تعذيب الرّجل:

"اعترف من أنت يا عبد السوء".

فيغيب الرجل في إغماء عميق.. فلما استيأسوا أشار أحدهم بأخذه، إلى أمير حرس المقدّس سِرّه:

"إنه داهية من دواهي الزّمان، ولا بد أن يجد حيلة لمعرفة ما تريد معرفته من الرجل".

فكروا قليلًا يقلبــون الــرأي، ثم أذعنوا لمشورته.. وبعد أن أفاق الرّجل جروه إلى فناءٍ واسع مزدحم بجمعٍ غفير، ما أن اقتربوا حتى سمع قعقعة السيوف، وهي تُجرَّد من أغمدتها، أدخلوه فرأى نحو أربعين جنكويزيًّا، و اقفين بمحاذاة الاتجاهات الأربعة للفناء الواسع، الذي كان زنخًا مشبعًا بر ائحةِ الرطوبة والعرق.

ألجمته الدّهشة، وهو يرى تابعه الخزين ذاته! كانت يده على مقبض سيفه، ويقف على منبرٍ خشبي متآكل، يبدو أنهم جلبوه من الكنيسة المنهوبة، قبل أن يحرقوها! فابتلع ريقه الجاف، وشعر بجرح في حلقه!

وتــذكر اجتمــاع بعيــد بينــه والخــزين وحوارييــه، وهــو يتفــرّس وجوههم جميعًا ثم يقول:

"أَلَيس أَني أَنا اختَرتكم.. واحد منكم شيطَانٌ!".

كان الجمع الغفير ملتف حول رئيس جند المدينة الزّاهية، الذي كان مشنوقًا ومثبتًا إلى شجرة السنط اليتيمة في المكان، في وضع غريب إلى حد بدا معه أشبه بفزاعة، كتلك التي يضعها الأهالي، في حقولهم لإخافة العصافير، أكثر من كونه جثة جندي من جنود البلاد الأسيرة!

كان حافيًا عاريًا ليس عليه سوى بقايا (عراقي) ممزّق أشلاء، عيناه بارزتان تكادان تقفزان من محجريهما، و أنفه وفمه مشقوقان، وعلى جسده خثارات دم جاف وكدمات وشقوق وحروق، وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافيًا، إذ كان واضحًا من خصيتيه المتدليتين بين ساقيه، أنهم خصوه أثناء التعذيب!! وكان الذباب يغطي جسمه، في هيئته المشنوقة تلك!

كان كاحلاه رغم كل شيء لا يزالان يرسفان في الأغلال، والجند الجنكويز لا يفتؤون يخِزون جثته بأسنة سيوفهم ورماحهم، حتى لم يعد في جسمه موضع يخلو من طعنة رُمح أو ضربة سيف، والدَّم يسيل من جسده، وهم يتبادلون الضحك والسخرية!

انتفض جسد صانع الفخار بشدَّة، وهم يرمونه تحت قدمَي الخزين!

"مات أمير جند المدينة الزَّاهية كما يموت البعير!".

تنهد صانع الفخار وهو يهمس لنفسه في أسى، ويتطلع إلى وجه الخزين، الذي قال موجهًا حديثه للجنود الجنكويز الذين جاءوا به:

"من يكون هذا الرّجل؟".

"نشك في أمره، أن يكون هو الخزين أو صانع الفخار!".

همهم الخزين وهو يتأمل ويفكر:

"الخزين أو صانع الفخار.. خذوه إلى تلك الغرفة وأعطوه شربة ماء و انصرفوا".

تطلعوا في وجهه بدهشة لا يصدقون ما يسمعون، فكرر بحزم:

"نفذوا ما أمرت به، لي أساليبي التي أُجلي بها الأمور!".

التفتوا بحركة لا إرادية إلى جسد أمير جند المدينة الزّاهية المسجَّى على تراب الفناء، كأنهم يقولون:

"وهل تختلف أساليبك عن أساليبنا!".

وكأنـــــه قرأ ما يدور في أذهانهم، فقال بصوت أشد صرامة مما سبق:

"جربتم معه التعذيب أما أنا سأجرب كل شيء!".

نفذوا أوامره وهم يهزّون رؤوسهم و انصرفوا!

رمى صانع الفخار الحفيد بذاكرته بعيدًا، يستعيد ذكرى صانع الفخار الأكبر، في موقف مماثل عندما جاءوا به ليصلبوه، فأوصى الخزين برماده:

"إذا رأيتهم قد أحرقوني، فخذ من رمادي شيئًا واحتفظ به، بعد ثلاث أيام يفيض نهر البلدة فتكاد تغرق، فيأتون إليك متضرعين بين يديك، فخذ الرماد الذي عندك وارمِه في الماء وقل له: ارجع من حيث جئت بحق رب صانع الفخار".

ثم عانقه وبكى معه بكاءً شديدًا، الى أن أُغمي عليهما وسقطا على الأرض، حتى ظن النّاس أنهما ماتا، وعندما أفاق قال:

"أحببت الموت، ولو أردت لصِحْتُ بهم صيحة لا تبقي لهم أثرا!".

¤¤¤

في وقفته تلك، كان ردفها قد أصابه في مقتل، وهي تدنو ناحيته، يتفتت تحت قدميها طين القيف الهش، وجسمها تتناثر عليه حبيبات الماء كندى الفجر، وهي تنحدر من نهديها حبات حبات! تهادت تجاهه كطاووسة تغوي طاووسًا، فأحس لحظتها، بالبلدة كلها تغرق، في أضواء هادئة، تنبعث من القمر الزّاوي، تحت سحابة متقطعة، لينعكس على ريشها الملوَّن! وتأوَّه:

"هذا ردف عجيب! لا ضمير له! يصرع العشاق ولا يكترث!".

عندما صافحته نينا، ضغط الخزين على يدها بشدة، كان يعتصر كفها اعتصارًا، يتغذى من تيار صاعق يبقيها إلى الأبد، في حضن كفِّه!

يود لو يستبقيها.. رغب في عدم إفلاتها.. ولم يكن يدري كم لبثا هكذا! كل ما يدريه أنه منذ تلك اللحظة، لم يفارقها أبدًا، كانا دائمًا في كل مكان معًا، وكانت أنوثتها كل يوم في حالة اكتمال للتوِّ واللحظة، بكرًا، متوحشة.. وهما في كل مكان خلفهما قرص الشمس، أو ضوء القمر الشاحب، وهي عارية تستحم في النّهر.. تدعك تكوراتها وفجواتها بعناية، ثم تطفو في ظلالٍ من الضوء الخجول، وهو ينعكس على صفحةِ الماء!

مشهد واحد متجدد في كل يوم، في كل لحظة، بشكل دوري.. يبدأ وهي عارية، تخلع ثيابها قطعة قطعة، وينتهي وهي تدنو منه ببطء، وتراب القيف الهش يتهشم تحت قدميها الصغيرتين!

مشهد واحد دوري لا يفتأ يطارده، فلا يصدق أنها لم تعد هنا.. في هذا العالم المهدد بالزّوال!

¤¤¤

يستعيد صانع الفخار، كل لحظة أغفلتها الذاكرة مرارًا وتكرارًا، وهو في حالة من الصدمة، لا يصدق أن الكنداكة أجمل راهبات معابد الكون والبلدة القديمة، قد رحلت عن هذا العالم القاسي، وتركته وحده لمجابهة قدررهيب!

لا يستوعب حتى الآن أن ذلك الفجر البعيد، كان فجر الوداع الأخير! مـــــا زال مسكونًا بذات إحساسه بها، منذ الوهلة الأولى، التي كمن فيها يتأمل جسدها، تحت الضوء الشاحب، وهي عارية تستحم.. لحظتها استقر في أعماقه شك عظيم، في قدرة جسده على الاقتراب من أنثى سواها.. الإحساس ذاته ظلت تؤكده له، وهو ينتظر سيرها نحوه..

كانت تمضي نحو قدرها بخُطى حثيثة، وكان كأنه ليس هنا! ترى هل سيشعر جسد الخزين بأم عيون، التي أهداها إياه أمير الجنكويز؟! هتفت به:

"زوجتكَ نفسي"..

فدنا منها كعوليس وهو يدنو من كاليبسو الجميلة، في مساء قديم، موغل في القدم، كذاك المساء! دنا الخزين من أم عيون خطوتين، فدنت منه أقرب من حبل الوريد، تماهيا في بعضيهما، كليهما لم يكونا هما، بل شيئًا أشبه بروح صانع الفخار الأول، وهي تتأمل عالمًا لم يولد بعـــد وخلقًـــا لم يُخلق بعد، وتفكر في هذا الخلق، الذي ستغير رأيها فيه بعد خلقه، فتقرر استبداله بخلق جديد!

طوق الخزين نينا، فيما كان صانع الفخار في مساء بعيد يحيط خصر الكنداكة، بذراعيه المعروقين ويقبلها بنهم، يلتهم في شفاهها ثمرة الرغبة السرمدية، التي ولدت في الأزل! وإحدى يديه تنزلق ببطء.. تتسلل تجوس في عشبها الندي! ويجيبها:

"زوجتكِ نفسي"..

ويطفو جسداهما في هالة من التوتر والانفعال الحميم، وكل الأحاسيس الغامضة، التي تسرّبت من روح صانع الفخار، لتغطي فضاء البلدة الوادعة عند منحدر النّهر، تغطي على صوت الجنكويز! وفيما هو يشدها إليه يرجع الصدى مرددًا:

"زوجتك نفسي يييي.. يي"..

فيرتج جسداهما كزلزلة اكتمال الخلق، ثم يرتخيان، ويهمدان، تفوح منهما رائحة الثمرة الأزلية، ومزيج القرنفل والقرفة والحبهان والعرق! اغتسلا في ماء الجاسر المحموم، ثم تهالكا على قيف النّهر، كطوابي البلدة القديمة الموعودة بالشجن والجنون!

هذه البلدة التي تواجه في تلك اللحظة، دونًا عن كل لحظات التاريخ، نوعًا غريبًا من الخرائف الغزيرة! حيث انتشر البعوض والنّاموس في أرجائها، وتوالدت الضفادع والذباب بسرعة رهيبة، ووحدت سيمفونيات نقيقها وطنينها بصورة مفزعة، تكاد تقود الأهالي إلى الجنون!

هذا النوع من البعوض الذي انتشر في البلدة، كان نوعًا غريبًا على الأهالي، لم يألفوا ما اتسم به من جُرأة وخبث، إذ كانت كل أربعة بعوضات، يرفعن أطراف الناموسية، ليتمكن بقية السرب، من الدّخول لنهش أجسام الأهالي النحيلة!

لم يعد أهل البلدة قادرين على النَّوم، كانوا عندما يلتقون يكشفون عن أجسادهم، الملأى بالانتفاخات الصغيرة الحمراء!

كان حال الأهالي ليلًا خوض حرب ضروس مع البعوض، جربوا فيها كل الوسائل والسبل، بدء بتغطية كامل أجسادهم، بزيت الخروع سـيئ الرّائحة، انتهاء بحرق الحطب المزيج من العشر واللعوت!

لم يتركوا شيئًا لم يجربوه! إذا كان ذاك هو حالهم في الليل، في حربهم الخاسرة مع البعوض، فإن حالهم نهارًا لا يسر، إذ عكر الغبار الكثيف مزاجهم! نوع غريب من الغبار، ظل عالقًا في فضاء البلدة، يتنفسونه ثقيلًا مع الهواء!! وكانت ذرات هذا الغُّبار الذي ظل عالقًا في فضاء البلدة لوقت طويل، ترسم أشكالًا غريبة، أشبه بكائنات غير معروفة، وحتى السحب كانت تشكِّل أشكالًا غامضة!

وكل شيء في البلدة القديمة كان غريبًا، كأنه إيذانًا بحدث خارق! حتى عندما طلع فجر البلدة، وأشرقت الشمس فاجَّة بأشعة خيوطها الذّهبيـة الشحيحة، السحب السوداء بدت لهم ليست شمسهم ذاتها!

كانت هزيلة صلعاء، حتى أن ضوءها فشل في إزاحة الظلام والعتمة، التي ظلت تبرز من أبواب البيوت الموارية، والأخرى المتاكية بعود أو (ضُقُل).

كما أن دِيَكة البلدة تغيّر حالها، إذ أخذت تغادر البيوت إلى الغابة المجاورة، ولا تعود إلا بعد مغيب الشمس، وتظل على حبال الغسيل، التي علَّقت عليها نُسوة البلدة (شرموط البقر)، تصيح حتى الصباح، دون أن يغمض لها جفن أو ينال منها تعب!

الحمام والعصافير التي بعثر صياح الديَكة قش أعشاشها ووكناتها، غادرت البلدة القديمة تحمل فراخها بمناقيرها!

حتى الدجاج أصيب بالذُّعر، بينما انفتحت كل زرائب المواشي، وأخذ الثُغاء يختلط بالنهيق بالخوار، بكل شـــــيء! فيما بدا للجميع اختلاط تام للحابل بالنابل!

كانت تلك هي المرّة الأولى، التي شوهد فيها طيفًا شبيهًا بـ صانع الفخاريجري من بيت لآخر؛ وهو يصيح:

وربِّ صانع الفخار لا تهلعوا، أنها إرادته العليَّة، فربما من الخير لكم أن تغادروا، نحن مسيَّرون، وهو الذي ليس سواه، لا يقودنا إلا إلى الخير، ستمضون إلى أرض أجمل وأخصب تضربون، فيها جذوركم وتبدؤون من جديد!

الأهالي الذين أخذ الذهول بتلابيبهم، ظلوا يحدّقون مسمّرين في الهواء، الذي انقشع فيه الطيف، كأنه لم يكن!

¤¤¤

على خلاف الرّواية الرّسمية عن الخزين طبلة أم جبو الجد الأول، التي فك طلاسم مخطوطها معهد جار النبي جارو، ثمّة رواية شائعة لا تفتأ الجَدّات في اللّيالي المقمرة، يحكينها لأحفادهـــــن، على وقع رشفات الحليب الدافئ.

تقول الحكاية أن الخزين الجَد، هو النّاجي الثاني من ذلك الطوفان، الذي تواتر إلى مسامع أسلافهم خلال مئات السنوات، ولم تفصح هذه الحكاية عن هُوية النّاجي الأول، التي ظلت مجهولة وغامضة!

رغم أن هذه الرّواية نفسها تلمح، إلى أنه ليس سوى صانع الفخار! لا أحد غيره! هذه الحكاية تنفي عن الخزين الجَد، كونه معلمًا لصانع الفخار، وتؤكد أن طائفة صانع الفخار، وجدت قبل ميلاد الخزين، وأنه عندما نما وبلغ الصبا، التحق بطائفة صانع الفخار، ونهل من معارفها وعلومها، ولازمها لسنواتٍ طويلة، إلى أن اختفى بطريقة غامضة، مدفوعًا بتوتر وقلق عاصفين، لم يبُح بسرّه لأحد!

لكن البعض رجح أنه نوع من الحزن الكلي، بسبب فقده المفاجئ لنينا، وهو الفقد نفسه الذي دفع بصانع الفخار لـلاختفاء، حزنًا على الكنداكة أجمل راهبات البلدة القديمة!

وفي الحقيقة لم يستكن الخزين للحزن طويلًا، إذ استغل جهل الجنكـــويز بهيئته فتمثل هيئتهم، ملتحقًا بفرقة حرس المقدّس سِرّه،

حيث تقلبت به الأيام، إلى أن أصبح قائدًا لإحدى الحاميات الخاصة بالمقدّس سِرّه! على حدود دار الرّيح!

والتي ترحيبًا به كقائد جديد للحامية، أهداه أمير الجنكـويز على دار الرّيح جارية تدعى أم عيون، تضاهي نينا حُسنًا وجمالًا!

كان الجنكـــويز قد استرقُّوا والدا أم عيون، اللذان كانا قد دفعا بها إلى الرّهبنة مبكرًا، ولكن أعتقهما المقدّس سِرّه، بعد أن أخبرته أم عيون بأمرهما، فلمَّ شملها عليهما، وأصبح والدها من خاصة الأمير الجنكويزي على دار الريح!

ورغم أن الخزين كان يدرك، إنما أهداه الأمير إيَّاها، لتكون عينًا عليه حتى وهو في مخدعه، إلا أنه وقـع في غرامهـا ولم يعـد يأبه لهذا الأمر!

وكان العبد السابق والد الجارية، قد استاء من فعلة مولاه الجنكويزي، فأخذ يقول في المجالس:

"إذا وطـــأت بنتًا بملك اليمين أفلا تكون تحت حر بدلًا عن هذا العبد العنين؟".

وتناهى إلى الخزين ما كان من خبر أبيها وأهلها، فلم يوقع بهم أو ينكل، بل أجزل لهم العطايا، ودسَّ عليهم من ينقل إليه أخبارهم، فجاءته الردود، أن فعله أسعدهم بل أن أم البنت أشاعت:

"الخزين فوق الأحرار درجة"..

بل أن والدها أصبح لا يفتأ يكرر في المجالس:

"فعل الفتى أصله!".

الخزين كان يدرك منذ وقت مبكر، كيف ومتى يجب أن يستغل ذكاءه لكسب ود النّاس، وتجنب عداءهم، ولم يكن ليعجز عن رعاية الخيط الفاصل الدقيق، بين الطاعة بسبب الخوف أو الحب! فكانت هيبته في نفوس النَّاس، نوعًا من الهيبة الغامضة، بسبب الغموض الذي أحاط شخصيته!

وبقدر ما كان الخزين الحفيد نقيًّا تجاه ذاته، مثله مثل آل الخزين عبر التاريخ، كان يدرك أن الحقيقة ستظل على الدوام محظورة من قبل الجنكـــويز الآن، كما كانت محظورة عند أسلافهم، فالجنكويز ظاهرة أزلية في كل عصر، تتخذ شكلًا مختلفًا..

مبادئ الخزين الحفيد المستمدة من أسلافه، هي مبادئ صانعي الفخار، الذين تبعوهم عبر آلاف السنين، وهي معارف مستمدة من الينابيع السِّرية لكنوز الحقيقة.. تلك الينابيع التي لا تنضب، والتي سيظل الحكماء والمناضلين والثوار والمتمردين، يغترفون منها عبر التاريخ والأجيال، فصانع الفخار الذي أُلهم بها، لم يكن نبيًّا كأولئك الأنبياء، الذين اجتمع فيهم مزيج غريب من المرارات، وقسوة الحياة عليهم، منذ طفولاتهم الباكرة، والرّغبة في تخطي هذه المرارات، التي تتجدّد كجُرح متقيح، يضفي على قسوة حياتهم، التي عاشوها ألمًا

وعذابًا عظيمين! فرغبوا في السلطة كتعويض عن كل هذه القسوة والمرارات، التي حاصرت حياتهم لسنوات طويلة، تدفعهم رغبة ممضة لهدم العالم، وإعادة بنائه من جديد، إذ أبدًا لم يكونوا إصلاحيِّين! كانوا ثوريين حازمين، لا يتورّعون عن خوض الحروب لفرض إرادتهم!

لم يكن مثل هؤلاء الأنبياء، الذين في الحقيقة صنعتهم مجتمعاتهم، ولم تصنعهم تلك القوّى الغامضة غير المرئية، التي زعموا أنها بعثتهم! ولهذا السبب بالذّات، لم يكن راغبًا في هداية أتباعه، الذين لم يسـعَ لإقناعهم بشـيء لكي يتبعوه، إذ فوجئ بهم يتبعونه دون استئذان، بل مضوا يقرؤون حياته ويدونونها، ويضيفون إليها ويحذفون منها ما عنَّ لهم، حتى تكونت لديهم تعاليم يكاد لا يتعرف عليها! فيتساءل:

"أحقًّا هذا أنا أم شبه لي؟ أم شبه لهم؟!".

وعلى الرُّغم من سعيه الدؤوب، في النأي عن غوايتهم، إلا أنهم ظلوا يبحثون عنه، حتى عندما يكون بينهم! فيتساءل:

"أين أنا؟".

الخزين الحفيد مستلهمًا كل هذا الإرث الروحي، المتوارث عبر أسلافه لآلاف السنين، مضى متأملًا حال العباد والبلاد، تحت نير حكم الجنكـويزي، فلم يؤاخذ المقدّس سرّه، كفرد بما يعتقده عن نفسه أو أصله الشريف المزعوم، إذ كان يُدرِّك جيدًا أنه سواء ما كان

يفعله المقدس سِرَّه أو جنكـــــويزه، ليس أمرًا يتعلق بتشوّهات لحقت بهم وحدهم، بل نتاج مئات السنوات من الأفكار والعقائد الفاسدة.

ولكن في الوقت نفسه كان يشعر بالرّغبة في الانتقام من المقدّس سِرّه وجنكـــــويزه، عندما تناهى إلى مسامعه استغاثة النّاس، منبعثة من كل مكان حوله، ومن داخله.

يسمعهم وهم يستيقظون، على وقع أوامر الجنكـــــويز، تأمرهم بمغادرة البلدة القديمة والمدينة الزّاهية..

الأهالي الذين كانوا ينفقون جلَّ أوقاتهم، قبل انقضاء المهلة التي منحهم إيَّاها الحاكم العام، في زيارة قبور موتاهم وقتلاهم وشهدائهم في كل الثورات، التي خاضوها معًا.. كتفًا بكتف مع أحفاد الجنكويز الأوائل!

على تراب هذه البلدة، لطالما مشَوا و(تقالدوا)، وعشقوا خطى حبيباتهم، وركضوا مبتعدين عن الكلاب الشرسة، التي تركض خلفهم.. أليست هذه ذكريات؟ وما الوطن سوى الذكريات؟ كيف يطلب منهم أن يتخلوا عن ذكرياتهم؟

الكلام الذي قاله ذلك الطيف البعيد في لحظة مشابهة لأسلافهم، عندما أمرهم الجنكـــــويز بركوب الفُلك والمغادرة، الكلام (النَّي) هاهو يسقط الآن.. هاهنا؛ دون أن يتمكن من دخول عقولهم، سقط على تراب البلدة وهو يطرق مسامعهم؛ دون أن يتمكن من الولوج إلى أفكارهم وقلوبهم!

كانوا قد انتابتهم حالة من اليأس والإحساس العميق بالعجز، لذا أخذت اللامبالاة تتسرب إلى نفوسهم، فلم يأبهوا للمناخ الغريب، الذي أحاط البلدة كالسوار، غير مبالين بهذا الخريف الغزير، الذي بدا كأن مزاريب السماء انفتحت على مصاريعها، لتصب غضب أزلي!

إذن أصبحت مشاعرهم وأجسادهم، غاية في الإنهاك والإحساس بالتعب! ومع ذلك لا شاغل لهم، سوى زيارة قبور الموتى، حيث يمكثون في المقابر، بقية نهار كل يوم، وعندما يأتي الليل يتقدمهم شيخ مسن من أتباع صانع الفخار بفانوسه، وهو يتوكأ على عصاة معقوفة، زعم أنها من شجرة اللعوت نفسها، التي صُلب على عيدانها صانع الفخار الأكبر!

لم يكن في تجمعهم يسمع سوى صوت التنهدات البالية، وربما همس واهن متناهي الأصداء:

"يا رحمن يا رحيم"..

جميعهم لديهم قتلى أو موتى أو شهداء.. جميعهم يعانون عذاب الفقد والذكرى، وجميعهم يلعنون جند الحاكم العام، الذي قسمهم إلى شعبَين وبلدَين، دون أن يأبه لدمهم المتوحد، وذكرياتهم الواحدة!

كانوا يتجوّلون بين القبور، يتقدمهم الشيخ المسن وجفونهم تفيض بالدّموع، وأصواتهم الناشجة تتحشرج، كأنها نزعًا أخير! بعضهم كان لا يزال يحدوه الأمل، في رب صانع الفخار، وبعضهم لم يتورّع في التعبير عن فقدانه الثقة في هذا الرَّب، الذي شاءت مشيئته

أن يُنتزعوا من أرضهم.. أرض أجدادهم التي لا يعرفون لأنفسهم وطنًا غيرها!

هكذا إذن على وقع اقتراب خُطى الرَّحيل! كان الخزين يشعر بالبلدة كلها، بكل خفقاتها وسكناتها وآهاتها داخله! كأنها تنبش بحثًا عن شـــــــيء ما أضاعته في غفلة من الزّمن! شيء ثمين لا يمكن أن يُوصف أو يُعوض!

كأن البلدة كلها داخله، يشعر بنبض قلوب النّاس، بالدماء وهي تغلي في عروقهم كأنها خرير ماء، على جدول وعر!

يشعر بهم وببكاء أطفالهم الرضع الذين يبحثون لحظتها عن أثداء أمهاتهم اليابسة.. كان يسمع حتى الهمس المجروح لعشبة معونة النيل الحزينة، قبل أن تلامس رائحتها خياشيمه!

إذن كان الخزين يرى ليس كما يرى الآخرون، ويسمع ليس كما يسمع الآخرون، ويعلم أشياء كثيرة، أكثر من غيره ويعلم أنه يعلم!

الخزين لم يكن ناسكًا، لكنه يشبههم.. كان نحيلًا، كثيف الشعر أجعده يبدو من مظهره في أسماله البالية، كأن روحه لن تنتظر لتغادر غروب شمس اليوم التالي!

وفي حقيقة الأمر كان هذا المظهر خادعًا -وفقًا لما قالته نينا- إذ كان الرجل قويًّا، استمد البأس من وحوش الغابات التي عاش بينها

منذ طفولته، عندما اعتزل النّاس و ابتعد عنهم، عاش حياته يرعى مع الظباء ويلاعب الفهود و أفراس النّهر والتماسيح.

وكانت هذه الحياة نفسها امتدادًا لميلاد صانع الفخار الأول وبعثه فيه هو الخزين الحفيد، مثلما صانع الفخار خلف وحيد مثل كل صانعي الفخار، فكل أسلافه وسلالته ينجبون ابن وحيد لا غير!

فسلالة صانع الفخار ظلت دائمًا تعتمد على آل الخزين الذي يتمثل دوره في إسناد جهود صانع الفخار! الباحثة عن نقاء مطلق حوله، فكان يتبعه ليرشده إلى مواطن الجرح، ومواضع التقيح في أزمنة البلاد الأســــيرة، التي تعود دائمًا إلى ما انتهت إليه من قبل، كحلقة شريرة لا تنتهي!

إذن كان الخزين هو الخادم المخلص والمؤتمن الوحيد على أسرار صانع الفخار..

وهكذا فيما كان الجنكــــويز يحرقون قصر الحاكم العام، إثر معركة قصيرة مباغتة، كان صانع الفخار الحفيد يلوذ بمعتكفه، بعد أن أعياه الحمل الذي ينوء به ظهره، وهو يراقب أنانية أهالي البلاد الأسيرة و انحطاطهم!

هكذا مضى إلى معتكفه المجهول، يتأمل ما آل إليه حال القوم ويدبر ويفكر! في اللحظة نفسها، كان الخزين الحفيد يختفي في مكان غير معلوم!

وهكذا غابا عن مشهد البلدة القديمة في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ البلاد الأســـــيرة، مخلفين وراءهما الاستغراب والكثير من الأسئلة مثل:

"هل نال منهما اليأس والقنوط، لدرجة إعفاء نفسيهما من مسؤوليتهما تجاه هؤلاء النّاس الفقراء الحزانى، الذين لم يحتل الجنكويز أرضهم فحسب، بل كيانهم وذكرياتهم أيضًا!

وفي الحقيقة منذ اللحظة التي احتل فيها الجنكـــــــويز البلدة القديمة والمدينة الزّاهية، ونشطوا في البحث عن صانع الفخار والخزين، دون أن يعثرا لهما على أثر، كان كليهما صانع الفخار والخزين يعد العُدّة بطريقته!

فشل الجنكـــــــويز في العثور عليهما، ذلك أن قلّة مخصوصة فحسب هي التي تعرفهما أو التقت بهما، فـأهالي البلدة القديمة رغم علمهما بوجود صانع الفخار والخزين، إلا أنهم لا يستطيعون الزّعم أنهم رأوهما حقًّا، فعادة تصلهم تعاليم صانع الفخار من أتباع الخزين، والذين رأوا الخزين على الأقل لم يكن عددهم يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وحتى هؤلاء لم يقتربوا منه كفاية..

أحدهم فقط رآه مصادفة يشرب الماء بكفيه في إحدى اللَّيالي المقمرة، التي دأب على الخروج فيها إلى صديقاته حوريات النّهر، ليتسامر معهن حول العوالم التي لا يدركها البشر! فاقترب منه وتعارفا، ومنذها حمل ذلك الرّجل تعاليم صانع الفخار، الذي لم يرَه

بعدها أبدًا، وصار لذلك الرّجل أتباع كُثُر من أهالي البلدة القديمة، لا يكادون يعرفون بعضهم البعض، إذ كان ذلك الرجل -تابع الخزين- يلتقي بانتظام كل منهم بمفرده، وكل منهم يلتقي آخرين بانتظام فردًا فردًا..

كان نظامًا محكمًا ذاك الذي وضعه الخزين، حمى هؤلاء من أسر الجنكـــويز، فمن يؤسر مهما عذبوه لن يجدوا عنده ما يفيد عن الآخرين، فهو حقًّا لا يعرف سوى اثنين فقط وبأسماء ليست أسماءهمـــا الحقيقية: الذي يلتقيه ليأخذ منه والذي يلتقيه ليبلغه بما أخذه، أو وصله من صانع الفخار!

الكنداكة أجمل راهبات معبد البلدة القديمة، كانت هي الوحيدة التي تعرف صانع الفخار أكثر من أي شخص آخر، فمنذ تناهى إلى سمعها ما أشاعه ذلك الرجل عن علاقة الخزين بحوريات النّهر، حتى انتابتها رغبة شديدة في رؤيته، لتصل عبره إلى صانع الفخار، فأخذت تتسلل في الليالي المقمرة خفية من قساوسة وراهبات الكنيسة القديمة، بعد أن يهجعوا إلى مر اقدهم، وتقصد النهر، تختبئ خلف قيف أو أكمة سعدة أو دغل متنائي صغير، كثيف من نباتات الجروف الزّاحفة!

وقمر إثر قمر ملت اصطياده، فتخلت عن حذرها وباتت تستحم في النّهر، علّ إحدى الحوريات تبين فتسألها عن الخزين.. إلى أن كانت تلك الليلة وهي تستحم في النّهر، دون أن تخلع ثيابها، دون أن تدري

أن صانع الفخار كان يراقبها طوال هذا الوقت، دون أن يفضح مكانه منذ أقمارعديدة!

لم تكن تدري أنه رآها، منذ أول مرّة بدأت فيها ترتـــاد النّهـــر في الليالي المقمرة، لكن أبدًا لم يفصح لها عن نفسه فـــي مكمنه الخفي، إلى أن كان ذلك اليوم، الذي مدّت فيه الرّاهبة الجميلة الكنداكة يدها، وشرعت تخلع ثيابها ينتابها شعورقوي بوجوده حولها في مكان ما!

شعرت بوجوده طاغيًا، يبعث فيها كل الأحاسيس التي قمعتها تعاليم الرّهبنة ونُساك المعبد القديم، ومع أول قطعة رمتهـا من ثيابها على قيف النّهر، صحت مشاعر منسية، مشاعر قوية عميقة مدفونة في جُبِّ التعاليم.

وقطعة تلو أخرى كان الماء يرغـــي ويزبـــد يغطي صدرها، وكان صانع الفخارعلى بعد رمشة عين و انتباهتها! على صهوة جواد أبيض ذا عرف ذهبي وعينان خضراوان، والجواد يصهل صهيلًا ناعمًا وهادئًا وخافتًا، أشبه بآلة موسيقية، عميقة الشجن، تتحسس ضوء القمر، وتهب تموجات عشبة معونة النيل رائحة شجية!

اخترق صانع الفخار ببصره ماء النّهر، يحتضن جسمها العاري الذي كان يرتعش، فيخفق الماء وينخفض كدقات قلب، تحملها دواماته الصغيرة المتموجة، التي تهتز لها عُشبة معونة النّهر الطافية في ترقب متحفز!

كان ظمأ جسدها العاري تحت الماء متوترًا ومؤثرًا، وكان كل عصب أو شريان أو وريد في جسم صانع الفخار منتفخًا وموتورًا.

كلاهما غاب لحظتها في تلك الينابيع السرّية الغامضة، التي لا حدود للهفتها وشوقها.. تلك الينابيع التي لا تنطفئ نيرانها الأزلية، إلا وتشتعل لتحرق كل ما يجابهها، في لحظة واحدة وخاطفة، وما أن تنطفـــئ حتى تتجدد كطائر البلدة القديمة، الذي يحترق لينبعث من بين رماد احتراقه أشد عنفوانًا وقوّة!

¤¤¤

مع قُرب انقضاء المهلة التي منحها المقدّس سِرّه لــلأهالي، بدؤوا ينشطون في نقل حاجاتهم إلى الفُلك الرّابض في قيف النّهر.

الذين اختاروا البر حملوا أمتعتهم على ظهور الدواب، وكانوا جميعًا -هؤلاء وأولئك- قلوبهم تتلفت وهي تقول في أسى:

"وداعًا بلدتنا القديمة"..

وداعًا موطن الأسلاف والتاريخ والماضي المجيد.

بعد عشرات السنوات ستبقى من ملحمة الرّحيل ذكرى شاحبة لمئات الآلاف من البشر، انتزعهم الحاكم العام من أرضهم، كما انتزعها سلفه الأكبر المقدّس سِرّه من قبل! قبل مئات السنوات، فبللت قبل مغادرتهم دموعهم الأرض.. اختلطت بطبقاتها العميقة

وسطحها، وأصبحت جزءًا من كل نبات ينبت أو مطرًا يهطل أو بركانًا يتفجر.. أصبحت دموعهم جزءًا من جذور النّيل في مدّه وجزره..

وسيدوِّن الخزين في مخطوطاته المشفرة ما رأى في الجلاء الأول على عهد المقدّس سِرّه، كما سيقرأ جادين جانو الآن على عهد الحاكم العام عن دموع النساء اللاتـي يرضعن أطفالهن حليب الأرض، الذي استمد ملوحته من الدموع، وهن يلقمن أطفالهن أثداءهـــــــــــن الشحيحة، مزيج الحليب والدمع في مقابرود أم جبو، التي تردد صدى نشيج الوداع الأخير فيتنهد:

"ما أشبه الليلة بالبارحة!".

ثم يبدأ هو الآخر يدوِّن حكايا الذين ماتوا على ظهر دوابهم، والنساء والعذارى والأطفال، والصبية والمسنين الذين ماتوا جوعًا وحزنًا في الطريق إلى الصعيد، فتم رميهم إلى أفراس النّهر والتماسيح..

سيضع هامشًا زائفًا عن الخزين الذي أصبح أمير حرس المقدّس سرّه، وأبقى صانع الفخار في منزله ومضى يستأذن المقدّس سِرّه في أمره!

البلدة القديمة عند منحدر النّهر، لم تكن امتدادًا للمدينة الزّاهية فحسب، بل مستودعًا محصنًا لأسرار البلاد الأســيرة، فرغم كونها بلدة، وظلت عبر العصور مجرد بلدة، إلا أنها كانت ثرية بتاريخها وأهلها الحميميّين بمشاعرهم الدافئة، وقصص حبهم وحكاياهم

الخارقـــة، عن أجدادهم الذين كأبطال الأساطير، الجميع لديهم جد نبيل وبطل أسطوري ينحدرون منه!

الجميع دون استثناء، حتى تخال أن البلاد الأســــيرة، هي بلاد أبطال الأساطير! ومع ذلك عندما تناهى إلى مسامع أهالي البلدة القديمة، نية الجنكــــويز في الاستيلاء على أموالهم.. أموال البلاد الأســــيرة، هربوا أموالهم إلى الجوار البعيد أسفل النّهر، وما وراء صحراء دار الرّيح خلف تخوم ذلك البحر، الذي يقترن بالمحيط الواسع الذي يحتل جزءًا كبيرًا من يابسة هذا الكوكب البائس!

بينما غيّب البعض أموالهم تحت أرض الصعيد، حيث الغابات والوحوش، وحيث تنشط طائفة صانع الفخار المتمردة، التي كانت قد نظمت صفوفها، وتوشك على الدخول في حرب مفتوحة مع الجنكويز!

وهكذا الذين قُتلوا على يد الجنكــــويز، قُتلت معهم أسرار أموالهم المفقودة! التي حاول الجنكويز عبثًا التوصل إلى مكانها!

وعلى أية حال كان أمراء الجنكــويز، لا يقدمون للخزينة العامة كل ما نهبوه أو عثروا عليه، إذ يكتفون بتسليم قدر ضئيل، ويحتفظون بالباقي!

نعم سيضع جادين جانو هامشًا زائفًا حتى عن اللائي مُتْنَ بين ذراعي عشاقهن في بلاد أســــيرة أخرى، على الضفة الأخرى من

مخطوطة -هو جادين جانو، شخصيًّا- من سيشفِّرها ويخبئها في مكانٍ لن يعلمه أحد!

مانشستر، نيوهامشير، فيلادلفيا، بنسلفانيا

2016-2014

¤¤¤

4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظلال

نعم، للإمبراطورية.. لا، لشعوبها!

ونستون تشرشل

قد يحصل أن الدولة تأخذ بمظاهر القوَّة والبطش، لكنها إفاقة/ قريبة الخمود، أشبه بالسراج عند انتهاءِ الزَّيت منه، فإنه يتوهج لكن سرعان ما ينطفئ..

ابن خلدون

¤¤¤

لحظتان لن تنمحيا من ذاكرته: اللحظة التي غادر فيها مسكن هيلدا بعد سهرة دافئة، فيما كان النّهار يتمطى مشرئبًا خلف نافذة مكتبه، عندما أُعتُقل!

واللحظة التي كان فيها النّهاريذوي، والشمس تتهاوى خلف الأفق الغربي، فيما الجنكويز يدفعونه إلى داخل الزنزانة، فيطوي ليل البلدة، آخر النّهارات المسكونة بصمت النّاس وبؤسهم، الذي

انفجر بغتـةً على هذا النحو المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات تيار غضبتهم العارمة!

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة..".

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدّة!

وفيما كان جادين جانو يسترد أنفاسه من النيران التي أشعلتها هيلدا، كانت هتافات غفيرة تنعقد في قبة البلاد الأسيرة، والجموع تعتصم أمام القيادة العامة لقوات "الجنكويز" فيما صوت قطار دار صباح يهد القضبان هدًّا، ويمضي دون توقف.. يبطئ ليركب عمال المدن، كلات الموانى، المراكبية، حشاشة القصوب، تربالة القرى فلاحين البلدات خارج التخطيط، تلاميذ المدارس، الأفندية، ليفرغهم جميعًا في ميدان الاعتصام!

وقبل أن يتوقف الهتـــــاف والقصف، كانت الأرض قد زلزلت زلزالها، وتبين للمريود والمعتقلين الآخرين، إنهيار جدران السجن!

كان الأهالي المغبونين قد اندفعوا يحطمون الجدران المتداعية للزنازين.. تدفقوا يلتحمون بهذا السيل الهادر، لنهرٍ من أرواح أبطال عشراتِ العصور، التي تعاقبت على البلاد الأســيرة.. انبثــق في هذه اللحظة الكونية الخالدة، من مسام القبل الأربعة!

الثوار المسلحون يقودهم الخزين، حملوا أسلحتهم ومضوا، يحمون الجموع الهادرة، التي كان يقودها صانع الفخار، ويفسحون لها الطريق، لدك آخر قلاع وحصون، آخر حاكم عام ينحدر من أسرة المقدس سرّه المالكة، تسبقهم هتافاتهم وهم يحملون طيفًا متلاشيًا على أعناقهم، يشقُّ هتاف روحه عنان السماء، ويرج الأرض رجًّا:

انطلق المتظاهرون، ومزيدًا من الجماهير الثائرة، تنشق عنهم تغريدات "ود دَبرك".. تنشق عنهم كتب التاريخ والحكايات والأحاجي.. تنشق عنهم الأرض، ويتقدمون الصفوف، ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وهم يحملون بين جوانحهم أشباح أحبابهم، كانت صدورهم عارية، وهتافاتهم تشق فضاء البلاد الأسيرة الرَّحب، كغضبة رياح الهبباي الجسورة، وعيونهم تلمع كالبرق العبادي المخاتل!

جاءوا من كل فج..

خرجوا من زقاقات "البلدة القديمة".. من ساحة صانع الفخار العتيقة، وميدان الحرّية، وبيوت القش والصفيح في أطراف المدن!

جاءوا من حواري المدينة الزَّاهية.. ومن "إندايات" البلاد الأسيرة.. جاءوا من فرقان و"حلالات" دار الريح، ومن "كراكير" الجبال والوديان، جاءوا!

ومن غابات الصعيد، ومن أسفل النَّهر، جاءوا..

ومن دار صباح حيث تشرق شمس البلاد الأســــيرة، شحيحة ومنهكة! وتوحدوا جميعهم: المشردون، السجناء السياســــيُّون المخضــرمون في سجون "التـرح وتــور الجــر" خرجوا من بين سطور مذكر اتهم وسيرهم الذاتية، الكنداكات طالبات الجامعات، الأهالي الذين فقدوا ملامحهم، فاكتسبوا ملامــحَ جديدة، نبلاء "كليــوة البائدة"، الباعة على قارعة الأرزاق، في الطرقات والأرصفة، الساعاتية الذين كانوا يمارسون إصلاح الساعات، في برندات المحلات، فلم يعد مجرى الزَّمن مفهومًا بالنسبة لهم، فهجروا طبلياتهم، وودعوا هذه المهنة اليائســـة بحزن، حملوا عدة شغلهم الدقيقة، و اندمجوا في مسارات الجموع.

مفلسو المحطة الوسطى بحـــري، الذين ينتظرون مواصلات لا تأتي في محطــة المليــون عاطــل، الفنانون البؤساء في شارعَي النيل والغابة، و"أتني" على المصاطب وتحت أشجار اللوعات والأسئلة، هؤلاء الذين دأبوا على رسم وجوه ملتاعة غامضة، خـــــدد الحزن قسماتها، يرسمون الآن وجوه غاضبة، وينحدرون مع السيل..

باعة الكتاب المفروش على الأرض، والباعة المتجولون والمهووسون من صغار الجنكـــــــويز، الذين يوزعون منشوراتهم الدينية، في المواصلات العامة، يخيفون الناس من عذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، هذا القبر الذي دفنوا فيه الأهـــالي أحيـــاءً، ليقيموا قيامـــتهم على أرض وقائع ما جرى ويجري من عذاب، أدركوا للتوِهُراء اعتقاداتهم، فاندرجوا في الزِّحام!

الباعة في سوق الفواكه المعطوبة، بائعات الشاي والتسالي والفول المدمس والطعمية "والدَّكوة" في الأسواق الشعبية، والمتسوِّلون والمعاقون.. ضحايا الحروب الأهلية والأخطاء الطبية الفادحة، والبيئة الصحية الكارثية، تصدروا الجموع!

بائعات الهوى المنتشرات عند منحنيات الشوارع والدروب، وفي الزِّحام العام، والميادين التي ضاقت بما رحب الوطن، وزبائن محلات الفول والأقاشي والشاورما المغشوشة!

كانوا جميعًا كأهل الكهف، يفيقون الآن من نومِ عشراتِ السنوات، لا يأبهون لعربات الردع الجنكـويزي، التي اختبأت في زوايا الشوارع، والزقاقات، مستعدة لإطلاق آلاتِ القمع في أي لحظة.

تدفقوا كسيل عارم يجتاح كل شيء: مأساتهم الاجتماعية العميقة، وادي الآلام.. قوز المراثي.. ود أم جبو.. كتب التاريخ الزائفة.. سهول الأحزان.. شجرة اللعوت سيئة الرائحة.. بيـوت الأشـباح في القلعة العتيقـة.. القيادة العامة لقوات الجنكـويز المسلحة، المخطوطات الزائفة.. تقارير المنظمات الدولية.. قبور المقدّس سرُّهم وأسلافهم وأحفادهم، في مقبرة عائلتهم البديعة.

جرف الثوار والمتظاهرون وأحرقوا كل شيء، فلم يتبـق سوى الآثار الدارسة لحيـاة بكاملها، في عصور بكاملها.. كانت هـا هنـا ذات عصر، متداخلة بشكل أربك حياة أهالي البلاد الأسيرة!

من هنا ذات زمان.. ذات مكان، نهضت بلاد كبيـــــرة أخرى، من رماد حريقها انبعثت من جديد، شعبًا نبيلًا واحدًا وأرضًا شاسعة موحدة! لوَّح لها صانع الفخار بكفه، تلويحة أخيرة واختفى، مبتسمًا، في المدىٰ اللامتناهي لأفق البلاد، الشجن!

التي وللمرّة الأولى عبر تاريخها تصبح وطن! لكن ما الذي جرى قبلها، وقاد إلى كل هذه الوقائع والأحداث؟

¤¤¤

عصبوا عينيه، داخل العربة الصالون المظللة، واجلسوه منكفئًا على ركبتيه، فلم يستطع تحديد وجهتهم!

عندما توقفت العربة وسط فناء واسع، رأى جدارًا عاليًا، وشم رائحة النّهر، فأدرك أنها القلعة.. سجن القلعة..

أفرغوا جيوبه من محتوياتهـــــا، وقادوه من الفناء ذي الأسوار العالية، عبر دهليز طويل إلى غرفة، لم يستطع في العتمة تحديد مساحتها أو محتوياتهـــا لوهلـــة.. ثـــم تبين فيها أشباح لمعتقلين كُثُر! دفعه أحدهم بقسوة، فخطا إلى الداخل وهو يترنح!

دهمت خياشيمه رائحة زنخة.. مزيج من رائحة إفرازات بشـــرية وجرذان ميتة! شعر باختناق قـــاس فـــي رئتيه، وبشـــيء يتسلل داخل ثيابه، يقرصه بغتةً، فانتفض.

ناداه شبح أحد المعتقلين:

"تعالَ هنا، اجلس قربي".

لم تكن عيناه اعتادتا العتمة بعد.. مشى ناحية الصّوت بحذر، خشية أن يتعثر في أي شيء! عاد الصّوت مرّةً أخرى يسأله:

"أنا علي علوب، ما اسمك أنت؟".

جاهد في اخفاء ارتجاف نبرات صوته وهو يرد:

"جادين.. جادين جانو".

"ما الذي جاء بك إلى هنا؟ دولارات؟".

تحسسه شيء، تبين فيه سيجارة، كان قد مدّها له علي علوب..

"لا، أنا موظف بمعهد جار النبي جارو لأبحاث التاريخ ودراسات الآثار".

ضحك علوب ضحكةً ساخرة..

سمع صوت احتكاك عود ثقاب وهو يشتعل، ورأى على ضوءه الوجه النحيل لمحدثه، الذي أشعل السيجارة وأخذ نفسًا عميقًا.. ثم خرج صوته يبدد الدُّخان المنعقد حذاء وجهه:

"قلت لي آثار؟ وهل تركوا لنا آثارًا؟".

فتــذكر جادين الشاعر "حُميد".. ومرّت على خاطره أشعاره كلها دفعةً واحدة! أبعد السيجارة عن شفتيه، وهو يتنفس بحرقة:

"الحقيقة أنا مهتم بالآثار والتاريخ.. أدرس المخطوطات وأحققها".

مرّة أخرى ضحك علوب وهو يسأل:

"ولماذا تدرسها؟".

رد دون تردد:

"لأجد تفسيرًا لكل هذا الذي يحدث لي، لك.. لكل النّاس في هذا البلد! لا بد أن ثمّة إجابة ما في الماضي".

بصوت مقتضب سأل المعتقل:

"وهل وجدتها؟".

كانت أسئلة علوب مقتضبة، حادة، حاسمة..

ساد صمت عميق وهو يتأمل سؤاله.. أحس بشيء يتسلل بنطاله، نفض ساقه بشدة شعر معها بعلوب هو الآخر ينتفض، فقال بصوت خافت:

"آسف"..

ضحك علوب ضحكة واهنة:

"لا تتأسف، سرعان ما ستعتاد البراغيث والجرذان، لو طال بقاؤك هنا.. سيصبحون أصدقاءك الدائمين"..

سرح جادين بخياله، كان قد شارف، على فك بعض رموز المخطوطة التي خلفها الخزين وراءه، وربما كان سيتوصل إلى نتائج مهمة، لكنه الآن هنا.. شأن كل شيء في هذه البلاد المسجونة، المعتقلة، الممزّقة! كل شيء فيها غير قابل للاستكمال! أوليس تاريخها عبارة عن تمزقات متصلة؟!

منذ عرفت هذه البلاد "النظام والسلطة"، ظلت أطرافها في الصعيد والسافل ودار الرّيح ودار صباح، معزولة عن مركزها في الوسط، الذي لطالما ارتبطت به فيما يشبه الاتحاد الواهن!

هذا الاتحاد الذي ظل شعب البلاد الأسيرة في "قبلها الأربعة" يراقبه في صمت حذر، تتناهشه الهواجس والظنون! مثله الآن، يتحسب مجيئهم في أي لحظة للتحقيق معه!

التحقيق حول شيء ربما لم يخطر على باله! ترى هل يتهمونه بالعلاقة مع إسرائيل أو العمالة للغرب؟! فقد أصبحت هذه تهمًا جاهزة، لتبرير إغلاق المراكز الثقافية والمعاهد البحثية!

فقط عليه أن يتحسب، كما ظل شعب البلاد الأســـيرة في حالة من التحسب الدّائم، طوال تاريخه يتحسب.. وير اقب ما يجري، دون أن يقول كلمته الفاصلة!

متى بدأ ينتبه؛ وتتناسل داخله جرثومة التحسب؟

أهي تلك اللحظة، التي أوعز فيها يهود السلطنة العثمانية، للباشا محمد علي، بالاستيلاء على كنوز البلاد الأســــــــيرة ونهب مواردها؟!

اليهود يشمون رائحة الكنوز أينما وجدت! ولذلك وصل "ديفيد روبيني" أول رحالة يهودي إلى البلاد الأســـيرة في 1530م ومن ثم توالت هجرات اليهود..

جاءوا من كل أنحاء سلطنة آل عثمان.. عملوا كممثلين تجاريين، لبعض الشركات المصرية الطامحة للتوسع جنوبًا، وانتشروا حتى وصلوا "دار الرّيح" البعيدة، حيث تغرب شمس البلاد الأسيرة منهارة، ذاوية! وهناك طاب لبعضهم المقام واستقروا.

بل غيَّر بعضهم دينه واسمه ليعيش وسط النّاس واحدًا منهم! ولم تنقطع هجراتهم، ظلوا يتوافدون الى أن تكاثرت أعدادهم، فتم الاعلان رسميًّا عن تكوين جالية يهودية في 1908 بوصول الحاخام "سولومون مالكا" من مصر، والذي عمل كبيرًا للحاخامات؛ إلى حين وفاته في عام 1949 بينما ظل موسى بسيوني -مؤسس أول معبد يهودي في أمدرمان- رئيسًـــا للجالية اليهودية حتى وفاته في 1917.. كل

ما أبقاه على قيد الحياة، فقط انتظار وعد اللورد بلفور؛ بالوطن القومي للشعب المختار! تلقى الرّجل الوعد ورحل!

ترى ما الفرق بين "الجنكــويز" والصــهاينة؟ كلاهما لا يعترف بالآخر، وكلاهما يحاول أن يزرع نفسه بالقوّة، وبطرق غير مشروعة في الأرض!

الفكرة نفسها، التي تبناها العرب، بزراعة أنفسهم في شــــبه الجزيــرة الأيبيريــة! ومع ذلك أخذ الحكام "الجنكــويز" المتعاقبين، المتحدرين من سلالة المقدَّس سرُّه، يغذون مشاعر الكراهية بين شعوب البلاد الأسيرة ضدهم!

وبتنسيق أميركي إسرائيلي مصري مع "الجنكويزي" حفيد حاكم عام البلاد الأسيرة وقتها، تم ترحيل اليهود الفلاشا من دار صباح إلى إسرائيل في 1985 ومن ثم تمَّ هدم المعبد اليهودي بالخرطوم في 1987 بعد أن استولى أحد المصارف "الجنكويزيــة" على الأرض، التي أُقيم عليها ذلك المعبد، في صفقة عقارية شابها الغموض!

وبهذا أُسدل الستار على نفوذ ووجود اليهود في البلاد الكبيرة؛ مخلّفين وراءهم ما هو أسوأ - تركة المقدَّس سرُّه: "الجنكويز!"..

¤¤¤

أنا "ود دَبرق بن زرزور الدّوري"، كنت موجودًا صبيحة أُحرق صانع الفخار! وكنت موجودًا أيضًا عندما داهم عسس "الجنكويز" معهد جار النبي جارو، واعتقلوا جادين جانو.

كنت لحظتها أُغرد أعلى شجرة الجُهنمية الحمراء، التي تمد أغصانها إلى مكتب جادين جانو.. أنا الشاهد الوحيد على ما حدث!

ألا تصدقونني؟!

لقد سمعته وهو يقول:

"بعضهم قُتلوا داخل بيوتهم!".

قال بروفيسور محمود، وهو يمعن النظر في وجه جادين، الذي كان منهمكًا في قراءة التقرير، وقد بدى كأنه لم يسمعه، إذ استمرّت عيناه تلتهم السطور: ... أفاد أن "الجنكويز" وصلوا مع القوات الخاصة بالمقدس سرُّه في يوم السوق، حاصروا الأهالي، ثم دخل بعضهم إلى السوق، لنهب الأموال والمواشي، ومن ثم بدؤوا يقتلون الأهالى، عشوائيًّا دون تمييز.

وقد رأى الناجي الوحيد بعينيه الجثث:

"بعضهم قتل باطلاق النار، وآخرون طعنًا بالحراب"..

فيما أفادت احداهن:

"لقد كنت مع والدي، عندما وصل الجنكـــويز فجأةً إلى القرية، في تمام الساعة السابعة صباحًا، أخذوا يطلقون النّار في كل الاتجاهات، هربت لأحتمي، ولكن أُصبت في قدمي اليُسرى، وقُتل والدي داخل منزلنا، كذلك قُتل والد زوجي، كان "الجنكـــــويز" على ظهور خيولهم وجمالهم"..

ويضيف زعيم عشيرة في المنطقة، مشـــيرًا إلـــى إحراق خمسين قرية، وقتل ما لا يقل عن ألفين مواطنًا! في الهجوم الأول، الذي كان مدعومًا بالمروحيات، مؤكدًا أن حاضرة دار الرّيح، على تخوم الصحراء، والتي تبعد عنهم بحوالي ثمانين كيلو مترًا، كانت هي الأخرى مسرحًا للهجمات المتكرّرة، إلى أن أنقذتها طائفة "صانع الفخار" فاحتلتها وأخذت تدافع عن سكانها، لكنها أمام ضغط الجيش الجنكويزي بفرقه المختلفة، اضطرت للانسحاب تجاه الصعيد..

"ومع ذلك ظلت المدينة، تتعرض للقصف الجوي، والاجتياح البري من آن لآخر".

وقد بدا واضحًا أن الهدف هو: تفريغ المدينة من سكانها!

¤¤¤

أنا المنشق المريود جبر الدار المريود، والمريود جدّي كان اسمه رجب، لكن نساء البلدة القديمة كنينه بالمريود، وتلك قصة طريفة، إذ كان جدّي رجب، ماهرًا في نسج شباك صيد السمك، وفتل الحبال، ونسج المشلعيبَات والبروش والنُطوع، التي تُضاهي في نعومتها

منسوجات الحرير الصيني والفارسي والهندي، ولأنه كان بارعًا في نسج النطوع، التي تستخدمها النساء في الدُّخان لشد أجسامهن، وتعطير فروجهن، وجعلها أكثر ضيقًا، لإمتاع أزواجهن، كن عندما يقصدنه يقلن له بحياء، وقد خفضن مقانعهن وبراقعهن:

"نريد نطعًا يرفع رأسنا مع المحبوب".

كان جَدّي ذكيًّا لمَّاحًا، ورث الذكاء عن أسلافه نبلاء "فاز" الغابرين، فيفهمهن.. ثم أصبحن ينادينه برجب المحبوب، وبمرور الوقت أخَذن يكتفين فقط بكلمة "المريود" إلى أن حل اسم المريود محل اسمه!

¤¤¤

وكما انقسم أهالي البلاد الأسيرة بسبب العرّاب وهو حَيّ، ها هم ينقسمون بسببه الآن، إلى فريقين وهو ميت! فما أن نعى النّاعي العرَّاب، حتى سارع الجنكـويز، الذين لا زالوا، تصلهم بآل المقدّس سِرّه أشواق وتهويمات، يترحمون عليه وهم يرددون:

"الرّجل صار في ذمة الله، إن أخطأ أو أصاب، لا تجوز عليه سوى الرَّحمة، فقد صار بين يدي الله".

هذا الميكانيزم الدفاعي، الذي ألقاه الجنكـويز بوجه النَّاس، لم يجعل الفريق الثاني الذي قوامه السواد الأعظم من أهالي البلاد الأسـيرة، يتراجع عن صب جام لعناته، على العرَّاب وكل سلالته

الخبيثة، و أتباع هذه السلالة، التي وصفها في فوران غضبه عليها بـــ "المارقة!".

ولم يُخفِ أهالي البلاد الأسِيرة كذلك غبطتهم لسماع هذا النبأ العظيم، برحيل العرَّاب غير مأسوف عليه، إلى أسفل سافلين، جزاء ما اقترفت يداه الملوثة؛ بدماء الملايين من أهالي البلاد الأسيرة شيبًا وشبابًا وأطفالًا ونساءً! أو هذا ما كان يُقال تحت أسقف البيوت الواطئة، والأزقة المظلمة!

كان العرَّاب قد أصيب بذبحة قلبية، إثر يوم عمل شاق بدار "حزبه الجنكويزي" بُعيد عودته إلى منزله، قُبيل مغيب الشمس بقليل!

ومنذ اللحظة التي بدأت أسرته؛ تتداول مع الأطباء فيما أصابه، حتى تسرَّب الخبر، و انتشر وشاع بسرعة البرق!

كأن أهالي هذه البلاد من الحقد، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون هذا الخبر، على أحرِّ من الجمر؛ منذ سنوات طويلة!

انتشر الخبر عبر التليفونات، ووسائل التواصل الاجتماعي، أجهزة الإعلام الجنكويزية الرَّسمية، في مشهد لم يتكرر، منذ تآمر العرَّاب وتورالجر الحاكم العام الجنكويزي معًا، على اغتيال صانع الفخار، زعيم مقاتلي الصعيد، قُبيل الانفصال!

تقاطر الجنكـــــويز من كل مكان: جاءوا من ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء، ومن "القبل الأربعة".. جاءوا، يعزُّون أسرة الفقيد، ويلقون عليه نظرة الوداع الأخيرة، قُبيل أن يُقبر الثرى وإلى الأبد، وتنطوي معه أسوأ صفحات تاريخ البلاد الأسيرة!

أو هذا ما توهمه الأهالي، وهم يشيعون جثمانه باللعنات، التي كانوا يأملون أن يتقلب عليها كالجمر، داخل قبره كثيف الظُلمة، شديد البرودة والوحشة!

إذا كان مشروع العرّاب هُراء، إذن لماذا يصر هذا الفرنسي الغريب؛ في هذه اللحظة بالذّات التي مات فيها العرّاب، أن يحتفل بعيد ميلاد ابنته في أهرام البجراوية؛ ويقيم لها كل طقوس ديانة بائدة غامضة؟!

وإذا كان هُراء، عندما هُدمت أهرام البجراوية للمرّة الأولى، هل كان ذلك فعلًا بحثًا عن الذهب، الذي سال له لعاب الباشا الكبيــر، أم كان بحثًا عن شيء آخر، لا يعلمه مؤرخو البلاد الأسيرة؟

وتلك "المسلات" التي لا تكاد تخلو منها مدينة من مدن البلاد الأسيرة، حتى نصب الجندي المجهول في قلب المدينة الزّاهية، هل هو رمز لدين قديم انطوى كسر في جوف التاريخ؟

وتلك الحمّى؛ التي انتابت الحاكم الجنكويزي العام الأسبق، فأعلن نفسه إمامًا للقرن.. هل هي معزولة عن هدمه لمسلات حوش الخليفة؟ أم أنها "أم كواكية" نفسها في نسختها الأولى والثانية

بمقولاتها الغريبة: هل تتصل فعلًا بالروح العظيمة؟ أم أنها تخفي بين مقولات مقتفي الأثر والجماعة، ديانة قديمة انطوى عليها تاريخ البلاد الأسيرة؟

وما الذي أخفاه الجنكويزي الكبير حين قال:

"... وأخبرني الروح العظيمة بأنني المقدّس سِرّه وأخلفني بالجلوس على كرسيه مرارًا".

ما هو مسكوت هذا الكلام؟

وهل هذا الذي ظنه تشرشل هو ما حدث بالفعل، أن الرجل:

"وضع في قلوب قومه الروح والحياة، وحرّر بلاده من الحكم الأجنبي، إن بسطاء الناس الغلابة، الذين كانوا يعيشون شبه عُراة، وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة، فجأة وجدوا معنىً جديدًا للحياة، بعد أن استطاع أن يغرس في صدورهم الحس الوطني الجارف، والوازع الدّيني القوي"..

إذن لماذا وصفهم في الآن نفسه بأنهم: "أعداء الله؟!".. كيف يكون وازعهم الديني قوي، وفي الآن نفسه يناصبون الله العداء؟!

هل حقًّا الأمركان كما رآه تشرشل، أم كما رواه غردون :

"يجد المرء تسلية في تصور هذا المزيج العجيب، من البشر، الذي ير افق المقـــدّس سِـــرّه: أوروبيون قساوسة وراهبات، أغاريق وضباط نمساويون"..

أي نوعٍ من الأديان، هذا الذي يجمع ويوحد أديان مختلفة؟ ولماذا اضطرب المقدّس سِرّه وتلجلج لدى سماعه بمقتل غُردون، هل حقًّا كان جادًا في مقايضته بعُرابي؟ أم أن ثمّة ما هو أعمق من ذلك مشتركًا بينهما؟

ولماذا مات المقدَّس سِرُّه سريعًا بعد سقوط المدينة الزَّاهية؟ هل كان موته طبيعيًّا؟ أم أن مهمته انتهت فسُـــمِّم؟ ولماذا أمر كتشنر بعد استرداد المدينة الزّاهية، بإخراج بقايا المقدّس سِرّه من القبر العميق، في الغُرفة التي توفي بها، ثم أحرقها وفرّق رمادها في النيل!

هل كان ينتقم لغُردون باشـا، أم كان يؤدي طقوس ديانة قديمة كـــذلك الفرنســـي؟ وكيف ينتقم إذا أراد، من بريء! فهو يعلم أن المقدّس سِرّه كان أحرص على حياة غُردون؟

وهل قائد بقامة كتشنر، ينساق لانتقامٍ بهذا البؤس؟ وهو الغازي الذي يرغب في كسب ود هـــؤلاء الأهـــالي المســـاكين، أما كان الأحرى به الانتقام لهذا الشعب من الجنكويزي ود تورالجر الثاني؟

إذن بمـوت العـرّاب حفيـد المقـدّس سِـرّه كانـت فضـاءات الـبلاد الأسيرة تحتقن، وتنذر بأن ثمّة شيء ما.. يفصل بين عصرين سيحدث في أي لحظة!

¤¤¤

قُبيل الفجر بقليل، تقدم خاتم الدولة بجيشه من أبواب "كِليوّة" العاصمة التي أنهكتها "عسل الجنّة" كُبرى زوجات الملك الرّاحل، والتي كانت ترى أحقية ابنتها الفاتنة، بمُلك "كليوّة" خلفًا لأبيها، الأمر الذي لم يرقَ لأمراء الأسرة المالكة، الذين تدنفوا بعشقِ الأميرة ابنة الملك القتيل!

وعندما أدركت "عسل الجنة" أن ما ظلت تحلم به طوال عمرها، في أن تصبح ابنتها الملكة، هو أقرب لسرابٍ يحسبه الظَمآن ماء! أصابها الغبن الشديد فقررت الانتقام!

وهكذا أغرت أمراء ونبلاء كليوّة بأنها ستزوج الأميرة، لمن استقر المُلك بين يديه! فأخذوا يحيكون المؤامرات، ويدسون الدسائس ضد بعضهم البعض!

وفيما هم منشغلون بالصراع على الأميرة والمُلك، كان جواسيس "ختم الدولة" قد رفعوا إليه تقاريرهم، وهكذا اقتحمت جيوشه المدينة، من كل الاتجاهات.. تدمر وتحرق كل شيء في طريقها، لتصبح "كِليوّة" أرضًا محروقة! خالية من الحياة! لم يُبقِ فيها ختم الدولة على شيء!

فكل شيء أصبح أثرًا بعد عين: الكنائس، قصور المَلك والأمراء والنبلاء.. دُور الأهالي الغُبش.. أياقين العظيم ود دَبرق، تمثال الإله أبادماك وصقر الجديان، اللذان كانا يزينان معابد المدينة المحروقة.. شجرة الجُهنمية الحمراء التي بنى فيها طائر الجنَّة الملوَّن عشه!

وبعد أن أسر خاتم الدولة، الأميرات وبنات النبلاء، أمر جنده بإشعال النّار، في كل أركان المدينة! فانتشر حريق مهول، استمر لأيام يلتهم بألسنتهِ، التي لم يخف أوارها كل أثر: بقايا المعابد والكنائس والقصور.. الحدائق والبيوت والأسواق.. كل شيء تحوَّل إلى رماد؛ كأنه لم يكن حضارة، بكل مركبات عناصرها المتنوِّعة! ذات يوم!

انمحت "كِليوّة" من الوجود، وتحوّلت إلى رماد، فيما جيش خاتم الدولة قد غادر المدينة، ليعَسكر على مبعدة منها! وكانت كلما تضاءلت شعلة الحرائق، يأمر جنده بتغذّيتها من جديد!

بُعيد سقوط المدينة مباشرة، وفرار الناجين من أمرائها ونبلائها، وتفرقهم في جهات دار فازودار الريح والصعيد والسافل، أمر خاتم الدولة جنده بمطاردتهم واللحاق بهم، وألا يتركوا منهم أحدًا على قيد الحياة!

بعض الأهالي الذين أصابهم الرُّعب، لهول ما رأوا، أعلنوا تبنيهم الدين الجديد في الحال! والذين فروا في لحظات الهجوم الأولى، ناجين بجلودهم، تفرقوا في أصقاع البلاد الأسيرة، واختلَطوا بشعوبها، وبمرور الوقت لم يعد منهم، من يذكر اسم موطنه "كِليوّة" وأصله الفازي العريق إلا لمامًا، فقد اندفن داخلهم حنينهم للوطن القدّيم، وانحفر في وجدانهم نوع غريب من الأسى والشجن! وعندما تثور داخلهم لوعة الذكريات، يقسمون على بعضهم بكِليوّة فيقولون:

"أُقسم بكِليوّة القمربوبا، بلد الجد والحبوبة اللي يغطس الحجر، ويطفح الكركعوبة"..

ثم لا تفتأ ذكرياتهم تتراجع، أمام ضغط حاضر المنفى الذي يعيشونه، فيتراءى لهم أمل إعادة مجد أسلافهم يومًا ما.. في زمن ما، مستحيلًا تمامًا!

بعد مئات السنوات الشيء نفسه سيحدث لأحفادهم في دولة "تور الجر" الجنكويزي الثاني، إذ لن يكون غريبًا على الأهالي المناصرين لتور الجر قبل أن تدور بهم الدوائر، أن يتحوّلوا إلى مناوئين، يربطهم على "شِعَب" الأشجار الجافة، حتى أن العابرين يرْثون لحالهم ويسعون لإطعامهم خلسة من جنده، والدموع تسيل على خدودهم المتغضنة!

كان تور الجر يمعن في تعذيب بعضهم، بالجلد بأغصان الشوك حتى الموت، أو يضعهم في غرف ضيقة لا نوافذ لها، تُلقى عليهم العقارب داخلها، ويمنع عنهم الماء والأكل، إلى أن تنقطع تأوهاتهم وحشرجاتهم، ويوزع زوجاتهم وجواريهم على رجاله.

وكان جنده عندما يداهمون أحد قادة الدولة المغضوب عليهم، لا يعطونه الفرصة ليلبس "مركوبه" فيجرونه حافيًا، وفي طريقه إلى السجن يُضرب ويُدفع دفعًا، لا يأبهون لسقوطه.

كان تور الجر حاكمًا عامًا رهيبًا، صادر أقوات الأهالي وغلالهم لإطعام جيشه من الجنكويز، الأمر الذي دفع المزارعين للكف عن

الزراعة، فما لبثت أن أصيبت البلاد الأسيرة بمجاعة طاحنة، فبحث النّاس عن أي شيء يأكلونه، فأكلوا حتى الجلود الجافة وورق الشجر!

كما كان تورالجريحب التقليل من شأن رجاله، الذين لا يستلطفهم، ولا يجد قرينة ضدهم، كالأمير "أبوزنود" الذي كان كلما رآه يخاطبه بسخرية:

"انت يا أبوزنود هُوين أخوانك، لمتين بِتِدّسا من الموت".

وعندما انتقل أبوزنود من جواره إلى إحدى ضواحي المدينة الزّاهية، أرسل له أحد مساعديه يراقبه، فكان يسيء إليه كثيرًا، فقد عزله من قبل من الإقطاعية التي كان يحكمها، وأرسل أحد البغاث ليحل محله، كما عزله من سلاح النّار، وولى عليه أحد عبيده، و أبدل محصلِّي الضرائب بعبيده، أو من دفع له أكثر، فانتشرت السرقة والرّشوة في سائر البلاد الأسيرة.

وختم على حياة الأمير أبوزنود بالانتحار، بإرساله لغزو الدولة المجاورة أسفل النَّهر، في جيش قوامه ثلاثة آلاف من الأطفال والنساء، بدون مؤن! فشاهد من نجا أبوزنود يصاب بالدوّار بسبب الجوع والوّهن، بعد أن كبر للصلاة وجلس على الأرض.

يبدو أن تاريخ البلاد الأسيرة، منذ سقوط "كِليوّة" ظل يدور في حلقة جُهنميَّة، سريان الزّمن فيها ينطلق من النقطة نفسها، ليعود إليها مرّة أخرى، فيتشابه السلاطين والممالك والجنكويز والأهالي، فلا

فرق بين الملوك والخلفاء والحكام العامين، الذين تعاقبوا على حكم البلاد الأسِيرة!

تتبدى وجوههم جميعًا في فضاء الزنزانة، وكأنهم يُخرجون ألسنتهم لأهالي البلاد الأسـيرة، وهم يهزّون أذونهم كاطفالٍ أشقياء، لكن من نوعٍ خاص.. غير إنساني، لا يملك مشروعًا لكل النّاس، خبراته الموروثة.. كل خبراته في الهدم والقمع والنهب!

يبدون جميعهم في التعامل مع هذه البلاد كأنها ضيعة.. ملكية خاصة ورثوها عن آبائهم، ليس لأحد الحق في مشاركتهم خيراتها، فلا أحد من أهل البلاد الأسِيرة "مواطنًا" في هذا "الوطن" وكما قال أحد المقدّسة أسرارهم "نحن الملوك وهم الرّعية؟!" إذ تعني عبارته الشعب وليس الغُزاة.

¤¤¤

فيما كان ود دَبرق، يتأمل وقائع ما جرى، كانت عشوشة التي درجت على انتظاره طوال سنوات عمرها، تحس بوجوده القريب، الكائن فيها!

أبدًا لم يخب إحسَاسها بوجوده الطاغ حولها يومًا، ولكن ما من أحد في قبائل الطيور، كان يُعير انتباهًا لذلك، واليوم تأكد صدق إحسَاسها، فها هو ود دَبرق يشق عَباب الهواء بجناحيه!

منذ أسابيع كانت تسمع زقزقته تحملها الريّح، وهي تُلامس أهداب عشّها.. زقزقة حميمة كعادة ود دَبرق، تتخلّل القش، لتلقي على مسامعها أغنيات الشوق والحنين لجسْمها النحيل وعشّها الدافئ!

وفيما كانت هذه الخواطر تترى على بالها، وهو يحلق تجاهها، كانت ذاكرة ود دبرك لا تزال عالقة، في الأزمنة المتدّاخلة للوقائع والأحداث التي عاصرها، أو شهدها طوال حياته، وهو يكرر لنفسه:

"أنا ود دَبرك أُقسم بأبادَماك، أنني سمعت ورأيت كل شيء!"..

نعم رأيت وسمعت كل شيء، من موقعي حيثما أتلصص! من أعلى نو افذ القصر الملكي، أو غصن شجرة رامية بفروعها على نو افذ مقار العسس السرّي، أو تلك الكوَّات الصغيرة اليتيمة في زنازين المعتقلين، الذين "فنقست" بهم الدُّنيا، أو ذلك الرَّف في الغرفة السِرّية لمولانا الشيخ الهميم، أو في الفراغ بين السقف والجدران، حيث أضم حفيف جناحي على جسدي بهدوء، فلا يشعر بي أحد، أو.. انسرِبُ –كما أفعل دائمًا– بجسدي في هدوءٍ وأسمعَهم، يتجادلون.. ترتفع أصواتهم وتخفت، يتآمرون ويقتسمون الغنائم، ويخططون لمزيد من النّهب والقتل والتعذِّيب!

رأيت كل ذلك، ولطالما رويته لكم وَمخالبي الصغيرة تتشبث بسلك الكهرباء، أو بين فتحاتِ عمود النّور، أو الخشبة البارّزة من الفرندة، أو نو افذ بوفيهات الصحف.

حكيت لكم كشاهد عيان و أنا أزقزق على حبل الغسيل، أو شجرة الليمون، لكنكم لم تأبهوا! بل عمد أطفالكم إلى رميي بالنبال! لم تفهموا ما أقول! لم تتركوا لي ما أقول!

نفض "ود دَبرك" من رأسه هذه الخواطر التي لا تفارقه، واستل جسده النحيل من جسد "عشوشة"، الممددة تحته في نعومة ريشها، بعد أن ارتخت أعصابهما وهمدت، وحلق كطائر البلدة القديمة الخالد وهو ينسلخ، موخوزًا بأشواكِ شجرة الجُهنميّة الحمراء، التي نمت محل شجرة (اللعوت) سيئة الرّائحة، تلك التي صُلب على فروعها (صانع الفخار) الأول وأحفاده عصرًا إثر عصر، وحلَّق مثله، يقطر من رِّيشه الدّم، ومن عينيه الدموع!

في غياب ود دَبرك الطويل، كانت أيام عشوشة تمضي على وتيرة واحدة، لا شيء سوى البحث عن قوت لفراخها، الذين لا تتذكر آباءهم العديدين!

لكن ربما تتذكر بعضهم لمامًا، فهي رسميًا زوجة ود دبرك، الذي لا تعرف ماذا يفعل في غيبته الطويلة، ربما حط رحاله الآن في بلاد الثلوج أو عند غابات الاستواء، يضاجع ما يحلو له من عصافير البلاد الباردة أو الدافئة!

فود دَبرق الذي تعرفه، يتمتع بذوق بائس، لا فرق عنده بين حسناوات العصافير وبغاثها، فهو يؤمن بحكمة الطيور المأثورة "الفحل لا يعاف!" والأمر كذلك، لا يضيرها أن تشبع رغباتها مع

الطيـور المهـاجرة والنازحـة مـن آن لآخـر، وتنشـغل برعايـة بيضـها، وإطعام صغارها زُغب الحواصل، وتعليمهم الخُطوات الأولى في القفز والطيران، وتقنيات الإفلات من صائدي العصافير!

ومع ذلـك لـم تكن كل هـذه الانشـغالات، بكافيـة لأن تطرد ذلـك الإحسـاس الألـيم، الـذي كان يتملكهـا شـوقًا لجنـاحي ود دَبـرك، الـذي ليس كمثل فحولته فحولة، بين أجناس العصافير قاطبة، في مشارق الأرض ومغاربها!

لاحق ود دَبـرك لاهثًا، لحظة غـامضـة؛ يتفلـت ضـياؤها داخِلـه، فيـومِض وينطفئ كإشـارات "مـورس" ترسـل رسـائل بعيـدة؛ إلى عـالمٍ آخـر مُشـتهىً، أو كأضـواءِ فنـارات البحـر الملـوَّن، في الليـالي موغلـة الحُلكة.

في مثل هـذه اللحظات الرَّاجفة، التي ينهد فيها حيله، يحـدث لـه ما يشبه الكشف! تسلّلت سمعه زقزقة عشوشة في شغفٍ:

"اشتقت إليك كثيرًا يا حبيبي".

فرد بصوت متهدّج:

"و أنا كذلك، اشتقت إليك كثيرًا يا حبيبتي".

"أين كنت كل هذا الوقت؟!".

"سـافرت مع الطيور المهاجرة، اكتشـف عوالمَ جديدة".

"أما أنا؛ ظللت انتظرك في عُشِّ البيت القديم".

ثم غـرَّدت ضـاحكةً ضحكتها العذبـة ذاتهـا، التي لا تُخطئهـا مسامعه، كانت فَرِحة بعودته بعد غيابٍ طويل! فأخذت تتأمل وجهه الصغير، وقد انعكست على منقارها خيوط أشعة الشفق الهادئة:

"ود دبرك، هل ستتزوج مرَّة أخرى كعادتك، بعد رحيلي أم أنني آخر زوجاتك؟".

"لم أفكر بذلك مطلقًا".

"حسنًا، فكر به الآن".

"الآن؟ لماذا الآن بالذَّات؟!".

"لأنني أريد أن أعرف ذلك الآن".

"حسنًا، إن أقسمت لـك على أي إجابـة فلـن تُصدقينني، لـن تصدقي سوى الإجابة التي تتوقعينها سلفًا".

"إذن، هل ستحبها كما أحببتني".

"ربما تكون مختلفة عنك، فالطيور لا تتشابه".

لَمْ يخالج عشوشة أدنى شك، أن في حياة ود دبرك المديدة، الكثير من العصفورات اللاتي مررن دون أن تخلفن أثرًا، وربما خلفن

أثرًا، لم تستطع حاستها الأُنثوية استشفَافه، لقدرة ود دبرك البارعة على إخفاء كل أثر لعلاقاته المتعددة!

كما لم يخالجها الشَّك بأنها الوحيدة، من دون كل العصفورات اللاتي عرفهن، عمَّرت معه لعقود طويلة، فقد سمعت عن حبيباته وزوجاته السابقات، الكثير من الحكايا، لذلك عندما تزن حكاياتهن جميعًا مع حكايتها معه، ترجح كفتها!

كانت عشوشَة قد وُلدت على عهد الاحتلال الأول، الذي أصبحت مُنذه البلاد الكبيرة أسِيرة، يتغير الحكام واحدًا تلو الآخر، لكن يبقى الاستبداد والنّهب والظلم والفقر نفسه، فتمضي البلاد الأسِيرة من السيئ إلى الأسوأ.

منذ تعلمت الطيران في طفولتها الباكرة، لم تعد تعتمد على أمها في طعامها، أخذت تطير وحدها تبحث عن حبات الذرة المتساقطة أمام الطواحين، أو زرائب العيش، أو المزارع في ضواحي البلدة القديمة، حيث التقت ود دَبرك لأول مرّة، راكًا على قندول عيش لم ينضج بعد، تبادلا التحايا!

ويومًا بعد يوم أصبح بمثابة أب روحي لها! علمها الكثير مما تحتاجه للنجاة بنفسها في هذه البلاد العرضة للمجاعات من وقتٍ لآخر.. علمها ود دَبرك الادِّخار، ورغم أنه كان يكبُرها بمئاتِ السنوات، إلا أنها تزوجته، ومنحا معًا للحياة كثير من العصافير، التي تفرقت في أنحاء البلاد الأسِيرة، فيما هاجر بعضها في قِبَل الدنيا الأربعة.

بعض عصافيرها زُغب الحواصل، اختطفتهم نبال الأطفال الأشقياء، وبعضها قضى نحبه بالمرض، فيما هددت النسور في المواسم القاحلة بعضهم.

لكن كل ذلك لم يكن يُحزنها، مثلما كان يُحزنها اصطياد أولئك الشبان الذين هاجر أسلافهم من غرب إفريقيا إلى هذه البلاد، فامتَهنوا صيد السمك والطيور!

فهي إن تنسَ لا تنسى كيف بيع عشرة من عصافيرها الجميلة، لأطفالٍ أشقياء بلا قلب!

لقد شهدت عشوشة في سنواه للبلدة القديمة على جثث البغاة البيض وجيوش المستعمِرين المحلّيين الجُدد بعد الجلاء، وهي تجتاح الصعيد ودار الرّيح! ولطالما رفعت يديها إلى السماء، تسأل الروح العظيمة عتق صغارها المسترقّين في الأقفاص.

تسحبت الشمس، وغطّت بأشعتها الشاحبة، أسطح البيوت الواطئة، وبدأت تنحسر عن الأزِّقة الملتوية، الصاعدة إلى أعلى البلدة، والمنحدرة إلى أسفلها جهة النّهر "الجاسر".

لم تكن بعيدة، هي المسافة الفاصلة، بين مسكن ود دبرك والعُش القديم، حيث كان يلتقي عشوشة خلسةً، من عيونِ العوازل قُبيل هجرته!

حلّق يشق أجواءِ البلدة القديمة الموحشة، ببيوتها المظلمة، المبنية من الطوب الأخضر والأحمر المحروق، وطوب الأسمنت البلوك، و أبوابها المصنوعة من الصفيح والحديد والزِّنك، وخشب السنط، وأشجارها غير المتناسقة، وشوارعها التي تآكل رصفها الأسفلتي، منذ أزمان بعيدة، ودروبها وطرقاتها المتربة، التي تعج بالمستنقعات، وحيشانها وحيطانها، التي تفوح بر ائحة الرَّوث والبَول والبعر والعرق، ومخلفات البشر، والدّجاج، والحمام، والكلاب والقطط!

كانت البلدة القديمة، أشبه بلوحةٍ قذرة تُجسد فوضى معمارية، تتداخل فيها أمزجة المستعمِرين، والسكان المحليين المستعمَرين، وأذو اقهم، وتنبعث منها رو ائح غريبة، لا تطاق! تداخلت في تخطيطها ومعمارها وأشجارها، أزمنة غابرة مع أزمنة معاصرة، وأزمنة لم تأتِ بعد، ومناخات وبيئات ورو ائح متنافرة، وكل شيء فيها كان بقدر ما هو مثير للمخاوف والظنون، كان في الآن نفسه مثيرًا للأحزان والشفقة!

البلدة القديمة، بلدة يخنقها الخوف والأوساخ، تحلّق في الفضاءات التي تحيط، ببيوتها فتشعر بالانحناء والاختناق، وتداهمَك مشاعر مضطربة، ومختلطة لا هُوية محددة لها!

عند بداية الشارع الرَّئيس لاح لود دَبرك مبنى الكنيسة، الذي تسكن عشوشة في سقف البيت القدّيم خلفه! مبنى كبير من الطوب الأحمر المحروق، ينتصب بين أشجار النِّيم المتفرقة بمهابة، ولكن

كئيبًا وموحشًا! ربما أن شكله التاريخي الغامض، كان هو ما يُسرِّب إلى النفس، ذلك الإحساس بالهيبة والهواجس والظُّنُون، ويدفع بود دبرك للغناء (ببوحٍ) حزين!

كان مبنى الكنيسة، ينهض وسط مساحة كبيرّة من الأرض، مطلًا على الشارع الرَّئيس، الذي يقسم البلدة نصفين، تمتد خلفه الجروف، التي كانت الكنيسة تعتمد على الخضروات، التي تزرعها فيها اعتمادًا كبيرًا، إذ تُطعم منها القساوسة والرّهبان والفقراء.

لم تكن الكنيسة تؤجر عمالًا لزراعة جروفِها، والاعتناءِ بها، أو لحصادِ خضرواتِها وبَطيخها وشمامها، إذْ كان الرّهبان والرّاهبات، هم من يقومون بذلك!

مبنى الكنيسة من الدَّاخل، تغطت كل جدرانه، بالنقوش الملوَّنة، التي تعود لعصور "كِليوَّة" الزَّاهرة، والتي كانت تُعطي انطباعًا قويًّا، أنها بُنيت؛ بنيَّةِ أن تكون أي شيء آخر، عدا الانتماء لدينٍ محدّد!

ومن الخارج كان أثر النيران على المبنى واضحًا، إذ يبدو أن ثمَّة محاولات لإحراقه، تمّت أكثر من مرّة.. وما يلفت النظر، أن ثمّة نوعٍ غريب من أشجار الجُهنمية الحمراء، ينمو بطول سور الكنيسة.. بعض الأهالي ترسخت داخلهم قناعة تامة، أن وردة الجُهنمية الحمراء، أخذت لونها من دّمِ المسيح، فهم ليس لديهم أدنى شك، أن "حُوار" المسيح الذي أقنع "الكنداكة" بتبني "المسيحية" قُبيل

مغادرتـه عائـدًا إلى "أورشـليم" كـان قـد أحضـر معـه شـيئًا مـن دمٍ محفوظ للمسيح بطريقة معينة، ودفنه هنا ليلوّنِ هذه الشجرة، التي عُثر تحتها قبل أسابيع قليلة، على جُمجمة لم يُعرف لها نوع أو صاحب، أثناء محاولة أحد القساوسة حفر حوض جرجير حولها!

ولم يستطع أحد تفسير وجود هذه الجُمجمة هنا بالذّات! مع أنه لو كانت قد وجدت في أي مكان آخر، كان السؤال نفسه سيكون قائمًا:

"لماذا هنا بالذّات؟".

ومع ذلك شجرة الجُهنمية الحمراء، التي ترمي بأغصانها على حلق باب السنط الكبير، الذي هو المدخل الوحيد للكنيسة، للمفارقة وعلى عكس عادة (صقور الجَديان) بنى طائر البلدة القديمة الخالد، عشَّه في قلبها! وأشاع الأهالي عنه، أنه يحرس قطرات دم المسيح، التي في الوقت ذاته، تمد تراب الجُهنمية، بالخصوبة، وتحميها من الديدان والحشرات الضارة بالجذور!

تخطى (ود دَبرق) في طيرانهِ مبنى الكنيسة، كان الطريق العام، لا يزال مبتلًا، لم تتمكن شمس شهر مسري -أغسطس- الجارحة بعد، من تجفيف البرك والمستنقعات الصغيرة، التي تناثرت على مداه!

وجوه متفرقة هنا وهناك، لمارة أنهكتهم ضغوط الحياة.. نَقر على مدخل العش مُصَوْصِوًا بتوتر، فأطلّت عشوشة، في كامل بهاء

مخالبها المُحناة، وريشها المغسول، الذي تفوح منه رائحة الأقحوان البرّي، التي تشبه رائحة الكافور.

عندما يحلق حول الكنيسة، تترى على خواطره كشريط سينمائي وقائع وأحداث ما جرى، فلطالما رأى ود دَبرك في حياته العامرة بالوقائع والأحداث كثيرون، يتبخترون في الأرض تيهًا، لا يدرون أنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا.

كان يراهم دائمًا كمن يسيرون على شفا وادٍ عميق مغمضي العيون، تختَطفهم الأقدار أو تذلهم فجأة، فيسقطون من عليائهم، ليدركوا لأول مرّة في حياتهم "كم هم بؤساء!"..

ومن ثم تحوم زوابع الأمراض المنقرضة حولهم، عندها فقط يتذكرون "الرّوح العظيمة" التي كانوا قد ألقوا بها في غياهب النسيان، فيذهبون للعلاج في الأردن، ليصبحوا قادرين على العمرة والحج و انتظار الخاتمة التي تترصدهم!

حدّق بوجه عشوشة، كان واضحًا له أنها كعهده بها، تعتني بمخالبها وريشها ومنقارِها عنايةً فائقة!

تقدّم منها في شوق حارق، واحتضنها بجناحيه، وشعر بخدرٍ، كدبيب النّمل في المسام، يتسلل خلاياه، خليّة خليّة، يطلق فيه نارًا لا أول أو آخر لها!

كانت الشمس قد شارفت على المغيب، بعينيه اللتين تدفقت منهما شهوة عارمة، أخذ يتخلل بمنقاره، ريش عشوشة، يتحسس جسمها المتناسق، المتفجر بالحياة.

رغم مرور السنوات، لا يزال حبهما يزداد عنفوانًا، ولا تزال كما لحظة رآها أول مرة، عصفورة رشيقة، يفوح منها مزيج الأقحوان والقِمبيل والرَّيحان البرِّي، القوي..

عشوشة حبه المميز، التي اصطفته هو وحده، من بين زحام آلافِ العشاق، من عصافير الحسون والكنارىٰ والعندليب والبلابل، الذين تغزلوا فيها جميعًا بأعذب التغريدات دنفًا بعشقها، حتى طارت شهرة غزَلياتهم في الآفاق، تتخطىٰ حدود البلاد الأسيرة، لتصل مسامع النّوارس في البحر الملوَّن، فتحملها في رحلتي الشتاء والصيف، عبر السواحل والخلجان، إلى الشرق الأقصى وسيبيريا، لتغردها مع البطريق لأولئك "السانات" المجتمعون تحت سقوف "الدوما والكرملين" من بلاشفة السمّان، ومناشفة الكساندرين، وطيور البلابل والحجل، والحدأة.. والعصفور الهندي وعصفور السنونو والطاووس والقطا، وكل سدنة النظام القيصري القديم! الذين يتعانقون، اثنين اثنين! يبحثون في أصولهم المنبتة!

ثم تطير، لتصدح بها على أسقف المباني المحيطة بميدان تيان منة، والساحة الحمراء، "للرّاستات" المنشقين من طيور القبرة والقطقَاط واللَّغد، وفلول نظام الأسر الصينية البائد من قنبرة، وكوكال ولقلق وواق، ويمام، وبقايا الأسر الامبراطورية القديمة، التي

تسعى بجدٍ لتقويض الثورة الثقافية، يقودها طائر الوروار، وَدجاج الأدغال، وحمام الصين العظيم، "وأسياد الرّصة والمنصة" من دهاقنةِ أسرة وقواق، وغرنوق، المتحدرَتين من صلب الطيور المقدّسة التي كان يقتنيها آل بوربون، والتي ألهمت كيم إيل سونغ، وكاسترو وَسانكارا العناية بالفلاحين الفقراء والحياة البرية، نكايةً في الاقطاع الأوروبي ومارتن لوثر معًا!

جميعهم هؤلاء وأولئك، يوحدون أصواتهم في تغريدة واحدة "و اقفة قنا"، تشق فضاءات سيبيريا وغو انتاناموومنفى ومعتقلات الشرق الأوسط الكبير، لتتلقفَها في عبورها إلى أفريقيا طيور الببغاء، والباز، والباشق، والأوزوالبومَة والنّسرونقار الخشب، المتواطئون مع الجنكويزوبوكو حرام، وجيش الرَّب وألوية كامبوني.

وفيما تر اقب طيور الكاريبي الموقف بتحفظ وتوتر شديدين، تأتي طيور "القِبَل الأربعة" تخطب ود عشوشة، التي لا تأبه لهم، وتفرد جناحيها لتمنحه هوود دَبرك – شخصيًا، وحده لا شريك له، وإلى الأبد قلبها اليانع، النّديان في هذه البلدة الضائعة!

"اشتقت إليك كثيرًا".

قال ود دَبرك وهو يكاد يعتصرها بين جناحيه، وينسى إرهاق رحلته الطويلة، والجُمجمة والبلدة القديمة وكل شيء!

كعادته، يستيقظ ود دبرك في الصباح الباكر، قبل أن تنشر الشمس جدائلها، فيندفع مزقزقًا في أرجاء البلدة القديمة، شاقًا

الهواء بجناحيه.. يركو هنا وهناك، إلى أن تتسحَّب خيوط الشمس إلى مر اقدها، خلف الأفق الغامض، تمهد لـ الليل كي يُلقي بكلكله.

في الخريف يخلد إلى "وكنته" فكل شيء في البلدة عندها، يصبح مبتلًا، فالبلدَة القديمة كغيرها من مدن البلاد الأسيرة، تخلو من المجاري، تعاني سوء التصريف..

تركد المياه، وتتزاحم جيوش الباعوض والذباب تنهش أجساد الأهالي، وتفوح الروائح العطنة تحقن رئة البلدة، ويصاب الناس بنوع غريب من الاكتئاب خريفًا، فلا تستعيد البلدة القديمة حيويتها إلا مع مقدم الصيف، حين تجفف أشعة الشمس البرك، وتتراجع جحافل النّاموس والذُّباب.

كانت أيامه لا تخلو من لهوٍ ومرح، وهو يعبث بأطفال البشر فيجعلهم يطاردونه بنبالهم، تلك اللحظات تبعث في نفسه السرور، رغم ما يصيبه من إنهاك الكر والفر.

تنهد ود دبرق بوجه عشوشة في أسى:

من كوَّة نافذة الزنزانة كنت أسمع حكايا المريود للسجين الآخر.. كان هذا في الزَّمن الذي كنت أتنقل فيه بكثرة، بين كوَّات زنازين العسس ومكاتبهم، وهذا يعني أننا كنا في مطلع القرن الجديد!

وقتها لم أكن قد قررت بعد مغادرة البلاد الأسِيرة، إذ كنت لا أزال مغرمًا بك.. كنت تشدِّينني إلى هذه الأرض، كأنك لا تزالين تلك الآنسة "عشوشة" التي التقيتها لأول مرَّة في زمان غابر!

لقد وُلدت محرومًا من الأبوين، فقد ماتت والدتي عشوشة الكبرى، ووالدي ود دبرك الثالث عشر، في وقتٍ مبكر من سنين حياتي الأولى، وتركاني وحيدًا تعصف بي الأنواء، لا ملجأ لي سوى قلب شجرة القمبيل العجوز، في قلب دار الرِّيح، حيث آوي إلى عشي الذي بنيته من القش والورتاب بين أغصانها العتيقة المتكاثفة، التي تفيد الروايات السرِّية، أنها الشجرة نفسها، التي وُلد تحتها سيدنا يسوع! وهزَّت والدته أغصانها، ليساقط القمبيل رطباً جنيًّا، وهي رواية قطعًا تتعارض مع الرِّواية المعلنة عن شجرة النخيل، التي من المستحيل أن تنمو في هذا الجزء من جغرافيا العالم ومناخه المشبع بالرطوبة والصدأ!

وبالطبع وقتئذ لم يكن هناك من يقلق لطيراني في ساعةٍ كهذه أو يرتاب فيه، وحتى لو تم رميي بحصاةٍ، "وفرفرت" وفصل ود السُّرَّة رأسي عن جسدي وذبحني الأطفال المجرمين، وشووني وأكلوني، أو حتى ألقوا بجُثتي الضئيلة لكلبِ حاجة السُّرَّة! فعلى الأرجح لن يلاحظ ذلك أحد! فجميعهم ابتداءً لا يلاحظون وجودي!

على الدوام منذ تفتحت عيناي على هذه الدنيا، كانت مشكلتي مع الأطفال، الذين لطالما اعتقدت أنهم أوغاد، لا ضمير لهم، فلطالما

"ناشوني" بنبالهم، ونجوت بأُعجوبة من حصاة مرقت مروق السهم من الرَّمية! وكادت تحطم جناحي الواهنين!

أنفقت الجزء الأكبر من خبرتي في الحياة، محاصرًا بحشود هؤلاء الأشقياء الصغار، المسكونين بالخوف والهواجس والظُّنُون، نتيجة العنف المنزلي، الذي يفرغونه في اصطياد بني جنسي، تارةً بالنبال المصنوعة من اللستك الداخلي للدرَّاجات، وتارةً بالشراك المنسوجة من شعور ذيول الخيول الهرمة، أو العصب الذي يصنع منه صيادين السمك شباكهم.

هؤلاء الأطفال الملاعين يختلفون عن أطفال بني جنسي من عصافير وزرازير أو دوري، كما يحب الشعراء البائسين تسميتنا! فهذه الأسماء الثلاثة هي اسم للكائن نفسه، الذي هو أنا (ود دَبرك)، وربما تكون هناك أسماء أُخرى، يطلقها عليَّ النّاس في قِبَل "الأرض الأربعة".

فمن دون عصافير كثيرة، أنا الطائر المنزلي والبري الوحيد، الأكثر انتشارًا في هذا العالم الحزين!

فأقَاربي وعائلتي الممتدة يعيشون من المحيط إلى المحيط، ومن الصّحراء إلى الصّحراءِ، ومن الغابة إلىٰ الغابة ومن النهر إلى النَّهر، يمكنك أن تجدنا في كل قارات الدنيا، عدا قارة "أنتاركتيكا" الباردة، وذلك لأننا جينيًا نميل لمجاورة البشر، والسُكنى معهم في دورهم، إذ نبني أعشاشنا في الفراغات الصغيرة بين السقف والجدار، أو في قلب الأشجار المنزلية.

وجينيًا أيضًا، بنو جنسي لا يستنكفون السُكنى في بيوت القش أو القصـــور.. بيـــوت الجـــالوص أو أي فجـــوة داخـــل غـــرف البيـــوت "وروا كِيها وكشاشَاتها"، فنحن بمثابة أهم رموز التواضع والمساواة، في ثقافات العديد من دول العالم.

هـا أنـا الآن في آخريـات أيـامي بعـد عمرٍ مديـد، في كل جـزءٍ مـن جسمي أثر لحصاةٍ قاتلة، تمكنت من تفاديها بأعجوبة، أو أثر لشركٍ من شعر ذيل حصان -سبيب- قاطع تخلصت منه بنضالٍ مستميت، فخلف ندوبًا بارزة على قدمي وساقي، فشل الزّمن في مداواتهما.

و أنـا في هـذه السـن الطاعنـة الطاعمّـة في التـاريخ، اتأمـل في قيلولاتِي الأخيرة، أعدادنا التي في تراجعٍ مستمر! في شتى أنحاء الأرض، وبـوتيرة متسـارعة في بعـض البلـدان البـاردة، التي بلغـت بها الغبطـة أشدها، وهي تمتع بصرها برؤية رفرفة أجنِحتي في محلٍ لبيع الطيور، أو في منزل أو داخـل أجَمَـة، أو في قفـص معلـق على شجرةٍ، أو عنـدما يرونني "راكٍ" فـوق أحـد حـواف أسـطح المنـازل، أو أسـرح وأمـرح في إحدى البرك، لاهيًا بنثر قطرات الماء حولي!

منـذ وقـت لـيس بعيـد، بـدأ فضـول البشـر حـولي يتنـامى، إذ اكتشفوا فجأة للمرَّة الأولى، أنهم لا يملكون معلومات كافية عنِّي، مع أنني الطـائر الـذي يكاد يكـون الوحيد، الـذي جـاورهم منـذ الأزل! لقـد انتبهـو فجـأة أن معلومـاتهم حـولي شحيحة شح (فـأر المسـيد)، بشـأن التـاريخ التطـورِي لبني جنسـي مـن (سـلالة ود دبرك العظـيم).. الـذي

لطالما اعتقد البشر في كل أنحاء العالم، أنه بمثابة الأيقونة المقدّسة، لجلب الرَّاحة والسكينة.

فالعالم الجديد الذي اكتشفه كولومبوس مثلًا، مثلما ظل وطنًا بديلًا و افتراضيًا لبني البشر، كان لبني جِنسي من الطيور حظهم في الهجرَّة إليه، وفي الحقيقة لم نهاجر إليه كالغُزَّاة الأوروبيين، بل استجبنا لدعوات أقاربنا، في غابات وأنهار الهنود الحمر، هذا كل شيء!

ومن مفَارقاتنا كعصافير دوري، حمل أقاربنا هناك اسم قبائل الهنود الأساسية، التي يتواجدون في غاباتها، كزرزور الشيروكي، ودوري النافاهو، عصفور التشُوكتاو، وهكذا الأمر نفسه مع زرازير تشيلي، اباتشي، القدم السوداء، والسو.

ولربما يُدهش البشر الجهلاء، إذا علموا أن قبائل ود دبرك في غابات الهنود الحمر، تحمل سماتهم في الذكاء والحكمة والصفاء الرّوحي والشجاعة والإقدام، ولذلك بإمكان ود دَبرك أباتشي أن يهزم نسرًا جبليًا ضاريًا، بالسهولة نفسها التي يلتقط بها دودة ماكرة تنزلق بين مسام الطين!

وفي الحقيقة دونًا عن كل الهجرات العظيمة، كانت رحلة بعضنا من المخَلفين، الذين تأخروا في تلبية دعوة أقاربنا، في غابات الهنود الحمر، مماثلة لرحلات العبيد الذين رّست بهم سفن النخاسة على موانئ الساحل الشرقي للأطلسي الرهيب!

ولأكون أكثر دقة فإن المسؤول عن جلبهم بتلك الطريقة المهينة، هو ذلك النخاس الشهير "يوجين شِيفيلين" الذي استمد وليام شكسبير منه، أسماء كل الطيور، التي استعان بأحزانها في مسرحياته السايكوباتية الدَّامية!

هذا المدعو يوجين، ليس سوى النخاس نفسه المهووس باسترقاق كل طيور العالم الواسع، وجلبها لزرعها في العالم الجديد، الذي ادعى المأفونَان كولومبس وفاسبوتشي اكتشافه!

ومما هو مثير للدّهشة زعم "مارك رافينيت"، العالم المتخصص في أبحاث تطور الكائنات الحيّة، في جامعة أوسلو، أن تطورنا كأبناء ود دَبرك، لم يُعالج بشكل صحيح!

وانطلاقا من اسم "باسَر دوميسْتيكوس" الذي أطلقه علينا أمثاله، لاعطاءِ سلالتنا صبغة علمية منذ الملحد سيئ السمعة "داروين" وصولًا إلى آخر عالم أحياء يهودي من معاصريه، ظن هؤلاء وأولئك أنهم قتلونا بحثًا!

ويتوجب هنا أن لا ننسى المثقفين والإنسانيين وذوي الاهتمامات التراثية، الذين ظلوا يكرِّسون بني جنسي كرمز غامض، أينما يمَّموا وجوههم مشرقًا ومغربًا!

وما هو محزن حقًّا، هو ما لوحظ من تراجع لأعدَادنا، لدرجة التهديد بالانقراض، خاصة مع تزايد نشاط أطفال العالم الفقير الأشقياء في اصطِيادنا.

فهم خلافًا لأطفال العالم الغني ومتوسط الحال، حُرموا من مباهج كثيرة، كالتي يمنحها الكمبيوتر، وقبائله المختلفة من جنس التابلت والآيباد... وهلُمَّجرًّا.

فالفقر المدقع لأطفال كأطفال هذا البلد الجنكويزي الحزين، يحصر مباهجَهم في اصطِيادنا، دون رحمة، على سبيل إزجاء الوقت والتسلية!

صديقنا مارك ر افينيت في أبحاثه الأخيرة التي واظبت دورية "ذا رويال سوسيتي"، على نشرها، سلط الضوء بشكل مركز على تاريخ تطوّر وتكيف بنية جنسنا، أحفاد ود دَبرك العظيم، وكان ر افينيْت قد خَلُصَ في البحث الذي أجراه بهذا الصدد إلى نتيجتيْن مدهشتيْن، الأولى: أن السبب في تأقلم وتكيُّف أحفاد ود دَبرك العظيم على العيش بجانب البشر، يتمثل في الارتباط الذي استمر بينهما عبر الزّمن.

فمنذ غادر جزء من أسلافنا موطنهم الأصلي "إفريقيا"، إلى أوروبا الفيكتورية، أخذ الفيكتوريُّون الأنجلوساكسون المتفائلون، وخصوصًا أولئك المنحدرين من الفايكنغ الأشرار، ينظرون إلينا بقنزحتهم المعتادة، كأياقين تشعر بأنها لا تزال في موطنها الدافئ، رغم البرودة التي تكتنف كل شيء في الجزيرة البريطانية الكئيبة!

وذلك لأنهم استرَقُّونا، ووضعونَا في أقفاص الزّينة، بعد أن بعثت رفقتنا لهم في الحدائق السرور، وفي الحقيقة تجوالنا في حدائقهم في

مبدأ هجرتنا، لم يكن لرفقتِهم أو بعث السرور إلىٰ نفوسهم المعذّبة، و إنما لأننا كنا ككل المهاجرين، مجرد لاجئين مشردين، يبحثون عن المأوى والقوت والأمان! لا أكثر ولا أقل!

فالرّغبات الأخرى تأتي بعد ذلك عادة، والحق يقال فقد طاب لنا المقام، نظرًا لتعرفنا على طيورهم الحسناوات حسنة التغذية، المختلفات عن طيورنا الغبشاء الشاحبة! وصحيح أننا لسنا بوسامة عصافيرهم الذكور، إلا أن فُحولتنا دفعت حَسناواتهم المكتنزات، أن يغرمن بنا حتى نسينا الأهل والأوطان!

رغم أن الجنكويز الخبثاء، أخذوا يسربون نوعًا من التفكير الموسوس، يصورنا نحن أحفاد ود دبَرك العظيم المهاجرين، كعملاء ضد أوطانهم المستعمَرة!

الحقيقة الأساسية أننا انتشرنا بانتشار الزراعة، بالتالي الحضارة، وذلك لأننا طيور مدنية بالأساس!

وللمفارَقة عندما أجرى ر افِينيت مقارنة للحمض النووي لنا كود دبرق منزلي، مع أقاربنا البرية تأكد له تمامًا بما لا يدع مجالًا لأي شك، أننا المنزليون شعب مدني، تأقلم وتكيُّف على العيش جنبًا إلىٰ جنب مع البشر، بسبب الارتباط الذي استمر بيننا عبر الزّمن.

ففي أمسية باردة حالكة الظُلمة، جلس ر افِينيت خلالها في مكتبه، ليبدأ تحليل هذا الأمر، فوجد أن هناك جينَين "مورثَيْن" مختلفَين، وبعد بحث مضنٍ أدرك أن الجين الأول، يلعب دورًا في

تحديد شكل الجمجمة وهيئتها وبنيتها ومظهرها الخارجي، وهو ما رفع من ترمومتر حماسته للمضي قُدُمًا في التعرُّف على الجين الثاني بمجرد رؤيته، لأنه جين موجود في الكلاب والبشر!

وهذا يعني أننا والبشر والكلاب أقارب بحكم الجينات المشتركة! وهذا يفسر تكيفنا والبشر والكلاب، مع النظام الغذائي النشوي.

هذه المعلومات الجديدة عن أصولنا، عندما نقلناها إلى أقاربنا في إفريقيا، أثارت بلبلة في قبائل وبطون و أفخاذ وعشائر ود دَبرك، وجعلتهم يَستعيدون التفكير في نمطنا الغذائي، وهم مستاءون من علاقتهم المكتشفة بالبشر!

فغالبية أحفاد ود دَبرك العظيم، تتغذى على الحشرات عندما تكون في فترة رعاية صغارها، كالانسان في ميله لأكل حشرة الجراد!

وتميل للتغذّي على الحبوب طوال العام، باستثناء فترة التكاثر.. ومن هذا المنظور، ربما يكون تطوّر جماجمنا مرتبطًا بتحولٍ في النظام الغذائي ليصبح مؤلفًا من الحبوب، التي تنمو في الأرّاضي الزراعية، وهكذا يرجح صديقنا ر افينيت أن الشكل الذي تتخذه جماجمنا، ما هو إلا "تو افق" مع طبيعة التغذية.

وهكذا، أقاربنا في إفريقيا لا يزالون منشغلين بالتفكير على نحوٍ مختلفٍ، في بنية جنسنا كعصافير، وقرَابتنا بالبشر والكلاب! خصوصا سلالتنا المتحدرة من ود دبرك العظيم، آخر أحفاد طائر الجنَّة المقدّس، الذي هبط مع أبو البشر آدم، وكان أنيسه وجليسه

قبل عثوره على حواء، وتجاهل آدم وجوده بعد ذلك، كما يحدث اليوم معنا من جيرانا البشر، الذين نَساكنهم المنازل!

ولأن جدنا هبط مع آدم، تجد جنسنا شائع الوجود ومألوف بشدةٍ، في الديانات والتاريخ البشري، والذي ربما يرى البعض الآن أحد أبناء جنسنا، في هذه اللحظة خارج نافذته، وربما أن ذلك سيدفعه، للتأمل في الكيفية التي يتشابك بها تاريخ تطور أقاربه، من بني جنسنا بشكل وثيق للغاية!

إن إحساسنا بهموم البشر فائق الشفافية، وربما لذلك أجد نفسي مدفوعًا دفعًا للإطلال من نافذة تلك الزنزانة، على أولئك السجناء أُغرد لهم، علَّمني أُسرِّي عنهم بعض الشيء، في محنتهم الجنكويزية القاسية!

¤¤¤

أخبرته "هيلدا"، أنه بالكشف الآثاري على الجُمجمة، المزيج من جُمجمة ود دبرق وكلب وإنسان قديم، عثر الآثاريون "البِيض" على ذرَّات فَضيّة دقيقة تحشو الأضراسِ السُفلىٰ.

عُلماء "معهد جار النبي جـــــارو"، الذِّين عثروا من قبل، في أحد بيوت البلدة القديمة على غُرفة، في امتدادِ الأرض التي تنهض عليهـــا الكنيسة العتيقة، علىٰ بعضِ الكتب والمخطوطات القديمة، والأثاث المكسور، وصندوق خشبي صغير من الأبنوس، مغلق بالمسامير بإحكام.. فكـــــــــانوا يعوِّلون كثيرًا؛ على نتائج الفحص على تلك

الجُمجمة، لفكِ الطلاسم المتعلقة بكشفهم في ذلك الصندوق القديم، الذّي عندما قاموا بفتحهِ، وجدوا شيئًا غريبًا: جُمجمة غريبة الشكل، ترقد في قاع الصندوق، على قماش غير معروف، يرجح أنه لنوعٍ منقرض من نسيج دودة القز!

ما لفت نظرهم، أن هذه الجُمجمة، أصغر حجمًا من جُمجمة الإنسان الطبيعي المعروفة! كما أنها تعرضت للكسر أعلى الجبهة، لكن المذهل حقًّا، ما وجدوه من منحوتات غريبة، محفورة على الجزء الأمامي من الجهة اليمنى للجُمجمة، ولكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام، أن هذه الجُمجمة تكاد تكون مطابقة للجُمجمة، التي تم العثور عليها مؤخرًا، تحت شجرة الجُهنمية الحمراء، برفقة بيضة متحجرة لأنثى عصفور "ود دَبرك!" وبعد الفحص والتحليل، توصل علماء "معهد جار النبي جارو"، الى أن هذه الجُمجمة، عمرها يصل إلى أكثر من ثلاث آلاف سنة!

لكن لاحظوا أن عظام هذه الجُمجمة، أرقُ من المتوسط، على الرُّغم من أنه، يبدو أنها تنتمي لذكر، تجاوز الخمسين من عمره! وقد كشفت اختبارات الحمض النّووي، أن الجُمجمة تحتوي على الكروموسوم إكس وواي، ما يُدلل على جنسها البشري، ومع ذلك يُشير البعض، إلى أنها لذكر مهجن، من إنسان وكائن آخر غير بشري استوطن هذه البلاد!

الباحثون المتعجلون استبقوا فحص العلماء، واستدعوا إلى أذهانهم تلك الحكاية القديمة، عن أن صانع الفخار، أمه إحدى

حوريات النَّهر، مستنتجين من الحمض النّووي للأم، أنه لشيء غير بشري!

قساوسة كنيسة البلدة القديمة، رغم شكوكهم في الشيطان، كان رأيهم مختلفًا، لكنه عضد في الوقت نفسه رأي علماء "معهد الأئمة والدُّعاة" إذ رجحوا أنها جُمجمَّة "نبي تلك الدِّيانة القديمَّة الغامضة"، التي سبقت ميلاد يسوع بآلافِ السنوات، وبعثها "أرتكخِّي فرعون كِليوَّة العظيم" من جديد، للقضاء، على ديانة "عمّون" في "ووشِك" البائدة، وأن ذلك الرّجل الذي هدَّم هرم "الربجاوية"، إنما كان يبحث عنها هي، لتأكيد شكوكه حول الإله "درماس".

لكن مجموعة أخرى من الباحثين "الزِّنج" المتحدرين من مملكة "كِليوَّة" البائدة كانت "هيلدا" قد تباحثت معهم، يعتقدون أنه بالفحص والتحليل، تبين أن هناك ما يشير إلى طفرة جينية! ربما تعود للمجموعة الغامضة، التي يُنسب إليها "بعاعيت" "مملكة فاز"!

قالت هيلدا و أنفاسها الدافئة تُلهب وجه جادين:

"اقترح العلماء (البِيض) إعادة الحفريات، في المنطقة حول البلدة القديمة والمدينة الزَّاهية، التي تضم بعضًا من الكهوف الحجرية والجيرية والأسمنتية العديدة، وكذلك المنطقة حول جبل الرَّاهبات!".

مرّرجادين أصابعه النحيلة على خدِّها:

"فعلًا تلك المنطقة، مليئة بالأسرار، فقد تم العثور هناك من قبل، على بقايا أجزاء هياكل عظمية، لخمسة عشر رجلًا، في مقبرة جماعية، على عمق ستة أمتار، يرجح أنهم الأولياء الذين اجتمعوا، بُعيد صلب صانع الفخار مباشرة!".

وقتها كانت قد راجت حكاية، تفيد أن جَنكـــــويز المقدّس سِرّه، داهموهم في اجتماعهم ذاك، وقتلوهم فورًا!! لكن كانت النتائج، التي توصل إليها العلماء البِيض مختلفة!

إذ كشف التآكل على الأسنان، وخطوط النمو في عظام الجُمجمة، أن تلك الهياكل عمرها أكثر من ثمانية عشر ألف سنة، كما أنها تعود لإناث بالغات، وليس ذكور، كمـــا تكشـــف خصائص عظام الحوض والساق!

¤¤¤

الأهالي الذين فقدوا القُدرة على الخوف، لهول ما عاشوه على عهد الحاكم الجنكـــــويزي العام، الذي خلق مناخًا مروِّعًا، مشحونًا بالشك والرِّيبة..

ولكثرة ما شكوا وارتابوا في بعضهم البعض، ما عادوا يأبهون، من هو الخائن أو العميل أو المخبر الحقيقي بينهم! ولم يعد يهمهم من هو المناضل، الذي يحمل على كتفه حمامة بيضاء، وغصن زيتون أخضر، أو المقاتل الثوري الجسور، الذي يحمل مدفعًا رشاشًا!

لم يعد يهمهم من هو المتواطئ، أو المثقف أو المتآمر أو السياسي.

إذ تكثفت كل مشاعرهم وإحساساتهم بما حولهم، وما عانوه لعقودٍ طويلة، وتركزت في بؤرةٍ واحدة: الغضب الذي تفجّر داخلهم بغتةً، كانفجارٍ مدوي، لركام أحزان وبؤس مئاتِ السنوات!

لذا كانوا أشبه بسيلٍ جارف، ليس بإمكان شيء إيقافه! فبغتة تلبستهم روح جديدة، تختلف عما ألفوه في أنفسهم، ما عادوا هم أولئك النّاس، الذين لطالما تجنبوا الاحتكاك ببعضهم، على غير ما كان عليه أسلافهم، في أزمنتهم الغابرة، يتفاعلون مع بعضهم البعض.. يأمنون لبعضهم البعض، ولا يخشون إيداع أسرارهم؛ صدور بعضهم البعض! تغيَّر كل ذلك، على عهد الأسر الجنكويزية المالكة، التي أسسها المقدّس سِرّه الأول، صاروا أشبه بالغُرباء، حتى داخل بيوتهم، وبين أهليهم و أبنائهم وأشقائهم!

لا يعرفون بعضهم! تحيتهم عابرة.. فهم دائمًا على عجلةٍ من أمرهم، وبالكاد يهتمون لما يحدث حولهم!

لم يكن لأي عينٍ "نجيضة" أن تُخطئ من أول نظرة، رؤية ما يعتمل في صدورهم!

كان واضحًا بجلاء، أنهم تعبير فاضح، عن وطن مثقل بالهموم والديون.. وجوههم تنطق بذلك.. هؤلاء النَّاس طفح بهم الكيل، فهبوا يحطمون قوالب الجنكويز، التي أعادت صياغتهم، على هذا النحو البشع!

¤¤¤

إذن في تلك الظهيرة الكالحة، المقبورة في أزمنة سحيقة منسيَّة، حمل أعيان "البعاعيت" إلى حفيد فاز خُططهم و أفكارهم، تصطرع داخلهم مفاهيم متصارعة، بمثابةِ المخاض لمشروع نمت بذرته الأولى، وشبَّت تدفع خُطواتهم للقاء أبو رُكبة، على بُعد مسيرة يوم من جبل الرَّي، حيث عسكر بجيشه، قادمًا من رحلة طويلة في دار الرِّيح.

وما أن وصلوا ووجدوه جالسًا على (كَكَره) في خلوته البديعة كأنه ينتظرهم، حتى لاذوا جميعًا بالصَّمت و انتظروا حتى يأذن لهم بالحديث، وطال صمته وصمتهم، إلى أن سألهم:

"وجوهكم تحمل خبرًا".

فردوا:

"نحن هذا (الملك) (أبيناه) فما تدبيرك فيه؟".

فقال لهم:

"أنا قبل ده قلت ما يبقى ليكم (ملك) ولا لنا "سيد" لكنكم تركتم تدبيري والآن جيتو تجَقلبو، فأشيروا بشوراكم".

سكتوا لبرهة من الزّمن ثم قالوا:

"نفصل لك لو أذنت لنا"

"أذنت لكم"

"كما تعلم نكل السلطان   أب كردوس باتباعك كلهم، حتى نحن لم ننجُ في غيابك".

"جئنا نبايعك على عزله، والحلول محلّه".

تململ أبو ركبة في مجلسه وقال:

"لكن هذا لا يجوز، فالموانع كثيرة".

"بل قل إن كل أسباب عزله متوفرّة وأهالي السلطنة في صفنا".

أطرق أبو ركبة قليلًا وحكَّ ذقنه، فسأله أحد الأعيان:

"يبدو أن لأميرنا رأي آخر غير ما نرى؟!".

زفر أبو ركبة بعمق وقال:

"إن ما يشغلني الآن هذه الأزمات: التي تكاد تعصف بالسلطنة، فقد نمىٰ إلى علمي أن الأتراش في طريقهم إلينا بجيوشهم، فيما الملك والأمراء منشغلون بالصراع على السُّلطة والنساء، ويشغلني أكثر صراعنا مع دار الريح، و أتساءل هل هذا الوقت مناسب لعزل الملك، وكل هذه الأخطار تحاصرنا من كل اتجاه؟!".

¤¤¤

ها هي ظلالهم تخرج الآن من مركز العتمة: صانع الفخار، ود دبرك بن زرزو الدَّوري، حامد القطي، المريود، جميعهم.. جميعهم من كثافة الغبار، يخرجون..

يتسللون موجات الانفجارّات، خلل التراب ونثار الطوب المتفتت عبر النو افذ، التي أصابت وجوههم وأجسادهم.

كان القصف قد أدى إلى انخلاع باب الزنز انة، وسقوطه عليهم.. خرجوا من شدَّة الخوف يتحاملون على أجسادهم المنهكة، كانوا مصدومين! وهم قاب قوسين أو أدنى من بؤرة الظُلمة العمياء!

شعر جادين جـــانو بألمٍ في رأسهِ.. تحسسه.. وجده جُرحًا يسيل دمًا، وقتها كان القصف قد توقف، فتلفت حوله ليرى المشهد: تصدعت جدران الزنازين، و انخلعت حتى الكُوَّات، الصغيرة، التي كانت بمثابة نو افذ.. فيما ود دَبرك مغمىً عليه، وهو مستلقٍ في استسلام على ظهرهِ، حَمله ودسَّه في جيبهِ!

بعض المساجين يهربون، ولم يكن هناك أي من "الجَنكـــوِيز" ليوقفهم.

فيما رفاقه يفرّون متفرقين، لا يلوون على شيء! تجوَّل جادين في أنحاء المكان المهدَّم بحذر.. كان أغلب المعتقلين مصابين بإصاباتٍ بالغة، وقد بدا كل شيء حوله، أشبه بـ "أطلال دارسة!" فقد كان واضحًا أن البنايات، دُمِرت بإصابات غاضبة، في هذا الفضاء المنهار!

لم تُبقِ الانفجارات الرَّهيبة، سوىٰ علـــى جُدرمن عتمةِ آلافِ السنوات، تحيط بخصرِ البلدة القديمة.. تحصر ضوءًا غامضًا، يسعىٰ حثيثًا لفتح ثغرة يَفلِت منها، ليهشِّم هذه الجدران الصماء، ويبدد هذه الظُلمة الكثيفـة، التي تستمد حُلكتها من الأفكار المـاكرة والمراوغة للشيخ الهميم العراب!

ومن منبع الحكايا الخر افية، والأساطير ضاربة القِدم! كان وقتًا حالكًا جدًّا، لكنه غير محدد بليل أو نهار، فقط حُلكة.. وجد نفسه يمشي فيها غريبًا ووحيدًا!

خطىٰ في شارعٍ طويل مترب، متعرج، مظلم المباني، لا يذكر أنه رآه من قبل!

من ضعف أهالي البلاد الأسِـــيرة، استمد الجنكـــويز قوَّتهم! أرهقتهم وأرهبتهم الفظائع التي ظلوا يرتكبونها، فاستسلموا.. بل أصبحوا أشبه بموتىٰ، إذ لا ترى عندما تجوب في شوارع هذا البلد المنهار، المهـــدّد بـــدمارٍ وشـــيك، سوى رجال العصابات والمجرمين والمحتالين والانتهازين والمتاجرين بـــالأخلاق والساســـة العطـــالى والسوقة!

تُرى هل كان كل هؤلاء مضطرين لارتكاب ما ارتكبوا من جر ائم؟ وإن يكن ليس بالإمكان تغيير الماضي، لكـــن بالإمكـــان صناعة حيـــاة أفضل، من ركام هذا السقط المرير!

زحف جادين، مبتعدًا عن الانفجارات التي باتت أصواتها تبتعد وتنأى، فتأتي خافتة خلال أغبرة الرَّماد و انهيار الأبنيـــة، التي يتدفق خلالها ضوءٌ شـــاحب، لا هُويـــة لـــه! فيمشي حثيثًا، حثيثًا في وجلٍ، قاصدًا البيـــت حيـــث تُقـــيم "هيلـــدا"، لم يخطر على باله رؤية أحد سواها!

خلال الأغبرة ودخان الانفجارات، كانت تتبدىٰ له الوّجوه والبنايات والنَّهر العكر، المختنق بالطَّمي ونباتات "المعونة"، حتى لا يكـــاد يتعـــرَّف عليه، وهو يعبُر تحـــت الجسر، إلى الجانب الآخر من البلدة!

كل شيء بدىٰ غريبًا: أشباح الجبال البعيدة في قفا البلدة، التراب، أشجار "النِّيم" التي تظلِّل الشوارع، والجُهنميات الملوَّنة، التي تتدلىٰ لتحتضن أسوار وأبواب المنازل القديمة، وجوه الأطفال المذعورين، الذين فقدوا أُلفتهم وبراءتهم، هي الأُخرىٰ بدَت كأنهـــــا شاخت فجأة!

البلدة بكاملها كانت غارقة في غلالة غريبة من الهواجس والظنون! يتدفق منها الغموض على نحوٍ محيِّر، فيغرقه في نوع غريب من الذّكريات والمرارات، التي لم يكن واثقًا، إن كانت جزءًا من تجربِة حياته أم هو يتوهمها! إذ كان لها طعمًا غامضًا ومحيرًا هو الآخر..

في العزلة الأبدية التي سيَّج بها الجَنكـــويز أركان البلاد الأسِـــيرة، فقدت الأنهار والوديان التي على امتداد البلاد، قُدرتها على الجُموح

كما كانـت قبل مئات السنوات الخوالي، وأخذ كل شيء يفقد ملامحهِ وطعمهِ ورائحتهِ بمرورِ الوقت!

وهو يعبر الجسر، شعر بنهر البلدة تتجدّد فيه الحياة، كأن الكائنات التي تسبح داخله، تنهض من غيبوبة آلافِ السنواتِ، فتتدفق في شرايينهِ المتوفزة..

خرج من المعتقلِ، أشبه بكائنٍ غريب.. حاول أن يتخيَّل نفسه في مـرآة خيالـه، وعند نهاية الجسر، مضى بخطواتٍ واسعة، قوية، تكاد تهزّ الأرض تحته!

بدا مديد القامة كشجرِ البان، عيناه غائرتـــان، يلوِّح في قاعهما طيف بُنِّي خفيف، كان بتقاطيعه الحادَّة، التي لا تتلائم مع حجم وشكل أُذنيه، وحاجبيهِ الكثَّين اللتان يكادان يدفنان جفنيه العلويين تحتهما! يُعطي الإحساس بالانتماءِ إلىٰ عالمٍ آخر، غير هذا العالم، الذي يتكبدون عناءِ العيش فيه!

لطالما اعتقد الذين يرتادون "الإندايات" من أهالي البلدة القديمــــــة، بعد أن تعبث "المَرِّيسَة" برؤوسهم، أن فجر ملايين السنوات، ليس بإمكانه تبديد هذا الظلام الذي يحسونه حتى في الدُّروب، والأزقة، والشوارع، التي تخرج من البلدة القديمـــة، وتقود بمكـرٍ في تعرجاتهـا المراوغـة إلى أطراف البلاد الأسـيرة، دواخلهم التي انطفأت على أحلامٍ مجهضة! تقـــود "شبابيك" البيوت الواطئة وكل شيء!

ورغم أن الشّمس تشرق في ميقاتها كل يوم، دون أن تتغيب يومًا واحدًا، ورغم أن القمر ينبثق في موعده دون تأخير، إلا أن احساسهم بجُدرعازلة، متلفعة بظلمة كثيفة السواد، ظل يتعاظم كلما تقدّم بهم العمر، وأصبح مجرد "عَبَّار" واحد من أردأِ أنواعِ "المرِيسَة"، بإمكانه أن يأتي بآخرهم!

¤¤¤

"الخُطى التي مشاها "أرتكني العظيم" بعد مئات السنوات، تنعطف في منحنيات زمن البلاد الأسِيرة"..

قال جادين جانو وهو ينفث دخان سيجارته، ويُراقب تموجات الدُّخان، التي أخذت تنبثق، من دوائرها المتلاشية، وجوه زملائه في "معهد جار النبي جارو لدراسات التاريخ و أبحاث الآثار" وهم يتأملون أحوال البلاد الأسِيرة في التقارير الفاجعة! ويرونها وهي تنحدر، إلى قاع الهاوِّية ببطءٍ مميت، دون أن يملكوا شيئًا لإيقاف هذا الانحدار!

"البلاد الأسِيرة الكبيرة تموت، تلفظ أنفاسها الأخيرة، تقضي شعوبها على بعضها البعض!".

قال بروفيسور محمود موجهًا حديثه لجادين جانو، الذي أطرق رأسه قليلًا قبل أن يقول:

"طوال تاريخها كانت حروبها تلد إحداها الأُخرى، ابتلعت دويلاتها بعضها البعض، وظلت تبلع إلى أن أُصيبت بالتخمة، فتفجرَّت".

"المشكلة الآن هي الجَنكـــويز، فهم لا يقبلون بالآخرين، مشكلة البلاد الأسِـــيرة أن يقبلوا بعضهم، أن ينتموا لهذه الأرض، ويفتخروا بانتمائهم لها، دون أشواقٍ لأرضٍ هاجر منها أسلافهم.. تركوها وراءهم منذ عصور سحيقة، هذا هو الحل".

مَدّ بروف محمود يده بملفٍ أحمر اللون لجادين وهو يقول:

"هل اطلعت على هذا التقرير: (نظام يقتل شعبه؟)".

أخذ جادين يُقلب صفحات الملف، قبل أن يقول:

"مررت عليه مرورًا عابرًا، لم يكن لدي وقت لكن سأقرأه الآن".

كان التقرير عبارة عن إفادات اللاجئين، والنازحين من مناطق الحرب، لمندوبي "منظمة الحقيقة والسلام" التي كشفت مؤخرًا عن استخدام نظام المقدّس سِرّه، لأسلحة محظورة ومحرَّمة، في حربه الشرسة ضد هوامش البلاد الأسِيرة!

كذلك أشار التقرير، لاستخدام الرُّصاص الحيّ والمطاطي، ونوع غريب من الغاز، يؤكد الخبراء أنه نوع نـادر الوجـود، تم استخدامه في قمع التظاهرات الطلابية!

أخذت عينا جادين تجريان على السطور بسرعة خاطفة، إلى أن تخطى المقدمة، وأخذ يقرأ بصوتٍ مسموع لاهث، ثم أخذ صوته يخفت شيئًا فشيئًا، إذ كان ما يقرأه من إفادات يبدو مرعبًا حقًّا!

بدأ التقرير بإفادة يائسة لأحد المهجرين داخليًّا:

"لقد فقدت كل شيء، ولم يعد لدي سوى أصابع اليدين"..

وقال آخر بغضب وقد تسايل الزَّبد من شدقيه:

"لا أرغب في العودة، ما دامت لا توجد ضمانات، لسلامة أسرتي"..

وفي خوف مريع روى صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، أن مليشيات وجهاز عسس الجنكويز، اختطفته من أحد الحقول، و اقتادته إلى مخيَّم بالقرب من حدود الصعيد، وهناك جُرِد من ملابسه وتعرض للجلد المبرح!

فيما أكد آخر بأسى، أنه تعرض للاغتصاب واحتُجز، في أحد المخيمات الخاصة بـ الجَنكويز لمدة ثلاثة أسابيع، إلى أن تمكن من الهرب.. ووصف أحد زعماء القرى في غبن، صوَّر العنف ضد النساء، خلال الحرب التي أعلنها الحاكم الجنكويزي العام، لنظام المقدَّس سِرّه:

"كانوا يأتون ويأخذون نساءنا وبناتنا، ويتلـــذذون بـــاغتصابهن على مرأى منا"..

فيما حكت امرأة بصوتٍ منكسر، أن مجموعة من المهاجمين، يرتدون ملابس مدنية وعسكرية، اقتادوها مع مجموعة من الفتيات، حيث تعرضن للاغتصاب مرارًا، على مدى ثلاث أيام، وقالوا لهن:

"عندما نأتي المرَّة القادمة سوف نُبيدكم جميعًا، ولن نُبقيَ طفلًا واحدًا على قيد الحياة!"..

وعلّقت منظمة الحقيقة والسلام، على الجزء الأول من التقرير قائلة: "إن نظام المقدَّس سِرّه، يتحمَّل مسؤولية ما يجري من (تطهير) في دار الرِّيح، وأنها ستعمل على توثيق القتل الجماعي للشعب، بل قتله حتى أثناء أدائه شعائِره الدينية، وتدنيس مقدّساته. كما ستُوثق أيضًا الإعدامات السريعة للأهـــالي البســطاء، وإحراق المدن والقرى، والإخلاء بالقوة، لأهل الأرض وإحلال غرباء محلّهم تم استجلابهم من غـــرب إفريقيـــا، والاســـتيلاء علـــى ممتلكـــاتهم وأراضـــيهم الزراعية الشاسعة..

سنوثّق لكل شيء ولن نترك فرضًا ناقصًا".

¤¤¤

في تلك الظهيرة الكالحة، المقبورة في أزمِنة سحيقة منسيَّة، وفيما تحرّك عدد من أعيان البعاعيت الذين بلغ بهم الغضب مداه، على ممارسات السلطان أبو كردوس، وجهتهم مقر إقامة الوزير أبو ركبة بالقرب من جبل (الرَّي)، حيث يعسكر جيشه، أخذوا يغذون الخُطى لا توقفهم حتى الحوجة لشربة ماء! مدفوعين بالأمر الجلل!

كان واضحًا أن (مملكة فاز) تعيش أسوأ مراحل حياتها، بعد أن خبأ بريق الرَّقابة العسكرية ونفوذها، الذي لطالما كان العضد، الذي يسند أعمدة الدولة، كلما هبَّت عليها أعاصير الدّاخل أو الخارج.

هذه الرِّقابة العسكرية الصارمة، التي عزلت من قبل السلطان (أونطة الثالث)، بسبب استهتاره وظلمه للنَّاس، و انهياره الأخلاقي المريع، ولا مبالاته بالأعراف السائدة!

هذه الرّقابة التي أجبرت "جبور الخامس"، على النزول عند رغبة الجيش، وإحقاق العدل بين النَّاس، فانصاع مُكرهًا، خشية ثورة الأمراء الزِّنج أحفاد ملوك (كِليوة) البائدة ونبلائها الغابرين! هذا الجيش الذي لطالما تصدّىٰ للمؤامرات، داخل الأسرة المالكة، وخاض حروب السلطنة ضد التمردات في جبال (فاز)، والصعيد بين قبائل (الجلك!) وفي دار الرِّيح لإخضاع أهالي الهشابات وقيزان المر افعين ..

هذا الجيش المتمرّس في الحروب الدَّاخلية، خاض الحرب تلو الأخرى ضد الأتراش الغُزاة أيضًا! لم يكن ثمَّة سلطان من سلاطين فاز المتعاقبين، لا يخشى غضبة هذا الجيش، الذي لطالما خبر التآمر

والحروب والتمردات هنا وهناك، في البلاد الأسِيرة مترامية الأطراف! فلطالما خلع السلاطين، بسبب سوء الإدارة والحكم، والاستهتار بمقدرات الشعب والدولة، لكن اللحظة التي يواجهها هذا الجيش الآن، على عهد السلطان أبوكردوس، تختلف عن كل ما واجه من لحظات!

ففيما كان أعيان (البعاعيت) يقتربون من مقر إقامة قائد الجيش أبوركبة على مقربة من جبل الرَّي، كان التجار الجُدد، الذين تمكنوا بدأب صبور من تفكيك احتكار السلطان أبوكردوس لتجارة السلطنة، قد استصحبوا اتباع صانع الفخار، كدرعٍ واقٍ، تحسبًا لأي مواجهة محتملة، مع سلطان ضعيف كنمر جريح، أخذ نفوذه على قطاعات نافذة في شعبه ينحسر ويتبدد!

كان هؤلاء التجار، قد التقوا في وقتٍ سابق، باتباع صانع الفخار النَّافذين، ومن ثم التقوا بأعيان البعاعيت وتباحثوا معهم جميعًا، في أمرِ انتشال السلطنة من تداعيها المتسارع، الذي كان السبيل الوحيد لإيقافه، هو إزالة السلطان أبوكردوس، وتنصيب أبوركبة محله!

كانت هذه الحركة الدؤوبة، بمثابة إعلان عن مولد "قُوَى جديدة"، عازمة لا على تفكيك الاحتكار المزمن للسلطان لثروات السلطنة فحسب، بل أيضًا عازمة على القضاء على أي مظهر للنفوذ الأُمومي، الموروث من "كِليوَّة البائدة"، التي فيما ورثت فازمو اقع

سلطتها، ظلت هي تسعى جاهدة إلى إلغاء والقضاء على كل موروثاتها الأخرى، التي سادت لآلاف السنوات!

هؤلاء التجار الذين رأوا العالم، بحكم حركتهم في الجغرافيا الواسعة للبلاد الأسِــــــيرة والجوار! كانوا مدفوعين بغبائن شتَّى! فالنظام الأمومي الذي حكم السلطنة، وقف سدًّا منيعًا بوجه بعضهم في الاقتران بحبيباتهم من الأميرات، إذ كانت السلطة تنتقل من السلطان لابن أخته، إذا لم يكن له ولي عهد من صلبه، ولا يكون السلطان سلطانًا، إلا إذا كان من نسل بنات "الحُــــور"، وكان الخال شقيق الأم والمكنَّى بـ"سيد القوم" ذا سلطة عظيمة في البلاط الملكي، إذ يقوم بإدارة القصر وتعليم الأمراء، وله وحده تسند مهمة قتل السلطان إن أرادوا عزله.

وبموجب هذا النظام لم يكن أي "مَانجُلك" ليصبح ملكًا أو أربابًا في (مملكة فـــاز) إن لم يكن متزوجًا بإحدى بنات "الحُــور" وهذا ما سبب انغلاقًا في الأسرة المالكة، إذ إن أبناء الأرابيب لا يصبحون أرابيــــبَ، إذا لم ينجحوا في الزَّواج بإحدى حفيدات "الحُــــور" من سلالة البعاعيت المنحدرين من الجوار في السافل!

وبذا كَثُر الأرابيب "السابقين الفاشلين" في استعادة أرابيبيــتهم، ما خلق غبـــائن وسخطًا، على العُرف والتقاليد، فقد وجدوا انفسهم في منزلة بين "الأتباع" و"السادة!" وهؤلاء كانوا هم الرَّصيد الذي نهل منه صانعو الفخار، فحصدوا كثيرًا من الأتباع المدفوعين بغبائن لا حدود لها!

لذا عندما اجتمع التجار مع كل هؤلاء، بأعيان البعاعيت، كانوا محتقنـــــــين بعشراتِ الأفكار، التي تجد دعمًا من فئات عدّة، ذات مصلحة في الانقلاب على النظام السائد، الذي أعطى السلطان والأسرة المالكة كل شيء، وحرمهم من كل شيء!

لكن لم يكن "السلطان- الإله"، هو ذاته! فقد خُففت قدراته منذ انقلاب "أرتكني" قبل مئات السنوات، فصار كسلطان، مجــردًا مـــن قدراتـــه الماورائية، كملك للشمس والظِّل، المخفي والظاهر، المحسوس وغير المرئي، و انحصرت سلطته على الأرض وما عليها، محتفظًا بالقدرة على قتل مخالفيه متى رغب ذلك!

وخفَّت هذه القدرات أكثر، باتساع نفوذ الأديان الجديدة التي بدأت تغزو مملكة أرتكني مترامية الأطراف، من آنٍ لآخر! إلى أن هيمن آخر الأديان الغازية على مملكة فاز البائدة، التي تحدَّر منها الملوك والحكام العامين الجنكويز!

¤¤¤

انكمش المريود في ركنٍ قصيٍّ من الزنزانة، وهو يستعيد في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجُغرافيا والنّاس، وتتداخل الأزمِنة!

لكأنه يسقط في ثقبٍ زمني منه وإليه.. يرى وجه الخليفة "تور الجر" كالحًا متجهمًا يخلو من أي علامة صلاح!

يرى خراب العامر.. يرى أمراء (أم كواكية) فلا يستطيع تمييزهم عـن الجنكـويز، ويـرى الـبلاد الأسِـيرة بسـنواتها القاسـية العجـاف، المتجددة في كل عصر، فيتنهَّد بحسرة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزيًّا:

"لسـت الوحيـد.. جرثومـة الضـلال والاسـتبداد ورثناهـا مـن أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!".

ثم يصمت لبرهة ويتابع:

"هـؤلاء جميعًا منذ عصر كهنة كليوَّة البائدة، أصبحوا بمرور الوقـت، طائفـة دينيـة مهمتهـا قلقلـة الأهـالي وإرهـابهم وتخـويفهم، جميعهم يمثلون عقلًا واحدًا، لهذه البلاد الحزينة! إنه تحالف تاريخي رهيـب؛ تجـده في مملكـة قرضـاية، وفي دولـة "تـور الجـر"، وتجـده في الدولة الممتدة منذ منتصف القرن الماضي، وقدر صانع الفخار في كل زمان مواجهة، هذا التحالف!

وأرتكني وعرقلـة، وكسـارركـب أم كواكيـة، وصـانع الفخـار الحفيد، ما هم إلا الشخص نفسه، الذي قاد هذه الثورة المجيدة، واستشهد في اعتصام القيادة العامة، لتحلق روحه، وتتماهىٰ في روح صانع الفخار.. مع كل الأرواح التي تماهت على مر العصور، في روح صانع الفخار الخالدة!

¤¤¤

مـن خـلال أغصـان الجُهنَّميـة الحمـراء، رأى ود دَبـرك الغيـوم الرماديـة، وقـد حجبـت ضـوء الشـمس الوهـاج، والأرض المفروشـة ببسـاطٍ ضبابي، وتنبَّـه مـن شـروده علىٰ زقزقـة عشـوشـة، التي كانـت تسـعى جاهـدة لإطعـام فراخهـا الجُـدد، وبطبيعـة الحـال لـم يتجـرأ ليسألها السؤال المتوقع:

"أبناء من هؤلاء؟".

فهو يعلم قد يكون والدهم أحد طيور الموانئ، التي "ترِّك" على السفن، أو طائرًا مدجنًا لا يفارق سقف منزل قديم، وربما أحد تلك العصافير التي تتخلف سهوًا عن أسراب هجرتها، فتنقطع بها السبل عن الأهل والأوطان.

وفيمـا هـو منشـغل بهـذه الخيـالات، كانـت عشـوشـة تـوبخ أحـد فراخهـا، الـذي لا يريـد أن يفتح منقـاره، ليتلقىٰ منهـا الطعـام، كان قـد بـدىٰ شـاحبًا كالعليـل، وتسـاءل ود دَبـرك تـرى هـل يشـعر بـأن حـال عشوشة يزداد سوءًا، وهي تراه على هذه الحال المزرية!

¤¤¤

أنـا "ود دَبـرك بـن زرزور الـدَّوري"، هـا أقعي الآن وحيدًا، في عُشي بقلـبِ شـجرة "الجُهنميَّـة الحمـراء" أتأمَـل أحـوال العـالم والنّـاس، في هـذا البلـد "القـردود" غير آبـهٍ لزمهريـرِ شـتاء، أو "صيـفٍ قيطـوني".. لا مباليًـا "ببـرقٍ عبـادي" أو زفيـف "الهبايـب والكتاحَـات" التي تـدفع "اعصار الشيطان" ليُحاصر عالمي الصغير، ويبعثر عشِّي قشَّة قشَّة!

لم يعد في هذا العالم، ما يثير اهتمامي، حتى زخَّ "مطر العينة"، على غير عادته، في وحدتي البديعة، يتخلى عن مسؤلياته التارِّيخية، ويحصر هطوله في ذاكرتي.. يُغرقني فيما مضىٰ من وقائع حياتي وأحداثها المؤسفة!

من بين كل أفراد سلالتي عبر التارِّيخ، عشت طويلًا جدًا، عاصرت أنبياء لا يعرفهم أحد، ولفتت انتباهي تعاليم "هرمس وماني ومزدك"، هؤلاء الذين لربما لم يكونوا يعرفون أنفسهم، كرسل لهذه البشرية المعذَّبة!

في مراهقتي الباكرة، قبل مئات السنوات، أحببت (عشوشَّة الأولىٰ)، عندما سمعتها تزقزق عند (قيف) النَّهر:

"أنا نرجس السنونو، سوسنة الأودية، بين الشوك، كالتفاح بين شجر العُشر واللعوت، كذلك حبيبي بين الشبان".

يا لتلك اللحظات، عندما أتذكر تلك الشهوات.. الآن، رغم مرور مئات السنوات، أشعر كأنها تحدث للتوِّ، فهيج فيَّ الشجن، ويتوتر فكري، وينتفض وجداني، وتحمر عيناي وتغرورَقان شبقًا!

ثم كالآتي من إحدى الرحلاتِ الطويلة، طائرًا لآلاف الأميالِ دون توقف، أُصوصو بصوتٍ أكثر رخامة، من صوت طائر الكستناء!

ذلك الطائر الوحيد بين الطيور، الذي يعتقد البشر في قدرته على ترتيب الأصوات! بحيث تحمِل معاني أو رسائل مختلفة على

التواصل فيما بينها! الكائن البشري المغرور، يظن أن ما يصدرعنا، ليس سوى، همهمات غامضة لا معنى لها!

سيمضي وقت طويل، قبل أن يعرف، أنها أصوات مرتبة.. منسقة.. كما اكتشف "سُليمان الحكيم" ذلك من قبل!

بهذه الأصوات نتواصل مع بعضنا بعضًا، نُعيد ترتيبها في نظامٍ معين، حسب مقتضى الرَّسائل، المُراد تمريرها لبقيةِ الطيورأو طائر معين أو حيوان محدد! وغالبًا لا نحتاج لمترجمين، في تواصلنا مع بعض الزَّواحف والمواشي!

تُرى كم من الوقت سيمضي، ليُدرك بني الإنسان، أن الأصوات التي يصدرها أبناء جنسنا من قبائل الطيور، هي لُغتنا في التواصل مع هذا العالم، المسكون بصمت الحقيقة، والغارق في مآسي البشر؟!

وأنهم لَيسوا الوحيدين بين الكائنات، الذين يفكرون ويستطيعون الكلام!

¤¤¤

ثم ماذا عني أنا المنشق المريود؟

باختصاريا سادتي أنا كغيري مثل كثيرين عبرتاريخنا القديم والحديث، كنت مجرَّد أداة.. أحد الأدوات التي تُريد إلغاء هذا التاريخ، وكتابة تاريخ جديد، من وحي أفكارالشيخ الهميم وكهنته، الصادرة

منهم هم كبشريِّين، والمستلهمة لتاريخ من الجبر والاستبداد الصَّحراوي البدوي.

الهميم العَرَّاب مثله مثل أي بشري طامح في السلطة والهيمنَّة، يرغب أن يكون مختلفًا عن الآخرين.. كنت تلميذه النجيب، الذي يعيش أشو اقه وتهاويمهِ وأحلامه وطموحاته البشرية! كانها أوامر إلهية..

هذا ما كنته أنا المريود جبر الدَّار المريود، وكما علمتم، أني لم أنحدر من أسرة من أعيان البلدة القديمة، أو عائلاتها الجنكويزية الكبيرة، فسلالة أبي عبر تاريخها القديم؛ بعد أن فقدت نَبالتها، ظلَّت تمتهن صناعة الفخار.

وعندما ضربتها رياح التطوّر، امتهنت صناعة مشغولات السعف بدءًا بـ"فتل" الحبال وصناعة ("البروش والنُطوعِ والمقاشِيش والمشلَعيبات وتجليد البنابر والعناقرِيب")، مرورًا بحفرِ الآبار والزراعة في مشاريع وضع اليد -خارج التخطيط- وبناء "القطاطي والرو اكيب" و"ربيط" "عروش" بيوت الطين!.. ومع ذلك كنت واحدًا من أعضاء "حزب العرَّاب" المهمين القلائل!

منذ حداثة سنِّي! لم أمارس مهنة أجدادي، ولم أتعلم في الخلاوى، بل لم أقرأ أي من الأناجيل أو التوراة، التي آمنوا بها في الماضي السحيق، ولم ينتابني أي نوع من الفضول، للتعرُّف على

إلَهِهم "أبا دماك" بل نلت تعليمًا مدنيًا رفيعًا، اقتداءً بسُنة العرّاب الذي نال تعليمًا تخطَّى إجازةِ القانون!

¤¤¤

عندما كانت السُرَّة في ريعان شبابها، كان غاية حُلمها الرّحيل عن هذه البلاد الأسِيرة، وفي الحقيقة لم يكن ذاك حُلم السُرَّة وحدها، فقد حلم شباب وصبايا البلدة القديمة جميعهم الحُلم نفسه.

في صباها خرجت ذات مرَّة من البلدة القديمة مقررةً الرَّحيل، ولكن فكرَّت بأن تؤجل هذا الأمر، إلى أن تختطف يد القدروالدتها، التي تعاني من كل علّل البلاد الأسِيرة.. أحسَّت السُّرّة وقتها أن انتظارها لن يطول، فالزَّمن المرتقب في طريقه إليها.

السُّرَّة تعذّبت في حياتها كثيرًا.. خدمت طويلًا في بيع الكِسرة والطعمية واللقيمات، وقبل أن تركن إلى دُّكانتها، التي تبيع فيها التو ابل والعلاجات الشعبية، كانت قد عملت قبلها لسنواتٍ في بيع الشاي، الذي تركته لتخدم في البيوت.

ذات مرَّة عملت خادمة عند إحدى العائلات الثرّية، إلى أن قرَّر رب العائلة الملتحي المتخم، أن يتخذها عشيقة بمنأىً عن عيون زوجته، فصممت على إنهاء خدمتها، وغادرت البيت، مخلفةً وراءها مرارة قاسية، ومن ما ادَّخرته في سنواتِ معاناتها، افتتحت محلها الخاص للتو ابل والأعشاب والأدوية البلدية.

وقتها كان أهل البلاد الأسِيرة قد هبُّوا إلى ثورتهم الثانية، فأحرقوا بيوت الجنكويز والتجار الجشعين، والعسس السِّري، ورجال الدولة الفاسدين، كان كأن ألف شيطان انطلق من الجحيم، ليحل في أجسادهم النَّاحلة وأرواحهم المعذّبة.. يحرقون ويضربون من يعترض طريقهم، ولسان حال كل منهم يقول:

"لا أستطيع أن أتحمل الظلم بعد اليوم".

كانت أخبار الثورة قد انداحت وتمددت، تملأ أركان الدنيا الأربعة، وأخبار الأهالي الثائرين الرّهيبة، تُغرد بها طيور الخلاء، ويحملها عواء الذئاب وأصوات زواحف الأرض وحشراتها.. حتى الهوام التصقت في جلود الدواب، وتطوعت لتحمل الأخبار من مكان إلى مكان..

الرُّعاة الرُّحل الذين تقطعت بهم سباسب الصحاري ووهادها، سمعوا بما جرى! وما من أحد لم يكن يتوقع أن ما حدث سيحدث، فقد تفجرت أخيرًا قلوب الأهالي، بما انشحنت به من آلام وعذابات قرون طويلة، ضد هؤلاء المستعمرين المحليين، الذين لطالما اعتقدوا أن السوط سيخمد النّيران المشتعلة في قلوب النَّاس، أو ربما ستكون الخناجر أو المشانق، أو حتى البيع بالمزاد العلني، في ساحات أسواق النخاسة، وسماسرة العقارات والأراضي في القبل الأربعة، سيكون كل ذلك رادعًا لنقمتهم الجامحة، والغضب لما حل بهم وبثرواتهم!

خطر في ذهنهم أخيرًا، أن المعاملة اللطيفة، من شأنها أن تحد من اندفاعِهم، فما كان من الحاكم العام وَزوجاته العديدات، إلَّا أن تخلوا عن كبريائهم الزَّائف، وقصدوا زائرين مبتسمين، بعض الأهالي ممن كانت تربطهم بهم صلات فيما مضى، قبل استيلاء الحاكم العام على السُّلطة، لكن كان الوقت قد تأخر كثيرًا على الاعتذارِ أو النَّدم!

لطالما تساءل ود دَبرك فيما إذا عاش هؤلاء جميعًا، بمختلف مللهم ونحلهم! حياة مشتركة، لكانوا سعداء؟

لكن الأمور لا تمضي على النحو الذي يتخيله، أو تبشر به حكايات الجدّات، وهن يسردن على أحفادهن، انتصار الخير على الشَّر في نهاية الأمر، ليطردن من أذهانهم شبح الصراع على سقط متاع الدُّنيا، ويعُدن بالخيرِ الوفير في خاتمة المطاف، والأمن من الخوف والجوع.

ما رآه ود دَبرك في الثورة الثالثة، في ذلك اليوم، كان حكاية من نوع آخر، فهي حكاية لا يمكن أن يطويها النسيان، فقد بزغ فجر يوم طالما توقعه، ويدرك أن كثيرون حلموا به! يوم شهد هروب الجنكويز، ولعلعة الرُّصاص في الأجواء!

فما أن رك في ذلك اليوم ينضو عن ريشهِ وعثاء الطيران، وإنهاك التحليق، حتى خُيِّل إليه أن ما يحدث هو يوم الحساب العظيم، فيما كانت عشوشة وقتئذٍ قابعة في عشِّها مذهولة متسائلة عن سِّرِ هذا اليوم الغريب، الذي انشقت فيه الأرض عن بشرٍ لا عد ولا حصر لهم،

حتى خُيِّلَ لها أن الأموات عبر آلاف السنوات بُعثوا من جديد، وتدفقوا مع الجموع الهادرة.

¤¤¤

لم يكن ثمّة من يتوقع هذا التفكُّك المريع لـ"نظام الحاكم العام" الذي لطالما زعم أنه لن يُسلِّم السُّلطة، إلا للسيِّد المسيح المنتظر!

حتى أنظمة الجوار كانت تنظر إليه "كسوبر نظام" لم تهدَّه هبَّات الجماهير ولا انتفاضَاتها.. لم تهدّه الانقلابات والتحركات العسكرية المناوئة.. لم يهدّه غزو القوى المسلحة، التي توغلت داخل أحياء حاضرته.

كان كالقط ينجو في كل مرَّة أشد تماسكًا، أو هذا ما كان يطفو على السطح، الذي يُخبئ تحته "ميت بحر" لم تنقذه قشّة، ولا كل نباتات عُشبة معونة النيل الوديعة!

فجأة أو كما اعتقد كثيرون، أن ما حدث حدث فجأة، انقسمت الأجهزة الأمنية والجيش والمليشيات، في اللحظة ذاتها التي تفجرت فيها شوارع حاضرة البلاد الكبيرة ومدنها!

تلاميذ المدارس، طلاب الجامعات، ربات البيوت، المزارعون السابقون، أرباب المعاشات الإجبارية، والمحالون إلى الصالح العام، القرى والفرقان.. الحلَّالات والبلدات.. ضحايا التعذيب والاعتقالات التعسفية..

أرواح كل "فطايس" الحرب! قتلى حرب الصعيد الطويلة.. الكنداكات.. ضحايا الاغتصاب والنظام العام والعنف المنزلي!

لم يكن ثمّة أحد لم يخرج ليملأ الشوارع بالهتاف ضد الرُّصاص المضاد، للشعارات الغفيرة التي تُرددها الجموع، التي جاءت من كل فجٍّ من فجاج البلاد الأسِيرة.. مشيًا على الأقدام.. على ظهر الحمير والخيول والجمال! المواتر، الرّكشات والبصات، حتى القطار الذي يقسم البلاد الأسِيرة بطولها وعرضها، أخذ يتغشى مُدن الصعيد.. السافل ودار صباح، التي تُزاحم سُكانها تلبيةً للهتافاتِ المدوِّية، التي حاصرت القصر الجنكويزي العام، وقيادة الجيش ومباني العسس السِّرِّي!

كان الأعمى يحمل المكسر.. رجال الطُرق الصوفية وكبار السِّن والجدَّات.. كل هؤلاءِ وأولئك ضربوا بخروجهم على الحاكم "الفتوى التي كفرتهم جميعًا" عرض الحائط، وخرجوا يلتحمون مع الجماهير التي سبقتهم؛ لا تخشى دوي الرصاص الذي هطل كالمطر، وملأت دماء الشهداء ميدان الاعتصام أمام القيادة العامة للجنكويز، والشوارع.. الأحياء المحيطة التي تفضي إلى قاع المدينة.

لم يتراجعوا.

كان الجميع مصرًّا على إسقاط الحاكم العام ونظامه أو الموت! وهم يهتفون ملء حناجرهم البهية: "الحرية أو الموت!".

¤¤¤

وهو يُحلِّق في سوق السعَّف، رأى عوَّج الدرب يدخل راكوبته، وقد اندفع وراءه عدد من صبية الورنيش المضطربين وعمال الدِّباغة، وصرخوا جميعًا بصوت واحد:

"انهض يا ود البصير.. انهضي يا خالتي السُرَّة، وشاهدي الخلاص لقد أصبحنا أحرارًا".

أمسك أحد صبية الورنيش بيدي السُرَّة، التي لطالما أطعمته، والدموع تنساب على خدّيه. لفحت السُرَّة ثوبها وسوَّته، و اتجهت نحو الطريق لتشهد اليوم العظيم.

في ذلك اليوم رأت المتكبرين والمتعجرفين يخرون أذلاء، تضرب جنوبهم المسكنة، وقد ألقيت من نو افذ دورهم ملابس الحرير الخضراء والمخملية!

كما رأت العديد من المشردين، يسحقون حديقة القصر الكبير، بأقدامهم، ويشرعون البو ابة الكبيرة على مصراعيها..

كان في داخل ذلك القصر الكبير أحد سادة الجَنكويز العُتاة وزوجَاته وأهله، انتزع هذا القصر من أحد الأهالي الأثرياء، واستولى عليه بوضع اليد، وجعل الحرس على أبو ابه..

ها هو يسقط الآن تحت هتافات الأهالي، الذين لا شيء يمنعهم من عبور كل بو ابات الدنيا، في هذه اللحظة المجيدة!

حزم ود البصير ما تيسر من منهوبات في قطعة من القماش، ووضعها على رأسه وخرج باتجاه السافل!

¤¤¤

ذلك الصباح القارص، والشتاء يتثاءب في الخلايا والعظام، لمحت نطعًا من السعف.. كان نطعًا مزركشًا بألوان "التفتة" والحناء، ومحلى في ذو ائبه بالودع وصدف البحر الملوَّن!

بدى واضحًا من زرْكشته البديعة، أنه صنع بأيدي نساجات ونساجين متعددي الخبرات، في دار الرِّيح والسافل، فزَخرفته لا تشبه أية زخرفة رأيتها من قبل.

حدثتني نفسي بضرورة الحصول على سعفات من هذا النطع الجميل، أهديها لعشوشة تزركش بها عشنا.

وفيما كنت اتفحص النَّطع، قفزت إلىٰ خاطري ذكرى بعيدة، ليومٍ عابر، في تاريخٍ غابر، من سنةِ المجاعة الأخيرة، في الأعوامِ السبعة، التي تلت فيضان النَّهر.

وقتها انتشرت الأمراض والأوبئة والحشرات، و أقحَلت الأرض حتى صارت بورًا وجف الماء.. تفشت الكوليرا والملاريا بين الناس، وأسقطت النساء أحمالهن، وتدهورت حال الحياة، فتجمع الأهالي تحت شُرفةِ قصر الحاكم العام يستعطفونه، وهم يستعيدون في ذاكراتهم مبتدى انقلابه، وما بذل من وعود، بعد أن رمى بالحاكم

العام السابق خراب العامر في السجن، حيث قُتل وهو يحاول فضَّ عراكٍ مفتعل نشب بين سجناء عنبره!

ومن ثم قُبيل أن تنتهي شهور عدّة زوجة الحاكم العام السابق، تزوجها ودخل عليها! وكنت أنا ود دَبرق الشاهد الوحيد على كل ما جرى، رأيته وسمعته، من أعلا أغصان الجُهنَّمية وهو يهدئ الأهالي.. ويعدهم، ورأيته بعد انصرافهم من قصره، الذي كانوا قد حاصروه، وهو يأمر عسَسَه السِّرِّي خلسةً، بقتل من "حان أجله" واعتقال النَّاجين!

مثلما رأيته وسمعته قبل عقود خلت، وهو يتلو بيانه الأول على مسامع الأهالي، يبشرهم بفجرٍ جديد! نعم، مرةً أخرى رأيته، في ذلك اليوم البعيد، عندما حطيت على السلك الشائك، أثناء تفقده ثكنات الضباط الجديدة.

رأيت عينيه وهما تتناهشَان جسد امرأة جميلة، تعبر أمام إحدى الدُّور، أخبره عسسه السِّري أنها، زوجة صديقه قائد الجيش، ولم تمضِ سوى أيام قلائل، حتى انفجرت طائرة ذلك القائد أثناء عودته، من أحراش الصعيد..

سيسألني أطفالكم وهم يطاردونني كعادتهم بالنبال:

"وماذا فعلت زوجة القائد".

صه! إنَّها ليست قصة قبل النّوم! إنَّها الحقيقة، لقد فرحت فرحًا شديدًا، فقد أبدلتها الرّوح العظيمة، ما هو خير من زوجها!

¤¤¤

عندما سمع الحاكم العام شكوى النّاس، الذِّين أحاطوا القصر كأسورة، أرسل صديقه المقرَّب الترح قائد العسس السرّي، إلى منزل الشيخ العرّاب "كبير كهنته" فأبلغه كبير الكهنة، أن البلاء لن يرحل عن هذه الدولة، إلا بعد القِصاص من قاتل قائد الجيش!

فأرسل الحاكم العام إلى كاهنٍ يدعى "حاضر الغايب" كان على علمٍ بقصة قتل قائد الجيش، لعله يصل إلى دليل محبوك لقاتل آخر، وكان "الغايب" في آخريات أيامه، يريد أن ينأى بنفسه عن الأكاذيب، التي لطالما صاغها، ليستخدمها الحاكم العام، لدحض أكاذيب هذا الشعب المفتري، فتهرّب عن الإجابة!

لكن قائد العسس السِّري هددَّه وأصرَّ عليه، فقال له:

"لقد تعبت من الأكاذيب، وأرى أنكم لستم بحاجة لمن هو مثلي، فقد فُقتموني، يمكنكم تلفيق أي شيء بسهولة وسيصَدقه النَّاس كما اعتَادوا، لكن، أبلغ الحاكم العام عنِّي، أنه هو القاتل، وما لا يعلمه أن القتيل شقيقه".

فصعق قائد العسَّس السِّري وأرغى وأزبد وهاج وماج:

”أنت كاذب“

”لقد أنفقت عمري كله في الأكاذيب، حتى لم يبقَ منه شيء، وهذه هي الحقيقة الوحيدّة، وإن شئت فاذهب إلى العرّاب الهميم كبير الكهنة، فستعلم حينها صدق روايتي“.

نعم، أنا ود دَبرك رأيته بأم عينَيَّ وسمعت ما دار بينهما من حوار!

بل قبل عقود خلت، خلدت إلى أعلى سور أحد البيوت المطلة على كومة قمامة كبيرة كجبلٍ صغير، ورأيت امرأة ترمي بطفل، ذلك الطفل أصبح في مقبل الأيام قائدًا للجيش! نعم، شاهدت كبير الكهنة، وهو يلتقط طفلًا حدّيث الولادة، مُلقى في كومة القمامة تلك، فحمله وتبعته حتى وصل إلى داره، وكان أن وجد الغايب هناك بانتظاره في شأن من شؤون الدُّنيا!

وهكذا لم يعرف أحد سوى الشيخ الهميم كبير الكهنّة والغايب، حتى هذه اللحظة التي صعق فيها الترح قائد البوليس السِّري، الذي لطالما توهم أنه يعرف الشاردة والواردة، وما تسر به أنفس الأهالي ولا تعلنه، وهو على كل شيءٍ قدير!

¤¤¤

في أمسية من أواخر الصّيف اللحوح، لذلك العام الكئيب، جلس ود دَبرك على غصن شجرة الجُهنميّة ليبدأ في استعادة ذاكرته وما ارتبط بها من وقائع وأحداث، لعصافير في مشارق الأرض ومغاربها، ربطته بهم صلات طيبة!

كانت أفكاره قد ترتبت تمامًا في ذهنه، واختفت تلك السُحُب التي كانت تُحيطها، وكما جرت العادة، أخذ يضرب الهواء بجناحيه، دون أن يطير، علَّه يبعث شيئًا من النشاط إلى جسمه المتلهف، منذ أيام للقاء عشوشة!

وفي اللَّحظة التي شرع فيها "ود دَبرك" باستعادة ذكرياته التي لا قيمة لها، كما ظن وقتها! ولكن بعد عشرات السنوات، سيعثر على هذه الذكريات فريق من المستكشفين القادمين من عالم آخر بعيد جدًّا، ويقرؤون ما خطه ريش ود دَبرك على قِشر بيض عشوشَّة المتحجر، الذي وجدوه مغمورًا تحت أمتار من رماد أسود، غطّى سطح أرض البلدة القديمة بالكامل.

وبذا يكون "ود دبرك" قد تمكّن أخيرًا من تحقيق الخلود لاسمه، بوصفه الكائن الذي استعاد ذكرياته على قشر البيض الذي لم يكتب له التفقيس، فكان شاهدًا على انقراض، آخر شهود محتملين لعصورٍ بائدة.

في الحقيقة، لم تتجاوز ذكريات ود دَبرك سوى أسطر زَقزقية قصيرة، فيما انطوت عليه مخطوطات الخزين، التي جاء فيها:

"في البدءِ كانت الروح العظيمة، خلقت الديناصورات، بكلمةٍ منها، فجاء الكهنة وسائر الحيوانات، ثم الطيور، فالبشر الذين اخترَعوا آلات الدّمار، التي قتلوا بها بعضهم البعض، ثم لم يبقَ شيء سوى بيض عشوشة المتحجر! الذي ربما يجده عالم آثار مغمور بعد مئات السنوات، فيظن أنه حصل على الإجابات الشافية حول ما جرى! فيُترجم كل العبارات، التي على قشر البيض إلى معانٍ لم تخطر على بال ود دَبرك مطلقًا!

حتى تلك العبارات التي تصف حال العُميان، يظن أنها تتحدث عن قومٍ بوسعهم الرؤية إلى مدى أوسع من راحة البال!

¤¤¤

وفيما روى (الهُدْهُد بن زرزور الدّوري) على هامش مخطوطة "صانع الفخار"، نقلًا عن الخزين، أنه وقبيل سقوط (مملكة كِليوّة) بقليل، كان ثمّة شعب من كهنة الإله (أبادماك) بعائلاتهم وخدَمهم وحشمهِم، يعيشون في ثكنة منفية، ظل ملوك الرُّماة يخصِصونها لهم.

هذا الشعب الصغير، كانت ثكنته أشبه بمدينة صغيرة بمسرحها الدِّيني، وشعرائِها الفحول، ومغنيها ذوي الأصوات العذبة، ونسائها الجميلات، لكن ودون توقع، اختفى هذا الشعب الصغير، قُبيل سقوط كِليوّة بقليل، ولم يُعثر له على أثر، بل لم يتم العثور على أي شيء، منحوت أو مدوَّن يشير إليه!

بـل عبر عشـرَّات الأجيـال، كـان بعـض الأهـالي يتـداولون عـن أسـلافهم الحكايـا، بـأن هـذا الشـعب الغائـب، تفـرّق في أركان الأرض، وسيأتي ذات يـوم بكل العلـوم، التي جمعهـا عبر مئـات السـنوات، مـن مختلف الحضارات، ويُقيم حضارة لم ولن يشـهد العالم مثلها!

فيما أفراد عائلة الببغاء العريقة، يتفقـون على أن هـذا الشـعب وحضـارته مفقـودان، وأن صـانع الفخـار عنـدما يظهـر، سـتقوده طيوفـه، طاويـة المكان والوقـت، إلى حيـث تعـيش أجسـاد طيـوف هـذا الشعب مفقودة في منحنيات الزَّمن!

بحـث المريـود في كتـب المـؤرخين، و(القـوالين) مـن كتبـة التراجم والسِيَر والمذكرات، الذين دونوا مشاهدات عصرهم ومشاهد حياتهم، عسـى أن يجـد مـا يشـير إلى هـذه الحكايـات، التي أوردهـا الهدهـد في هوامش بحثه الشهير!

تلك الليلـة تعشى وَد دَبرك مع عشـوشـة.. وعلى الضَّـوء الـوردي الحالم لحشرات الخنفس المضيئة، التي كانت تحلق في فضاء العُش الصغير، بدلًا عن أن يتحدثا عن الحب، تحدثا حول هذا الأمر، الذي عندما أخبر عشوشَّة عنه، قالت وهي تهز جناحيها:

"من أين جئت بهذه الحكايا"

فقال:

"هوامش الهدهد على مخطوط صانع الفخار".

وفي الحقيقة هذه الهوامش والمذكرات جميعها، كتبها الخزين، زاعمًا أنه سمعها من منقاري الهدهد وود دبرك، حيث تناهت إلى أذنيه مباشرة، مؤكدًا على إلمامه الواسع بلُغةِ الطَّيْروالحيوان!

وهكذا، منذ سمعت عشوشَّة بما ورد في المخطوطة؛ لم تعد المخطوطة شاغل ود دَبرك وحده، إذ بدئ أنها انغمست فيها أكثر منه! إلى درجة أن فوجئ بها، في عطلة نهاية الأسبوع، تدخل عُشّهِ لير افقها إلى حيث عثرت مصادفة، على حقيبة بلاستيكية مهترئة، لم تدر محتوياتها لوهلة، فابتسم شاديًا كالبلبل، وهو يمسح بعينيه الكتب واحدًا تلو الآخر، ثم هَدَل كاليمام مجيبًا على التساؤل، الذي أطل من عينيها الحائرتين:

"كتب تاريخ.. تاريخ البلاد الأسِيرة".

فقالت مذهولة:

"لمَ؟".

"يبدو أن الصدف تريدنا أن نعرف حقيقة ذلك الشعب الصغير، الذي اختفى، دون أن يترك خلفه أثرًا! قد نجد إشارة أو معلومات ما في هذه الكتب".

وهكذا شرعا في صفيرٍ خافت يقلبان بمخالبهما في صفحات الكتب:

البلدة القديمة عبر القرون: لحمام بن يمام البطِّي، تاريخ البلاد الكبيرة: لطاووس بن بطوط الهدهودي، مدخل إلى تاريخ دار الرِّيح: للبوم بن أبي الجديان الشاهينشاهي، تاريخ دار صباح الحديث: لحسون بن زرزور بن أبي عقاب الجبلي، إلى آخره من دراسات و أبحاث محققة لجهابذة مؤرخين و أثريِّين شعوب الطيور المقيمة والمهاجرة، والتي شارك في تحقيقها، بعضًا من البعثات الهامة لعلماء التاريخ والآثار، من ممالك طيور الحبارى، والنسور، والعقبان، والدَّوري و أبو مركوب في الشرق الأقصى وسيبيريا والهند والسند وفارس!

الذين قاموا في الحقيقة بترجمتها أيضًا إلى لُغات الطير الحيَّة، في مراكز تفكير الباقير، ومعهد أم جكتي للتاريخ المعاصر!

وعلى مدى أكثر من شهر، قلَّب ود دَبرك بجناحيه صفحات تلك الكتب، التي ظن أنه ربما يجد ثمّة ممرًا، يلوح منه ضوء فيعْبُراه إلى حيث يجدان معلومات و افية، حول ما حكى الهدهد! لكن دون جدوى!

ليس ثمّة ما يُشير، إلى أن ما أورده بروفيسور هدهد، ينطوي على أي قدر من الصحة! الأمر الذي يشكك في نزاهة أولئك المحققين من أثريِّين وعلماء تاريخ!

¤¤¤

سأل الجنكويزي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على مبعدة من الأنقاض المحترّقة لكنيسة البلدة القديمة:

"من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟".

فرد أحدهم:

"لقد مات مقتولًا... منذ اليوم الأول للغزو..".

تعالى صوت متوتر من خلفهم:

"يُقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعدة من (الجاسر) فدفنوها محل شجرة اللَّعوت، التي حلّت محلها النخلة!".

ارتفع صوت أحدهم:

"لا بل يقولون أنه غادر إلى دار الريح، قبل الغزو بأيام!".

"بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!".

"ومن ذاك الذي دُفن تحت النخلّة، أليس هو؟".

"كيف يكون هو؟.. هو لا يموت؟!".

كانت رأس الجنكـــــــــويزي تستدير تجاه كل متحدِّث، وعيناه تتسعان دهشة، لا يصدق ما يتحدث به الجمع!

جزَّ أسنانه.. نفرت عروق جبينه وعنقه.. ترجَّل عن فرسه، و انتصب وسطهم كمارد ممشوق. ولشدَّة خوفهم، خيل لهم أن عنقه تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب!

ارتعدت فرائصهم من الخوف، وهو يصرخ في وجوههم كالمجنون:

"هل جننتم؟ لا يموت؟ أي أنسي هذا الذي لا يموت؟".

فقال أحدهم في خوف:

"أنه مربوع القامة"

فقاطعه آخر:

"لا بل طويل جدًّا، حتى يُقال أنه يمد يده يشوي السمك، الذي تهبه له صديقاته حوريات النَّهر، في الشَّمس!".

تحسَّس الجنكويزي سيفه، وهو يستشيط غضبًا:

"جميعكم كفرة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يرَه، أو يعرفه!".

فأكد أحدهم:

"كل من رآه للمرّة الأولى، كانت تلك هي المرّة الأخيرة!".

فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

"بل لم يرَه أحد لا أولًا ولا آخِرًا، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدث معهم؟!".

كان واضحًا أن الجنكـــــــــويزي، قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم، شد لجام فرسه، وقفز على صَــــــهوته، و انطلق مبتعدًا يتمتم بكلمات مبهمة، تاركًا الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار!

وفيما هم يتغالطون، كان الهدهد الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنكويز لحبيبته "الكنداكة "!

اتكأ صانع الفخار على ذَّاته، وهو يشعر بنصلٍ حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلًا قليلًا قبل أن يسأل الهدهد:

"من يَجيئني بقاتلها؟!".

لم يجد الهدهد جوابًا، وود لو قال له:

"أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك".

لكنــه لم يجرؤ، فأشاح بوجهه الشاحب، حتى لا تقع عينيه على عيني صانع الفخار، كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزة، نكس رأسه ثم عاد فرفعه، وجاهد بمنقار مرتعش كي يقول كلمة واحدة، لكن جهاده لم يُثمر، فخرّ متهالكًا على جناحيه، حتى تخلَّعت بعض ريشاته، فأخذ يتمتم بهَدهدة غير مفهومة!

حدّق فيه صانع الفخار مليًّا، وهو يتراجع إلىٰ الخلف، دون أن ينبس ببنت شفة، وكفقاعة في ذلك المساء الحزين انطفأ!

كان قد اختفى تاركًا الهُدْهُـدْ وحده، الذي مـا لبـث أن انفجـر في عاصفة من الهَدْهَـــدَّة الأســـيانة، تتناهشه المخاوف والهواجس والظُنُون!

¤¤¤

فيما الأفكار تشتعل داخلي، كان صديقي طائر الكستناء الملكي يصوصو "جج.. جك. جكجك.. جك..) أثناء إطعامه لفراخه! كان يقول أنه سيعاقب كل من لم يأكل منهم، ودُهشت كثيرًا حين التفت إلى قائلًا:

"جكجج..كج..كجكج.."...

كان يسألني إن لم أكن مرتبطًا فجر الغد، لنطير معًا، إلىٰ مكانٍ وفير الغذاء اكتشفه، مصادفة، أثناء طيرانه، بحثًا عن طعام لفراخهِ حديثة التفقيس!

رُبّما يعتقد الإنسان —المغرور— باستعلائه، وسعيه لإلغاء اللُغات الأخرى، وإحلال لُغته محلها.. إن لغتنا، البسيطة، ليست سوى ظاهرة بدائية من ظواهر الأقليات والشعوبيين، في شعوب وأمم الطير! فالإنسان كعادته يحب مغالطة الأرقام، ولي عنق الحقائق،

وطمس هُوية كل ما هو ثابت علميًا بالدليل، إذا تعارض مع توجهات ثقافته السائدة!

¤¤¤

انكمش "المريود" في رُكنٍ قَصيٍّ من الزنزَّانة، وهو يستعيد وقائع حياته، في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجُغرافيا والنَّاس وتتداخل الأزمنة!

لكأنه يسقط في ثقبٍ زمني منه وإليه! يرى وجه الخليفة (تور الجر الثاني) كالحًا متجهمًا! يرى أمراء "أم كَواكيَّة" فلا يستطيع تمييزهم عن "الجنكويز" فيما البلاد الأسِيرة، هي ذاتها بعجفها المتجدِّد في كل عصر! يتنهد بحسرة، وتَجري على خديهِ دمعتان مشنوقتان!

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزيًا:

"الأمر لا يستحق، يا مريود، الأمر لا يستحق يا عزيزي".

¤¤¤

"نعم مستحيل"..

أنا المنشق المريود رجب المريود، أؤكد ذلك، فجُذوري تمتد إلى كِليوَّة، أسلافي هم أولئك الأمراء والنبلاء، الذين فروا بجلودهم،

ليتحَالف أحفادهم مع أحفاد جلاديهم الغُزاة، الذين خرَّبوا موطنهم البديع!

لذا عندما أتساءَل الآن، إنما تتفجر أسئلتي، من منبع جراحات قديمة، لم تستطع مئات السنوات، التي عبرت على أجدادي، أن تطمرها بالنسيان فتندمِل!

تُرى هل كنت الوحيد الذي مرَّ أسلافه، بهذه التجرِبة؟.. أبدًا، لا، لا.. فالجنجوِيد الهاربين من قمع أبناء عمومة نبي الدِّين الجديد، الذين دانت لهم السُلطة، على إرث ذلك النَّبي، هربوا من صحاريهم القاحلة، وحلُّوا ضيوفًا- لاجئين، في القِبَل الأربعة للبلاد الأسِيرة.

هؤلاء الجنكويز، كالمُلهمين من قُوَى خفيَّة، فجأة نشطوا في كل أنحاءِ البلاد الكبيرة، التي لجأوا إليها، يصاهرون رؤساء القبائل والأعيان!

ومثلما تمكنوا من القضاء على كِليوّة، بمثل هذا النّوع من المصاهرات، التي انبنت عليها تحالفات، يسعَون الآن لتأسيس مملكة خاصة بهم على أنقاض فاز!

وهكذا من العدم على أنقاض كِليوّة وفاز نهضت (مملكة قرضاية السمراء) بتحالف هؤلاء الجنكويز مع النبلاء والأمراء، الذين لفظتهم كِليوّة البائدة، بسبب تكالبهم على المُلك، للحصول على قلب امرأة تأكل وتشرب وتتغوط، وتحيض ككل النساء؟!

تحالفوا مع الغُزاة، رغبة في الانتقام، من مملكة كِليوّة التي حرمتهم الزواج من حبيبتهم، دون أن يعلموا، أنهم في هذه اللحظة، يكوِّنون الجنين الذي ستنجبه دولة تور الجر الجنكويزي، بعد مئات قليلة من السنوات!

وما حدث في الصعيد والسافل ودار صباح، هو الشيء نفسه الذي حدث في دار الرِّيح، إذ نهضت ممالك القِبَل الأربعة للبلاد الأسِيرة، في تحالف الجنكويز، القادمين عبر الصحراء الكبرى ودرب الأربعين.. والأخدود الملوَّن، لتشكيل هذا اللقاء الفريد بين دار الرِّيح ودار صباح.. ولحكم كامل تراب البلاد الكبيرة، في "دولة الخالد تور الجر!".

كيف ننظر لكل هذه التحالفات الثنائية، في منعطفات مصيرية، عبر خلالها تاريخ البلاد الأسِيرة، فوَسمته بما نراه الآن؟!

هل كنت أول المنشقين؟ لا، ولم أكن آخرهم، فكثيرون مثلي، كرهوا رؤية هذه التحالفات، التي زادت النَّاس فقرًا وقهرتهم، فزرعت فيهم الخوف من كل شئ، وتسببت في كل ما حل ويحل بهم، ابتداءً من جرائم الزِّني واللواط، و انتهاءً بحالاتِ الطلاق والانتحار، فالبلاد الكبيرة التي لم يكن بها سوى حلفين فقط: "المقدّس سِرّه" و"صانع الفخار؟!" انقسم الحلفان لعشرات الأحلاف الموالية والمعارضة، يمينًا ويسارًا ووسطًا!

في كل زقـاق مـن أزِقّتهـا حـزب مـوال ومعـارض، في كـل بيـت.. في المحال التجارِّية والميادين والمركبات العامة، وتحت الأرض وفوقها!

وعلى فـروع الأشـجار، وأعمـاق النّهـر! أحـلاف وجـواسـيس في كـل مكان! وجميعها تـدَّعي الإيمـان بوحـدة مكونـات الشـعب مـن إنسـان وجُغر افيا، وشجروحجر، طيروزواحف، ونباتات ومُشاة على قـدمين وثلاث وأربع!

أوليس ود دَبرك من مكونات هذا الشعب؟

إذن لماذا تَتفقون جميعًا على اصطِياده؟!

بل حتى شعوب البلاد الأسِيرة المتوحشـة، التي هجـرت الغابات والأوديـة والأنهـار، بسـبب الحـروب الأهليـة طويلـة الأمـد، التي وجـد جنكويزها في الغابات والوديان والجبال، ملاذًا آمنًا، تعهدوا بإعادتها!

كيف لا أكون انقساميًا، في وطن كل ما فيه منقسم؟! كل شيء ينشق عـن كل شيء، مع الفسـاد الـذي خلق مجتمعـاتٍ مأزومة، ضـد نفسها!

أحـلاف دمـرت مشـاعركل كائنـات الـبلاد الأسِيرة الحيَّـة.. أينمـا تلفـت لا تجـد صـديق أورفيـق، حتى أُخـوة الحلـف الـواحـد، أصـبحوا أعداء يتحيَّنون الفرص للانقضاض على بعضهم!

أنا المريود لَمْ يَعُدْ عندي رَفيق! ولذلك انشقيت؛ وفي نفسي حُلم أن أُكوِّن "حلفًا للمنشقين"، أنا رئيس الحزب و أنا كل الأعضاء، ولن استعذ بالله من هذه "الأنا" فمن مثلي؟

ليس ثمّة ما يخيفني سوى شيء واحد، أن أنشقَّ عن حلفي الذي كوَّنته بنفسي كما فعل العرّاب الهميم، وكما كان "تورالجر" سيفعل، لو لم يمت بعد استرداد البلدة القديمة ومحاكمته وبطانته بأشهرٍ قليلة!

¤¤¤

"العرَّاب- الهمـــيم" الذي ورث عن جدِّه المقدَّس سرُّه الأول، كل جينات الخبث والدهاء، بعد كل ما صنعت عائلته المجيدة، من أمجاد؛ عبر تاريخ البلاد الكبيرة، ها هو يموت الآن: كجيفة بائسة دون وريث! مخلفًا وراءه أتباعه يتامى، لا وجود لهم دونه!

سـلالة المقدَّس سِرُّه على أُخريات عهودها، اضمحلت خصوبتها في إنجاب الذكور، ولم تعد تنجب سوى الإناث، لذا فكر آخر المقدَّسين في ملءِ الفراغ، بالبَحثِ عن طفلٍ يتبناه، ويُنشئه على مبادئ سلالته الآيلة للانقراض، فوجد ضالته ذات صبيحة غامضة، عندما كان متوجهًا خارج البلدة القديمة..

إذ رأى على إحدى أكوام القمامة لُفافة بيضاء تتحرك، كان بداخلها شيء حيّ، وعندما التقطها وقعت عيناه على طفلٍ حديث الولادة، فتبناه في الحال.

كان هذا الطفل الجنكويزي الصغير، هو ما سيصبح ذات يوم تور الجر الثالث قائد الجيش، الذي كان من نعومةِ أظفاره، لا يكاد يرفع عينيه بوجه أحد.. دائمًا يبدو مكسورًا ومنكسرًا منذ وعى الدُّنيا في كنف العرَّاب!

والذي بالفعل سيصبح بفضل هذه الرِّعاية الخاصة، قائدًا عامًا لجيش البلاد الأسِيرة! ولسنواتٍ طويلة، أكثر مما كان متوقعًا، قبل أن تقضي على حياته قنبلة انفجرت بغتةً في الطائرة التي تقله إلى الصعيد، ومن ثم تدك بعدها، شعوب البلاد الأسِيرة عرش الحاكم الجنكويزي العام إلى الأبد!

لم يكن يخطر على بال العرَّاب أبدًا، أن الحاكم العام، سيتولى قيادة الجيش أيضًا بعد أن قتل قائده، محتفظًا في الوقت نفسه بسلطاته كحاكم عام.

كما لم يخطر على باله أبدًا، أنه سينقلب عليه هو نفسه ذات يوم ويذيقه الذُّل والهوان، إلى أن تُوفِّيَ كمدًا! ترافقه مرارة لا حد لها، وآلاف اللعنات تودعه مثواه الأخير، غير مأسوفٍ عليه!

الجموع الغفيرة التي شاركت في تشييع جثمان العرَّاب إلى المقابر، كان بعضها يريد أن يستوثق أن الرّجل قُبر فعلًا، ولن يعود بعد الآن لممارسة هُواياته القبيحة، في التلاعب بمشاعر النّاس ومصائرهم، كانت قد أربكت حركة السير والمرور في المدينة الزّاهية، بعد أن أغلق الجنكويز، الجسرين الرّئيسَين على النَّهر!

تصدَّر الجموع أنصاره وتلاميذه الجَنكـــويز، الذين توزعوا بين حزب الحاكم العام الذي انقلب عليه، فانشق عن حــزب الجنكــويز الرَّئيس، الذي ظل العرَّاب يتزَّعمه، الى أن و افته المنِّية!

الأحزاب الجنكويزية المتوالية والمتعارضة على السواء، شاركت في التشييع! والمفارقة أن عددًا من حركات صانع الفخار المسلحة، أرسلت برقيات تعازي، رُبما لذَّر الرَّماد في العيون، أو درءًا لشماتة، أو رغبة في الظهور بمظهر العقلاء المتسامحين مع العرَّاب، على كل ما ارتكب من جر ائم في حق شعوبهم، التي حملوا لانتــــــزاع حقوقها السلاح!

كان في مقدِّمة المعزِّين، عشية مواراة جثمانـــــــه الثرى، الحاكم العام الجنكــويزي، الذي نعاه أيضًا على صفحته بالفيسبوك، مُرفِقًا ذلك بتغريدة على تويتر، مبللة بدموع تماسيح إليكترونية، فاقت خيال الخوارزميات الكمبيوترية للهكرز الهنود!

لكنه بناءً على نُصح مقربين، سرعان ما غادر إلى قطـر في طريقـه إلى "إسـتانبول" قُبيـل التشييع، بقليـل، وقبل أن يسترسل في أحز انه الزَّ ائفة على صانعه، الذي انقلب عليه!

جنكـــــويز حزب العرَّاب انشغلوا بُعيد الدَّفن مباشرةً، بالإجابة على سؤال:

من سيخلف العرَّاب؟

خاصة أن المقبور، هو آخر أفراد سلالة المقدَّس سِرُّه! ورغم كفاحه الطويل، لم يُرزق من صلبه بمن يخلفه، لذا سارعت الأمانة العامة لحزبه، إلى الانعقاد!

ووفقًا للنظَّام الأساسي، اختارت فجر اليوم التالي للوفاة، أحد شائهي الوجوه مــن صــنائع العــرَّاب، لطالما لقبه أعدائه داخل حزب العرَّاب نفســـــه، بالشيخ "الضبع" كأمين عام مؤقت، لحزب العرَّاب المقبور، إلىٰ حين انعقاد مجلس شورى الحزب، الذي كان بعض أعضائه، قد نفاهم الحاكم الجنكـويزي العام، في صـفقات غامضـة إلى إسرائيل ودول أخرى غربية، تربطه بمخابراتها، صلات سرِّية غير معلنة! لتســتفيد تلك الدول من معلوماتهم، عن حركات الإرهــابيين المتطرفة، التي أسسـوها فيما مضـى، أو تلـك التي رعوها أو يديرون ملفاتها!

وهكذا أعلن الأمين العام الجديد، أن مجلس الشُورى سينعقد، بمجرد وصول أعضائه من المنفىٰ!

ولم يمضِ على هذا التصريح سوى يومــــــان، حتى وصل الحاج "خابور" أحد المنفيين من القيادات البارزة، بعد غياب دام عشـــرون عامًا، إثر انقلاب الحاكم العام على عرَّابه!

جموع الأهالي، كانت لا تزال تملؤها وساوس، بأن العرَّاب على قيد الحياة، رغم أنهم شهدوا مواراته الثرى بأم أعينهم! فهم لا

يصدقون لشدَّة ما عاشوه من بؤس وأحزان، بسبب فكرته المدمرة عن بناء الدول!

أحد رؤساء الأحزاب الجنكوِيزيــة التارِّيخيــة، ورئيس وزراء آخر نظام جنكـويزي، اختاره شـعب الجنكـويز، كان العراب قد دبر ضده الانقلاب، الذي أطاح به وجاء بالحاكم العام محله، قال متبجحًا:

"حفاظًا على إرث الآباء، استبدلنا قبضة رخوة، بقبضة محكمة!".

وفي الحقيقة رئـيس الـوزراء الجنكـويزي السابق، الذي لم ينسَ هذه العبارة أبدًا، كان يجاهد لإخفاء غبطته، فقال وفي داخله يعتمل حقد مرير على المقبور:

"إن البلاد فقدت مفكرًا وعالمًا، جمع بين الفكر والعمل".

وأشار إلى اتفاقه معه في مواقف عدّة ضد الانقلابات، التي ظلت تهدد استقرار الـبلاد الأسِـيرة! ولم ينسَ أن يشير إلى خلافه معه، حول عدد من قضايا شعب البلاد الأسِيرة..

فيمـا كانـت هـذه الأمـورتجـري، طالبت حركات صانع الفخار في البلاد الأسِـــيرة، الجنكـــويز أن يتخذوا من رحيل العرَّاب، مناسبة للعـودة إلى صـوابهم، ويكفـوا عـن الاسـتبداد واسـتعباد الأهــالي المســاكين، فـــانبرى محللين وصحفيين وكتاب القُوَى الجنكويزيــة، الموالية للحاكم العام والمعارضة له، للتصدِّي لمطالـب حركات صـانع

الفخـــار، وذهبـــو مذاهب عدَّة، في استعادة ماضي العرَّاب وحاضره، قُبيل وفاته، وتأثيره على حياة البلاد الأسِـــــيرة، منذ بلغ الحُلم وخلف المقدَّسُ سِرُّه الأبَ الرَّهيب!

و"شرَّقت" أفكار هؤلاء و"غرَّبت" بما أسالوا من مداد، كما عنَّ لهم! مع إدراكهم التام، أن الرجل لم يكن وقومه وحزبه، سوى عبئًا ثقيلًا على كاهل هذه البلاد الحزينة! و أنه لا يستحق سوى اللعنات!

وفي الحقيقة أن موت العرَّاب، بقدر ما أطلق أحلام الطامحين في الحلول محله، من قادة أحزاب الجنكـــويز، إلا أن ما لا شك فيه، أن قداسته كان عبئًا كبيرًا، انزاح عن كاهل الحاكم العام، الذي أدرك أنه سينجح في تعزيز قبضته في مقبل الأيام، بقوَّة النياشين التي تقلدها على جماجم الأهالي، ويكرِّس انفراد حزبه بالساطور، دونًا عن سائر أحزاب الجنكويز في البلاد الأسِيرة التعيسة!

وبين كل هؤلاء وأولئك، كان ثمَّة تلاميذ و أنصار حقيقيِّين للعرَّاب يفتقدونه، ولا يفتؤون من آنٍ لآخر يقصدون بيته، يبكون على جدرانه، التي باتت أشبه، بـــــــ أطلال معبدٍ قديم، لطالما ذرفوا على حو ائطه دموع التماسيح، رهبة وخشية لله!

¤¤¤

نعـــم، أنا المريود رجب المريود، آخر المنشقين من حزب العرَّاب، وفخور بـ انشقاقي، ستسألونني:

"هل اعتُقلت وعُذِّبت وقتلت النَّاس؟".

سأجيب:

"نعم.. فعلت ذلك في سبيل الله كما ظننت!".

"ما الأشياء التي فعلتها؟".

"بل ما الشـــيء الذي لم أفعله! فعلت كل شيء لإعلاء كلمة الله، أو هكذا ظننت: أن الأمر يتعلق بإعلاء كلمة الله!".

"لماذا تبدل ظنك؟".

"اكتشفت أنني إنما أعتقد في كلام العرَّاب، أفكار العرَّاب.. اكتشفت أن كل ما كنت أفعله: لا علاقة له إلا بإعلاء كلمة العرَّاب! اكتشفت أن كل ما فعلته من وحي أكذوبة محض!".

"هل أضلك العرَّاب، كما أضل المنتظر أهالي البلاد الأسِيرة؟".

"لا؛ لم يُضللني، كغيري ضلَّلت نفسي، أنا المسؤل الوحيد عن أفعالي، ولكن هل استحق القِصاص وحدي؟".

"لا..".

"هل تعتقدون أنكم أفضل مني؟".

وضحك وهو يتألم من التعذيب، ثم أضاف بصوتٍ واهن:

"إذًا صدقوني، إن كان حزب العرَّاب هو كهنة معبد آمون، فأنتم لا تختلفون عن أركماني كثيرًا".

"ماذا تعني؟".

"أعني أن قدر هذه البلاد أن يكون زمنها دائريًا، يبدأ لينتهي إلى حيث بدأ".

"لكننا لا نبتدع دينًا جديدًا".

ابتسم ساخرًا:

"ستقولون لي وسأقول لكم.. أنا المنشق المريود، آخر أحفاد النبيل "أبوركبة" المتحدِّر من "كِليوَّة" العظيمة البائدة، إلى هذه البلدة الكئيبة السبخة، التي أرهقت النائحات!".

¤¤¤

تنهد ود دَبرك:

ما قاد لهذه الوقائعِ والأحداث، إن طائفة صانع الفخار الأم، حسمت خيارها.. اختارت الحرب، لأن الحرب دخلت بيوت النَّاس، على طول البلاد وعرضها لا تخلو أُسرة من قتيل..

ملايين المفقودين والقتلى والمنفيين والمعتقلين والضحايا، الذين حصد رصـــاص الجنكـــويز أرواحهم، لم تكن الحرب الخيار الأفضل، لكنها كانت أفضل الخيارات السيئة!

لذا قرر صانعو الفخار الحرب، لأجل وضع حد ونهاية لهذه المأساة، التي لم تلوح يومًا في أفق البلاد الأسِيرة، نهاية لها!

¤¤¤

انكمش المريود فـــــي ركنٍ قصيٍّ من الزنزانة، وهو يستعيد في ذاكرته المضطربة، التي تتداخل فيها وقائع التاريخ، فتختلط الممالك والجغرافيا والنَّاس، وتتداخل الأزّمنة!

لكأنه يسقط في ثُقبٍ زمني منه وإليه.. يرى وجه "تورالجر" كالحًا متجهمًا! يرى أمراء "أم كَواكِّيـة" يتوسـطهم التِرح، فلا يستطيع تمييز الجنكـــويزعن الجنكـــويز، ويرى البلاد الأسِـــيرة، بسنواتها القاسية العجاف، المتجددة في كل عصر، فيتنهد بحسرة.

يتمعن جادين جانو الحفيد وجهه بإشفاق ويقول معزيًا:

"لست الوحيد.. جرثومة الضلال والاستبداد ورثناها من أسلافنا في التاريخ الغابر، والتاريخ الذي نعيشه الآن!".

ويصمُت لبرهة ثم يتابع:

"كيف قرأنا علاقة كهنة أرتكني بالمقدّس سِرَّه، وعلاقة أبوركبة بأبي كردوس بتور الجربالتِرح.. كيف قرأنا العلاقات التي ربطت بين هـؤلاء وأولئـك ممـن صـاغوا وجودنـا الحيّ؟! جميعهم يمثلون عقلًا واحدًا، لهذه البلاد الحزينة..

أنه تحالف تاريخي رهيب؛ هذا الذي كان قدر صانع الفخار مواجهته، على مر العصوروالأزمنة.. كيف ننظر إليه؟".

لذا عندما أتساءل الآن، إنما تنحـــدرأسئلتي من منبع جراحات قديمة، لم تستطع مئات السنوات التي عبرت على أرماس اجدادي، أن تطمرها بالنسيان فتندمل!

هل كنت أنـا المريـود الوحيد الذي مرأسلافه من هنا؟ فهناك في جهة السـافل ودارصـباح، مرالعابرون، فتأسست مملكة زُمـردة على أنقاض مصاهرة بني دهـب لرؤساء "قبائل الهببـاي" الشـيء نفسه الذي قضى على كِليـوّة، لتتأسس على أنقاضها فـازوقرضـاية السـمراء من العدم، بتحالف "خـاتم الدولـة" مع النبلاء والأمراء "في قرضـاية الواعـــدة" أولئـــك الذين لفظتهم كِليـــوّة بسبب تكالبهم على المُلك، للحصول على قلب امرأةٍ لا تختلف كثيرًا عن ملايين النساء؟!

صمت المريود، وكل الوجوه تتغضّن ملامحها وتنفرد في السـكون الــذي خــيم علــى الزنزّ انــة.. أشاح جادين وجهه عن المريود، وتنهد تنهيدة عميقة، قاطعًا الصَّمت، الذي هيمن على فضاء الزنزانة بكَلْكَلِه، قبل أن يقول:

"هكذا بدأت الحكاية، من منتصف مسافة التاريخ، في تلك الظهيرة البعيدة الحارقة، من ظهيرات يوم من أيام قبل الميلاد، حيث اجتمع كهنة معبد آمون، على جبل البركل، يتداولون في أمر الملك أركاماني "ارجمنيس" الذي بات لا يأبه لسلطانهم عليه، ولا يرجع لهم في القرارات المهمَّة، ولا ينفذ ما يأمرونه به، هم كهنة آمون العظيم، قال كبير الكهنة:

"لطالما تخلص كهنة آمون من ملوك أعظم شأنًا من أركماني، فما بالنا نحن نتردد الآن".

فرد كاهن آخر:

"أركماني ليس كالملوك الآخرين، لم يمر على "كوش" العظيمة مخادعًا متمردًا مستبدًا مثقفًا مثله".

قال أحد الكهنة الحكماء:

"كان خطأً كبيرًا أن تركناه يرى العالم؛ فيسافر لطلب العلم في أصقاع الدُّنيا.. لا بد أن ذلك غيره كثيرًا".

"إذن..".

قاطعه أحدهم:

"إذن ليس أمامنا سوى الحيلة".

فانتفض كبير الكهنة في مجلسه على دكة الصخر؛ وقال بغضب:

"نحن الآلهة، كهنة الإله العظيم آمون، الذي يخشاه كل من في الأرض، يجب أن يسمعنا، اكتبوا له أمرنا".

نظر الكهنة في وجوه بعضهم البعض، ولم يستطع أحدهم أن يتفوَّه بحرف، بعد أن أمر كبيرهم بما أمر. ترددوا لبرهة، قبل أن يشرع أحدهم في الكتابة على ورقة بردي طازجـــة، رسالة إلى أركماني يأمرونه فيها بالانتحار كما جرت العادة، تنفيذًا لإرادة الإله العظيم آمون!

وعندما أدخل الحاجب الرِّسالة إلى أركماني، وقرأها الأخير، شعر أنهم أعطوه فرصة التعجيل بموتهم، فلطالما كره ادعاءهـــم احتكار الدين، وهم في الحقيقة يستغلونه لاحتكار الدُّنيا، ولذلك بدلًا عن الانتحار، أصدر في الحال مرسومًا، يجرد الكهنة من سلطاتهم الإلهية، وإلغاء الاغتيال الطقوسي للملك، ومن ثم زحف بجنوده على معبد آمون في جبل البركل، حيث مـــا زالوا مجتمعين، وقام بقـــتلهم جميعًا! وهدم المعبد على جثثهم!

ومن ثم أمر بتشييد هرمه في مروي (البجراوية) بدلًا عن نبتة (نوري)، منتقلًا بمركز الدين والثقافة والحضارة من موقعهمـــــا القديم!

بعد أن اخترع كهنته الجدد، الذين انتقاهم بعناية "الكتابة المروية" و ابتدع الإله دماس الفيل إله الشمس والخبز والحرية! الذي يضاهي آمون قوَّة، و انكفأ على "كوش" يبني ويطور ويجدد في كل شيء!

¤¤¤

بعد جدال طويل وأخذ ورد نهض أبو ركبـــــة؛ ونادى المنادي في قادة العسكر! وفيما كانت حدَّة الصراع بين فـازودار الـريح تشتعل، والنزاع داخل الأسرة الفازيـــة الحاكمة تتسع هوته، نشط أعوان أبو رُكبة يهيئون الأوضاع لعزل الملك، مستعينين بنبلاء فاز الساخطين!

وهكذا أخيرًا اجتمعت سائر العناصر المتضررة الأخرى حول "دعوة البعاعيـت" بقيادة النبيل الشاب أبو رُكبـة، الذي التف حوله "أتبـاع صـانع الفخـار" الذين هم عناصر شتى من أجيال جديدة من "نبلاء كِليـــــــوَّة البائدة" و"أمراء الحرب" و"الجنود" من "العبيد" و"التجار" و"الفقرا".. وكان قائدهم "أبو رُكبــــة" النبيل الشاب من "فاز"، قد شقَّ طريقه إلى قمة القيادة العسكرية في "دار الـريح" "ودار صباح" بجلده وحنكته وعزمه.

الالتفاف الذي وجدته "حركة أبــو رُكبـــة التصحيحية" ما كان ليتم إلا لفساد الحـاكم الجنكـويزي الفـازي أبـو كـردوس، و انفراده بالسلطة وقتله بقية "الأسرة المالكة من نســل الســلطان خـــراب العامر".

كما أن أبـــا كـــردوس غيَّروبدَّل في الأنظمة، التي تحكم وتنظم "السلطنة" وتجرأ على أفعال ذميمة، أهونها القتل والنهب، كما قتل أحد صانعي الفخار، ممن كانوا أهالي فـــازيكنُّون له الحب والتقدير! وبالجملة قد ظهرت منه أمورشنيعة، نفرت منه قلوب رعيته!

لذا ظهرأبــــورُكبـــــة، الذي كان قد شكَّل مركزًا محورّيًا بعد انتصاراته المجيدَّة، التي تغنَّت بها الحكامات، في حروبه في دارالريح والصـعيد، بما أظهره في المعارك من قدرات عسكرية مبدعة! كما أنه كان صاحب شجاعة خطابية، وقدرة فذّة على المواجهة رغم أنه (كان تمتامًا)!

قصد "أبوركبـة" فـازبعد "اتفاقه" مع "أعيان البعاعيـت" على عزل "أبـوكـردوس" ومعه الجيش و"العبيد" ومهمشين أطراف البلاد الأسـيرة و"أمراء الدولة" ونزل "بقـوزالتنبـاك" حيث أخذ المواثيق والعهود، وأرسل مناورًا، إلى "مرجـان" ابن "أبـوكـردوس" يلوِّح له "بأن يحل محل أبيه!".

وعندما جاءه الرَّد إيجابًا، تحرّك بجيشه قاصدًا "فـــــاز" التي أرسل وهوعلى أبوابها "للسلطان أبـوكـردوس" الأمان، فخـرج الأخير إلى "قمربوبا" في ذلة ومسكنة!

حركة أبوركبـــة التصحيحية؛ كانت أول انقلاب أبيض في تاريخ البلاد الأسِـيرة! أمسك فيها بمقاليد الأمورعمليًا، بينما ولى اسميًا ابن

السلطان المخلوع، قبل أن يقتله فيما بعد، ليعين جرّاب الفيل شقيق السلطان المخلوع محله!

سعى أبو ركبـة لإزالة المظالم، وعدَل في الرّعية وأحسن إلى أتبـاع صانع الفخار، وهكذا استمرّت سلطنة البعاعيت على انقاض مملكة فاز، إلى أن سقطت تحت سنابك خيل الغُزاة الأتراش.

صمت جادين، فحك المريود رأسه وهو يقول:

"لكن لم تتوقف القصة هاهنا، على الأقل بالنسبة لي أنـــــــا المريود، الذي عاش حياة البلاد الأسِــيرة في تاريخها، ورأى الجنكـــويز الذين جيَّشهم العرّاب، وهم يموتون تحت المجنزرات في الصعيد ودار الرِّيح، لينزع عنهم العراب في خاتمة المطاف صفة الشهداء، ويصفهم بـ"الفطايس!"..

هؤلاء الفدائيين كـــــانوا رفاقي، هل كانت أرواحهم رخيصة، لا.. لقد آمنوا بأفكار العرّاب، كما آمن الفقــراء والمســتعبدين بصــــانع الفخــــــار! فلم تهمهم الحياة.. انتحروا في سبيل ما آمنوا به، يمنُّون أنفسهم بحوريات لا مثيل لجمالهن، في عالم آخر غير هذا العالم!!

لكن حقًا هل كان مشروع العرّاب هُراء؟! هل كان منبتًا، أم حلقة متصلة بحلقات سلفَتْ؟

¤¤¤

البلدة القديمة، على عهد النظام الذي أسسه المقدّس سِرّه الأول.. هذا النظام الذي تعاقب عليه حكام عامين، من أسرة المقدس سرّه المالكة، عهدًا أثر عهد، ظلت نموذجًا مصغرًا لكون البلاد الأسِـــــــيرة، فقد كانت مركزًا للمدينة الزّاهية، وللبلدات والقرى والفرقان والحلالات حولها، التي ظلَّت بمثابة هوامش، تعكس عليها البلدة القديمة أزماتها.

ثمَّة تفاعل غريب، خفي بين البلدة القديمة وهوامشها، إذ يتجاور الثراء والفقر، رفعة المكانة والضعة، المعرفة والجهل.

لذا أصبحت البلدة القديمة، بمثابة مختبر غريب، يمكن خلاله دراسة كل شيء عن البلاد الأسِيرة، ومفارقاتها وعوالمها البائسة!

فانخفاض مستوى حياة أهالي البلدة القديمة، وانخفاض مستوى أحلامهم، هو المستوى المنخفض نفسه، في كل جزء من البلاد الأسِـــــيرة، ليس هذا فحسب، بل فقدان الشعور بالمسؤولية، والرّغبة في إحداث فرق، تجده في وجوه الأهالي، بطول البلاد وعرضها.

درجة مروعة من البؤس واليأس، فكل النّاس تركيزهم انحصر في نقطة واحدة: اللَّهث خلف لقمة العيش، التي باتت عزيزة وبعيدة المنال!

فرغم الخيرات المهولة، التي حظيت بها البلاد الأسِـــــيرة، إلا أن أهلها ظلوا يعيشون ضنكًا مفزعًـــــــا! أدَّى لتفسخ مخيف، وتفكك

للروابط التي تربط النّاس ببعضهم، بدءًا بالأسرة، مرورًا بالمجتمع الكبير، وصولًا للعلاقة بالبلاد الأسِيرة كوطن!

فأول ما تلاحظه العين بنظرة عابرة: ضعف الانتماء! فقد فقد الأهالي ثقتهم في النظام والدولة؛ منذ أمدٍ سحيق، بسبب إرغامهم على أداء واجبات، لا تقابلها حقوق يستحقونها!

وربما هذا هو الشـــيء الوحيد، الذي نجح فيه النظام، الذي أرسى قواعده المقدّس سِرّه الأول: إخماد روح الانتماء لهذه البلاد السمراء الجميلة، وقارتها السوداء النبيلة، بكل السبل!

¤¤¤

كانت مليشيات الجنكـــويز، قد استهدفت الأهالي بـــإيعازمن الحاكم العام، الذي اتهم طائفة صانع الفخارفي دارالرِّيح، بدعم ثوار الطائفة المسلحين في الصعيد، فبدأ الجنكـــــــويزعملياتهم بسرقة المواشي، وخطف الفتيات، للتمتع بهن كسبايا أوكخدم في المنازل، أو في أعمال الزراعة، أو كرعاة دون أجر، وهو نوع من الاسترقاق لم تشهده البلاد الأسِيرة حتى في أشد عصورها المظلمة حُلكة!

¤¤¤

فيما بروف محمود غارقًا في مقعده الوثير، خرج جادين عن صمته وأخذ يقرأ التقرير بصوت مسموع:

وفي إفادات ناجية، تمكنت من الهرب من المدينة المحترقة، أنهـــا قطعت أكثر من أربعين كيلو مترًا، لتصل إلى دولة الجوار، على رجليها، وأكدت أن هناك إعدامات سريعة نفذها الجنكويز، عندما اقتحموا المدينة صباحًا، وكسروا المتاجر وأخذوا الأموال والسكر، وجميع البضائع.

كما قتلوا كل من رأَوه، ثم اقتحموا بعد ذلك على الأهالي بيوتهم:

"إنهم يأتون إلى المنازل، بحثًا عن الرجال والصبية لقتلهم، لقد قتلوا شقيقي، صاحب متجر عمره ثماني عشـرة سنة في السوق، لقد قطعوا أشجار الفواكه في مزرعتنا لتغذية جِمالهم".

و أفادت امرأة أخرى كانت قد رأت الجنكويز يداهمون قريتها:

"نهبوها، وأحرقوها، بينما كان الرِّجال في الخارج.. زوج ابنتي كان نائمًا في المنزل، فـــأيقظوه وضربوه ضربًا شديدًا بكعوب السلاح، والعصي حتى فارق الحياة"..

فيما قالت أخرى:

"وصل الجنكـــــــــويز، فأمروني بمغادرة المكان، جلدوا النساء والأطفال، وقتلوا طفلة صغيرة عمرها سنتان، طعنًا بالسكين على ظهرها".

وشاهدت امرأة ابنها يُسحب من منزله:

"لقد قيدوا قدميه ويديه، ثم ذبحوه على مرأى من النّاس، كانوا يرتدون الزِّي العسكري الرّسمي، ويحملون الأسلحة، ويمتطون الخيل والجمال، كان ابني أعزل عندما قتلوه، وكنت ذاهبة إلى الصلاة عندما أصابتني شظيتان، إحداهما في كتفي اليسرى، والأخرى في بطني، فحملني أخي إلى المستشفى في المدينة، أعرف أُناسًا أُعدموا، مثل كرشوم كوكو.. عندما كنت في المستشفى جاء الجنكويز بحثًا عن الرجال الذين لم يموتوا، ليُلحِقوهم بالذين قتلوهم"..

كان الجنكويز يهتفون وهم يرددون:

"أنتم معارضون للحاكم العام، والمقدّس سِرّه، سوف نسحقكم. أنتم عبيدنا.. سوف تبقى دار الرِّيح كلها بأيدينا، نحن الجنكـــــــويز! الحاكم العام إلى جانبنا، وطائراته إلى جانبنا، تمدنا بالذخائر والمؤن، و أنتم ليس لديكم شيء!".

ويمضي التقرير في وصف الهجوم الأول على تلك المنطقة:

"حاصر الجنكويز القرية وأطلقوا النيران، على المواطنين العُزّل، فقتلوا كل من وقع في أيديهم، بعضهم قُتل داخل المنازل، فيما هرب الباقون. أما في الهجوم الثاني، كانت القرية خالية من المواطنين، فقام الجنكـويز بسرقة الممتلكات وحرق المنازل، وتدمير ما بقـي منها، وفي نفس توقيت هذا الهجوم، تعرّضت قُرى أخرى للهجوم أيضًا!".

وأدلى أحد الناجين بشهادته قائلًا:

"كان ذلك في يوم السوق.. عدد الجنكويز كان كبيرًا جدًّا، ومن لهجات بعضهم، كان واضحًا أنهم من جنكويز الجوار، غالبًا غرب إفريقيا، وكانوا مزودين بعربات كثيرة، فاجؤونا بالهجوم عند الفجر. وقتلوا كل من وجدوه بالأسلحة المحمولة على العربات"..

وتعرّضت قرية أخرى، في التوقيت نفسه للهجوم من قبل جنكويز آخرين، أخبر أحد سكانها وفد المنظمة قائلًا:

"الجنكويز أحرقوا منازلنا، وسرقوا مواشينا وممتلكاتنا.. سرقة المواشي تحدث منذ عهد المقدَّس سِرُّه الأول، ولكن حرق القرى أمر جديد!

لقد جاءوا على ظهور الخيول والجمال، مزودين بالكثير من الأسلحة المدمرة، هذا غير الألغام التي زرعوها، في أماكن متفرِّقة، لا يعلمها أحد سواهم، فقد مات بها أو بُترت أطرافهم خلق كثيرون، إننا نعرفهم، فبعضهم من نفس المنطقة، ولد أسلافهم هنا وعاشوا بيننا، ونعرفهم أبًا عن جد.. واحدًا واحدًا، كنا أكثر من أُخوة، ولطالما تزوجوا منا وتزوجنا منهم، لا ندري ما الذي حدث لهم، فأصبحوا يقتلوننا، بعضهم لا نعرفه، فقد جاءوا من دول أخرى، حتى لهجتهم نفسها مختلفة، لكنها لُغة الجنكويز ذاتها!

لقد هاجموا الرجال العُزّل واغتصبوا النساء، وقتلوا الأطفال.. نحن مرعوبون!".

وأضاف آخر:

"كذلك كانوا يركزون على قتل الشباب، لكن ذلك لم يمنعهم من قتل المسنين والعجزة، الذين لا تسعفهم عاهاتهم وصحتهم على الهرب!".

المقدّس سِرّه وجنكـــــــويزه لطالما رغبوا في فصل الصعيد ودار الرِّيح، كانوا يشعرون بهذه الأجزاء من البلاد الأسِيرة عبئًا على هُويتهم المقدَّسة وعرقهم النّقي! فشيدوا الأسوار العازلة..

وقتها، لم يكونوا يعلمون، أن في باطن أرض هذه الأجزاء، من البلاد الأسيرة، تكمن ثروات ومعادن لا حصر لها!

وعندما علموا، قرروا إبقاء هذه الأجزاء جزءًا من البلاد الأسـيرة لكن كيف، وقد ظلوا يُشيدون الجدران العازلة طوال تاريخهم، كيف يقنعون هذه الشعوب، هؤلاء الأهالي الطيبين، الذين عبروا أنهار المذابح إلى شواطئ العبودية والمجاعات، وحروب الموارد في أوطانهم المنهارة، ومع ذلك يتحملـــــون عبء النزوح عبر الحدود، من الجوار نتيجة الجفاف والتصحر.

هذا الضغط السكاني المروع لنازحين من الخارج وجنكـــــــويز الدّاخل، على هذه الموارد الشحيحة، ولد مآسي لا يمكن تصورها! كيف بإمكانهم إقناع هؤلاء، للتوحد معهم مرّة أخرى.. ألم يستمعوا إلى غنائهم الحزين، الذي يحمل شكاوى آلاف السنوات، ألم يسمعوا شعرهم، وهو يكشف عن أثرٍ لا ينمحي للمأساة؟

هؤلاء النّاس.. هؤلاء الناس لقــرون طويلة، تشبثوا بهذه الأرض المنبسطة دون أسوار، لم تعد هي الأرض ذاتها، عندما شُيدت الأسوار متطاولة، تبلغ عنان السماء، لم يقرروا المغادرة.. لم يقرروا الانفصال.. كان الجلادون الجنكـويز، هم الذين يقررون كل شيء عبر العصور، ومع ذلك ظلت حياتهم رغم قسوتها تمضي، متشبثة بـــالحُلم بغـــدٍ أفضل، إلى أن بدأ القتل المنظم باسم الدين والأرض والهُوية! فكيف ينتهي هذا.. كيف؟!

¤¤¤

في رأس جادين جانو، تومض وتنطفئ على نحوٍ متقطع كل الحوارات، التي دارت بينه وبين زملائه المعتقلين، في هذه الزنزانة الضيقة، المنفية في التاريخ والجغرافيا..

تمر بخاطره حركة النّاس والشارع.. هؤلاء النّاس الذين هيمن الشك والرّيبة علي نفوسهم، حتى لم يعودوا مبالين بشـــــيء، كانوا ينتظرون العيد بفارق الصبر، ليزوروا الأحبة، ويعانقونهم وهم مملوئـــين بالشوق والحنين، ويصافحون الغاشي والماشي، ويبتسمون بوجه الأعداء ولسان حالهم يقول:

"الدنيا عيد"..

كان "كلامهم أنغام، ولغوهم بسَّام، وحين يتقابلون ينطقون بالسلام".. حتى أغنياتهم كلها كانت شوقًا وريد، يملأ سرورهم القلب منه وإليه!

من الغباء أن نتساءل عمَّا حدث لهم، فالحاكم العام منذ بيانه الأول، بعد نجاح انقلابه العسكري على المقدّس سِرّه أكد بوقاحة، أن من أراد إسقاطه، فليحمل السلاح، وكشف عن نيته في البقاء على صدور النّاس، كاتمًا أنفاسهم، إلى أن ينمحي من ذاكرة الأهالي، كل أثر لتاريخهم الغابر المجيد.

محو اسم صانع الفخار والخزين وأركماني، وبعانخي، الكنداكة، والشايب جقندي حافظ تاريخ البلاد الأسـيرة.. محوهم من مصلحة الآثار ومن دار الوثائق، ومن المقررات المدرسية، وسحق ما تبقَّى من آثار لمعبد البركل، وكل المعابد القديمة في البلاد الاسِيرة!

ومع ذلك، هذا السحق المنظم، انعكس كنصل صَدِئ، ضد نظامه الشائه، فظلت التظاهرات تخرج، والجماهير تهتف في شعاراتها، بكل الأسماء التي حاول محوها من ذاكرة النّاس ووجدانهم.

بعثوا تاريخهم المجيد، من غياهب الاستبداد والتواطؤ والتآمر والنسيان، وأخذت كل قطاعات الشعب تعمل سرًّا، علـى كـنس الجنكويز ونظام المقدّس سِرّه، إلى مزبلة التاريخ!

النحاتون والرّسامون، الذين هجروا فنهم ملـؤوا الشوارع بمنحوتات ولوحات رموز التاريخ الغابر، السياسيون والمثقفون والمقاتلون، وزعوا مناشيرهم في كل مكان، حتى قصر الحاكم العام نفسه، كانت كل الشواهد تقول، أن شعب البلاد الأسِـيرة ينتفض،

فـــالأهالي الذين أخذوا يطلقون، على تظاهراتهم أسماء رموز التاريخ المجيد، استعادت أرواحهم ذواتها، من الأسر، فانطلقوا يتظاهرون في جمعة الكنداكة، وفي تظاهرة خميس أركماني الغاضب، إثنين صانع الفخار الولي الصالح، ثلاثاء الشايب جقندي حافظ التاريخ، أربعاء النبيل أبوركبة..

وهكذا شحذت ذاكرة الأهالي ذاتها، تُحيـــي وجدانها السليب، وتشيع مناخات من التوتر، تعم البلاد الأســـــيرة، فتمتلئ الشوارع والطرقات بمدرعات الجيش الجنكويزي وحزب المقدّس سِرّه!

في الزّنزانة، التي لا يعرف موقعها بالضبط من جُغرافيا البلدة القديمة، بعد أن رحلُّوه واثنين من زملائه، إلى وجهة غير معلومة، إلى هنا هذا المكان..

يتكئ جادين برأسه على جدار الزّنزانة، وصوت تنفس المعتقلين وغطيطهم، لا يفتأ يشوش أفكاره المنهكة، التي يحاول استجماعها جاهدًا، يعود بذاكرته للوراء، إلى تلك اللحظة التي داهم فيها الجنكويز مكتبه، في تلك الصبيحة الغائمة.

كان قبل أن يتهالك جسده الفارع، الذي لا زال يحمل آثار سهرة ليلة البارحة مع هيلدا، على المقعد المتحرِّك خلف مكتبه، قد سمع صوت جلبة خارج المكتب، وقبل أن ينهض ليستوضحها، داهم مكتبه خمسة مـن الجنكـويز المسـلحين بأسلحة أوتوماتيكية قصيرة، انتهره أحدهم بحدّة:

"أنت جادين جانو؟".

اتسعت عيناه المتسائلتين، فشحذ قدرته المدهشة، في الحفاظ على هدوء أعصابه، في الظروف العصيبة، ورد بهدوء:

"نعم أنا جادين".

وبعد أن بعثروا كل شيء في مكتبه ومكتب بروف محمود ومكاتب زملائه، ونقبوا في كل بوصة في المكان، أشار الرّجل بمقدمة سلاحه، إلى الباب في حزم:

"تعال معنا".

لطالما كان يتحسب لهذه اللحظة، كما ظل شعب البلاد الأسِيرة يتحسب، ويراقب ما يجري!

كان يراقب كل شيء.. لذا عندما أعلنت كنيسة البلدة القديمة، أنها تراجعت عن إحراق تلك الجُمجُمة، التي وجدها القسيس غبوش كُوَّة تحت تراب شجرة الجُهنميَّة الحمراء، وقررت إهداءها لمعهد جار النبي لدراستها، متخذةً بذلك قرارًا ثوريًا، نال استحسان المعهد، في الحقيقة لم يكن القس غبوش يأبه كثيرًا لعقيدة الكنيسة في عدم نبش قبور الموتى!

لكن من الجانب الآخر، أخذ مسيحيُّو البلدة القديمة المتطرفون، يتساءلون عن مدى تجذر الإيمان والورع ومحبة سيدنا

يسوع، في وجدان هؤلاء القساوسة العلمانيين الكفرة! منذما قاطعوا صلاة يوم الأحد في الكنيسة، التي قل زوارها أساسًا منذ زمان بعيد!

ولم يصدق علماء المعهد أنفسهم، والذين كانت تدور حولهم شبهات كثيرة، بأنهم أخيرًا حصلوا على الجُمجُمة، هذه الهدية الغالية التي منحتها لهم الكنيسة، بعد أن تمكن القس غبوش كُوَّة، من إقناع رهبانها وقساوستها، بإهدائها للمعهد!

وما أن حصل عليها المعهد، حتى بدأت المراسلات بينه ومراكز البحوث الأثرية في العالم الواسع، ومن ثم حملتها هيلدا بعناية وطارت بها إلى ألمانيا!

زفر جادين جانو زفرة حارّة، و انتفض على صوت باب الزّنزانة يُفتح بشدَّة، مفسحًا لصوتٍ غليظ، أجش:

"جادين جانو".

"نعم".

"تعال معنا".

تحامل جادين على جسده، ونهض متكئًا على الجدار، جرجر رجليه، اللذين شعر بهما ثقيلتين، لا تقويان على حمله، من أثر الجلوس على الأرض مقعيًّا!

عند مدخل الباب، دفعه أحد الجنكويز إلى الخارج بعنف، فوقع على الأرض وهو يتأوه من الألم.. جذبه الجنكويزي بقسوة وهو يصرخ فيه:

"انهض يا بن الكلب.. أنت لم ترى شيئًا بعد".

كانت يده الثقيلة؛ قد أحكمت قبضتها على ياقة قميصه، دفعه أمامه وهو يلطمه، ويركله من آنٍ لآخر.

شعر جادين بذل ومهانة لا حدود لهما، كان يتأوه وهو يسمع صرخات غاية في الألم والعذاب، تنبعث من الزَّنازين حوله، وكانا كلَّما تقدَّما ومرَّا بأحد الجنكويز يضربه بقبضة يده أو يركله..

لا أحد هنا يسأل المعتقل عــن جريمتــه، فهو مستباح للجميع، الكل يضربه، يشتمه، يبصق على وجهه! لا يستطيع حماية أي جزء من جسده المستباح..

كانوا يجدون لذّة في محاولة كسر روحه!

متعتهم.. غاية متعتهم انتهاك كرامته وإذلاله.. شعر بكم هو منهك ومنتهك وحزين! إلى حد يطغى على الاحساس بالألم! وكانوا يردفون ضربهم له بـ البذاءات:

"عميل.. صهيوني.. متمرِّد"..

"سنريك جزاء الخيانة"..

"ستتمنى لو لم تولد!"..

قاده الجنكويزي عبر الساحة، خلال سلسلة معقدة من الممرات والأفنية الصغيرة، ذات الاضاءات الشاحبة، وكانت رائحة النّهر من آن لآخر، تنبثق في هذه الأفنية خابية، لا تكاد الأنف تتحسسها!

أفضى بهما أحد الممرات إلى بابٍ موارب، أوقفه الجنكــــــــويزي لبرهة وتقدّم هو إلى الداخل، ثم عاد يجذبه.

كان أنفه وفمه ينزفان، وهو يخطو خلال الباب، وكان ثمَّة رجل خمسيني، يجلس خلف مكتب أنيق، رفع رأسه عن ملف أمامه وسأل الجنكويزي:

"فتشه مرّة أخرى جيدًا"..

أمره الجنكــــــــويزي بخلع قميصه وبنطاله، وأخذ يفتش ثيابه الدّاخلية، بدى له ما يحدث عبثيًا، ولم يخطر على باله أبدًا.. أنهى الجنكويزي تفتيشه العبثي وهو يقول:

"إنه نظيف سيادتك"..

"ارتد ثيابك"..

قالها دون أن يرفع عينيه عن الملف، وظل الجنكـويزي و اقفــا.. خيَّم صمت عميق لفترةٍ ليست قصيرة، لا يُسمع فيها سوى صوت

تقليب صفحات ورق الملف.. ركز جادين عليه، خمَّن أنه لا يقرأ.. فقط يقلِّب الأوراق أمامه، فكر في الغاية من كل ذلك! فلم يفهم شيئًا!

رفع الضابط الجنكـــويزي عينيه عن الملف أخيرًا، ووجه حديثه للعسكري الجنكويزي:

"يمكنك الانتظار"..

ثم التفت إلى جادين بود، وهو يركِّز بصـــــره على خيط من الدّم ينحدر من أنف جادين:

"تعال، تفضل، اجلس هنا.. يبدو أن هؤلاء الأغبياء أساءوا معاملتك، رغم أنني حذرتهم أن لا يمسوك، نحن نُقدر العلم والعلماء، لن أدعهم يفلتون من العقاب، سآخذ لك حقك"..

تقدم جادين وجلس على الكرسي بمواجهة الضابط الجنكـــــويزي، يفصل بينهما المكتب الأنيق، و ابتسم في قرارة نفسه ساخرًا:

"هل يظنني طفل! ينخدع بكلمة!".

قطع خاطره صوت الضابط الجنكـــــــويزي: "اسمك وسنك.. وعنوانك.."...

"جادين.. جادين جانو.. ستة وخمســـــــــين سنة، البلدة القديمة.."...

على حين غرَّة تقدم الجنكـويزي الو اقف على الباب، وهوى على صدغه بصفعة قوية، جعلت رأسه يدور، فاستحال كل شيء حوله، إلى ضبابي ملوّن غائم!

"البلدة القديمة يا كلب؟ البلدة القديمة؟ أتظننا لا نعرف عناوينك الأخرى؟".

كان وجه جادين متورّمًا، داميًا، وذهنه مشوشًا يكاد لا يعي ما حوله.. قال الضابط كلامًا كثيرًا، وتفوَّه العسكري بشتائم أكثر، وصفعاته تتوالى على وجهه وصدغه، فترتج أذنه ويشعر بطنين طبلتها، وكل شيء حوله يبدو لعينيه، مثل نيجاتيف لفيلم رديء التصوير، كما بدت لمسامعه الأصوات، أشبه بأصداء باهتة، لا تكاد الأذن تمسك بتلافيفها!

لم يكن قادرًا على أن يسمع أسئلتهما، أو ما كانا يقولان! بجهد يفوق طاقة احتماله، التقط سؤال الضابط الجنكويزي:

"ما هي طبيعة عملك في المعهد؟".

"أنا باحث.. باحث في الآثاروالتاريخ".

قال الضابط في غضب:

"عن أي شيء تبحث؟ هل تقصد أننا مزيفين للتاريخ، و أننـــا لا ننتمي لهذه البلاد، و أنك تريد إثبات ذلك؟".

"لا؛ لا أنا لم أقل ذلك.. أنا مجرد موظف في المعهد، موظف كباحث هذه مجرد وظيفة".

همهم الضابط الجنكـــــــــويزي وقال بصوت حاول أن يجعله لطيفًا:

"أرى أنك شخص متعاون، أليس كذلك؟ وستخبرنا عن الجهات التي تموِّل المعهد، وعلاقة المعهد بالنزاعات في البلاد "الأسِيرة"..

"لا أدري عما تتحدّث، المعهد منظمة مدنية تطوّعية، تموِّل نفسها من عائد مشاريعها، إضافة إلى أنها تُكلَّف بأبحاث أو تقترح مشاريع بحثية، ميزانيتها بتمويل من الجهات البحثيـــة المعنية بهذه البحوث، وبعض هذه الجهات حكومية، المعهد قانوني ويعمل تحت سقف القانون، ولا علاقة له بالنزاعات والأزمات"..

"نحن نعلم عن جهاتنا الحكومية، أنا أسالك عن المـــــانحين الأجانب: من هم وما هي أهدافهم.. وكيف تفسر وجود تقرير كالذي وجدناه على مكتبك: نظام يقتل شعبه، نحن نقتل الشعب؟".

"كما قلت لك أنا مجرد موظف، لا أعلم شيئًا عن الأمور الادارية، وكل ما أعلمه ذكرته لك.. هذه هي حدود معرفتي كموظف.. أما التقرير فهو مبذول في الشبكة العنكبوتية، ليس سِرًّا، واهتمامي به جاء من اهتمامي العام كأي مواطن بما يدور في وطنه، بشكل عام".

"أنت كذّاب.. يبدو أنك ستتعبنا معك".

وكـأن كلمــة (كــذّاب) بمثابــة كلمــة سِــر، إذ مرّة أخرى تقدم العسكري الجنكــويزي، وهوى بصفعةٍ مدوِّية على وجه جادين، وهو يصرخ في وجهه:

"عميل، ماسوني، جاسوس.. صهيوني".

بصق جادين أحد اسنانه المهشمة، وصوت الضابط، يأتي كصدى مشوّه، كأنه يخرج من قعر بئرٍ عميق:

"أنت تُهدر وقتنا، اعترف بالحقيقة، بكل ما تعرف أفضل لك، وإلا سيأخذك هذا العسكري إلى غُرفة التعذيب.. اعترف إن أردت أن تخرج من هنا حيًّا؟".

"بماذا اعترف؟ بماذا أقسم لك لتصدِّقني! لقد قلت كل ما أعرف في حدود علمي".

"تقسم؟! وهل أنت مؤمن لتقسم؟ في أي دين تعتقد يا عميل يا كافر.. هه.. أي دين؟".

ود جادين أن يقول له:

"أنتم العملاء، أنتم الذين لطالما تآمرتم على هذه البلاد وروحها وتاريخها وأديانها وثقافاتها وشعوبها!".

عندما دكت جيوش محمد علي باشا المصري الألباني، قياقر وطوابي البلدة القديمة في 1821 وأصبحت البلاد الكبيرة مفتوحة

على مصاريعها لخيولهم، ماذا حدث؟ أصبح الجنكـــــويز عملاء لهم، يوالونهم في كل شيء، لا يريدون لمصالحهم أن تتضرّر!

وما أن بدأت مصالحهم تتضرر، حتى تهافتوا.. جاءوا لشعب البلاد الأسِيرة وقالوا:

"نحن أمة واحدة، أمُّنا واحدة، لم نأتِ من ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء بنساء، تزوجنا هنا ووُلدنا هنا، أسلافنا ماتوا هنا، تعالوا نقاتل معًا كتفًا بكتف هؤلاء الغُزاة، ونهدِّم الجدار العازل!".

تناسى شعب البلاد الأسِـــيرة كل ذكريات الماضي البائس: الرِّق، التعذيب، القتل، الإذلال.. وقاتل معهم كتفًا بكتف، حتى هزم الغُزاة! ماذا حدث؟ عاد الجنكويز سيرتهم القديمة!

وعندما جاءت جحافل الأوروبيين البيض، واجتاحت البلدة القديمة، مضوا في طليعة جيش الغزو، يقودونه دليلًا لمعرفتهم دروب ومسالك وسباسب ووهاد هذا الوطن الشاسع؛ وأصبحت أرض البلاد الأسِـــيرة مشرعة على مصاريعها، لسنابك خيلهم! ماذا حدث؟ تحالف الجنكـويز مع الغُزاة البيض؛ نظير الامتيازات التي منحت لهم، وصاروا السوط الذي يجلد به الغُزاة، شعب البلاد الأسِيرة!

وكانوا في طليعة المقاولين، استغلوا حاجة الأهالي الفقراء للقوت، استخدموهم عمالًا لتمتين الجدار العازل، مثلما استخدموهم من قبل أدواتٍ لتجارة الرِّق!!

ثم أخذت تطلعاتهم تتنامى، حنوا لماضيهم القديم في حكم البلاد الأسِــيرة، فجاءوا مرّة أخرى لشعوبهـا.. جلسوا معهم في التكايا، في سجن القلعة، في الأحراش، في الأندايات في الوديان، تحت أشجار القمبيل وتحت سقوف البيوت الواطئة، أو العراء، حيث لا سقف!

جلسوا معهم في كل مكان وقالوا:

"نحن أمة واحدة، الدّم نفسه يجري في عروقنا، فتعالوا نُخرج هؤلاء الطغاة من بلادنا".

تأمل شعب البلاد الأسِـــيرة وجوههم الخادعة، ولا تفتأ ذكريات الخوازيق التي نصبوها له تطارده، قال:

"نحن لا نثق بكم".

فبكوا وقالوا:

"بل نحن صادقين هذه المرّة، أعطونا فرصة واحدة".

وهكذا قاتل معهم كتفًا بكتف، الى أن حمل القطار الغُزاة تودعه الأغنيات:

"يا غريب يلا لي بلدك".

ثم ماذا حدث؟ عاد الجنكويز سيرتهم القديمة! كانوا يخاطبون أهالي البلاد الأسِيرة بلسان كشعب واحد، وعندما يجلسون إلى بعضهم البعض في جلساتهم الخاصة يقولون:

"لا، نحن جنكويز.. هؤلاء العبيد السود ليسوا قومنا، نحن أصحاب دم نقي ونسب شريف، جدّنا ذلك النبي المقدّس خلف تخوم الصحراء".

بل هتف شاعرهم التقدمي الأمَمي الأكبر:

"نحن جنكويز الجنكويز!"..

يقصد أنهم جنكويز أقحاح أكثر من بعض بني جلدتهم؛ ذوي الدّم المخلوط، خلف تخوم الصحراء والبحر المالح!

وقال أحد مفكريهم بعد عودته من غياب طويل، في بلاد الفرنجة بوقاحة وجحود:

"لقد امتلأت البلدة القديمة بذوي العقائد المشبوهة، والسحنات السوداء الغريبة، هذا الحزام الأسود يخنق البلدة القديمة!".

"الحزام الأسود؟!".

منذ أول حاكم عام كان واضحًا، أن الجنكويز سيظلون يستأثرون بالبلاد الأسِيرة وخيراتها، مثل كل مرّة.

السنوات الطويلة التي قضوها في الحكم، راكمت تجاربهم وخبراتهم وأساليبهم في الغِشّ والخداع، فأخذوا يبتدعون طرقًا جديدة، لتكريس كل شيء بيدهم.

كانت أهم أدواتهم بذل الوعود.. الكثير من الوعود لشعب البلاد الأسِيرة، التي لا يُنفذ منها شيء! إذ يقبض الأهالي الرِّيح بعد كل اتفاق!

ومع ذلك ظلَّت شعوب البلاد الأسِيرة، بصبرٍ شديد تشرح للجنكويز، أن قيمهم الجنكويزية لا تناسب حقيقة حياة النّاس في هذه البلاد، وأنهم ليس باستطاعتهم تبنيها بالكامل، كما أنهم لا يتعمدون رفضها، بل يحاولون أن يكونوا أنفسهم، وأن محاولات فرض ثقافتهم الصحراوية القاحلة عليهم، لم تؤدِّ سوى لتشوّههم، وتحطم أي أمل كي يكونوا أمة واحدة، لا تتنازعها أفكار لم تنبت من تربتها، وفي مناخها وتحت سمائها، وبماء هذا النِّيل وهذه الأودية، وفي (كَراكِير) هذه الجبال، وبين تلال هذه القيزان، وفي أدغال هذه الغابات، وانبساط الأرض القردود الشاسعة!

لكن الجنكويز لم يأبهوا! حاولوا أن يشرحوا لهم أنهم عرفوا الأديان، قبل أن يُبعث نبي، إلى البدو ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة بآلاف السنوات! وأنهم عندما عرفوا الحضارة ونظم الدولة وإدارتها، كان الجنكويز مشردون في الصحراء، يتوسدون الرَّمل! حدود معرفتهم لا تخرج عن صوى الساري وعلامات الطريق

إلى منعرج اللِّوَّى، الذي لا تفتأ قلوبهم تتلفت بحثًا عنه، وهم يطوفون.. يقبلون ذا الجدارا وذا الجدارا!

ظلوا على الدوام في كنف ما يكفي من الأديان، بالقدر الذي جعلهم يدركون، أن هذه الضمائر الشقيَّة المعذَّبة، لهؤلاء الأهالي الطيبين، لم تعد قادرة على تحمُّل مزيد من الألم والتمزق، الذي تُحدثه تناقضات أفكار الجنكـــــويز المربكة! ورؤيتهم الممزّقة للعالم، والتي تمزِّق كل شيء حولهم! بقدرتها الرّهيبة على تبديد التاريخ والإنسان والجُغر افيا!

كان الأهالي يتحدّثون عن الجنكـــــــــويز لكنهم غير راغبين في الحديث إليهم! لقد يئسوا منهم وظلوا مع ذلك متنازعين: كيف بإمكانهم التسلح بثقافة الثورة، دون أن يقطعوا مع الماضي!

هذا الماضي بعضه عزيز عليهم! هناك في الغابات كانوا يستضيئون بنارهم هم لا نار الجنكـويز، لا يتحدثون إلى الجنكـويز بل يتحدثون إلى أنفسهم عن الجنكويز وأصو اتهم ترتفع وتنخفض.. وهم يقولون:

من ظلام هذه الغابات حتمًا ينبجس فجر جديد، تكنس فيه آثار هذه الثقافة، التي تريد إخضاع النَّاس وتجريدهم من إنسانيتهم.. القضاء على تقاليدهم ولُغتهم.. هذه الثقافة التي تجعلهم يزرعون لتأخذ زرعهم وماشيتهم وأرضهم، من يقاوم يموت ومن يخضع يتشوَّه!

"اعترف".

وأغرقوه بأسئلتهم النهمة، استفرغ كل الإجابات الممكنة، شعر في أعماقه بخواءٍ مريع، كأنه يهوي من مكان عالٍ، عالٍ ويسقط في هُوّة لا قرار لها! أوقفوه لساعاتٍ طوال في الشمس اللاهبة، كان يشم في جسده رائحة مزيج من الشواء والعرق اللزج، بسبب الرّطوبة العالية قريبًا من النّهر، وكان الغضب العارم داخله ينكتم، لا يقوى على الانفجار!

"اعترف".

وهوى الجنكــويزي مرّةً أخرى يصفعه بقوّة، فأُغمي عليه! ورآها في إغمائه.. هيلـــدا، تلوّح بكفها في قلق، وبعيونها نظرة متسائلة لكن أسيانة، حزينة.. أين أنت يا هيلــدا؟ لا تقلقي، ففي الزّنزانة المعتقلين أهل بعضهم، قربتهم المأساة وسياط الأسئلة، التي تلسع الذاكرة، والهراوات التي تفري الظهور، واللكمات التي تجعل الوجه منتفخًا بالكدمات.. أحبك هيلدا.. أحبك...

لا يشبعون من فري لحم المعتقلين، ولا يرتوون من دمائهم المتفجرة، انتفض باب الزّنزانة بشدَّة، لينشق عن جنكـــويزي ضخم الجثة، اقتحم نُعاسهم، قبض على قفا جادين وشدَّه بقوّة، ركله أمامه فاصطدم رأسه بالجدار، فقوّم مساره بلكمة، على فمه، دفعته لابتلاع دمه! وهو يصرخ:

"استقم أيها العبد الأسود".

هؤلاء النَّاس غريبون حقًّا، اخترعوا النظام الدلالي للألـــــوان، فقط ليزرعوا في وجدان النّاس أن اللَّون الأسود كريه، ويجب إذلاله واستعباده! لو قتلوا كل من يرونهم سودًا في البلاد الأسِـــــــيرة من سينظف أوساخهم، ومن سيزرع لهم ليأكلوا، من سيقاتل طوائف صانع الفخار نيابة عنهم، لتظل السلطة في يدهم يُعزّون ويذلون من شاءوا!

الثوار المقاتلين لم يتحولوا لوحوش، إلا للقضاء على وحشية الجنكـويز، الحاكم العام يعرف ذلك، لذا دسَّ بيـنهم ليقتلوا بعضهم بعضًا، حتى يفشلوا في مجابهته هو.. والآن هم يعرفون ذلك، لذا تدنو أطرافهم، لتلتقي في طائفة واحدة.. طائفة صانعي الفخار المتحدة.

كالطوابي غربي النَّهر، وهي تنهد تحت ضربات مدافع الإنجليز، تحشرج صوت جادين في الفضاء الملغوم، للزَّنزانة الوَجِلـــة: الخليفة ود تـــور الجـــر الثـــاني، كان لا يحب الرجال الأقوياء، كان يجمع حوله الضعفاء المتملقين، الذين لا يعارضونه، ويرغم زواره على الجلوس على الأرض، مهما علا شأنهم! بينما هو جالس على العنقرَيب!

لم يكن ثمّة من يجرؤ على الحديث أمامه دون إذن، أو الحديث إليه وهو يتطلع في وجهه! أحد الشوام الذين أسلموا بالقوّة، -كان أحولَ- كاد أن يفقد رأسه، لأن الخليفة ظن خطأً، أنه ينظر إليه!

كان ود تورالجـــر الثـــاني، عندما يبعث رسوله إلى أي شخص، يقف الرسول أمامه ويصفق، ثم يستدير جاريًا، فيتبعه الشخص مهرولًا أيًّا كان مقامه، دون أي اعتبارات للترا تبية الاجتماعية!

هؤلاء النّاس الذين جعلهم الخليفة يهرولون، صفعوا أبو ابهم بوجه رسل ود تــور الجــر بعد هزيمته في البلــدة القديمــة، ر افضين دعوته لهم بالهروب معه إلى دار الرّيح، ليلقى حتفه في أم ضـــــــروس وحيدًا، فتنطوي معه صفحة استبداده إلى الأبد!

تنهد المريود:

"حقًّا كان مستبدًا لا نظير له، لا يتورّع عن ارتكاب أي جُرم، حتى أنه سمَّم شقيق حامـــد أب روكـــو بالشراب، رغم أنه لم يكن يقدِّم شر ابًا لزواره! فقد كان شديد البخل!".

همهم جادين:

"هذا يفسر سلوك الجنكويز ضد السكان الأصليين في دار الريح، في هذه الحرب الدائرة الآن، ويشرح سلوكهم على عهد دولتهم بقيادة ود تور الجر الثاني في البلدة القديمة ذلك الزمان!".

¤¤¤

وبعد أن انصرف حامد أب روكو قال لأهله:

"بعد الشربتو عند ود تور الجر، أنا مانى صابح لى بكرة".

فقالوا له:

"انت وكت عارف شربتو ليه؟".

فرد:

"خفت كان ما شربتو، يسوي فيني شي، يمكن ما أقدر عليه، يخجلكم".

وفعلًا لم يصبح على أب روكو صباح آخر.. صبح ميت!

وكـذلك قتل رجـب عبـد الـدايم بالسُّم، عندما علا شأنه وصار محبوبًا ومنع جنوده من نهب النّاس، حتى أصبح مضرب المثل:

"رجب عدل والجداد قدل".

الأمير حســان قائد سلاح المدفعية، وكما قال ســالم الــدهنون لكباسة مهددًا البعاتي حمدان:

"باكريجي أبقرجة وتقيف الهرجة".

والذي كان له القدح المعلَّى، في حصار وفتح المدينــة الزَّاهيــة، أرسله ود تور الجر في مهمّة وهمية لبلبل درمنقرة حيث أُعتقل ووضع في القيود، ولم ينقذه سوى احتلال الفرنســاويين لا بشــي إذ سلموه للنصارى فمات بعد الاحتلال الإنجليزي..

كباســـة الفارس المغوار، الذي هزم شـــواطين بيـــك في معركة السـفروك، وفتح دار الريح لـود تـور الجـر، قتله أبـو درقـة بأمر منه، لأن ود تـور الجـر لم يـنسَ أن كباسـة قد جلده، عندما كان عبدًا، قبل أن يلتحق بخدمة شـواطين بيك، وهكذا أرسل إليه رأس البطل كباسـة.. وكباسة حتى الرّمق الأخير، كان يضحك في وجه جلّاديه..

البعاتي أب جيقة، الذي كان متطرفًا، واجه نفس مصير كباسة، إذ اتهمه ود تور الجر بالكفر والزندقة معًا! وشنقه لأنه تجرأ وقال رأيه في المجازر التي أوقعها الجنكويز في ديار البعاعيت، والمجازر التي قادها تور الجر بنفسه، في دار صباح والتي دفعت الأمير أب درقة إلى الفرار والاحتماء وعشيرته في جبال "كتري".

ومن أسوأ الحوادث، تلك التي علق عليها كسبان قائلًا أنه لا يريد أن يعمل شيئًا، يُسب به بعد موته:

"وجعتني شردة الكنجس الزول كان بيتنبر ويقول بياكل الجمر، كلو طلع كلام ساي".

بعد الهزيمة ساق ود تـور الجـر نساء عشـيرة الكـنجس سـبايا عاريـات! مـن ديـارهن إلى البلـدة القديمـة! وكانوا يعطونهن العيش الحب لأكله مثل الغنم، واختار تـور الجـر اثنتين من الكنجسـيات كمحظيات وسراري، رغم أنه كان يمتلك عشرات الخُلاسيات من كل قبائل البلاد الأسِيرة..

يحكي كسبان:

"ذهبت مع محجوب الجرادة لزيارة العامل محمد ود الطينة لمرضه، وجدنا معه ملازميه: الأمير عبد الصمد وعبد العاطي والرضوان، وكلهم من البعاعيت وأمامهم كفتيرة الشاي، وفجأة سمعوا صوت البابور الآتي بنساء الكنجس اللاتي أُسرن بعد المجزرة، فضرب محجوب الجرادة فخذيه قائلًا:

"كب لي سريع.. أنا ماشي لتور الجريديني كنجساوية أسويها سرية".

فما تمَّ كلامه إلا ونهض ود الطينة المريض، وصفعه على وجهه صفعة كادت تلقيه على الأرض، وضرب الكفتيرة برجله قائلًا:

"وكمان تشرب الشاي في بيتي تشرب السم".

فغضب الجرادة:

"يا محمد تضربني؟!!".

فرد عليه:

"و اقتلك.. وهل تور الجر يقدر يعمل الكنجساويات سراري؟ وهل يقدر يعملهم.. إذن ما البلدة القديمة تقيد نار؟".

وخرج الجرادة غاضبًا، وتبعه الأمير عبد الصمد فزعًا، ورجع ود الطينة لسريره وهو يبكي، فنهض الرضوان وقال:

"والله يا ود الطينة تور الجر ما يرضى يجعل الكنجساويات سراري".

وبعد أن خرجوا قال كسبان:

"في مثل هذه الأيام، تعمل مثل هذا العمل، وتتكلم مثل هذا الكلام؟".

فرد:

"أنا عارفك جبان، ماذا يريد الجنكويز أن يعملوا لنا أكثر من هذا، وما قيمة الحياة بهذه الحالة؟!"..

وذهب الجرادة متهيجًا، شاكيًا للمقربين من تور الجر.

وعندما تأخر البعاعيت في الحضور للبلدة القديمة تنفيذًا لأمر تور الجر، أرسل الأخير جيشًا أوقع فيهم مجزرة بشعة، وأخذ سبعة وستين من رؤسائهم ونسائهم وأطفالهم إلى البلدة القديمة، وقام ثلاثة من أكبر جلاديه، بقطع أيديهم وأرجلهم، وشُنقوا بعد ذلك!

وبالرُّغم من أن الضحاك كان من أصدقاءه المقربين، وهو الرُّكن الرَّكين بين أركان وأعيان دارفاز، إلا أن تور الجر، أجبره على حضور قتل أهله البعاعيت، وعندما تأخر الأمير "بركاوي" في الحضور، تعرضت قبيلته إلى مجزرة بشعة، وأرسل أطفال ونساء قبيلته سبايا

إلى البلـدّة القديمـة، وبيعت قطعانهم بريالين أو ثلاثة للثور أو الجمل، بدلًا عن ستين ريالًا مجيديًّا.

وبعد قتله لأهالي الصعيد أخذ الكثيرون منهم كعبيد في صنادل مقفولة، فمـات أغلبهم اختناقًـا.. وبعد هزيمة قبيلـة الـردوك استباح ممتلكاتهم، و أباح دماءهـم، الأمر الـذي جعل كثيرًا من أقسـام الـردوك ينتسبون إلى القبائل المجاورة.

كانت أنفاس جادين لاهثة، متلاحقة، والعرق يقطر من جبينه، على صفحات التقرير، وبروف محمود صامت لا ينطق بحرف!

¤¤¤

جذبه العسكري الجنكـــــــويزي من ياقة قميصه، وهو يدفعه أمامه، في شبكة من الممرّات، إلى أن أفضى أحدها إلى باب صغير، فأخرج مفتاحًا من جيبه، فتحه ودفعه عبره بعنف، حتى وقع على الأرض غائبًا عن الوعي!

آخر شيء سمعه، صوت الباب يغلق من خلفه!

عندما أفاق، تبين زنزانة ضيقة ومكتظة، شاحبة الضوء! كانت إضاءتها تتسلَّل من كوّة يتيمة، صغيرة تكاد تلتصق بالسقف، تبين خلال ضوئها الشاحب، وجوه ناحلة مرهقة، تضج بالألم والحزن والعذاب!

كانوا جميعهم مثله، يحملون آثار التعذيب في وجوههم المتورمة، التي خددها الألم، وعيونهم التي تنطق بالحزن والخوف والعذاب!

انتظر أحدهم يسأله، يقول أي شــيء، لكن لم يسأله أحد، ولم يقل شيئًا لأحد.. جرَّ جسده على الأرض الخشنة، يبحث عن متكأ على الجدار، الذي احتله المعتقلون بظهورهم، أفسح له أحدهم مكانًا بينهم، دون أن ينطق بكلمة.

كانوا جميعًا مسكونين بخوف ورُعب، ربما، خوف من كل شـيء.. يواسون بعضهم في صمتٍ قاتل! قطع صوت متحشرج الصّمت:

"هل سيقتلوننا؟".

رد أحدهم:

"لا أدري".

تذكر صانع الفخار، وتساءل:

"ترى هل مر بما يمر به هو الآن؟ ترى هل عذبوه هكذا، قبل أن يقطعوا جسده أشلاء، ويحرقونه مصلوبًا على صليب شجرة اللعوت؟"..

هو جادين جانو لم يعد يفهم شيئًا، لا يجد إجابات لأسئلته، لا يفهم لماذا يعتقلونه؟ ولا لماذا ظلوا يطاردون صانعي الفخار، ويستهدفونهم بالقتل؟ ولا كيف يجيبون عن هذا السؤال؟

هل اعتقاد صانع الفخار، بقتلهم لتاريخ البلاد الأسِـيرة، وسعيه الدؤوب لإعادته إلى الحياة، جريمة؟

هل نهله من روح هذه البلدة القديمة المعذبة، وتعطشه لتخليدها كنموذج للبلاد الأسِيرة، عمل يُعاقب عليه؟

حكى الأهالي عن ماضيهم العريق لآلاف السنوات، قبل أن تُخلق أمة الجنكويز في موطنها الأصلي وتظهر للوجود.. قالوا:

على هذه الأرض، ظل أسلافنا يلعبون أدوارًا عظيمة في الدراما الإنسانية للعالم القديم.. هنا على هذه الأرض ازدهرت حضارات وقامت دويلات وتوالت هجرات في فترات متعاقبة، جعلت من هذه الأرض الشاسعة، مسرحًا كبيرًا للعقائد والأفكار وللحياة!

اشترك الأهالي عبر التاريخ، في تشكيل ملامح البلاد الأســـــيرة، بالقدر نفسه الذي أثروا به في أحداث الجوار وتأثروا بها، وهكذا ظلت نقوشهم على الصخر والحجر والفخار، توثق لحياتهم في السجل العام للفعل الإنساني! وقوّته وقدرته وحضوره المهيمن!

الفرنسي فردريك كلود الأب الروحي لاكتشاف آثار البلاد الأسِيرة، أغرى الباشا الكبيـر بالذهب، في هذه البلاد الشاسعة، لم يخبره عن نواياه الحقيقية، في تعقب آثار هؤلاء النّاس السود، وتاريخهم الغامض!

الأمر نفسه فعله بورخارد وفيرليني، بذريعة البحث عن الكنوز، التي كان الباشا يتعطش لنهبها!

هذا القناع الذي راح ضحيته أحد الاهرامات العظيمة لمروي! أخبروهم أن قوى العالم الكبرى، وهي تتبادل الأدوار عبر التاريخ، ظلَّت تنظر لهذه الأرض، تتطلع إليها.. فها هو ملك بروسيا فريدريك وليم الرابع، يبعث ريشارد لبيس خصيصًا، لرسم خرائط مناطق الآثار، وهو ما فعله متحف الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

ظل علماء الآثار والتاريخ والمجتمع، يتوافدون دون انقطاع خلال عشرات السنوات، لفك طلاسم الرموز المفقودة، لحضارات وشعوب البلاد الأسِيرة، المتسمة بحزن شقي! وأسى ولوعة لا شبيه لهما!

كانوا يحاولون اكتشاف منابع هذا الحزن.. مصدر هذا الأسى.. مسارب هذه اللوعة.. كانوا يحاولون المحاولات ذاتها، التي يحاولها جادين جانو الآن! لاكتشاف هُوية هؤلاء الأقوام السود، الذين تركوا فؤوس يدوية كمخلفات حضارية، لأكثر أزمنة العصور الحجرية قِدمًا.. هنا في هذا الموقع، الذي سيصبح اسمه بعد مئات الآلاف من السنوات "خور أبو حجل" على مبعدة من مقرن الأودية..

كانت هُويتهم لا تنتمي لأي عنصر أسود عرفه التاريخ! فهُويتهم مصبوغة بلون ورائحة وطعم هذا المكان!

مثل هذه المخلفات تم العثور عليها في مختلف وديان وسهول البلاد الأسِيرة، من أقصى دار الرِّيح حتى دار صباح، ومن أقصى الصعيد حتى السافل.

بل أقدم إنسان "بورتو- بشمان" في هذه القارّة، عُثر على جمجمته هنا بين النّهر والسهول المنحدرة من الصعيد ودار صباح، حيث ينحدر النّهر العكر من أعلى هضبة الشمس، ويعبر السهول الواسعة ليلتقي قرينه على مقربة من "أبوحجل!" في قلب دار صباح! جوار البلدة القديمة!

من مخلفات هؤلاء القوم، عرف العالم أن أهل البلاد الأسِيرة في أزمنتهم الغابرة، كانوا صيادين مهرة، حيث لم تكن هناك، في هذه الأرض الشاسعة، قبل خمسين ألف سنة صحراء كما الآن!

فالنّهر.. هذا النّهر غيَّر مجراه عبر العصور، لينحدر من الصعيد للسافل، في مجرى جديد!

النّهر، هذا النّهر كانت له مئات الرو افد فيما مضى، تتخلَّل الغابات والأراضي الزراعية القردود.. لم تكن هناك صحراء واسعة كما الآن، فالنبات يكاد يغطي كل شبر!

وعلى طول فروع النّهر ورو افده، عاش أهالي البلاد القدماء في العصر الحجري. هناك.. حوالي 48 كلم أسفل البلدة القديمة، حيث تم العثور على مركز حضاري، قائم على صناعة الفخار، ذي الحواف السوداء!

عرف العالم من مخلفاته، أن أهالي البلاد الأسِيرة، في عصورهم الحجرية القديمّة، عرفوا الزينة والحُلِّي، ونوع معين من السهام.. كما عرفوا استئناس الحيوان، ومبادئ الزراعة والصيد من البحر والبر والغابات!

كل من اطَّلع على تلك المخلفات، التي تعود إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، وقف مشدوها، يشعر برهبة غامضة، مصدرها طيف ينبثق من هذه المخلفات، يشكل وجهًا غامضًا في المدى اللامتناهي، ليربك جادين جانو، المنكفئ على مخطوطات الخزين، بالتساؤل الملح:

ترى هل هو طيف صانع الفخار الأول!

تراقص نور باهت في آخر الممر الطويل، أخذ العسكري الجنكويزي يجرّه على البلاط الأسمنتي الخشن، لتمتزج حشرجة جسده على البلاط، مع صرير الأبواب الحديدية، وهي تُفتح وتُغلق.

لكزه حذاء الجنكويزي الشرس، وهو يدفعه ويغلق الباب وراءه، امتدت أيدي زملائه المعتقلين، من نبع آلامهم وأحزانهم تسنده، وأصواتهم الواهنة تهمس في ألم:

"تجلد بروفيسور جادين.. تجلد.. سينتهي كل هذا العذاب قريبًا".

ثلاثتهم، بوجوههم النَّاحلة، التي لا يمكن أن يخطئها في هذه الظلمة.. بأصواتهم الواهنة التي تتدفق حزنًا..

الزّمن في المعتقل يتوقف، تتسرَّب الذكريات البعيدة، والحكايات التي خلفوها وراءهم.. تسلّل صوت مرتعش وفي نبرات متوترة أخذ يحكي:

"كنت شاهدًا على عشرات المجازر في دار الريح، رأيتهم وأنا طفل يحرقون قطار الركاب، الذي يحمل أهالي الصعيد، ويرقصون بفرح على صهوات جيادهم حوله! فتذكرت تور الجر الأول! لكم كانوا يشبهونه!

رأيتهم يكونون المليشيات، يسلحونها، يحرقون القرى والفرقان والحلالات، رأيت مليشيات الجنكويز وجهاز عسسهم يعتقلون مئات الأهالي، رأيتهم يعذبونهم ويقتلونهم ويدفنونهم في مقابر جماعية! رأيتهم يحرقون القرى ويغتصبون الفتيات والنساء أمام أزواجهم، آبائهم، أشقائهم، أبنائهم..

كانوا يقصفون القرى والحلالات بطائرات الانتنوف، ثم تحاصر مليشياتهم القرى باللاندكروزرات واللاندروفرات، كانوا يهجمون على صهوات جيادهم وهم يهتفون بغبطة، وألسنة النار تشتعل لتحرق كل شيء.

رأيتهم أنا المريود..

كنت واحدًا منهم، أنا شاهد الإثبات الجنكويزي المنشق.. حامد القطي، لذلك أنا معكم هنا! ولذلك أفهم ما تقول يا رجل!

ران على فضاء الزَّنزانة صمت عميق، أصيب الجميع بهاء السكت، وأخذ رأس جادين جانو لحظتها، يدور بشدّة، كأنه يحلق في ظُلمة لا حدود لها!

تنهد جادين في حزن وأسى! هؤلاء المشوَّهون يغتصبون النساء، ثم يمضـون إلى الحج لغسل خطاياهم، وهم يكثرون من الصلاة على النبي!

يقتلون الأطفال والشيوخ، ثم يصلون الصبح حاضرًا في جماعة!

أي جنون واختلال وتشوّه هذا!

¤¤¤

أنا المنشق المريود، لطالما أصبت بالحزن و أنا أقرأ الأشعار على شاكلة:

الرجال تخشى وتهاب مرقتنا

فرش البيت حرير ترقد عليه فرختنا

هذه الأشعار البائسة، الناضحة بالتميز، والاستعباد، التي تذيعها على الملأ أجهزة إعلام الحاكم العام.. أو تلك الأشعار التي تنضح بالحسرة والانكسار كقول شيخ العرب:

"ناسًا قُباح من دار غرب يوم جونا

جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا

أولاد ناسًا عزازمتل الكلاب سوونا

يا يابا النقس، يا الإنجليزالفونا..

إذ أتساءل عن مقدارالظلم والألم الذي تنطوي عليه هذه الكلمات، وهي تستجيربالغريب، هل كان ذلك قُبيل فرارشيخ العرب الشاعرمن البلدة القديمة، وإرساله لنديمه لشراء غطاء من السوق، يقيهم شرالبرد في فرارهم..

عندما عاد النديم بعد وقت ليس بالقصير، وكان صبرشيخ العرب قد نفد، وقد تناهشته المخاوف والظنون، فخاطبه باستياء:

"ها زول ها عايزتكتلنا عشان غطا، الزول ده يمكن يغيررأيو البطانية خلها، النبقى مارقين".

وتورالجركان قبلها قد ندم علي السماح لبعض شيوخ العرب بمغادرة البلدة القديمة، فأرسل في طلب بعض الذين عندما بلغهم مرسال تورالجرقالوا له:

"قول لي تورك العربان خالفوا رأيك".

فغضب تورالجروأمرباعتقال أقاربهم الذين يعيشون في البلدة القديمة، وصادرأموالهم وأخذهم محمولين علي العناقريب، إلى سجن التأبيدة.

وعندما مرّت بوارج الإنجليزبعد معركة "أم صيقعون" بضواحي البلـدة القديمـة خرج أهل "الكويـك" لملاقاتها بالزغاريد والتهليل، إلا أن البواخركانت مسرعه نحـو البلـدة القديمـة، فلم تتوقف لتلقِّـي امتنانهم.

فقامت كتيبة من كتائب تورالجر، بالانتقام من أهل الكويك، وساقوا الشيوخ والنساء والأطفال أمامهم، ونهبوا كل شـيء، حتى الثياب من أجسام الأهـالي. إلى أن تمكن شـيخ العـرب الشـاعرمـن خداع كتيبـة تـورالجـر، و إقنـاع قائـدها بإرجاع النساء والأطفال والشيوخ، حتى لا يشاركوهم الزاد والماء، وهم قد يواجهون جيشًا غازيًا، ثم غافله ومن معه فهربوا في الليل وعبروا النّهر.

في عهد تـورالجـرعانى كل الأهـالي الـذين عضـدوا دولـة تـورالجـر ودعوتهـا، منذ ميلادهـا على عهـد الغُـزاة الأتـراش، لكنـه اضـطهدهم فيمـا بعـد، وأذاقهـم مـن الكأس نفسـها التي أذاقـوهـا للآخـرين، الـذين احتقنوا الغبن المتراكم!

كان تـورالجـرلا يقـل إدعـاءً عـن المقـدّس سِرّه، الـذي رفض أن يسلم ويرد على خطاب "وود هاوس" قائلًا:

"إذا قتلناكم فسنجد كل ما وُعدنا به، أما إذا قتلتونا فلن تجدوا إلا جُبة مترّوزة وحربة مركوزة".

من اعترض على هذا الاضطهاد، عُزل أو سُجن أو ضُرب، ولقد اجتمعت الثلاثة لبعض الأهـالي الأوفياء، إذ لا يمـرـيـوم إلا ويـأمرتـور

الجـر بضرب أحـدهم خمسمائة سوط، على صلبه إلى أن يتقـرّح، ثم على ظهره إلــى أن يؤتى به منبطحًا على حمار، فـــلا يهتدون إلى مكان يُضرب عليه، فيضربونه على لسانه ووجهه.

وعندما طفت شكوك البعض إلى السطح حول صدق دعـوة المقدّس سِرّه الرّاحل، وخليفته تور الجر وقال النّاس:

"المقدّس سِرّه غشانا وتور الجر كذب علينا".

ضرب تور الجر أعناقهم، وصادر أموالهم وسجن البعض، وكان الواحد منهم في طريقه إلى المشنقة، يرفض شرب الماء، الذي يُقدم له، ويأخذ الحبل بنفسه ويضعه حول عنقه.

وكان دماس أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لرغبات تور الجر في إهانة الآخرين، إذ رفض أن يجري عندما طلب منه تور الجر ذلك.. وقال:

"يا تور الجر، الكرعين البتتعلم الجري ما بتقيف!".

فنكل به وقبيلته، ووضع كبارهم في الأغلال حتى ماتوا..

وهكذا لم ينقض عهد "المقدّس سِرّه" وتور الجر، إلا ومات ثُلث أهل البلاد الأسِيرة بسبب الحروب والاستبداد، وسوء إدارة الدولة!

وعلى الرُّغم من حرص بعض الوجهاء على انتعال "الشِقيَّانة" وارتداء الـ"جُبة" المرقعة التي يتميزبها أتباع المقدّس سِرَّه، إلا أنهم

عنـدما يمـرون بجنكـويز "تـورالجـر" يهجمـون عليهم ويفتشون جيوبهم، ويأخذون الريالات التي داخلها! ثم يقومون بركلهم وضربهم.

وذات مرَّة رأى تمساح شقيق تورالجر، الأمير دماس على حماره، فـأمره أن ينـزل منـه لأنهـم يحتاجونه لأحد العبيد، الذي كان ماشيًا، برغم أن دمـاس كان يلـبس ملابس أتبـاع المقـدّس سِرّه المميزة، ويعلـق "التركاش" الذي توضع فيه الحراب الصغيرة، على سرج الحمار!

ثـم زفر حامد القطي في وجه جادين والمريود، زفرة، خرشت أذون المعتقلين الذين انكفأوا على أكبر مآسيهم الوجودية لحظتها!

¤¤¤

في الساعات الأولى من الفجر، جاء عدّة عساكر جنكـــــــويز، أخرجوهم جميعًا، ودفعوهم باتجاه سيارات مظللة مستعدة للتحرك، كانت جاثمة في الفناء الواسع، عصبوا أعينهم واوثقوهم، ودفعوهم ثلاثة ثلاثة إلى داخل السيارات، بدى لجادين أن الجميع يشعرون في هذه اللحظة بدنو أجلهم، كان ذلك واضحًا في وجوههم المنتفخة المتورِّمة، التي جفت عليها بقايا الدماء، قال أحدهم بصوت هامس باكي منهار:

"قلت لكم سيقتلوننا، ويرمون جثثنا في النّهر أو في أي خلاء".

رد آخر:

"سمعت أن لديهم آبارًا أسمنتية بغلاف سيراميك، محكمة الغلق لهذا الغرض، يذوبون فيها النّاس بحامض الكبريتيك".

صرخ في وجوههم أحد العساكر:

"في ماذا تتحدثون.. اصمتوا يا كلاب".

و انهال يشتمهم بكل ما توفر له من بذاءات..

في مثل هذه اللحظات، تتوارد على الخاطر كل ذكريات المرء، منذ الطفولة حتى اللحظة الرّاهنة.. يتذكر كل شـــيء، حتى الجر ائر الصغيرة والفتيات، اللاتي أحبهن في سنوات المراهقة! وكل شيء!

شعر جادين وهو منكفئ داخل السيارة، أنها تسير على طريق متعرج كثير المنحنيات، وتنتقل من طريق مسفلت لآخروعر، ربما لأكثر من ثلاث ساعات، وتتوقف أحيانًا لأكثر من ربع ساعة، ثم تعاود المسير، حتى توقفت لفترة تزيد عن ثلاثين دقيقة، ثم فُتحت أبو ابها وأُمروا بالنزول:

"انزلوا يا عملاء يا فجرة يا كفرة".

أوقفوهم صفًا واحدًا، وهم يلكزونهم بأفواه أسلحتهم القصيرة، دون أن يفكوا وثاقهم، أو يحلو العصابات عن عيونهم!

مضى الوقت ثقيلًا، وخيم صمت قاتل، مشبع برائحة النّهر.. كانوا في مكان قريب من النّهر، الذي أثـاردعاشه كل هواجس وظُنون ومخاوف البلاد الأسِيرة، في رأس جادين دفعةً واحدة..

حاول جادين أن يتماسك، أن يصرف عنه الأفكار السوداوية عن المصير المتوقع، بالتركيز في شيء آخر، أي شيء سوى هذه اللحظة، فسرح في المخطوطة وهوامش الخزين، سرح في هذه الأرض، التي قبل ميلاد المخلص يسوع بثلاثة آلاف سنة، ازدهرت فيها صناعة الفخار، ازدهارًا منقطع النظير، وازدهرت إلى جانبه صناعة النحاس أيضًا، حيث كانت الكتابة في أطوارها الأولى بالرمز والصور، فتم نحت صقر الجديان في كـل أبـواب المدينـة.. طائر البلدة القديمة الخالد، رمزًا للإله الملك.

وحفظت النقوش التي تصور أسرى مثلهم الآن، في هذه اللحظة، على صخور الجبال أسفل البلدة القديمة، ذكرى معارك وحروب، خاضها أهالي البلاد الأسيرة ضد الغُزاة.

كانت النقوش التي تشكِّل رموزًا دائرية وخطية، تكشف بجلاء أن معارك دارت هنا، على مقربة من النّهر، دائمًا معارك البلدة القديمة، حول النّهر!

وتمضي النقوش في شكل دائرتين، داخل كل منهما خطين متقاطعين عموديًا، وفوق أحدهما طائر يشبه صقر الجديان، وفوق الأخرى علامة غامضة، والرّمز بمجمله ربما يعني كلمة "مدينة"

بمعناها القديم، وربما المقصود أن القتال؛ الذي دار انتهى بخضوع العصاة! هكذا فكر جادين!

وحملت النقوش صورًا لأشخاص ملتحين، تشبه سحنتهم الجنكــويز الأوائل.. كانــوا فــي مظهرهم، المحفــور في النقوش على الصخر، أثر البؤس والتعب والخوف العميق، الذي كشفته نظراتهم الزائغة، وقرفصتهم فيما يشبه الجب، والشيخ الوقور الذي يقف بعيدًا ينظر إليهم عابس الوجه، وهو يشير بسبابته في حركة تهديدية واضحة! كأنه يحقق معهم!

ما يشي عن نبـــــوءة غامضة! كأن الشيخ كان يحذِّر من هؤلاء الملتحين، ذوي السحنة الغريبة، الذين سيحيلون حياة البلاد الكبيرة شقاءً وضجر، بعد آلاف السنوات!

لكن ما يلفت الانتباه، قرفصتهم في الجب، كأنهم بانتظار محاكمة، ما يشير مع عبوس الشيخ الوقور، وحركة سبابته، أنهم أُقتُلعوا اقتلاعًا! وتم الزج بهم هنا! في المكان الوحيد الذي يستحقونه، كما تشير النقوش!

ما يلفت النظر حقًّا، أن هذه السحنات هي نفسها سحنات ما عرفه الآثاريون "بـــالمجموعة الغامضة" والتي برزت إلى السطح، بعد سقوط حضارة مروي، والتي يزعم البعض، أنها المجموعة نفسها التي، بعد آلاف السنوات يتحالف المنحدرون منها، مع "نـبلاء كِليـوّة"

في جنوب النَّهر، والكيرا في دار الريح، وغيرهم من أهالي البلاد الأسِيرة في قبلها الأربعة، لتمتلئ بالدويلات!

هذه المجموعة لم يبذل الآثاريون والباحثون، ما يكفي من مجهودات لمعرفتها، واكتفوا بوصفها بالغموض، ربما لقناعتهم بعدم جدوى الكشف عن هذا الغموض، والزهد في معرفتها بتحديد أكثر، حتى اعتاد الدارسون على هذا الوصف!

لكن جادين ظل يعتقد، فيما يشبه الإلهام الخفي، الذي لا تسنده أدلة، أنهم أصل الجنكويز! وذلك لأن حضارتهم الغامضة، اعتمدت في اقتصادها على صناعة التو ابيت والاعتياش من تحنيط الجثث، بل و انصرفت أيضًا لممارسة الاغتيال بالأجر!

لذلك كل ما خطرت قراءاته عن هذه المجموعة على باله، يقارن بين عاداتها السيئة كدفن الاتباع مع سيدهم، عند وفاته، وقتل الأب لبناته، بدفنهن أحياء! وعادات الجنكويز!

كذلك سحناتهم كما تبينها النقوش، مشابهة "لسحنات" سلاطين فازوالحكام العامين؛ وأمراء البلدة القديمة والمدينة الزّاهية والعرّاب، وسحنة هذا الضابط الذي حقق معه، وعساكره الجنكويز الذين عذبوه!

قبيل اعتقاله بأيامٍ قليلة، كان علماء المعهد، قد عثروا على العديد من المقابر الجماعية، وشبه الدفن بالجملة، تحوي آلاف

الضحايا، الذين قُبروا مع أسيادهم، إلى جانب القبور، التي بينت الكشوفات أنها لإناث صغيرات!

وكان جادين قد افترع مقارنة، بينها وبين المقابر الجماعية، التي دفن فيها الجنكــويز كثيرون من أهالي الصعيد ودار الــريح. بل وحتى أعضاء المحاولات الانقلابية الفاشلة!

هذه الدراسة المقارنة، عندما نشرتها المعاهــد المعنية بتــاريخ إنتهاكات حقوق الإنسان في البلاد الأسِيرة، جلبت جادين إلى هنا.. هذا المعتقل الرّهيب!

الذاكرة عذاب.. تعمل في المعتقل ضد النسيان، عكس عقارب الزّمن، فيتدفق القلب بالحنين إلى هيلدا، الحكايا، الصور، المشاهد والوقائع الصغيرة في حياة عاشقين، وتضاريس الوجوه العديدة التي تخلّلت مسيرتهما..

الذاكرة في الزّنزانة تستعيد الأحداث وترتب الوقائع، وفي صبر دؤوب تنسجها حدثًا تلو آخر، وواقعة تلو أخرى.. وهي تنهل من روح هؤلاء المعتقلين المعذّبين، الذين آخر حلم يحلمونه، هو الخروج على قيد الحياة أو سالمين، ومع ذلك يغنون في ليل السجون الصــباحات الحييَّة المتوارية خلف أفق لا نهائي الحُلكة.

كانوا يغنون، يفلتون أحلامهم من عقالها، بكل جنون الحزن، وبكل الأسى والعذاب.. هؤلاء المعتقلون الذين عاشوا جهنم في كل

مكان منذ ولدوا، ظلــوا يولــدون في أغنيات محجوب شـــريف.. ليــل السجون كأبطال الأساطير القديمة، دون أن يأتوا للصعيد بسيرة!

ينسون حياتهم التي كانت في الصعيد، السافل، دار الريح وو.. وينسون جهنمهم الآن، في هذا المعتقل الرّهيب، فلا يعودوا يتذكرون سوى أغنيات الشمس والخبز والحرية، فتتسع داخلهم مساحات الأمل في الخروج ولقاء أحبابهم..

أمل يضيء حياتهم الوعرة، المظلمة، التي لطالما بحثت عن معنى للحياة، في هذه البلاد الأسيرة القاسية!

¤¤¤

توجه نفر من أقرباء المقـدّس سِـرّه، يشكون تـور الجـر ويطلبون إليه إعفاءه! فجـاء رد المقـدّس سِـرّه أن أمـرهم بطاعته والتأدب معه، بمنشور كُتب وقرئ بالبلــدة القديمــة، وأُرسل إلى أنحاء الدولة، فهــو بالنسبة له بمنزلة الصِّديق للنبي الكريم -كما قال- إذن فعل تور الجر كل ما فعل، برخصة من الله ورسوله، ومباركة من المقدّس سِرّه!

فـــالله والمقــدس سِـــرّه هما اللذان أمراه بارتكاب ما ارتكب من جرائم، وليس للمقدّس سِرّه مانعًا في ذلك! فتور الجر ليس سوى أداة تنفذ إرادة الله والمقدّس سِرّه!

أوليس هو مشروع العرّاب نفسه، الذي لقي بسببه الملايين من أهل البلاد الأسِـــــــــيرة حتفهم، و انتهى بمن بقى حيًّا إلى التشرذم والتمزق، والفقروالفساد والانحطاط!!

¤¤¤

خلعوا عنهم العصابات، وفكوا وثاقهم، حالما اعتادت أعينهم الضوء، أخـــذ جادين يتفحص المكان، الذي بدى كدائرة من الأبنية الملتصقة، التي يتوسطها فناء واسع، تنتصب في مركزه شجرة نيم هرمة.

كان العساكر الجنكـــــــــويز جميعهم بأزياء مدنية، تقدّم منهم أحدهم، وهو يقول في تشفٍّ:

"من يجيئنا هنا مفقود، ومن يخرج مولود، هذا إذا خرج".

قال آخر في صوت ينمُّ عن حقد غريب:

"لا يرسلون أحدًا إلى هنا، إلا إذا قرروا تصفيته، ماذا فعلتم لتتوجب تصفيتكم، ما هي جر ائمكم؟!".

ظل ثلاثتهم صامتين، لم يفُه أحدهم بكلمة، فهجم عليهم العساكر الجنكـــويز و انهالوا عليهم لكمًا ولطمًا وركلًا، وهم يشتمون ويقولون:

"عندما نسألكم يجب أن تردوا".

فأجاب ثلاثتهم وهم يتلوون من الألم:

"لا نعرف، لا نعرف.. لماذا لا تصدقون؟!".

و انخرط أحدهم في بكاء مرير...

ليس سهلًا أن ترى رجلًا يبكي، فالرجال مجرد ضحكهم بكاء! هكذا ظلت ثقافة البلاد الأسِيرة لآلاف السنوات، الرّجل لا يبكي، لكن الجنكـــــــويز الآن أدموا كل القلوب، فأصبح حتى الرجال يبكون من المرارات، والإهدار والامتهان والإذلال..

شعر جادين بحزن لا حد له! قادوهم إلى مدخل مبنى كبير، وعبروا خلال عدة ممرَّات، ثمة معتقلون آخرون، مظهرهم و آثار الضرب والتعذيب عليهم، بمثابة بطاقة هُوية، تميزهم عن العساكر الجنكويز في زيهم المدني.

تجاوز ثلاثتهم.. المعتقلين يقودهم العسكري الجنكويزي إلى باب في نهاية الممر، كانوا جميعهم جوعى، تنهش أمعاءهـــم نفسها! جادين لم يذُق شيئًا، منذ الليلة التي سبقت فجر اعتقاله، كان جائعًا وعطشًا ومتألمًا.. انهار أحدهم:

"نحن جوعى، عطشى، أعطونا ماء بالله عليكم".

فانتهره أحد العساكر الجنكويز:

"وهل يضيرك الجوع والعطش، وأنت هنا محكوم عليك بالموت.. اصمت".

وتقدم عسكري آخر، لطمه بقوّة، حتى انكفأ على ظهره! لم يفُه بعدها أحدهـــــم بحرف، استسلم ثلاثتهم للجوع والعطش! وسرح جادين بخياله لا يصدق نفسه، ويتساءل:

هل حقًّا نحن أحفاد أسلافنا الذين وصفهم الخزين، الأسلاف الذين عاشوا حياتهم معززين ومكرمين، يغضبون لمجرد إهانة شعب آخر للخيول، ويجتاحون بلدانًا بكاملها لرفع الضيم عنها؟

هل نحن حقًّا أحفاد صانعي الفخار، أولئك الذين عاشوا في الحاضرة الحدودية أسفل النّهر، في "أرض الأقواس" حيث يجري النّهر مسرعًا إلى مصبِّه، في البحر المتوسط، هناك حيث تم الكشف عن مدينة أثرية كاملة، تعود لآلاف السنوات..

كشـفت الآثـار عـن أهلهـا، أولئـك الأهالي المَهرة في استخدام القوس، والذين ستطلق عليهم جيوش الجنكـويز في الغزو الثاني بعد آلاف السنوات، لقب "رُماة الحدق" تعبيرًا عن هذه المهارة، التي ضعضعت معنويات جيشهم، فجنحوا لعقد اتفاق للسلام!

هل حقًّا نحن أحفاد هؤلاء؟

وإذا كنا فلماذا نصمت، على هذا الذي يفعله الجنكــــويز بنا؟ أحذية الجنكــويز تنغرس، في خاصرة جادين كالخناجر، تدهسه على الأرض، وتطحنه، فيتدفق نهر من الألم.

قيدوه، ألقوا به في قعر بئر وتركوه، لا يدري لكم من الوقت لبث، وهو يشعر بحياته تنطفــئ كعود كبريت، فتح عينيه وأغمضها، وأخذ يكرّر إغلاقهما وفتحهما عله يحس بالحياة، فتجيء هيلدا بحزنها، نجمة تتلألأ في فضاء البؤس والاكتئاب، يشعر بانكسار روحيهما في قعر هذه البئر المظلمة! مثلما يشعر بتناقضات أفكاره، في هذه اللحظة التي يشتد فيها الألم.

لطالما تقدم على الدرب ذاته دون مساومة، يتبع خُطى صانع الفخار، مثله.. لا يساوم، متواضعًا متشددًا، ومتوحدًا، مولعًا بالرّفاه.. الرّفاه لكل النّاس، ولا يحب الأغنياء، الذين يستأثرون دون الفقراء بكل شــيء، زاهدًا ومع ذلك لا يتحمل الفلس، يبشر بالشــيء نفسه، الذي يحكم حياته وسلوكه..

فهو كصانع الفخار، كالمسيح أو محمد أو ماركس.. ككل الأنبياء، الذين بشروا بالشـيء نفسه، الذي حكم سلوكهم بين النّاس! يفعلون ما بشروا به، ويبشرون بما رغبوا في فعله.. طالبوا أنفسهم بالمستحيل، وتساهلوا مع النّاس، بل لم يطالبوهم بشـــــيء، سوى لأنفسهم! لا أحد يحبهم ويكرههم في الوقت نفسه، إذ لم تكن سيرتهم تخضع لاحتمال ثالث بين الاحتمالين!

هكذا كان صانع الفخار، وحاول هو جادين جانو أن يكونه.. أن يتبع خطاه فتلقفته السجون!

¤¤¤

كان جيش الغزو الإنجليزي منهكًا، متشرزمًا هرب منه الكثيرون، ولم تكن قيادته ذات كلمة واحدة، ولكن ما كان يجول في أذهان هؤلاء الغُـــزاة المحتقنـــين بالصـــلف الـــوراثي، وما كانوا يقولونه لجنودهم، إنهم سيواجهون "دراويش" لا علم لهم بفنون القتال، و إنهم معزولون قليلو العدد!

لكن عندما صعد جندي الاستطلاع أعلي الشجرّة، رأى شيئًا لم يتوقعه!

رأي جيشًــا كامل العُدّة والعتاد، رأي آلاف البشر علي مد البصر، أُناس يرفعون الرَّايات، ويقفون في صفوف متناسقة، لم يصدق عينيه ففركها ثم فتحها..

فرأى أُناس من مختلف الأجناس؛ ومن مختلف الديانات! رأي حتى الرّاهبات في ذلك الجيش، فعلم أن قائـــده غرَّر بهم، وأن جيشه سيهلك، و إنه لا محالة هالك فيمن سيهلك! فوقع مغشيًا عليه!

وفيما بعد، العكس تمامًا!! جيش كتشنر الذي انتصر على تـــور الجـر، كان يضم الكثيرين من جنود المقـدَّس سـرُّه وتـور الجـر، أولئك الذين تم أسرهم، ورجعوا مع كتشنر، ليحاربوا رفاق السلاح

القدامى، فما أشبه الليلة بالبارحة، فالحاكم العام يواجه فيمن يواجه الآن، رفاق السلاح من قدامى الجنكويز المنشقين!

ما الفرق إذن بين المقدّس سرّه والعرّاب؟.. يحكي تور الجر لأصفيائه:

"فيأتي النبي ويجلس معي ويقول: "شيخك هو المقدّس سرّه فيقول إني مؤمن بذلك، فيقول: من لم يصدق به كفر، قالها ثلاث مرات".

ويذكر في منشور عُرف بمنشور الدعوة، شبيه بمنشورات العرّاب "وأعلمني النبي بأني المقدّس سرّه وأخلفني بالجلوس على كرسيه مرارًا، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر، وجمع من الأولياء الميتين وبعض من الفقراء الذين لا يُعبأ بهم، وقلدني سيفه، و أيدني بالملائكة العشرة الكرام، وأن يصحبني عزرائيل دايمًا، في ساحة الحرب أمام جيشي، وفي غيره يكون ورائيا، وأن يصحبني الخضر دايمًا ويكون إمامنا سيد الوجود، وخلفاؤه الأربعة والأقطاب الأربعة، وستون ألفَ وليٍّ من الأموات".

لقد صرّح المقدّس سِرّه يا سادتي، أن تور الجروليٌّ من أولياء الله، وشهد له بالعصمة فقال:

"واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه، محمولة على الصواب، لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب".

وخوَّف من عارضه بخسران الدنيا والآخرة، حين قال:

"ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزمًا، فقد خسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة، والعياذ بــــــالله.. وإن رأيتم منه أمرًا خالفًا في الظاهر، فاحملوه على التفويض بعلم الله، والتأويل الحسن".

لذلك كرهه علماء عصره! كما يكرهه جادين الآن!

¤¤¤

سمع صوت التَكَّة الغليظة للمفتاح، في الباب الخارجي، ومن الفتحة الضيقة للباب الثاني، نادى العسكري:

"هاكم"...

وقف اثنــــــان من المعتقلين بسرعة، وتقدَّما نحو الفتحة، مدَّ العسكري لفافة كيس بلاستيك، وجركانة زيت مليئة بالماء، وكوب من الصفيح، هو في الحقيقة، علبة صلصة قديمة فارغة، مثل جركانة الزّيت الفارِّغة، التي أعيد تعبئتها بالماء العكر!

كانوا ظمآنين يكاد يقتلهم العطش، صبَّ أحدهم الماء في كوب الصفيح الصَدِئ، وأخذ يديره عليهم! كان طعم الماء غريبًا، كأنه ممزوج بعرق أعضاء الإخراج البشرية!

فضوا اللُّفافة، وجدوا فيها أرغفة محشـوّة بفول مـالح جـدًّا، يكاد يكون الملـــح أكثر من الفول نفسه! وأصبحت تلك هي الوجبة اليومية اليتيمة، كل يوم في نفس التوقيت، يمد العسكري اللُّفافة بالكيس نفسه، والجركانة نفسها، والماء نفسه والفول المالح نفسه، حتى فقدوا إحساسهم بالزّمن!

كان كل شيء يتم بطريقة آلية، كل شيء هو نفسه، الوجوه النحيلة، التي تكاد تشارف على الموت، بقايا الدّم المتجمدة في الوجوه، الشفاه اليابسة المقشرة، حشرات البق والبراغيث والفئران الصغيرة، التي تتجوّل على الجدار خلف ظهورهم، رائحة النّهر المكتومة، الزحام.

لم يكن بوسع أحدهم أن يمدَّ رجليه، ينامون مقرفصين، يستندون على بعضهم وعلى الجدران.. هذه التجرِبة القاسية وحَّدتهم، جعلتهم أكثر شفافية في الإحساس بآلام بعضهم، بهذا العذاب الذي تنضح به وجوههم، وهذا الإعياء الرهيب، الذي تنطق به كل خلية، في أجسادهم النحيلة المنهكة، الملأى بالتقرحات، يشعرون كأنهم كل واحد في هذه المأساة، التي فُرضت عليهم!

كان جادين يشعر أن البؤس والحزن، اللذيـــن يعيشهما الآن مع رفاق الزّنزانة، همـــــا حزن وبؤس العالم كله! حزن فريد، ينبع من أعماق تاريخ البلاد الأسِيرة ووجدانها الجريح! فيتساءل:

هل، إلى جانب كل القيم، التي اتسمت بها البلاد الأسِـــــيرة عبر تاريخها، كان الحزن والبؤس، قيمًا متجذرة كبقية القيم، كما يشعر بها الآن؟

¤¤¤

ابتلع جادين صوته، إثر دخول جنكويزيـــان انتصبا فوق رأسه، ثم جاء المحقق وطوح بجثته فوق الكرسي، خلف مكتبه، أشعل سيجارًا فاخرًا، وقذف عود كبريت بوجه جادين، رنَّ جرس التلفون، أخذ يستمع وعيناه تتفجران غضبًا، لم يقل سوى عبارة واحدة:

"مظاهرة.. مسلحون!"...

ثم قفز من كرسيه بغتةً، ومن عينيه ينبثق شرر مدمر، ثم أشار إلى الجنكويزيان بنظرة خاطفة، وقفز تجاه الباب يغادر المكتب، كقط مفزوع..

شعر جادين أن ثمَّة أمر عظيم يدور بالخارج!

¤¤¤

في غالب الأوقات، لم يكونوا يستطيعون، تمييز الوقت أثناء اليوم، العساكر الجنكـــويز لا يخبرونهم، كانوا يعرفون الوقت خلال القادمين الجدد، أو عندما يتم اقتياد أحدهم لتعذيبه، أو التحقيق معه، حتى هؤلاء ليس مؤكدًا معرفتهم بالوقت، لأي سبب من

الأسباب، التي أهمها الخوف الشديد، الذي يفقد المرء، القدرة على التركيز، في أي شيء آخر عدا ما سيحدث!

بالقدر نفسه كان تعاقب الفصول على معتقل القلعة الرّهيب فظيعًا، ففي الصيف اللاهب، تصبح الجدران الحجرية فرنًا لا يحتمل.. قطعة من الجحيم، خاصة في شحِّ الحصة اليومية من الماء، الذي لا يتعدى جرعات قليلة لكل معتقل، بالكاد تكفي بل ريقه وخلاياه.. الاغتسال هنا حلم بعيد المنال.

بمرور الوقت كانوا يشعرون، أن جلودهم اندبغت بالعرق و إفرازات الجسم، التي تزكم الأنف بر ائحتها، كانت أظـــــــافرهم وشعورهم قد طالت، وفروات رؤوسهم أصبحت مستعمرة للقمل والصيبان، وأشكالهم تبدلت.. أصبحوا أشبه بسعالى أو أشباح..

كانت دورة المياه داخل الزّنز انة نفسها، في ركن منها، ليست دورة مياه فعلية، مجرد جردل كبير صدئ، يفصله عن مرأى المعتقلين، ساتر قماش متسخ ومهترئ!

إن كان ثمّة معانٍ مختلفة للقذارة والاتساخ، فهذا أسوأها على الإطلاق! هذه البلاد الواسعة، لا ينقصها العراء الشاسع، الذي لطالما استخدمه الأسلاف، في عصورها السحيقة، كدورات مياه.

ورغم أنه كان عراء، إلا أنه كان يحميهم من الأنظار، خلف دغل أو تلة صغيرة أو أكمة شجيرات متكاثفة..

وهذه الأرض الرّحبة، لم تعوزها يومًا المياه، فحتى في وديان دار الرّيح البعيدة، المرء ليس بحاجة لأكثر من نبش التراب، ليحصل على الماء من "المشيش، الجمام" فيقضي حاجته آمنًا دون خوف، فكيف لهم هنا جوار النَّهر؛ وفي هذا العصر الذي يعج بالمنظمات الحقوقية، يعيشون هذا النمط الغريب من الاعتقال؟

هل تعيش البلاد الأسِيرة، في منحنى زمني آخر، هل تعيش عصرًا آخر؟؟! من أين جاء هذا النمط من التعذيب، من أين وفد إليها؟ بابتلاع دويلاتها الواحدة تلو الأخرى؟

ضيف جديد، قذفوا به وسط زحام الزَّنزانة المكتظة، جثة تكاد تكون هامدة، ووجه مغطى بالكدمات والنزيف، كان واضحًا أن ثمّة أكثر من كسر في يديه ورجليه، الألم والدماء المتخثرة، أعادا رسم ملامحه من جديد..

لملم أطرافه قرب زاوية الجدار، كان زائغ العينـــــــين، مرعوبًا بشدّة، وغير راغب في الحديث.

انطفأت حكايات الجميع، سكنتهم الرّيبة، والوجوم، تبادلوا فيما بينهم نظرات ارتياب مفهومة، ثم انفجروا مرة أخرى يغنون.. ويشعلون فتائل الحكايا، التي تنفجر في وجوههم المنهكة.

تجاسر جادين ودنا منه، قرر اكتشافه، ربت على كتفه وقال:

"أتسمح لي بالجلوس قربك؟".

فلم يرد، اكتفى بــــالنظر إلي جادين في ذهول، ويده غير المصابة تتحرّك بتوتر، وقد كشفت كدمات وجهه عن عصبية وحدّة، تختبــئ خلف بقايا الدّم المتجمد..

"اتركني في حالي".

قال الرجل، فدنا منه جادين كأنه لم يسمع شيئًا، وقال بلطف:

"نحن هنا أشبه بأسرة واحدة، ليس لنا سوى بعضنا، ما اسمك؟".

غرس الرجل رأسه بين ركبتيه؛ بعد أن قال بصوت مرتجف:

"حامد.. حامد القطي، جنكويزي منشق"...

ثم ابتلع لسانه، وساد صمت عميق!

¤¤¤

كان الجنكـــــويز يجبرون النَّاس على الصَّلاة، لا يهمهم إن كنت حقًّا تصلي أو لا، فقط عليك أن تصلي، فالمعتقل فرصتك للتوبة!

البعض كان يتيمَّم والبعض الآخر كان لا يأبه، بل كانوا جميعًا لا يأبهون، يقفون صفًا للصّلاة.. فقط تفاديًا لغضب الجنكويز!

إذا تجرأ أحدهم وطلب ماء للوضوء، كان يُقابل بكل أنواع التحقير:

"هل لديك رب.. هل لديك دين.. تصلي لمن؟".

كان المعتقلين دائمًا ممزّقين؛ فإن صلوا مشكلة وإن لم يصلوا مشكلة؛ ففي كل الأحوال لا يفلتون من الشتائم والإهانات وربما التعذيب!

عندما تتداعى مثل هذه الوقائع إلى ذاكرة جادين، يشعر ببرد يخِز عظامه، لهول الفارق الكبير، بين ماضــي هذه البلاد وحاضرها، بين المســـــــتنيرين الذين كانوا حول أركماني، والرجرجة والدهماء، الذين أحاطوا بالعرّاب والحاكم العام الجنكويزي كأسورة.

فيحدق في وجه القطي، الجنكويزي المنشق، وهو يحكي:

"كانت النساء يتعرضن لــــلاغتصاب كل يوم، وهن في طريقهن لجلب الماء، فــــالجنكويز حول الآبار وفي الوديان، لا يتركونهن يأخذن الماء، الذي يحتَجن إليه إلا بعد اغتصابهن".

غطى وجهه بكفيه وبكى.. وهو يكرر:

"كنت معهم.. نعم كنت معهم".

ربت جادين على كتفه، أراده أن يستمر في الحكي، كانت ذاكرته توثق كل حرف ينطق به حامد القطي.. قال له بصوت عميق:

"لست وحدك من تم تضليله، لقد ضللوا شعبًا بكامله، شعب بكامله متورط، لست وحدك!".

"لكنني كنت معهم، قتلت، واغتصبت وسمَّمت آبار المياه، وأحرقت القرى، كنت أنفذ كل ما يأمر به العرّاب وتور الجر".

و انخرط في بكاءٍ حار..

¤¤¤

كان المعتقلون في حالة تغير دائم، بعضهم يموت، بعضهم يُطلق سراحه، بعضهم يُنقل إلى زنازين أخرى، ويحل محلهم معتقلـــــون آخـــرون، أسرى المعارك الدائرة في دار الرِّيح، أو جنوب النّهر الأزرق والجبال أدنى دار الريح، وكانوا غالبًا مصابين بشظايا أو طلقات نارية.

لم تكن تُقدم لهم أي رعاية طبية، ولا تضمد جراحهم، يلقون بهم إلى زنــازين الاعتقــال ينزفون دمهم قطرة فقطرة، يواجهون مصير الموت أو الموت!

كان المعتقلون أمثال جادين يتعذّبون كثيرًا، وهم يرونهم يتألمون ويتأوهون ويتعذّبون، وتتعفن جراحهم، وتتخثر فتصبح منبتًا للديدان، وتصبح رائحة الزّنزانة، أسوأ من هذا العذاب نفسه!

كانوا يتلوون من الألم، ولا أحد يملك شيئًا لتخفيف عذابهم وآلامهم، كل خرق ثياب المعتقلين المهلهلة المتسخة، كانت لا تكفي لتضميد جراح الواحد منهم، وإذا استجدى أحدًا الجنكــويز لإحضار طبيب، كان ذلك يعني أن قيامته قد قامت! ترك هؤلاء الجرحى لمواجهة الموت، الذي كان أرحم من الجحيم الذي يقاسونه!

وكان جرحى المعارك هؤلاء مكوثهم في المعتقل لا يطول، فمن ظل على قيد الحياة، كانوا سرعان ما يأخذونه، إلى التحقيق ثم لا يعود مرّة أخرى، ولم يكن العساكر الجنكـــويز يخفون أنه يتم قتلهم ودفنهم جماعيًا، في حفر أعدت خصيصًا لهذا الأمر!

فـــــــالجنكويز كانوا مغرمين بالقتل الجماعي، والقبر الجماعي! القتل والقبر الجماعي سمة لازمت تاريخهم في البلاد الأسِـــــيرة، منذ غزوها أول مرّة قبل مئات السنوات!

متى بدأ تاريخ البلاد الأسِيرة ينعطف عن مساره؟

عندما تحالف نــبلاء فــاز، المتحدرون من كِليــوّة البائــدة مع الجنكـويز، وتمخَّض هذا الحلف عن دولـة تـور الجـر، هنا في قلب دار صباح، مركز البلاد الأسِيرة..

سيبدأ تاريخ البلاد الأسِـــــــيرة وحضارتها العريقة منذئذٍ، في الانعطاف إلى مسار زمني خارج سياقها التاريخي، وتبدأ في انحدار لا يتوقف.

تبدأ عقائد النّاس في الاضطراب، ولُغاتهم في الانحسار، الأمر نفسه حدث في دار الريح ليصبح الطريق سالكًا لتحالف "الجنكــويز" مع "بيوتـات أهـالي الـبلاد الأسِـيرة" وتأسيس أسرهـم الحاكمـة في دار الريح ودار صباح والسافل.

حكى الأهالي وفي الحقيقة، كان الجنكـــــويز ليسوا بحاجة إلى حكاياتهم فهم يعرفونها، بل عاشها أسلافهم ويعيشونها الآن!

قال حامد القطي:

"في المرّة الأولى أرسل الحاكم العام، عدَّة ألوية من الجنكـــويز بحجة تفريق القبائل وفض الاشتباك، فـي دار الـــرّيح، والقضاء على عصابات النهب المسلح. قامت هذه القوات بحرق وتدمير أكثر من عشرين قرية، وإحراق امرأة مع مولودها، الذي لم يبلغ خمسة أيام بعد؛ ونهبت أموال زوجها، الذي أصيب بعدها باختلال عقلي، لهول ما حدث له ولأسرته، في نفس التوقيت، كانت قوات أخرى بقيادة أحد الجنكــويز في ضواحي المنطقة، و أثناء صلاة الظهر، قد قامت بإغلاق أبواب مسجد المنطقة، وإطلاق النّار من كل الاتجاهات على المصلين، فقتل أكثر من خمسين شخصًا في الحال.

ارتكب الجنكـويز هذه المجازر، تحت مسمى "الخطة الأمنية لدار الرِّيح"!

خلال هذه الأحداث، تم حرق وتدمير وتهجير أهالي القرى والحلالات والفرقان، دون رحمة، تلازم مع هذه الأحداث، القبض على أعضاء حركة صانع الفخار، كما تم اعتقال أحد قادتها، والتحقيق معه في كبرى حواضر دار الريح، ومن ثم تصفيته سريعًا دون محاكمة، تحت إشراف حاكم دار الريح، المفوض بسلطات مطلقة، من الحاكم العام الجنكويزي تور الجر الر ابع!

اجتمع حاكم دار الرِّيح، مع قيادات طائفة المقدّس سِرّه، للبحث في كيفية تصفية الأسرى، فاستقر الاجتماع على دفن كل هؤلاء أحياء في مقابر جماعية، ناحية وادي المـــــــــرفعين، على مقربة من قوز المطاليق".

كانت ذاكرة جادين تدون كل حرف ينطقه حامد القطي، كأنها تتشرب أنفاسه اللاهثة، وهي تزفر الكلمات والحروف المتلاحقـــــة، ولكن الحادّة والمشبعة بالحزن.

واصل حامد القطي:

"ثمة مجزرة أخرى تمت خلف "قوز العرديب" إذ قُتل العشرات بو ابل رصاص الجنكـــويز، كانوا يطلقون الرصاص دون هوادة.. بعد هذه المجزرة بيومين كعادتهم، تم إبلاغ الشرطة وبعد أن نُقل الضحايا إلى المشرحة، تجمع الآلاف من الأهالي، للتظاهر ضد هذه الجريمة البشعة، إلا أن السلطات الجنكويزيـــة قامت بمحاصرتهم بكل أنواع السلاح، وأمرت أسر الضحايا باستلام الجثث، وإلا ستكون العو اقب وخيمة.

وتضامن مواطنو دار الرِّيح مع أُسر الضحايا، وطالبوا بمعرفة الأسباب، إذ لم يُعرف للضحايا أي انتماء، سواءٌ لطائفة صانع الفخار أو غيرها، كما طالبوا بمحاكمة المجرمين منفذي هذه المجزرة.

ولكن السلطات رفضت ذلك وأعلنت تهديداتها، عبر مكبرات الصوت، وأمهلت المواطنين ربع ساعة فقط لمغادرة المكان، وإلا سوف

تُطلق عليهم النّار من الأرض، ومن الجو بواسطة إحدى مروحياتها، التي كانت تحلق وقتها فوق رؤوس النّاس.

وعندما انقضت المهلة، وتحرّكت المروحية تجاه المواطنين، اضطروا للهرب، خوفًا من الهلاك".

"وليس هذا فحسب".

قال القطي:

"فعلى الجانب الآخر من وادي المرفعين، اعتقل عسس النظام الجنكويزي ثمانية مواطنين، قاموا بتوثيقهم بالحبال، ثم جرّهم بواسطة عربات لاند روفر، إلى أن تنصلت أطرافهم، فتُوفِّي اثنان منهم في الحال.

أما البقية فقد أدخلوا رؤوسهم في إطارات سيارات قديمة، بعد أن سكبوا عليها مواد حارقة، وأشعلوا فيها النّار، فماتوا جميعًا متأثرين بالحرق!

وعندما علم ذووهم بالأمر، قاموا بفتح بلاغ، ولكن السلطات قالت بأن الجناة من عصابات النهب المسلح، وطائفة صانع الفخار، وأنهم قاوموا سلطات الجيش الجنكويزي.

¤¤¤

حين نقلوه من سجن القلعة، إلى هذا المعتقل المنفي في التاريخ والجُغرافيا، ودفعوه إلى هذه الزَّنزانة، وأغلقوا الباب خلفــه، تعرف بعضًا من النزلاء السابقين، الذين كانوا معه في معتقل القلعة..

كانت وجوههم بشوشة ومرحبة على ما بهم من كرب، كانوا يعلمون بالضبط ما يشعر به، ثمّة كيمياء غريبة تربط المعتقلين ببعضهم البعض، يتكثف إحساسهم بآلام وأحزان بعضهم.

حاولوا أن يبددوا وحشته، فقد مروا بتجربة الانتقال من معتقل لآخر، لذا كانوا يدركون تمامًا ما يشعر به الآن، سأله أحدهم:

"هل اعترفت؟".

"بماذا اعترف؟ لم ارتكب جرمًا اعترف به، ما يطلبونه لا أملكه".

ابتسم آخر وهو يربت على كتفه معضدًا:

"عفارم.. عفارم".

سأل آخر:

"هل وجدوا لديك وثائق؟".

"وثائق؟ أي نوع من الوثائق؟".

"كل المعتقلين هنا سبب اعتقالهم؛ انتماؤهـــم لحركات صانع الفخار المقاتلة؛ في أطراف البلاد الأسِيرة".

"لا، ليس لدي صلة بأي نوعٍ من الحركات والطوائف، أنا بروفيســـورجـــادين جـــانو، مجرد باحث.. باحث في التاريخ.. مجرد موظف".

كان أكثر ما يؤرق المعتقلين: الجواسيس الذين زرعهم الجنجويد وسطهم، وأكثر ما يزعجهم إنكسار أحدهم تحت وطأة التعذيب، ومع أنهم كانوا لا يجدون صعوبة، في اكتشاف الجواسيس والمنكسرين، إلا أنهم يظلون لا يشعرون بالأمان بسهولة، فكل معتقل هو محل شك زملائه، إلى أن يثبت العكس.

المعتقل الذي ربت على كتفه وهو يردد: عفارم، وضع كفه على كتفه مرةً أخرى، وهو يقول بحنو:

"أنا عتَّام، عتَّام ابراهيم، نقيب عمال السكة الحديد، لا تخف، الحوش ليس فيه بلوم، لا تخشَ شيئًا الدَّار أمان".

ثم لم يزد، تأمل جادين وجهه طويلًا، كانت ملامح وجهه وتقاطيعه ونظراته الهادئة كنسرٍ عجوز، وكل شيء في قسماته يؤكد أنه خبر المعتقلات والسجون لسنواتٍ طويلة.

"هل أحضروك هنا وحدك؟".

قال عتَّام، فرد عليه جادين باقتضاب:

"لا، معي اثنان آخرَين، لا أدري أين ذهبوا بهما".

"إحضارك إلـى هنا يعني أن بقاءك سيطول، فكيِّف نفسك على ذلك".

"لماذا؟ أنا لم أفعل ما يستحق ذلك!".

"ولا أي منا هنا فعل ما يستحق ذلك، إنهم كنمر جريح؛ الآن يتخبطون ويضربون في كل اتجاه، فقد انفتحت عليهم كل الجبهات بعد الانفصال، الذي هيَّأ لهم قُصر نظرهم؛ أنه سيترتب عليه توطيد سلطانهم إلى الأبد، فخاب ظنُّهم، فالمشكلة لم تكن يومًا الصعيد، المشكلة منذ بدايتها الجنكويز".

"أليس هناك أمل في إطلاق سراحنا؟".

"نحن لا نفقد الأمل أبدًا".

للمرّة الأولى وعندما شعر الإنجليــزي، السكرتير الإداري للمدينة الزَّاهية، حاضرَّة البلاد الأسِــــيرة بنذر اضطراب؛ قد يقوِّض مصالح الامبراطوريــة التـي لا تغيــب عنهــا الشــمس، دعا إلى عقد مؤتمر في حاضرة الصعيد، هدفه بحث تمثيل أهالي الصعيد؛ في مجلس البلاد الأسِــيرة و إنشــاء مجلــس منفصل لهــم، كان يحاول إشر اكهــم فـي السلطة، لتحقيق سلام دائم، فجاء إلى المؤتمر قادة طو ائف صانع الفخار في الصعيد؛ والموظفون المتعلمون، وفي غضون ثلاث سنوات من هذا الحدث؛ تم الشروع في هدم الجدار العازل!

لكن بعد أقل من خمس سنوات أخـــــرى، بدا واضحًا لطائفة صانع الفخار، أن ما تم كان زائفًا، فبدأت "نقارّة الورل" تعزف للحرب، فتمرّدت للمرّة الأولى إحدى طوائف صانع الفخار، التي وُلدت في أحراش غابات الصعيد.

فإحدى الأورطات، التي كان يقودها أحد أحفاد الخزين طبلـــة، تحمل الرّقم صفر، ضمن أورطات جيش الجنكـويز، ثارت وقتلت كل القادة الجنكـــــــويز ثم زحفت بسلاحها وعتادها إلى داخل حاضرة الصعيد، التي شيدها الجنكـــويز والغُزاة البيض على شاكلة البلدة القديمة، وقتلوا كل من ليس من الصعيد!

"كانت مجزرة رهيبة!".

"نعم راح ضحيتها أكثر من مائة وعشرين جنكويزيًّا، وأربعين من الإنجليز والأغاريق والطليان!".

كان واضحًا أنهم قد فاض بهم الكيل، و أنهم يستهدفون الغُزاة وحلفائهم الجنكـــــويز! وهكذا لتسعة عشر عامًا أخرى لم يتوقف القتال، وبعد أن غادر الغُزاة البيض، و انفرد الغُزاة المحليين بالحكم، رفضوا أن يجلسوا إلى طوائف صانعي الفخار.

رفضوا الاستجابة لمطالبها العادلة واختاروا الحرب، ولذرِّ الرَّماد في العيون استنادًا إلى خبراتهم العميقة في تفتيت الأهالي، وشق وحدتهم، منحوا بعض قادة طائفة صانع الفخار المتهافتين المتأثرين بأفكار الخزين، مناصب رفيعة..

كان تعيينهم اسميًا، رمزيًّا مضللًا، إذ كانوا عاجزين عن فعل أي شيء لصالح الأهالي، وفي الوقت نفسه كان الجنكويز يقولون للأهالي:

"هؤلاء هم أولادكم، احملوا مطالبكم إليهم، نحن لا دخل لنا".

فانصرف الأهالي إليهم، يسألونهم عن مطالبهم حقوقهم، فكيف يقابلهم أبناؤهم؟

يزجرونهم، يعتقلونهم، يعذِّبونهم، يقتلونهم.. انقسمت طائفة صـــــانع الفخار إلى طائفتين إحداهما تتبنى تعاليم صانع الفخار الأصل، وأخرى تتبع خطى الخزين طبلة!

وهكذا بـــدا واضحًا لطائفة صانع الفخار الأصل أنَّ لا سبيل أمامها سوى إعادة ترتيب صفوفها، وهكذا كثفت من نشاطها في المنفى ضد الحاكم الجنكـــويزي العام، لكنها انقسمت إلى فصائل أخرى، حملت أسماء مختلفة كاتحاد طوائف صانع الفخار، الذي رأى: أن الخير لشعب البلاد الأسِـيرة في انفصـال الصعيد، بـدلًا عن اتحاده مع أسفل النَّهر، إذا أصر الجنكـويز على الانفراد بحكم كامل البلاد الكبيرة؟

أدَّى هذا الإعلان إلــى مزيـــد من العنف والقمع والحرب بين الطرفين، ومن ثم من داخل هذا الفصيل ولدت طائفة "أفعى صانع الفخار" التي صعَّدت الحرب، فأصبح الجنكـويز في الصعيد يعيشون تهديدًا دائمًا.. فقدوا إحساسهم بالأمان، وأصبحوا في خوفٍ مقـــيم من الهجمات المباغتة، التي كانت تشنُّها أفعى صانع الفخار السوداء.

هذا الخوف دفع الجنكـــويز إلى تبني تكتيكي؛ لسياسة تسامحية زائفة، فدعت إلى مؤتمر آخــــــر، في حاضرة الصعيد بعد عامين من بداية التصعيد لحل مشكلة الأهالي مع الجنكـــــويز، وتنازعت المؤتمر رؤيتان:

فبينما تبنت طائفة صانع الفخار الأصل بقاء الصعيد موحدًا مع السافل، كدولتين بجيش موحد القيادة، رأت الأفعى السوداء أن لا بديل عن تقرير المصير تمهيدًا للانفصال التام!

لكن لم يولِّ الجنكـويز أهمية لما طُرِح، لم يدرسوه، لم يناقشوه، إذ اكتفوا بالإصرار على فرض إدارة إقليمية من عناصرهم، من أهل الصعيد، أولئك الذين رمزتهم إسميًا فيما مضى؟

وهكذا اتسعت فجوة الثقة أكثر! فاستعرت الحرب أكثر! بل مضت طوائف صانع الفخار في الصعيد خُطوة أكبر، بتكوينها لحكومة الصعيد المؤقتة، التي أصبح اسمها "جمهورية النّهر، في المنفى" والتي استنفرت لدعمها أهل القبل الأربعة!

كانت هذه المرحلة من التصعيد إيذانًا بمجيء حاكم عام جنكــــــويزي جديد، سعى منذ بداية حكمه لحل هذه المشكلة، التي ظلت تهدد وجود الجنكويز وبطانتهم في حكم البلاد الأسِيرة فأعلن في البــــدء اعترافه بالتباين والفوارق بين صعيد النّهر وسافله، وحق أهالي الصعيد في تطوير ثقافتهم وتقاليدهم في نطاق البلاد الأسِـــيرة الاشتراكية العظمى الموحدة.

لكن كان هذا إعلانًا تكتيكيًّا مؤقتًا من الجنكـــويز، عن التخلي عن نشر ثقافتهم ودينهم في صعيد النّهر، ولذلك جاء رد طوائف صانع الفخار في الصعيد مفحمًا:

"نحن ضد الشيوعية والتدخل الشيوعي الأمَمي!".

ومع ذلك وقعت طائفة صانع الفخار مع الحاكم الجنكـــــويزي العام، على اتفاق في "الزهرة الجديدة" عاصمة هضبة الشمس، التي كانت تحتضن ثوار الصعيد، يقضي بأن يحكم الصعيد نفسه! في إطار البلاد الأسِيرة الموحدة.

دمج هذا الاتفاق مقاتلـــي الأفعى السوداء، في جيش الحاكم الجنكـويزي العام، هذا الاتفاق لم يرُق لطوائف صانع الفخار في دار الريح، فوصفه أحد زعمائهم القسسة، من داخل "كركوره" في الجبال أدنى دار الريح قائلًا:

"إنه خيانة لأهالي البلاد الأسِيرة الأصليين!".

و انتقدها صانعو فخار آخرون بأنها:

"سلطة مفرغة المحتوى، فالقرارت المصيرية لا تزال بيد الجنكويز بنص الاتفاق!".

ومع ذلك بقدر ما التزم المقاتلون السابقون بالاتفاقية، بقدر ما كشفت الاتفاقية تهافتهم، إذ بدا واضحًا أن رفاق الأمس، أضحوا

يتنافسون منافسات حادّة، لا تخلو من الأبعاد الذّاتية والشخصية، بل وتعمق فيهم الإحساس القبلي الضيق، الذي وظفوه في هذا التنافس، لترجيح كفة مآل السلطة لمن!

وما هو أخطر أنهم كانوا يعانون نقصًا حادًا ومزمنًا في مهارات الإدارة، بسبب انعدام الخبرة والتجربة، وترتب على الاتفاقية حركة تبشير ديني حادة، رمى فيها حلفاء كل طرف بثقليهما.

فيمـــــا طائفة صانع الفخار الأم مشدوهة تر اقب ما يجري في ذهول تام! إلى أن انفجرت الأوضاع بإعلان الحاكم الجنكويزي العام، عزمه على تطبيق قـــو انين منســـوبة للـــدين، وهكذا لم تجد طائفة صانع الفخار الأم بدًّا عن الخروج عن صمتها! إذ بلغ الاحتقان ذروته! فـــــأوعزت لإحدى فرقها العسكرية بالتمرد، وتوحيد طو ائف صانع الفخار في طائفة واحدة، وبالفعل رفضت هذه الفرقة تنفيذ أوامر صادرة من "أسـفل النَّهر" بمغادرة موقعها في "الصعيد" والانتقال إلى السافل.

وقتلت ضباط الفرقة الذين ينتمون إلى السافل وفرّت إلى الغابات، فأرسل الجيش الجنكـــويزي قائدًا من أهل الصعيد لإقناع المتمردين بفض التمرد، لكنه انضم إليهم بل أصبح هو من يقود التمرد!

وكـــــان هذا التمرد إيذانًا بميلاد "الجيش الأهلي لتحرير البلاد الأسِـــيرة!" الذي ظل يخوض حربًا شرسة ضد الجنكـــويز، تكبد فيها الجيش الجنكويزي هزائم متوالية وخسائر فادحة.

كان واضحًا أن الأمور بدأت تخرج عن يد الجنكـــــــويز! فأصبح التذمر داخل جيشهم ومؤسساتهم حالة عامة، وتدهورت العلاقة بين الجيش والشعب الذي لم يكفَّ عن التساؤل:

"لماذا البنادق موجهة دائمًا الى صدور أبنائه في الدّاخل، ولا توجه لدحر الغُزاة؟!".

ومن جهة أخرى تتالـــت الإدانات والاتهامات المتبادلـــة، بـــين الجيش والحاكم الجنكـــــــويزي العام وطاقمه! وبات مقاتلو صانع الفخار أقرب من أي وقت مضى لتحقيق أهدافهم!

شعوب البلاد الأســـيرة التي لطالما جنحت للسلم أعيتها الوعود الكاذبة والاتفاقات الزّائفة!

"لم يعد للكلام جدوى.. لم يكن الصَّمت ممكنًا".

قال عتَّام مقاطعًا القطي:

"هؤلاء الناس أشعلوا نيران حرب بشعة، منذ قرروا انتزاع أراضـي أهالي دار الريح من مُلاكها، ومنحها لقبائل الجنكـويز المترحلة من مكان لآخر، عبر تاريخ البلاد الأسِــــــيرة، ما أدى لأعمال العنف

والعداء، وجعل دار الرِّيح ترزح تحت وطأة حكم عسكري وإجراءات استثنائية، اتسع خلالها نطاق الاعتقالات، ومورست فيها أنماط غير مسبوقة من التعذيب، والتمثيل بالجثث.

سرح القطي بذاكرته قليلًا، قبل أن يستمر في الحكي:

"كوَّن حزب الحاكم العام تحالفًا من كل قبائل الجنكـــــويز، استهل نشاطه بمهاجمة قرى دار الريح فقام بحرقها وتدميرها جميعًا، قتل آلاف المواطنين منذ بداية الهجمات، وتمت سرقة ونهب كل المواشي، معظم هذه الهجمات كانت تتم ليلًا، فعند وصولهم للقرية يبدأ الجنكويز في إشعال النيران في كل القرية.

والمواطنون الذين يهربون، تحصدهم النيران، وتتوافق الهجمات مع مواسم الحصاد، وبهذا تقوم المليشيات بتعريض الأهالي، لخطر المجاعة، وإجبارهم على هجر أرض أجدادهم.

"كانـت بعـض الطـائرات التي تقصـف الاهـالي، تنتمي للجـوار العربي، وكان يقاتل معنا جنكويز من دول عربية عديدة، يعتقدون أن هذه الحرب لنصرة عقيدتهم وعرقهم".

الحرب لم تســـــتثنِ أي جزء من جُغرافيا دار الرِّيح، كانت يومًا بعد يوم تتصاعد بصورة أسوأ من اليوم الذي سبق، وكانــــــــت المليشيات تستخدم اللاندكروزرات المحمَّلة بالمدافع، وتستخدم الخيول، وإثر كل غارة كان الأهالي الناجون يتعرضون للتشريد، فيفرون إلى دول الجوار.

وقـــد بدا واضحًا أن نظام الحاكم العام يسعى لإبادة أهالي دار الريح، لتحـــل محلهم قبائل الجنكـــويز التائهة في الصحراء الكبرى والجوار..

فبينما كان الحاكم العام يمد مليشيات الجنكـــــويز بالسلاح والمعدات والعربات، والتدريب، كان في الوقت نفسه ينزع سلاح الأهالي، الذين بالأساس يقيد قانون الطوارئ حقهم في الدفاع عن أنفسهم وحرّيتهم في الحركة، كما يعرضهم هذا القانون العرفي للاعتقالات الجماعية، والقتل خارج نطاق القضاء.

كان واضحًا أن ما يجري هو تطهير عرقي مكتمل الأركان، وهو الأمر الذي دفع طائفة صانع الفخار إلى حمل السلاح، دفاعًا عن الأهالي العزل الأبرياء، خاصةً بعد أن تم اتهامهم بجريمة لم يرتكبوها، بقتل عدد من زعماء قبائل الجنكـــــويز، الذين قتلوا في الحقيقة نتيجة صراعات داخل تحالفهم، تتعلق باقتسام ما استولوا عليه من أراضٍ.

فصرّح الحاكم العام باعتبار كل الأهالي خارجون على القانون، ما لم يسلموا أعضاء طائفة صانع الفخار إلى السلطات، التـــــي اعتبرتهم طابورًا خامسًا، مناهضين لنظام المقدّس سِرّه.

وحتى تكتمل أركان الإبادة تم إغلاق المنطقة، وحُظِرَ على أي مواطن مغادرتها، حتى لا ينجو أحد من الهجوم الكاسح، الذي تم الإعداد له من قبل الجنكويز.

فضلًا عن الأرواح التي أُزهقت، والمعاقين وذوي العاهات المستديمة من ضحايا الحرب.

خسر الأهالي مساكنهم التي أُحرقت ومواشيهم وأموالهم التي نهبت، وشهد قطاع البستنة الصغير، لكن القوى والحديث، في اقتصاد دار الـريح نكسة خطيرة؛ إذ اقتُلعت أشجار الفاكهة، وفُقدت استثمارات كبيرة من السيارات وطلمبات المياه والمحاريث والمطاحن، وما يمكن تسميته "القطاع الحديث الصغير النَّامي فـي اقتصـــاد دار الريح".

¤¤¤

سأل جادين زميله المعتقل، الذي كان يُكثر من الأسئلة:

"و أنت من وين، وما قصتك؟".

"أنا من "كتري"، كنت أُهرب الأسلحة والذّخائر من دار الرِّيح، إلى جنوب النّهر، لكن عندما اعتقلوني لم يضبطوا معي شيئًا يؤكد نشاطي.

مررت بنقطة تفتيش أمروني أن أجنب، فتشوا البوكس الذي كنت أقوده، ولم يجدوا شيئًا! كنت أعلم مسبقًا أن هناك خائنًـا وشى بي، لم يكونوا يعلمون أنني بدلت العربة، وفي اللحظة التي كانوا يفتشون عربتي، كانت العربة الأخرى قد وصلت للطائفة في الجبال أدنى دار الريح.

كانوا يدركون أن ثمّة خديعة حدثت، فهم متأكدون من مصدر معلوماتهم، لكن لم يكن بيدهم دليل فرموني هنا، هذا كل شيء!".

والتفت جادين بوجهه إلى معتقل آخر:

"وأنت، ما قصتك..".

صمت لبرهة قبل أن يقول:

"قصتي لا تختلف كثيرًا عن قصته، أُهرب السلاح إلى الثوار في الجبل صعيد دار الريح، لم يكونوا متأكدين من أمري، لم يستطيعوا إثبات شيء، فقد اعتقلوني في حملة عشوائية، طالت كل من يشتبه في انتمائهم لثوار الجبل، رأيت أبرياء، أعرف أنهم أبرياء قُتلوا أمام ناظري".

"لماذا قتلوهم؟".

"تواجدوا في الزّمان والمكان الخطأ!".

منذ أكثر من سبعة عقود بدأت الأحداث في دار الرِّيح تتداعى، فبعد أن نمى إلى علم أبناء دار الرِّيح، المبتعثين في القِبَل الأربعة، عن نية الغُزاة البيض في فصل دار الرِّيح، عن البلاد الأسِيرة، وضمها إلى مستعمرات مجاورة، لتكوين كومنولث.. أرسلوا وفدًا من أربعة من زملائهم، عُرفوا بانتمائهم المتطرِّف لطائفة صانع الفخار، لتقصي الحقائق.

ومن ثم تسارعت الأحداث التي وصلت ذُروتها، بأن قامت جماعة من طائفة صانع الفخار، بإحراق علم الغُزاة المستعمرين.. وهو ما لم يحدث في أي مستعمرة أخرى!

من جهة أخرى تسرَّبت شائعة، أن الغُـــزاة ينوون تنصيب أحد الجنكـــويز ملكًا على دار الريح، وهو أمر سيصبح تقليدًا يتبعه الحكام الجنكـــويز في المدينة الزَّاهية، إذ سيظلون في كل عهودهم، يصدرون نوابًا جنكويز إلى الصعيد ودار الرِّيح وغيرها كممثلين لهم!

الأمر الذي أثار حفيظة الحكامات والميارم، فانطلقت التعبئة العامة والحشد الشعبي.

لكن بعد عام من استبدال الغُزاة البيض بمستعمرين محليين، انقســـمت جماعة من طائفة صانع الفخار في دار الرِّيح، أطلقت على نفسها اسم لهيب صانع الفخار!

ولم تهدأ الأمور قليلًا، حتى أعلن مقاتلون متطرفون من طائفة صانع الفخار حربهم المقدّسة على الجنكـويز، وتوالت الانقسامات في طائفة صانع الفخار الأم بدار الرّيح.

وجميعها مـن حملـت السـلاح ومـن لـم تحملـه، التقت حول خيارين:

"الحرية أو الموت"..

وهي مطالب الصعيد ودار صباح وأطراف البلاد الأسِيرة نفسها، التي كانت ترفعها طائفة صانع الفخار في كل مكان!

وهكذا توالت عبر السنوات الحركات الانقسامية والاحتجاجية والانتفاضات، التي وصلت إلى مرّحلة متقدّمة، بدعمٍ من طائفة صانع الفخار في الصعيد، بثورة صانع الفخار، الذي صُلب على إحدى أشجار النِّيم في قلب المدينة الزّاهية، ليلحق بمن صُلبوا من أسلافه الميامين.

عبرت انتفاضة صانع الفخار المجيدة الأخيرة، عن تحرر طائفة صانع الفخار بدار الرِّيح أخيرًا، من الوهم وخيبة الأمل، التي أصابت الطائفة في الصعيد من قبل! بانكشاف الخديعة وسقوط أقنعة النفاق الجنكويزية!

ورغم فشل هذه الثورة إلا أنها مثلت منعطفًا حادًا، إذ شكلت الأساس الذي مهد خيار القتال في دار الرِّيح، بتحوُّل كامل لطوائف صانع الفخار في هذا الاتجاه!

هذا ما كان يجري في دار الرِّيح، فما الذي جرى في الجبال أدنى دار الرِّيح وصعيد النَّهر العكر، قال حامد القطي:

"تم التكرِّيس لحالة الطوارئ، ومُنع دخول الإغاثة وأطلق الجنكويز يدهم في دخول الأماكن العامة والخاصة، والتفتيش دون إذن أو أوامر، وتحديد إقامة وحركة المواطنين، والاستيلاء على

المتلكات الخاصة، بحجة استخدامها في ملاحقة الجُناة، من عصابات النهب المسلح.

كما تم التشهير بالمواطنين باسم الدين، في قضايا أخلاقية بزعم المحافظة، وإيقاف حركة المواطنين بالسيارات، فيما عُرف بصمت الحركة، في كل أسبوع ابتداءً من ليلة الأحد وحتى صبيحة الثلاثاء!

فتعطلت مصالح النَّاس، وكان ذلك بحجة توفير الوقود، "استعدادًا لتحمل المشاق ومحاربة الغرب الكافر"..

ثم أصبح السماح للمواطنين بالحركة في يوم الصَّمت "الإثنين" كل أسبوع عن طريق تصديق برسم مالي، كما تمت إزالة منازل بعض المواطنين، لأغراض بيع الأرض في خطط استثمارية دون سابق إنذار، وعندما أوقفت المحكمة المختصة تلك الإجراءات، لم تعترف سلطة الطوارئ بأمر المحكمة.

وتدخل الجنكـــويز في أخص خصوصيات المواطنين، إذ أخذوا يهاجمون بيوت النّاس، ويدخلون على الرجال وهم على أصلاب زوجاتهم! وكادت أن تحدث فتنة دينية! عندما لاحقـــوا هؤلاء أحد المواطنين، من أبوين مختلفي العقيدة، وحكموا عليه بالجلد لعلاقته بفتاة ليست على عقيدته، أفضت إلى الزواج.

¤¤¤

بعد أن كفُّوا عن استدعائهم للتحقيق لأكثر من أسبوعين، عادوا مرّة أخرى، يأخذون منهم في كل يوم إثنين أو ثلاثة للتحقيق، وما أن ينتهوا من التحقيق مع الجميع، حتى يعيدوا التحقيق مرَّة ثانية.

كان المعتقلون يعودون من التحقيق، في حال مزرية، من شدّة العذاب والإرهاق، وجوههم متورمة مدماة، وأسنانهم مهشمة، والحروق تكاد تحتل كل جزء من أيديهم وأجسادهم!

وجاء دورجادين.. نادوه بـــــاسمه فخرج من الزَّنز انة، بصحبة جنكـويزي أخذ يدفعه دفعًا بمقدمة سلاحه، وكان بـانتظاره أربعة من الحرس، أحدهم يرتدي اللّباس المدني المميزلعسس الجنكويز، قيدوه وعصبوا عينيه، وأخرجوه من المبنى، وألقوا به في سيارة لاند كروزر، ومشوا به مسافة قبل أن يتوقفوا، وينزلونه في بناء آخر لم يستطع التعرُّف عليه!

استقبلته صرخات الألم المريعة، التي يطلقها الخاضعون للتعذيب في هذه اللحظة! كانت صرخاتهم شديدة الألـــم، تنفذ من أذنيه إلى عظامه، فتصيبه بقشعريرة مخيفة، وتنفذ إلى روحه فتشربها، وإلى قلبه فتشرخه، وتُدخل في نفسه روعًا لا حدَّ له!

كانت صرخات المعذبين والجلادين تمتزجان، التأوهات والبكاء والشتائم المقذعة، التي تطفح بالغل والتلذذ والظفر! مشهد من الأصوات المعذَبة والمعذِبة يخترق الذَّاكرة والوجدان، فلا ينمحي أبدًا!

أدخلوه في غرفة تكاد تكون عارية، إلا من كرسي، وطاولة رُصَّت عليهـــــــا كل أدوات التعذيب، التي يمكن تخيلها! وأخذوا يركلونه ويضربونه بكابلات الكهرباء، وبعد وقت لا يدري كم دام، أدخلوه عبر باب جانبي، على محقق بادره بالأسئلة:

"قبيلتك؟".

"قبيلتي هي البلدة القديمة، البلاد الأسِـــــــــيرة.. كل البلاد الأسِيرة..".

"أتريد أن تتحاذق؟!".

قال المحقق في غضب، وهو يهـــوي علي صدغه بصفعة مدوية، العسكري الجنكــويزي هو الآخر هوى على ظهره بسلك كهربـــاء وأخذ يجلده بغلٍّ! فأخذ يصيح ويتلوّى من الألم.. قال المحقق مرّة أخرى:

"تريد أن ترتاح أم تريدنا أن نزيدك؟ اعترف وسنريحك من العذاب!".

"ليس لدي قبيلة، لا أعرف لنفسي قبيلة، هكذا وجدت نفسي".

"كما تشاء، يبدو أنك ستتعبنا معك، يجب أن تعترف، لا أحد بإمكانه أن يصمد، فاختصر على نفسك العـــــذاب وجاوب إجابات محددة.. يجب أن تعترف، لتخرج".

جذبه أحدهم ودفعه بعنف إلى غُرفة أخرى؛ كل ما استطاع تمييزه فيها ثلاثة عساكر، بدت وجوههم مألوفة! ألقوا به على الأرض، وأوثقوا رجليه بعصاً وحبل ورفعوهما، ثم أخذوا يضربونه بسلك غليظ..

تمالك نفسه قليلًا مع الضربات الأولى، لكنه فشل في الاستمرار في تحمل الألم، فأخذ يصيح من شدّة الألم..

اشتد ضرب الجلاد وامتد، فشعر برجليه تتقدان بنار تسري حرَّها وتصل إلى دماغه، الذي كان يغلِّي.. أعادوه مرَّة أخرى إلى المحقق الذي قال له:

"يبدو أنك الآن صرت أعقل وستخبرني بالحقيقة.. ستخبرنا عن قادتك في التنظيم السِّرِّي".

"لم أكذب عليك لم أذكر سوى الحقيقة، أنا مجرد موظف في معهد...".

ولم يتركه يكمل إذ هوى على صدغه بصفعة مدوية وأخذ يصرخ في وجهه كالمجنون:

"يجب أن تكفَّ عن هذه الأسطوانة المشروخة، كذّاب! من تعرف من القيادات الميدانية لحركات صانع الفخار، وكيف يتم التنسيق الميداني بينها؟ أجب".

وبصوت آلي منهك وهو يكاد يفقد الوعي أجاب:

"لا أعرف أحدًا، أنا مجرد...".

"كذَّاب! قُل: من تعرف من قيادات الحركات المسلحة وكيف يتم التنسيق بينها؟".

"لا أعرف أحدًا، صدقني لا أعرف أحدًا.. أنا مجرد باحث في التاريخ..".

"اعترف.. هل تلقيت تدريبًا عسكريًا، وكم قتلتَ منَّا، اعترف".

"أنا مدني، لم أقاتل يومًا ولم أرى القتال إلا على شاشات التلفزيون، وصفحات الكتب لا أفهم في القتال؛ ولا أؤمن به كوسيلة للتغيير، فكيف سأقتل؟!".

"اسمع يا طرطور! ستعترف وإلا فما رأيت من الفيل إلا ظلَّه! اعترف كيف يتصلون بك وتتصل بهم اعترف يا كافر".

كان جسده يشتعل من الألم، وكلماتهم تحفر في وجدانه جراحًا غائرة، لا تندمل! لم يكن لديه ما يقوله لهم! هجم عليه أحدهم، وأطفأ سيجارته على رقبته. فصاح متألمًا، وهم لا زالوا بإصرارٍ عنيد يلحون عليه بالاعتراف، في تلك اللحظات لو كان يملك شيئًا للاعتراف به لفعل، لعله يخفف من العذاب.. هذا العذاب الذي جعل الموت

قاب قوسين أو أدنى، يتراءى أمامـــــــــه.. هيمنت عليه فكرة الموت.. أخرجوه وقال أحدهم:

"ستعترف الآن وإلا قتلناك".

ووضع فوهة البندقية في جبهته وهو يفك التأمين ويقول:

"ما رأيك تعترف أم أُنهي حياتك؟".

"والله ما عندي أي شيء أعترف به، وإلا كنت اعترفت".

وأطلق النّار.. شعر جادين بالبارود يلسع وجهه، ويصــــم أذنيه.. لوهلة ظن أنه مات.. لكنه لم يمُت بعد، كان في حال من الرُّعب والهلع لا يدري أهو حيٌّ أم ميت، ثم انتبه لما حدث.. لم يطلق العسكري الجنكـــويزي النّار على رأسه، إذ حرف بندقيته في آخر أجزاء الثانية، فمرَّت الطلقة بجانب أذنيه.

في المرّة الثانية التي أخذوه فيها للتحقيق، كان المحقق هذه المرَّة أقل عنفًا.. لم يعذبونه، أخذت لهجة المحقق تلين، وجَّه له الأسئلة ذاتها التي سأله إيَّاها في المرّة السابقة، ثم قال له:

"عرفنا كل شيء بشأنك ولا داعيَ للإنكار، عرفنا قبيلتك ومسؤليك والخلايا التي تديرها، عرفنا كل شيء، الأحسن لك أن تخبرنا بالحقيقة بنفســك، قُل لنا من تعرف من القيادات وأخبرنا بما تعرف، إذا أخبرتنا وكنت ترغب بالتعاون معنا، وعد مني أن نطلق

سراحك، لا تظن أننا ضعفاء! نحن الآن باسطون سلطتنا على الأرض، والبلاد والعباد كل شيء في قبضتنا، وكل جيوب صانع الفخار والعملاء نعرفهم! وعمَّا قريب سنقضي عليهم دفعة واحدة، نحن الآن نحاصرهم، وقريبًا ستسمع أننا أخضعناهم لو كنت لا تزال حيًّا! سنعدمهم جميعًا، و أنت قبلهم! لأنك باشتراكك معهم خائن مثلهم! سنطعم جثتك الكلاب! الأفضل لك أن تتعاون معنا فنحن الأقوياء، مقابل عدم إعدامك.. حرِّيتك، وسنعطيك وضعًا مهنيًّا مميزًا، وستصبح ثريًّا جدًّا، هذه الأرض أرضنا نحن، نفعل فيها ما نشاء، وليست أرضهم، ولا يجرؤون على مجرد الحُلم بها سنهزمهم، مثل كل مرّة، فأفضل لك أن تقف في صفنا وتتعاون معنا، ماذا قلت؟".

"والله مثل ما قلت لكم في السابق أنا مجرد موظف، باحث في معهد بحثي، وإن كنتم قد عرفتم كل شيء عني، المؤكد في الأمر أنكم ستعرفون أنني بريء من هذه الاتهامات، ولا صلة لي بأي طرف في الحرب".

يبدو أنهم كانوا قد تيقنوا من صحة كلامه، و أنه لا صلة له بأحد، فلم يلحوا عليه بعد ذلك في التحقيق كثيرًا، ولعلهم لم يحضروه إلا ليعرضوا عليه التعاون معهم، ليصير جاسوسًا ضد أهله وقومه، ولمَّا لم يجدوا منه تجاوبًا أعادوه إلى المعتقل.

الاعتقال الذي طاله، كان ضمن حملة اعتقالات، بسبب التصاعد المفاجئ لوتائر الحرب في الجبال أدنى دار الرِّيح، فيما يشبه حربًا أهلية ثالثة، فما جرى ويجري هناك كان نسخة بالكربون عما

جرى ويجري في الصعيد وأعالي دار الرِّيح، فالحرب المقدَّسة للجنكويز في الجبال كما في غابات الصعيد، ليس ثمَّة فرق.. ذات القمع والوحشية!

رغبة الجنكويز في الاستيلاء على الموارد والثروات، جعلتهم يجعلون من هذه الأجزاء من البلاد الأسِيرة أرضًا محروقة!

فبعد الهدوء النسبي الذي ساد البلاد الأسِيرة، إثر البروتكول والاتفاق اللذين رعاهما الغرب، فأفضيا لفصل الصعيد عن البلاد الأسِيرة، اندلعت الحرب بين طوائف صانعي الفخار والجنكويز مجددًا، وقبل استقلال الصعيد عن البلاد الأسِيرة، أنشأت طائفة صانع الفخار الأصل، تحالفًا واسعًا مع كل طوائف صانع الفخار في البلاد الأسِيرة، وهكذا اعتبارًا من تلك اللحظة، تضرر أكثر من مليوني شخص من الأهالي، وفرَّ أكثر من مليون إلى بلدان الجوار مع اشتداد القتال!

وقُبيل انتخابات الجنكويز المخجوجة التي درجت على تنصيب خراب العامر الثاني في كل دورة انتخابية، منذ أُستبدل الغُزاة البيض بمستعمرين محليين، تصاعدت وتيرة الحرب في توقيت الاستفتاء، لمنع الأهالي من إبداء رأيهم حول الوحدة والانفصال.

لذا وقُبيل الاستفتاء بقليل، أنشأ الجنكويز طرقًا ترابية وخزانات لنقل النفط، ومن ثم بدؤوا ينشرون مسلحيهم في المنطقتين، خصوصًا صعيد النّهر العكر، حيث المنشآت العسكرية

القديمة والأخرى الجديدة، التي شرعوا في بنائهـــا، ما كشف النوايا التي يبيِّتونها.

وهكذا اندلعت حرب ضَروس، للسيطرة على المــوارد التي تذخر بها المنطقتين! تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة! فيما فر الأهالي وقتها، إلى صعيد النّهروشيك الانفصال!

حاول وسطاء من الجوار تهدئة الأوضاع، عبر سلسلة من المحادثات والمفاوضات، لكن كل الوعود التي بذلها الجنكـــــويز تم نقضها، واستمرت الحرب، فاضطر الجـــواروالعالم إلى نشر قوات حفظ سلام في المناطق الأشد توترًا! مناطق النفط والذّهب!

لكن ذلك لم يخفض درجة التوتر، بل سارت الأمور على نحوٍ أسوأ، بتكثيف الجنكويز للقصف والقتل العشوائي، وتجريد حملات وحشية لإبادة السكان الأصليين، كانت حربهم في الأطراف كما هو حال حرب أسلافهم: خالية من الشرف، ولا نهاية لها سوى تدمير كامل أجزاء البلاد الأسِيرة، وهو ما بدا يلوح في الأفق!

¤¤¤

ثمَّة أسرار، تجعل المرء أحيانًا عاجزًا عن التخلص ممن يكرههم، وفي الوقت ذاته، كلما رآهم تجددت داخله كل الأحزان المنسيَّة!

أسرار كهذه التي تكشف عنها قسمات وجهَي المريود والقطي، هذان الوجهان البائسان الباحثان عن غُفران يستعصي حتى على الأنبياء.

تلفت في الوجوه حوله وهمهم:

"ليس ثمّة أنبياء هنا!".

بقي ورفاقه في المعتقل، كالمعتاد يعانون الجوع والقذارة والقمل والنّمل والحشرات، وكان كلما تمعَّن وجوههم حوله، ينتابه شعور صادم، إذ يبدون، مختلفين عن اليوم الذي سبق، كأنهم يهرمون ويشيخون بسرعة يصعب قياسها، أو ملاحظتها!

لطالما تألم وحده، لكنه لم يشعر يومًا بالألم، على هذا النحو، الذي يشعر به الآن، في هذه اللحظة الشائخة، كوجوههم التي تكشف عن ألم ومهانة لا حد لهما!

وفيما هو غارق في هذه التأملات، قطعت الكهرباء فجأة وأظلم كل شــــيء، ثم لم تمضِ برهة حتى انتزعه انفجار مفاجئ، انخلعت له قلوب الجميع! كان السجن يتعرض إلى قصف مباشر وعنيف، بدا واضحًا انهماره، من كل الاتجاهات!

أصوات انفجارات القذائف القوية التي أصابتهم برُعب شديد، دفعت بهم للالتصاق ببعضهم، كــــــأنهم يجدون في ذلك حماية من الموت، أوالإصابة!

سأل صبية في ظل الغبار عن معلم بارز محدد، اعتاد أن يعرف موقع بيت هيلدا منه، كان يعلم أنه هنا في مكان ما، لكن الغبار يحجب عنه معالم الأحياء السكنية، التي تغطت برماد الانفجارات، فأشار أحدهم:

"من هنا..".

وقال آخر:

"لا يبعد كثيرًا، إذا سلكت هذا الطريق".

كان طريقًا ضيقًا متسخًا، محترق الأشجار، ابتسم وهو يتذكر مصريين وسط البلد عندما تسألهم عن مكان ما تقصده، ولا يعرفونه، فيقولون:

"بُصْ حضرتك، تاخد أول يمين في شمال في يمين..".

يرمون بك بحسن نية في متاهة انعطافات لا نهائية يمينًا وشمالًا، فقط لأنهم يجدون صعوبة في أن يردوا على سؤالك، بأنهم لا يعرفون المكان الذي تقصده!

رائحة النّهر التي تغزو خياشيمه الآن مشبعة بالدُّخان، تستعيد إلى ذاكرته بعض الذكريات.. أخبرته هيلدا:

"قهوة عمك عوض، مسكني خلفها بشارعين".

لطالما حدثته بحماس عن قهوة عمك عوض، التي كانت متكأً للمجروحين بـــأنصال خذلان حبيباتهم، واستراحة للمسافرين، ريثما يرتشفون الحليب المقنن باللقيمـات، أويلتهمون الباسم ثم يواصلون طريقهم، وملتقى للباحثين عن أرزاقهم في أعمال البناء، فكل مقاولي البلدة القديمة وعمال البناء، يتجمعون هنا ينتظرون أرزاقًا قد تأتي وقد لا تأتي!

قهوة عمك عوض أحد رموز البلدة القديمة منذ كانت مخزنًا للجلود المدبوغة، فحتى الآن، رغم مرور سنوات طويلـة.. منذ أصبحت قهوة، بـــإمكان خياشيمك أن تتحسس تلك الرائحة الغامضة للجلد المدبوغ بالقرض والملح الأجاج!

سألها دَهِشًا:

"هل ترتادين القهوة؟".

فضحكت:

"ليس لهذه الدرجة ولكن كل الذكور من أفراد أسرتي، كانوا يرتادونها، ولا تخلو حكاياهم اليومية عنها".

لحظتان لن تنمحيا من ذاكرته، اللحظة التي غادر فيها مسكن هيلدا بعد سهرة دافئة، فيما كان النّهار يتمطّى ليولد خلف نافذة مكتبه، لحظة داهم الجنجويد مكتبه واعتقلوه! واللحظة التي كان فيها النّهار يذوي وتتهاوى شمسه في الأفق الغربي، فيما الجنكـــــويز

يدفعونه إلى داخل الزّنزانة، فيطوي ليل البلدة، آخر النهارات المسكونة بصمت النّاس وبؤسهم الذي انفجر فجأة على هذا النحو المدمر! فتلاشي كل شيء داخل انفجارات تيار غضبتهم العارمة!

طرق على الباب بتوتر.. جاءه صوت هيلدا من الجانب الآخر:

"حاضر، حاضر لحظة".

وتقدمت خطاها في شرايينه، وقلبه ينتفض بشدّة!

بنسيلفانيا، تكساس،

فيرمونت، ميتشيغان

2016– 2021

¤¤¤

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6

1. آلام ذاكرة الطين 8

2. ود دبرك بن زرزور الدوري............... 155

3. المقدَّس سرُّه 192

4. المنشق: ريبورتاج المرايا والظلال 299

لتحميل جميع مؤلفات الكاتب أحمد ضحية اضغط هنا.

أحمد ضحية

- مواليد مدينة كوستي (السودان) 1 نوفمبر 1971.
- تخرج عن كلية الآداب والعلوم شعبة الترجمة، جامعة
أم درمان الأهلية 1998.
- صدرت له عدة روايات ودراسات نقدية في الأدب والثقافة والفكر والسياسة عن دور نشر سودانية وعربية.
- له إسهامات راتبة في السرد والنقد الأدبي في الصحافة الورقية والالكترونية السودانية.
- مقيم بالولايات المتحدة الأمريكية منذ العام 2006.

صانعُ الفخَّار

في هذه الرواية يتقاطع الفني والرمزي بالتاريخي والسياسي، حيث يستعير الروائي السوداني أحمد ضحية، مهنة صناعة الفخار كأداة لإعادة تشكيل الذاكرة والهوية والانكسارات الوطنية. تدور أحداث الرواية في فضاء كثير التحولات وكثيف الخيبات، حيث يقف "صانع الفخار" كشاهدٍ على التشققات الكبرى في الجدار الجمعي السوداني. الرؤية السردية في الرواية تنبني من مزج الواقعي بالأسطوري، والتاريخي باليومي، في بنية لغوية شعرية تُحاكي بنية الطين نفسه: ليّن في ظاهره، لكنه يكتنز صلابة بعد اكتمال حرقه. هكذا تبدو شخصيات الرواية، هشّة ومتصدعة، لكنها مشبعة برماد الأسئلة الوجودية الكبرى.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

bassmabook

00212771814934

bassmabook@gmail.com